مداخل لصياغة البديل

أحمد قطامش

مداخل
لصيـــاغة
البـديـــــل

أحمد قطامش

النقب
١٩٩٤

تصميـم الكتاب: محمـد عمـوس

الجزء الأول

****

تقديـــم

يعثر القارىء بين دفتي هذا الكتاب على طائفة أحاديث – أجل أحاديث ارتجالية – كانت أشبه بمداخلات حملت بين ثناياها جملة مواقف ورؤى تعكس اجتهادات وتفكير المناضل احمد قطامش، وقد اعتمد في تقديمها على ذاكرته ومقدرته التحليلية وحسب، بدون الاستناد لأي مرجع مكتوب، نظرا الى الظروف المحيطة فى المعتقل، وهو وان كان مسؤولا عن هذه المداخلات غير انه يمكن عذره فيما لو وجد رقما أو معطي غير دقيق أو في حالة تكرار بعض الافكار، الشيء الذي استوجبه سياق المداخلات وتحليل الافكار.

وهذه الاحاديث عرضها المناضل أبو حنين في أحد المعتقلات الصهيونية على امتداد نحو ٤٠ مداخلة او يزيد في اوآخر عام ١٩٩٣ واوائل عام ١٩٩٤، كل يوم أو يومين مداخلة تستغرق بين ساعة الى ساعتين حسبما تقتضي التسهيلات، اذ كان يضيع في الاسبوع يومين أو ثلاثة سواء لتنظيف الخيمة أو لزيارة ذوي الأسرى أو نتيجة ذهاب البعض لمحكمة الاستئناف أو بفعل ارتفاع درجة الحرارة، حيثما كان يتعذر التنام الرفاق والزملاء صباحا. ولم يكن في مكتبة الخيمة اي مؤلف أو دراسة يمكن الاستناد اليها، وحتى حينما توافرت بعض الكتب في وقت متأخر لم يكن لها اي اتصال بمواضيع المداخلات، مما حرم الرفيق من الاستناد لمراجع تغني افكاره وتضبط هذه المعلومة أو تلك.

وكان المناضل أحمد يعرض احاديثه ليقوم أحد الرفاق بتلخيص كل ما يستطيع تتبعه وبعدئذ يصار لتحرير المداخلة بالحفاظ على سياقها واسلوب عرضها، اما التعديلات التي استوجبها التحرير فكانت طفيفة وذات طابع صياغي، فبقي التحرير أمينا مع المداخلات ومنهجها.

والذين قرروا اصطفاء هذه الموضوعات هم الرفاق أنفسهم، ذلك انهم أثاروا عدة تساؤلات لمسها المناضل أحمد قطامش لدى أوساط القاعدة اليسارية في معتقلات اخرى ايضا، ويمكن القول ان الموضوعات في مجملها انما تنطوي على رؤوس اقلام وبوابات لرؤيا برنامجية، ومن المفيد ان تستحث العقول المهتمة لمناقشتها ومحاورتها، ففي سياق الحوار الجماعي تتبلور الافكار والرؤى وتتصوب.

وهذه الرؤى تحاول تجاوز الخطاب السياسي الى الخطاب الفكري، اذ بات معهودا ان الفكر، اي فكر ، هو الذي يحدد الخط السياسي للتيارات وللقوى المنظمة، بل ان الخريطة السياسية الفلسطينية هي نتاج للبنية الفكرية الفلسطينية وهذه الخريطة تواجه اليوم ضغوطا جدية قد تفضي الى اعادة صياغتها، فمرحلة جديدة تنبثق من أرحام السياسة السابقة سيكون لها بكل تأكيد اسقاطاتها على القوى باتجاهات متعددة كالدمج والانقسام والتحلل والتفزم كما ولادة الجديد، وحسبنا التذكر ان هزيمة ثورة ٣٦ قد أسفر عنها اندثار الاحزاب الفلسطينية الستة او السبعة حينئذ، وانبثاق حركات اخرى في الاربعينات، لتتحلل وتندثر من جديد مع نكبة عام ٤٨، والشيء نفسه يقال عن مذابح أيلول في الاردن عام ٧٠ حيثما كان هناك نحو ٧٢ تنظيم فلسطيني تقلصت بعدئذ الى دزينة تقريبا، فالمراحل الانعطافية تترك بصمات ثقيلة على كل شيء وبشكل أخص على الحياة السياسية.

والمناضل أحمد قطامش الذي يتصرف كمستقل تنظيميا في المعتقل كان قد نفى التهم التي وجهها له جهاز المخابرات الاسرائيلي بأنه عضو في المكتب السياسي للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ويقود أنشطتها في الوطن المحتل، مثلما نفى ايضا انه كان مطاردا لمدة ١٦ عاما ويزيد كما روجت وسائل الاعلام الاسرائيلية، وقد تعرض وعائلته للاعتقال والتحقيق القاسي، ولكنه ما فتىء يمضي فترة اعتقاله الاداري بدون ان يعبأ جهاز الامن الاسرائيلي بقرارات القضاء العسكري الاسرائيلي الذي قرر الافراج عنه مرتين، الاولى بعد اعتقاله بأربعة شهور في كانون اول عام ١٩٩٢، والثانية بعد ١٣ شهر في تشرين اول ١٩٩٣، ولكن بدون اطلاق سراحه في كلا الحالتين. وهنا تتجلى محاولاته لاعادة انتاج الفكر الثوري متحررا من الدوغماتية والنصية والفهم الايماني العاقر للنظرية الثورية، ومحاضراته وان كانت مختصرة تماشيا مع ظروفها، فهي في التحليل الاخير ليست مقالات ولا دراسات، وانما مجرد أحاديث، غير ان هياكلها العظمية تحمل الكثير من المضامين الاجتهادية، لافتين النظر الى ارتباط المحاور وتكامل حلقات كل محور بحيث تستند كل واحدة الى الاخرى وتؤدي اليها.

وبالنظر الى عدم استقراره في المعتقل والمناقلات الازعاجية التي يتعرض لها بين الوقت والاخر، بين هذا المعتقل أو ذاك، فقد اضاع ذلك وقتا كان يمكن استخدامه لانهاء التحرير بسرعة أكبر، بيد ان هذا الجانب لم يعد في ارادة المناضل، الشيء الذي نتج عنه تأخير صدور الكتاب من جهة وتوزيعه من ناحية اخرى على جزئين، كل جزء في عشرين مداخلة بل ان رصيده السياسي المثبت

في نهاية هذا الجزء قد أفقد بعض تحليلاته قيمتها التحريضية، ولا نقول العلمية، ذلك انها غدت أحداث ووقائع اليوم.

أواسط شباط
٩٤

المحـــــــــــــــور

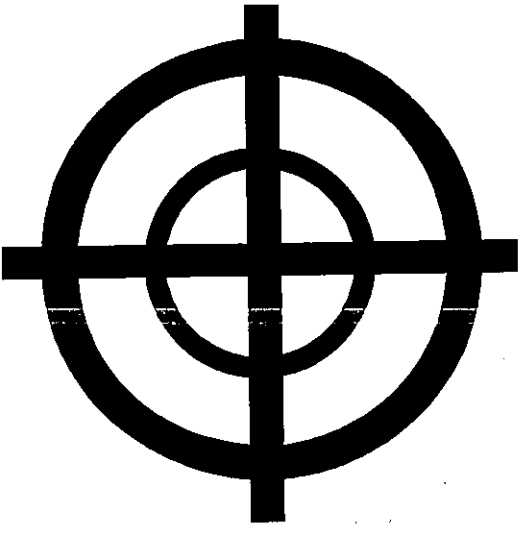

الأول

تنشئة الشخصية اليسارية الثورية

بعد الصباح:

استهل حديثي بقصة قصيرة عن ضابط سوفياتي في الحرب العالمية الثانية كان محاصرا مع عدد من جنوده في موقع ساقط استراتيجيا على تلة في شبه جزيرة... وقد انقطع هذا الموقع عن المواقع القتالية الاخرى وخطوط الامداد مقطوعة.. لان اللسان البري الذي يربط الموقع بالبر كان محتلا ومحاصرا من قبل القوات الالمانية... امكانات الضابط وجنوده وعتادهم محدودة ولا تقوى على القتال زمنا طويلا ولا أمل لهم بالنصر... فاما الاستسلام واما القتال الاستشهادي.... وبعد أيام اصبح المناخ النفسي للجنود استسلامي بدعوى ان لا أمل وان الحفاظ على الحياة يتيح فرص النضال لاحقا بعد الانفكاك من الاسر... اما ضابط الموقع فأخضع المسألة للنقاش الجماعي وعرض رأيه على النحو التالي: دعونا نخوض المعركة منطلقين من أمرين... القتال بكل الاحوال أفضل من الاستسلام من ناحية أخلاقية.. فهو محاولة ومقاومة.. وهو يعني مشاغلة جزء من جحافل الجيش النازي فلا يشترك في مهاجمة أهداف سوفياتية اخرى... وكان منطق العقيد ومؤيديه غير مالوف وصعب على الهضم ولكنه في النهاية فاز... وتعرض الموقع لهجمات متكررة غير انها أخفقت من احتلال التلة التي يتحصن فيها الموقع.. وتكبد المهاجمون خسائر متزايدة وصمد المحاصرون فترة من الوقت الامر الذي دفع القيادة العسكرية السوفياتية لاتخاذ قرار استثنائي لنجدة الموقع البطولي... وبالفعل نجح الهجوم المضاد باخلاء الجرحى والأحياء...

طبعا ليس دائما تكون النتيجة سعيدة على هذا النحو، ولكن غرضي من هذه القصة الحقيقية هو تبيان الامتحان العسير الذي يتعرض له اليسار الفلسطيني اليوم.. اما ان يتشبث ببرنامجه الوطني ومنطلقاته الديمقراطية ببسالة منقطعة النظير فينقذ النضال المعاصر ويصون حقوق شعبنا ويمهد التربة لانتصار مستقبلي بالتعاون مع كل القوى الشريفة والمخلصة للثوابت الفلسطينية مهما كان حجم التضحيات والمعانيات... واما ان تتكبد الثورة هزيمة تاريخية ويكتب لها الاخفاق...

وطبعا ان المرء فينا لا يجهل ان أكثر من ثورة قد انهزمت وكانت مجرد تمرين لثورات لاحقة نتيجة أسباب موضوعية واحيانا ذاتية... بل ويحضر في

ذاكرتي جواب الشيخ عمر المختار الذي قاد النضال الليبي مطاردا عقدين من الزمن بينما كان طاعنا في السن حينما سأله الجنرال الايطالي: "لماذا قاتلتنا وانت تعرف اننا دولة عصرية بينما انت محاصر وشعبك فقير؟ فقال له: **"يكفي اننا قاتلناكم"**.

غير ان نضال شعبنا لم يصل الى طريق مسدود وما فتئت الفرصة متاحة أمامه لمواصلة نضاله وبلوغ أهدافه... واليسار يتمثل جيدا معنى وأبعاد هزيمة الثورة المعاصرة ويعلم ان نقيض الثورة هو انتصار البرنامج المضاد ... المؤامرة السياسية والبرنامج الاستسلامي على كل الصعد الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والمعنوية... اي ان شعبنا سوف يتعرض لتطبيع كامل مع الاحتلال ويرضخ لتهويد أرضه بدون ان يقول لا... أما الغزو الثقافي الامريكي والسلعي من كل الطرز فحدث ولا حرج... وبالنسبة لسلطة الحكم الذاتي فلن تكون الا فئوية واستبدادية تعمق التبعية لاسرائيل والغرب الرأسمالي... ناهيكم عن الفساد وشراء الذمم... وهذا كله يستحق وقفة منفصلة حينما نستنبىء السياسات المتوقعة للحكم الذاتي... واليسار ليس مهمته فقط حماية القضية الوطنية وانما تكريس الديمقراطية في واقعنا كمنهج حياة سواء على صعيد سياسي او اجتماعي او.. الخ... وارساء أسس وقواعد لبرنامج تنموي وترسيخ قيم أخلاقية ثورية والتعبير عن الحداثة والتنوير والعلم المبني على التجربة والحقائق لأننا في النهاية "لا نعترف الا بالتاريخ وعلم التاريخ"... كما انشأ ماركس بعيدا عن الخرافات والمعتقدات الاسطورية... وقصارى القول فاليسار ليس مجرد برنامج سياسي بل هو برنامج شمولي يجسد القيم الكبرى "حرية .. استقلال .. عدالة .. كرامة .. تطور .. قضاء على الاستغلال .. ديمقراطية .. مساواة ...الخ". لذا حري بنا الذود عن اليسار وبرنامجه... وليس من باب الصدفة او الترف الفكري ان ننحاز للرؤيا اليسارية ونسعى الى نشرها وتعميمها.. فهي خشبة الإنقاذ والجسر المتين للمستقبل السعيد والإنساني... وخلافا لذلك يحل الهلاك السياسي والإجتماعي والأخلاقي والمعنوي... والهزيمة المعنوية كما هو معروف أشد خطورة من الهزائم الأخرى لأن المهزومين معنويا يتخلون عن الأهداف والأحلام والقيم الكبرى ويتسرب إليهم التفسخ واليأس...

والآن ماذا نعني بتنشئة الشخصية اليسارية الثورية؟؟؟

التنشئة: المقصود بها زرع ورعاية وتربية وبالتالي تنمية وصقل وتصليب.

الشخصية: المعالم والمكونات والمحتويات التي تميز انسان عن سواه... الثوري عن الرجعي على سبيل المثال في الوعي والسلوك والفعل والمقاييس والضمير الذي يفصل بين المباح والمحظور.

اليسارية: وهي الأكثر تقدمية التي تعبر عن المضي للامام.. التي تجمع الأصالة والمعاصرة ضمن تيار التطور الصاعد... وفي مرحلة الثورة البرجوازية الديمقراطية كانت الاجنحة الاكثر جذرية هي اليسار... أما وقد استنفذت الرأسمالية دورها التقدمي اجمالا وغدت الاحتكارات تستغل الشغيلة داخليا وتستعمر الشعوب خارجيا فقد غدت القوى الاجتماعية الجديدة التي تفصح عن مصالح وتطلعات المضطهدين "عمال + فلاحين + شغيلة + مرأة + شعوب" والمعبرة عن الاهداف العليا للامة هي اليسار.. وقد لخص لينين كل ذلك بعبارة واحدة حينما كتب "اننا ضد كل استغلال طبقي او اضطهاد قومي او جنسي او ديني".

الثورية: اي عدم الاكتفاء بتفسير الواقع وكشف تناقضاته ومظالمه بل السعي لتغييره تغييرا جذريا وعلى حد قول ماركس "لقد اكتفت الفلسفات السابقة بتفسير الواقع بينما المطلوب تغييره".. وعملية التغيير النوعي هذه يجسدها على أكمل وجه اليسار الثوري الذي يسعى لبناء انسان جديد ومجتمع جديد وهو يستند في نضاله لمرشد نظري ثوري جاء كتكثيف ابداعي للممارسة البشرية وكإنعكاس وهادي للممارسة ذاتها، مستقي من كلية الممارسة الانسانية من جهة ومن الواقع الخاص والظرف المميز لكل شعب ايضا.. فالرسالة الثورية لليسار تمثل ضمير هذا العصر وأهدافها تنطلق من الانسان وتنتهي بالانسان... فهو القيمة الكبرى كفرد وجماعة بتحريره من الخوف والقهر وانهاء ضياعه واغترابه واعادة الثقة اليه... فلا شيء يوجهه سوى سلطان العقل الجماعي وما ينتجه من علوم (*بما في ذلك علم النفس*) تلكم العلوم التي حققت التطور والحضارة..

ورسالة اليسار الثوري هي آلية حسم التناقضات بازالة الاستغلال وبناء العدالة الاشتراكية وازالة القهر القومي وحلول العلاقات المتكافئة بين الشعوب واجتثاث القمع وحلول الديمقراطية واطلاق الطاقات الابداعية.. باختصار:

الانتقال من تشكيلة اقتصادية اجتماعية الى تشكيلة اقتصادية اجتماعية تقوم على المساواة بين المواطنين بدون تمييز جنسي أو عرقي وتكفل حق المعتقد وحرية المواطن وحقوق الانسان وحقه فى الاختيار... ان مثل هذه الرسالة هي مبرر وجود اليسار وما تمثله من مبادىء وقيم وأهداف وهي التي تخلق التوازن الداخلي لدى اليساري وتدفعه للتفاني والتضحية في سبيل بناء جنة السماء وملكوتها على الارض.

واليسار ثائر بطبعه لا يستسلم للجلاد والظلم والتخلف ولا يصبر على القهر والاضطهاد ولا يستكين للاعتداء على كرامة الانسان وعلى حقه المقدس بالعيش في حرية وكرامة.. فالفرح يصنعه الانسان كما العبودية بالضبط ويرحب بأي اصلاحات ومكاسب صغيرة طالما لا تمس برنامجه.. فكل عطاء خير ولكنه لا يكتفي بذلك بل يرتكز عليه لاتمام رسالته التغييرية الشاملة.

ان اليساري لا يعيش بدون رسالة وأهداف فهو أبو الأهداف والرسائل ولكنها أهداف أرضية تلبي حاجة الانسان فهو لا يقبل العبودية لأي كان.. انه يسعى للكرامة والحرية وليس للاسترقاق والمذلة... أما المسألة الايمانية بالغيبيات فنعرج عليها في مكان اخر... وعليه فكل معانياته وعذاباته واستشهاداته، واعزها أخلاقي، هى كضريبة يدفعها بطيب خاطر من أجل الهدف الانساني الأسمى... فمثلا ان الاحتلال الاستيطاني العنصري الجاثم على صدر شعبنا قد أثكل امهاتنا واخواتنا وقتل مناضلينا وشرد شعبنا ونغص حياتنا وسلب أرضنا وصادر البسمة من على شفاه أطفالنا ويحاول اغتيال مستقبلنا وآمالنا... واليسار بدوره يعمل وبايمان وكد وروح وثابة لاستئصال هذا الكابوس ومستعد للتضحيات الجسام للتخلص منه بدون ان ينتظر مكافأة من أحد فهو لا يريد مكافأة سوى ان يرى شعبنا وامهاتنا وآباءنا وابناءنا وأحفادنا وجيلنا والاجيال المقبلة فجر الحرية وينال حقوقه واستقراره... *"واليساري يجد سعادته في النضال"* كما قال ماركس لانه في غمرة النضال يحصل على الاتساق بين قناعاته ودربه السائر فيه واهدافه...

واليساري الحقيقي ينتمي بعمق لمنهجه وبرنامجه ورسالته وهو دائم التجدد لا يتحجر ابدا، بما ينسجم مع تجدد الحياة وتطوراتها... وكل ما يشيخ من رؤاه يلقيه جانبا وكل ما تبرهن عليه الحياة يتمثله ويضيفه الى فكره... هذا الفكر الذي ينطوي فيما ينطوي على كل ما هو ايجابي وتقدمي في موروث البشرية النظري، فيربط ربطا جدليا بين حقائق الراهن مع جذور الماضي الأصيل وهو في التحليل الاخير ابن هذا العصر...

واليساري الحقيقي لا ينكص للوراء قط ولا يساوم على مبادئه (*فاياكم والمساومة على المبادىء، اياكم والتنازل النظري*) كما كتب ماركس رغم رياح مجافية وشدائد صعبة.. فقد يتعرض اليسار للحصار والانحسار لبعض الوقت غير ان هذا مؤقت.. واريد ان اذكركم بكلمة كتبها كيسنجر في مقالة قرأتها في السبعينات حينما كان يرأس الوفد الامريكي الذي يفاوض الفيتناميين في باريس... وحينها فرض الامريكان حصارا خانقا على ميناء "هايفونج" الفيتنامي الذي يشكل رئة تتنفس بحرية وقصفوا القرى وقواعد المقاتلين بالقنابل الفسفورية.. الخ.. ونتج عن هذه الوحشية دمار رهيب غير ان القيادة الفيتنامية اليسارية لم ترتبك ولم تحني هاماتها .. فكتب كيسنجر "*ان مشكلتنا مع الفيتناميين انهم يؤمنون بالمستقبل*"..

وهذا حال اليساري فهو لا يستسلم ولا تهتز سيقانه في الزمن الكالح بل يبقى ملتحما برأيه ريثما يتعدل ميزان القوى والتحامه هذا هو أحد عوامل تحسين ميزان القوى حتى ولو كان القابض على المبدأ كالقابض على الجمر...

ايها الاصدقاء..: ان خصائص اليسار كثيرة ولكن ما ينبغي الانتباه له ان اليسار ليس مجرد قاعدة اجتماعية منظمة بل علاوة على ذلك هو رؤيا وبرنامج شمولي... فهو لا يمثل العمال والشغيلة والمستغلين فقط وانما يمثل الثقافة الثورية ايضا.. *اي الشغيلة والفكر معا*.. واليساري اما ان يكون عاملا وشغيلا يحمل فكرا ثوريا أو مثقفا ثوريا وبرجوازيا ينسلخ عن طبقته وينتمي لمعسكر الشغيلة المضطهدين.. وكيلا ينشأ التباس فالبرجوازيون كأفراد يمكن ان يتحولوا ليساريين اذ ان في كل طبقة وفئة أوساطا ثورية، أما على المستوى الطبقي فهذا غير ممكن لأن البرجوازية هي التي تمارس الاستغلال والهيمنة السياسية والثقافية وتلد المظالم والاغتراب... الخ بما يقف على الضد من البرنامج اليساري... حتى ان الاحتلال في محصلته العامة هو مشروع رأسمالي... والمنهاج الفكري اليساري هو منهاج مادي جدلي تاريخي يحلل الواقع كما هو ويشكف تناقضاته وصيرورته وينظم حركة الجماهير للانقلاب عليه وتبديله باتجاه الحرية الجماعية والفردية.. الحرية التي تستوعب الضرورة والقوانين الموضوعية وتسخرها لخدمة الانسان.. فالحرية اليسارية علمية من جهة ومقترنة بالموقف الاخلاقي من جهة اخرى.. والرؤية اليسارية تشحن اليساري بطاقة متوقدة جامحة لا تتذبذب ولا تستكين... فيندفع بحرارة ثورية تحفزه دافعية المبدأ لاتقان عمله سواء كان طابع العمل سياسيا ام اقتصاديا ام ثقافيا ام ابداعيا... فدافعية رسالته لا تنطفىء ولا تكل أو

تمل أو كما قال الاممي الكبير فيدل كاسترو عام ١٩٨٥م في لقاء صحفي طويل " *انني ما زلت اتمتع بحماس اللحظة الاولى للثورة*" وهذا طبيعي اذ ان آلام الجماهير والفقراء تشكل مهمازا لليساري.. وفي معمعان النضال لتحرير الجماهير يجد ذاته كذات ثورية في خدمة الجماعة وفي لجة العمل الجماعي.. ينمي شخصيته وصفاته المميزة ويعبر عنها اذ ان الجماعية مبدأ أساسي لأخلاقيات اليساري وهو أبعد ما يكون عن عبارة "اللهم نفسي وعملي وعائلتي" بل انه منضبط للجماعة ونظمها ويتماثل مع قوانينها ويربط مصيره بمصيرها نقيضا للذاتية والفردية كسمات برجوازية.. وتغوص في بنيانه مقولة "الجماعة للفرد والفرد للجماعة" وفي علاقته بالجماعة سواء كانت طليعة ام جمهرة ام شعبا يكون صادقا مخلصا غيورا نزيها عفيفا يجمع بمهارة بين انتمائه الطبقي والوطني والقومي والاممي وهو في كل الاحوال انساني وديمقراطي.

والان اسمحو لي ان اجيب عن عدة اسئلة بما يساعدني على استعراض جوانب اخرى.

ما هي أهم طرائق بناء الشخصية اليسارية؟؟

أ-التوعية والتثقيف:

اذ في التحليل الاخير اما ان يحمل الانسان فكرا يساريا أو فكرا اخر، برجوازيا أو ما قبل العهد البرجوازي بصرف النظر عن التفصيلات والتقاطعات الجزئية بين مختلف النظريات والفلسفات... فان لكل فلسفة وفكر وبرنامج مزاياه الخاصة يربطها منطق داخلي متسق بهذا القدر او ذاك.. واليساري يتعبأ بفكره من خلال عملية تثقيفية متواصلة تشمل كل الميادين المعرفية، وبصراحة لم يعد كافيا فهم الابجديات واذكر فيلما شاهدته وقرأته على شكل كتاب هو "**عشرة ايام هزت العالم**" للصحفي الامريكي "جون ريد" واجه فيه الكاتب الموقف التالي "في احدى محطات القطار في موسكو عام ١٩١٧ حيث دار نقاش بين مثقف منشفي مع جندي عائد من الجبهة وهو عامل بلشفي فسأل الاول الثاني.. لماذا أنت بلشفي؟ فرد الثاني هناك طبقتان البروليتاريا والبرجوازية.. فألح الاول مرة اخرى ولكن لماذا تؤيد البلاشفة؟ ولا تؤيد المناشفة مثلا؟ فكرر الثاني الجواب هناك طبقتان البروليتاريا والبرجوازية..

بديهي ان الجواب يضمر جوهر الصراع الطبقي الذي انفجر في صورة ثورة سياسية، الا ان هذا لا يفي بمتطلبات الصراع النظري في هذا الزمان.. فالايديولوجيات الأخرى لها فلسفاتها ونظرياتها الاقتصادية وفهمها التاريخي

ومنظومتها الاخلاقية وابداعها الفني ونظامها السياسي... الخ.. وهذا حال الفكر اليساري واي فراغ في رأس اليساري انما تملأه طروحات الايديولوجيات الاخرى... ومثل هذا الفكر المتشعب يحتاجه اليساري فردا كان أو جماعة لتحليل ظواهر الحياة واستخلاص برنامجه المحلي لقيادة شعبه نحو الانتصار والمجتمع الجديد وانتماء اليساري انما لهذا البرنامج الثوري العقلاني اولا وعاشرا.

ب-التربيـة الفكريـة السلوكيـة:

ونعني المتابعة والتتبع لغرس المنهج اليساري واحكامه وقضاياه اليسارية ومفاصله البرنامجية في عقل وسلوك اليساري فردا كان او جماعة حيث تنتقل المعرفة النظرية كضابط ايقاع ومايسترو للتفكير والممارسة.. وهذا يقتضيء المتابعة الدؤوبة "*لأن المتابعة جوهر العمل الحزبي كله*" كما يقول لينين... اذ من خلال رصد آراء وتطبيقات اليساري يمكن كشف الاخطاء لتصويبها والثغرات لردمها والعيوب للتغلب عليها.. ومن خلال التربية تتحول قيمة الصدق الى ممارسة صادقة.. وقيمة الشجاعة لشجاعة ومعرفة العدو القومي لمقاومة وفائض القيمة الاستغلالي الى نضال طبقي وأهمية الموسيقى للاستماع للموسيقي وتذوقها وقراءة الادب الى صقل المشاعر والروح...الخ.

ج-الممارسة العلميـة:

ان الممارسة خير مدرسة تدريبية فهي لا تساهم في صياغة الشخصية اليسارية فقط واكسابها الخصال اللازمة بل هي مختبر لقياس صوابية الفكر فتستصوبه او تصوبه فضلا عن اغنائه والاضافة عليه... وكان كاسترو محقا حينما قال "*لقد تعلمنا الماركسية في الجبال.. في الممارسة النضالية*" فمهارات العمل والخبرة تتراكم في سياق التطبيق والانحياز يتعمد بنيران الممارسة وفي الاعمال تتجلى الشخصية اليسارية وتمتحن نفسها... واستطرادا ان الاهداف الانسانية اليسارية لا تتحقق الا بممارسة ثورية عارمة.

د- قـوة المثـال:

الامر الذي يقتضي توافر نماذج طليعية قيادية او فصيلة منظمة طليعية تحفظ المجموع وتغذيه بالطاقة وتشكل للجميع نموذج وقدوة حسنة يحتذي بها المجموع كل على طريقته... المثال قد يكون مدا ثوريا او نجاحات عالمية تنتمي

لنفس المدرسة... والمهم ان ذلك كله يجتذب الانظار ويمد الانصار بزخم وثقة للسير قدما للامام، ومن خلال قوة المثال المتقدم عادة تنهض الجموع متخلصة من تكاسلها وترتقي بمستواها صاعدة بعزم وحزم على طريقة النماذج المتقدمة.

ولكن ما أهم المخاطر التي تهدد اليساري اليوم؟؟

١- خطر الانحياز للهم الشخصي:

فاليسار مقتله هذا الميل، فهو بديل الجماعة واهدافها.. طبعا ليس هناك خلاف في ان لكل انسان اهتماماته وهمومه الشخصية كالمعلم والعائلة.. الخ.. اما كعب أخيل "العملاق الضخم الجبار الذي تكمن نقطة ضعفه في كعبه " في الاسطورة الاغريقية، فهو حسم التناقض بين الهموم العامة والهموم الخاصة لجهة الثانية.. اذ ان الأولوية للاهداف الوطنية والانسانية والطبقية وفي الدرجة الثانية تأتي بقية الاهتمامات... وقد قال عيسى بن مريم في الانجيل "*ان اتباعي هم عائلتي*" وكان انصاره يتخلون عن ثرواتهم وأملاكهم واحيانا عائلاتهم ويلحقون به... وهذا حال ثوار اليسار في لوحتهم العامة.. أما ان يكبر فيهم الهم الشخصي ويصبح هو المحرك الاساسي لسلوكهم فلا محالة سوف يغرق صاحبه فيه فيعلن الطلاق علي الهم العام ، اي يتساقط... وقد يستبقي بعض القناعات لديه غير ان هذا قليل الاهمية طالما لم يجري تأطيرها ضمن تيار الجماعة والبرنامج اليساري الوطني.

٢- خطر افتقار السلاح النقدي:

وهذا معناه تنامي السلبيات والدرنات مثلما يتفشى سوس في ساق شجرة فيطيح بها، بينما النقد هو الذي يكفل استئصال السوس وبتره.. فالتكلس والبلادة والجمود واستشراء الامراض والنواقص كلها تفضي الى الموت... ولدحر هذا الخطر يتعين النقد والتجديد ومواكبة التطورات...
والنظرية اليسارية هي النظرية النقدية الكبرى التي تنقد كل مجالات الحياة فتهدم البائد والشائخ وتبني الجديد الفتي.. بل وهي ذاتها تنقد ذاتها فتتخلص من كل الشوائب التي تعلق بها ومن كل ما تخلف وغدا غير صالح.. الامر الذي ينطبق بداهة على ممثلي النظرية وحملة لوائها ايضا.
فاليسار لا يحفظ لنفسه الاستمرارية الا اذا كان جريئا في نقد ذاته مثل جرأته في نقد المجتمع.. فكل الفلسفات وكل الحركات التي لم تتجاسر على الاعتراف بعيوبها غاصت في وحل هذه العيوب وهلكت فيها.

٣- خطر اليأس والشك:

لا نأتي بجديد حين الاشارة الى أن المرحلة القادمة قاسية وصعبة في ضوء ما عصفت بالمنظومة الاشتراكية وهيمنة الامبريالية الامريكية على الحقبة وانهيار النظام الرسمي العربي وضرب العراق والتحاق فريق فلسطيني بالقطار الامريكي – الاسرائيلي.. ولا نستهدف هنا تقديم تحليل سياسي وانما أردنا فقط التدليل على صعوبة المرحلة وحسب.. وهذا لا يخيفنا إذ عرف التاريخ لحظات إرتدادية من قبل، غير أنها كانت لحظات عارضة... ففي الثلاثينات والأربعينات صعدت النازية والفاشية واكتسحتا مناطق واسعة من اوروبا وأذاقتا البشرية الويلات غير انهما قضيتا كوصمة عار في سفر التاريخ... وهذا حال الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس "بريطانيا" التي كانت تستعمر الهند في أقصى الشرق وأمريكا في أقصى الغرب والكثير من البلدان بينهما.. ولكننا نلمس لمس اليد انها باتت كعجوز واهية... والامثلة عديدة...

المرحلة الحالية ليست أبدية... فالحياة لا تتوقف عند لحظة قط... وحتى في أوقات التراجع والهزيمة، فاليساري الحقيقي لا يصاب بالهلع ولا الاحباط، اذ عليه استقراء المعطيات واستخراج برنامج العمل والانطلاق، لا يلوي على شيء... فهو يعرف ان هناك رسالة عليه تأديتها سواء كان الزمن مجافيا او مؤاتيا... والظروف الموضوعية غالبا ما تكون مجافية كما كتب جيفارا... " *والشرف ليس برفع الرايات في الزمن السهل وانما حينما تتفاقم المصاعب*" حسبما قال كاسترو واليأس والشك لا يتسربا الا في نفوس الضعفاء وذوي الانتماء اليساري الهزيل ممن ينتصرون لليسار في زمن الانتصار ويتضعضعون هاجرين خنادقهم في زمن الامتحان.

أما اليساري المتجذر فهو ثابت على المبدأ ويعي ان سعادة البشرية وقيمتها العظمى واهدافها السامية لا تبلغ نهايتها الا عبر الطريق اليساري وفي الازمان الظلامية يزداد تحديا واصرارا... وكلنا يعلم معانيات أصحاب الرسالات الكبرى كأتباع المسيحية والاسلام في بداية عهدهما... وهذا حال القوى البرجوازية في مراحل الثورة البرجوازية... أما اليسار فهو صاحب الرسالة الثورية في هذا العصر وهو مجبر على دفع ثمنها ريثما تسود وتظفر.

والسؤال الثالث يدور عن أهم المصاعب والعقبات التي يواجهها اليسار الفلسطيني اليوم.

وهنا يمكن سوق ما يلي وكلها تتصل بالعامل الموضوعي:-

١- الاحتلال يلاحق ويقمع القوى اليسارية شأن القوى الوطنية عموما.. طبعا لا أحد يتوقع ان ينشأ اليسار داخل دفيئة تحميه شر البرد والحر بل انه في قلب التحديات يتكون ويتصلب عوده.

٢- الجغرافيا السياسية المحيطة وتحديدا المحيط العربي المحاذي لفلسطين واي تحييد لهذا النظام العربي أو ذاك انما هو تحييد مؤقت حتى انه لا يوجد اي نظام عربي أو اقليمي تحكمه سلطة يسارية.

٣- مستوى تطور المجتمع الفلسطيني الذي تقيده عموما سلاسل ما قبل الرأسمالية الشيء الذي انعكس على عدم تبلور الطبقة العاملة -- الأساس المادي الأوسع للفكر اليساري مثلما يعشش الفكر القديم في أذهان الجمهرة مما يجعلهم يواجهون صعوبة في فهم الفكر العلمي الديمقراطي اليساري ناهيكم عن انتشار القيم الاستهلاكية بما فيها الركض وراء المال والنفوذ وهذا يدفع الناس للسير باتجاه مغاير لاتجاه اليسار الذي يقيم ويوزن الانسان بناء على اخلاصه للشعب وتضحياته في سبيله وليس "اللي معه قرش يساوي قرش".

٤- الدعاية الاستعمارية والرجعية المغرضة التي لا تكف عن نشر اشاعات وأكاذيب وقحة ضد الفكر اليساري واليساريين... فهي لا تساجلهم فكرا بفكر، فتلوذ للإفتراءات التي تنطلي على الاوساط الشعبية البسيطة مثل ان اليساري يتزوج اخته أو ان اليسارية تسلم نفسها لأي كان وان اليساريين لا يحترمون عائلاتهم أو انهم ملاحدة وهذا سنتعرض له فيما بعد.

٥- تضييق الخناق المالي عليه... فلا يتلقى أية هبات أو مساعدات من أي جهة كانت بينما يتحمل أعباء كبيرة بين مقاتلين، سيما في لبنان، وشهداء وأسرى ومكاتب متفرغين.. الخ. فتجفيف الموارد المالية هو أحد أدوات محاربة اليسار الفلسطيني.

ما أهم مواقف اليسار؟؟

وبعد التنويه الى انه (أي اليسار) محدث... والمقصود يسار الثورة وعمره لا يتعدى ربع قرن الامر الذي جعل عود كادراته وقاعدته طريا بعض الشيء فاننا نلاحظ:-

أ- نزقـــــه:

فهو عجول لا يتقن فن تسوية تناقضاته الداخلية.. فما ان ينشأ خلاف جدي أو نصف جدي أو هامشي حتى يتعاظم ويقود الى تشققات وانشقاقات وغالبا ما تكون هذه الانشقاقات غير حتمية... بل تعكس مراهقة وميل برجوازي صغير متطير تلعب فيه الامزجة الشخصية دورا كبيرا.

ب- رخاوة وجزئية في الانتماء:

حيث يطغى الخطاب السياسي بينما تغيب أو تتضاءل الجوانب الاخرى، مثلما يمكن بيسر تلمس السطحية والهشاشة... فلا يرتبط اليساري بفكره وبرنامجه ارتباطا جذريا ومصيريا.. وهذا بداهة ينتج عنه فرار من خندق التضحية والاستحقاقات أو عدم قدرته على التأقلم مع نظم العمل فتنتشر ظاهرة التساقط سيما في الأوساط القاعدية.

ج- فقـره النظـري:

وهذا يتجلى في محدودية ابداعه في اعادة انتاج وعي نظري يعالج القضايا المحلية... فهو يقرأ ويقتبس وحتى يستظهر الكتابات الكلاسيكية وانتاج التجارب الاخرى وهذا لا بأس به شريطة ان لا يكون بديلا للابداع المحلي واستيعاب المنهاج الذي يسكن بين سطور الكتابات الكلاسيكية... وهنا تزداد الحاجة لشعار "فلسطنة وتعريب الماركسية-اللينينية".. وبداهة ان الفقر النظري يفضي الى الوقوع في أخطاء شتى.

د- عجز كفاحي استبان في الاعوام الاخيرة:

فهو رغم تاريخه الكفاحي المجيد كشريك رئيسي في اطلاق الثورة المعاصرة ومعاركها وحروبها على امتداد ربع قرن سواء في الطور الفدائي ومعارك الاردن ولبنان وحرب عام ١٩٨٢ والمخيمات أو في الملحمة الانتفاضية حيثما استطالت قائمة شهدائه لتبلغ الالآف ومثلهم من الجرحى وأضعافهم من الاسرى والمعتقلين... غير ان اخرين تفوقوا عليه في العامين الاخيرين واستمالوا عاطفة أعداد متزايدة من الجماهير اليهم.

وختاما أيها الاصدقاء انني لعلى ثقة بأن الخط الوطني والديمقراطي الذي يمثله أفضل تمثيل اليسار الفلسطيني هو الوحيد القادر على تقديم حلول عميقة وصائبة لمعضلات شعبنا سواء الوطنية او الطبقية أو الديموقراطية أو المرأة أو الحداثة والتنمية... الخ... واليسار اليوم يحتل نسبة لا تقل عن ٢٠٪ من الخريطة السياسية الفلسطينية بل واريد أن أزف لكم ثلاثة انباء:-

ففي الامس القريب فاز تحالف اليسار البولندي في الانتخابات البرلمانية.. وهذه الايام فاز بالمرتبة الاولى اليسار الايطالي في الانتخابات البلدية وسيطر على اهم البلديات... وقبلئذ حاز الحزب الاشتراكي اليمني على نحو ٢٢٪ من الاصوات في الانتخابات التشريعية الاولى ما بعد توحيد اليمن...

وشكرا.

انتهت المداخلة الاولى وسننتقل للمداخلة الثانية تحت عنوان "اليسار والاخلاق"

اليسـار والاخـلاق

ربمـا قـرأ بعضكـم عـن حيـاة الثـوري البولنـدي المرمـوق العـامل "دزيرجينسكي" الذي عاش متخفيا لسنوات طويلـة وتـزوج اثنـاء ذلـك بـدون "طنـة ورنـة" من رفيقته وشريكته في المطبعة السرية وأنجبت طفلتـه بينمـا كـان يمضـي فترة اعتقال صعبـة فـي سـجون القيصريـة حيـث كـان السـل والتيفوئيـد وسـواهما أمـراض ملازمـة... وهـو ذلـك الرجـل الـذي أسـس المخـابرات السـوفييتية الـ "كي.جي.بي"...، وما يهمني هنا هو الاشارة الى عبارة قالها في احدى اجتماعـات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي اثناء مجـادلات حاميـة مـع "كـامينيف وزينوفيف" عضوي المكتب السياسي اللذين كانا يمثلان عموما يمين الحزب.. قال "أنتم تعلمون في قوتي... فانني لا أضن (لا أبخل) بنفسي" وهو بالفعل كـان يعمـل ما معدله ١٨ ساعة في اليوم حتى ان غرفته في بناء الكرملين كـانت فـي معظـم الليالي تبقى مضاءة حتـى طلـوع الفجـر... وفـي احـدى الايـام سـقط فـي ردهـات الكرملين ميتا من شدة الاعياء والتعب.

وبعضكم قرأ أو سمع عـن جولـة الشـهيد عبـد القـادر الحسيني الـذي زار دمشق وسواها بغية الحصول علـى سـلاح ولمـا خذلـه العـرب عـاد الـى فلسـطين وخاض معركة القسطل واستشهد قائلا في احدى رسائله "*سيظل شعبنا يثور جيلا بعد جيل حتى تحرير فلسطين*".

ربما سمعتم عن استشهاد أبو أمل عضو اللجنة المركزية للجبهـة الشـعبية الذي قاد معركة الصمود في تل الزعتر عام ٧٦ حيثما كان كوب الماء مـن أجـل الاطفال والعائلة يعادل كوب دم أو حياة أكثر من محاصر... فقد ظل يقاوم ويشـد من معنويات المقاتلين والمحـاصرين مـن قبـل قـوات الكتـائب الفاشـية حتـى آخـر رمق..

والامثلة لا تعد ولا تحصى ويمكن للمرء ان يسرد قائمـة تبدأ هنـا وتمتـد الى الصين وتطوف الى أربع جنبات العالم... فكيف نفهم أخلاق هؤلاء الناس وما هي حوافزهم للنضال حتى النهاية والتضحية بكل شيء حتـى بعـائلاتهم وحيـاتهم. اننا كيسار نتسلح بقيم أخلاقية عظيمة... وهذا ما أود في حديثي اليوم التطرق لـه كعناوين وخطوط عامة.

قد يكون بعضكم مهيأ وينتظر مني التعرض مباشرة للاخلاقيات الجنسية ذلك ان الوعي السائد في مجتمعنا يكاد يحصر الاخلاق في الفخذين وما بينهما... وهذا بلا شك وعي مجزوء لكنني سوف أتبع سياقا آخر بدايته الاطار العام للاخلاق بمثلها الكبرى... وفي الغد أتم المداخلة...

بات بديهيا ان الفكر.. اي فكر هو انعكاس للواقع الاجتماعي.. اي المرحلة التاريخية التي تحمل الأجزاء التي لم تندثر من الماضي فضلا عن معطيات الراهن.. وهذا حال الاخلاقيات اليسارية.. فهي اخلاق مستقاة من الواقع وبداهة انها تشمل ما هو بناء في أخلاقيات الفلسفات السابقة.. فما هي اهم أركان الأخلاقيات اليسارية؟ وماذا أضافت لعلم الأخلاق؟؟

١- لقد كشفت البعد الطبقي للأخلاق.. فأظهرت ان للرأسمال أخلاقيته الجشعة والأنانية الى درجة شن حروب عدوانية في سبيل الأرباح.. وهذا أكثر ما يتجلى في الحروب الاستعمارية التي يشنها الاحتكار الرأسمالي على الشعوب كما لاحظنا في الهجوم الاطلسي على العراق والتوسع الاسرائيلي عام ٦٧ والحربين الاولى والثانية.. الخ. وفي المقابل هناك اخلاقيات العمال والفلاحين، والفقراء كما أخلاقيات الشعوب المضطهدة التي تتمرد على الاستغلال والنهب وتتسلح بروحية النضال والتضحية والتكافؤ.. الخ، وقد لخص هذه المسألة كاسترو فيما قال: "*للرأسمال اخلاقياته ونحن لنا اخلاقياتنا*" التي نتمايز فيها على سوانا... وهذا يتطابق مع قول لينين "*ان اخلاقياتنا تخضع للصراع الثوري*" اي ان العمل الثوري يتطلب الصلابة والصمود واكتساب مهارات الكفاح وعدم الاستسلام.. الخ فتغدو هذه القيم قيما أخلاقية بينما الخيانة والكذب وتفتيت الجماعة تقود الى خدمة الاعداء بدون انكار وجود اخلاقيات انسانية عامة كالقتل والاختلاس والرشاوي.. الخ تدينها البشرية جمعاء.

٢- لقد كشفت البعد التاريخي للأخلاق فلكل مرحلة أخلاقياتها.. ففي مجتمع الرق حيثما كانت طبقة الأسياد تحكم وتملك طبقة العبيد كان القانون الاخلاقي في تلك المرحلة يبيح للسيد بيع العبد او قتله.. كما امتلاك زوجته وابنه بينما كان يفرض على العبد الرضوخ لذلك وطاعة القانون الاخلاقي المرعي وتقبل الجلد والعقاب الجسدي من السيد وهذا نلاحظه في المجتمعات التي لم تتفك تحمل في أحشائها بقايا العبودية كما في موريتانيا وقبائل افريقية عديدة كما التمييز العنصري في امريكا أو سواها

كامتداد لسيادة الابيض على الاسود أو في العنصر الخلاسي الذي يعد عشرات الملايين في امريكا اللاتينية وسواها كاغتصاب البيض للسوداوات في عقود سابقة.. وفي المجتمع الرأسمالي عالي التطور كما في "اوروبا أو اليابان" اخلاقيات تختلف في الكثير من الامور عن اخلاقيات المجتمع ما قبل الرأسمالي او النامي ضعيف التطور.. فنلاحظ الديناميكية والانضباط ودقة المواعيد.. وتقدير الزمن في الاول ونقيضها من بلادة وتخثر وتسيب وقلة مبادرة في الثاني وأوضاع تستوجب مشاركة المرأة في شؤون الحياة بما ينتج عن ذلك من قيم المعاشرة الاجتماعية بين الرجل والمرأة في المجتمع العصري وقيم مناقضة في الاوضاع الاخرى المختلفة.

٣- لقد كشفت جدلية الاخلاق.. فهي ليست جامدة لا تتحرك بل دائمة الحركة والجديد فيها يضم ما في الماضي من عناصر ايجابية ويضيف عليها... وينتهي الكثير من أخلاقيات الماضي ويحل محلها الجديد.. وهكذا.. فذات يوم كانت الاخلاق تبيح قتل الاسير اما اليوم فتكفل حياته.. ومن قبل كانت تفرض الجزية على الاخرين أما اليوم فالمواطنة متواصلة.. وكان تعدد الزوجات بالعشرات وفيما بعد بالآحاد أما المجتمع المعاصر فيقوم على الزواج الاحادي كقيمة لها المستقبل.. وفي المجتمع القبلي والرقي كان القتل أو قطع اليد عقابا للسارق اما اليوم فالمحكمة تعاقبه بالسجن... وفي البداوة والى ما قبل الثورة البرجوازية، وتحديدا الصناعية، كان اللباس السائد للنساء أشبه بلباس يغطيها من الرأس الى الكعب أما بعد فقد ساد اللباس العصري.

٤- لقد كشفت الأساس المادي للأخلاق.. فهي مرتبطة بواقعها ونتاجا وانعكاسا له.. فالقيم الاشتراكية القائمة على التعاون والجماعية هي نتاج بنية اقتصادية قائمة على الملكية الجماعية... بينما قيم التملك الخاص والربح الخاص وتشغيل الاخرين والثراء على حسابهم ومن جهدهم ارتبطت بالملكية الخاصة الاستغلالية... وذلك ان هذه القيم لم تكن موجودة في الجماعات الاولى التي ما برحت في بقاياها موجودة في غينيا الجديدة والبرازيل مثلما انها غريبة عن الاشتراكية بل انها غريبة عن الحياة الفلاحية حيثما يملك الفلاح استثمارته فلا يستغله أحد ولا يستغل احدا.. وقبل ان يتعرض الوطن للغزو بالعدوان لم تنشأ القيمة الاخلاقية بالدفاع عن الوطن... وقبل ان تتشكل العلاقات الاقتصادية القائمة على

الملكية الخاصة لم تنشأ القيم الاخلاقية التي تعتبر الاعتداء على ملكية الاخرين سرقة يعاقب عليها القانون...الخ.. وقبل نشوء الحروب لم تنشأ القيم الاخلاقية الداعية للسلام.. الخ وقبل نشوء العائلة الآحادية أي رجل لإمرأة.. لم تعبأ القبيلة القديمة ان يكون للرجل أكثر من علاقة وللمرأة أكثر من علاقة بل مضى زمن كان الاخوة والاخوات يتزوجون بعضهم البعض.. وقصارى القول كلما تطور الواقع المادي للبشرية وتشعب أكثر كلما نشأت قيم أخلاقية مواكبة له ومتشعبة أكثر.. والقيم الاخلاقية اليسارية غنية ومتنوعة تبعا لغنى وتنوع الحياة وهي كلها مستمدة من الحياة ذاتها وأهم أركانها:-

اولا: حب الوطن..الوطن بكل ما يحمله من معاني وذكريات.. وحب الشعب الذي ينتمي اليه الانسان... والعمل بإخلاص وتفاني لرفعة الوطن وحرية الشعب ونهضته ودرء الاخطار عنهما ومقاومة المعتدين عليهما.. وحب الوطن والشعب يتجلى بأشكال لا تعد ولا تحصى... وما النضال الثوري الفلسطيني على امتداد عقود الا تجل لهذه العاطفة الوطنية بما صاحبها من تضحيات ومآثر ونشاطات على كل الصعد... ولولا هذا الحب لما لاحظنا شيئا من هذا القبيل.. والأمر ذاته ينطبق على الشعب الفيتنامي المثالي أو الشعوب السوفياتية أو الشعب اللبناني... والانتماء للوطن وللشعب يتعاظم في فترات الصراع مع عدو خارجي أو مع تفاقم الأزمات الداخلية حيثما تنبري طلائع الشعب للتصدي وتقديم الحلول العلمية.

ثانيا: حب العمل واتقانه .. فالحضارة بأسرها بما فيها من تطور اقتصادي وثقافي ومدني هي نتاج الارادة العقلانية للانسان، اي نتاج عمله... والاخلاص في العمل والدقة في الأداء هما قيمة أخلاقية رئيسية سواء كان هذا العمل جسدي أو ذهني... سياسي أو مدني.. الخ، فعمال يتقنون عملهم ويوظفون طاقاتهم تكون انتاجية وضعهم أكبر وأجود... وأطباء وممرضون يسهرون على صحة المواطنين يكون مشفاهم أعلى مستوى وأكثر جدوى وينقذون الكثير من الناس... واكاديمي في الجامعة متفاني في عمله يسكب عصارة علمه في عقول الطلبة والطالبات فتخرج منهم الاداري والسينمائي والمهندس المرموق.. الخ، نقابي نشيط وغيور يؤطر العمال ويقودهم في نضالهم النقابي فيحسن اجورهم ويعزز ثقتهم

بأنفسهم.. الخ والشعوب الخاملة أو الوحدات الانتاجيةالخاملة أو الفرد الخامل كل هؤلاء يعيقون التطور بما ينتج عن ذلك من مشكلات نوعية وكمية وادارية.. الخ.

ثالثا: حب الانتظام والتنظيم .. وهذه خاصية أخلاقية عظيمة الاهمية.. فهي تنقل الجماهير من العفوية والتبعثر الى النظام وتفعيل الطاقات سواء كان تنظيم نقابيا أو فنيا أو ابداعيا أو مهنيا او سياسيا... الخ بما يرتبط بالتنظيم من انضباط ودقة مواعيد وتكامل حلقات وتعاون ونظم.. الخ.. والتنظيم يضاعف قوى الناس عشرات المرات بل بدون شعب منظم في حياة مصنعية لا يمكن تصور الصناعة، وبدون شعب منظم سياسيا لا يمكن تصور ثورة... وبدون شعب منظم في جيش لا يمكن تصور امكانية الدفاع عن حياض الوطن. وبدون اطار ابداعي تتعثر مسيرة الكتاب والرسامين والسينمائيين.. الخ.. وأرقى اشكال التنظيم هو الحزب الثوري الذي يقود الجماهير في كافة المجالات... واليسار يدعو لحق التنظيم والتعددية وبالتالي تفجير طاقات الناس ولا يتردد في النضال الدؤوب لانتزاع هذا الحق.

رابعا: تنمية نزاعات التمرد والنضال والثورة على المظالم سواء كانت اضطهادا قوميا واستغلالا طبقيا أو شوفينية ذكورية ضد النساء أو قمعية سياسية للشعب أو قهرا دينيا ضد اقليات أو اي شكل قهري اخر.
والتنمية هذه تشمل الافراد والجماعات والمجتمع بأسره... فلا يرضخ الانسان ولا يستسلم للشر والاستبداد.. لهذا ليس غريبا ان يتصدر اليسار الثوري العالمي فينقذ الواقع ويسعى لاعادة بنائه بدون استغلالات وقمع.
واليسار ثورة على كل شيء ويتسلح بمنهاج ثوري ويعمل لتغيير المجتمع البشري باتجاه مجتمع انساني حقيقي يخلو من اضطهاد الانسان لأخيه الانسان.. ومن البديهي في سياق ذلك ان يزرع الثقة بالانسان وقدرته على التغيير وخلق السعادة على الارض.. كما من البديهي ان يطرد من نفسه الخوف والخنوع فلا يقيد عقله ولا إرادته الا في إطار ما ينتجه العقل الانساني من ضوابط عامة باتجاه تحريره من العبودية، اي عبودية، وتأمين الحرية والكرامة.

خامسا: تكريس الجماعية كنقيض للأنانية والذاتية فالهدف الاول مصلحة الجماعة والشعب.. والنظام الاول نظام الجماعة الذي صاغته الجماعة ذاتها.. والاهداف سواء كانت سياسية أو تنموية أو معنوية.. الخ هي التي تحوز على المرتبة الاولى وأية تناقضات تنشأ في جسم الجماعة سواء بين الجزء والكل أو بين الاقلية والاغلبية أو بين أدنى وأعلى..الخ انما يتم تسويتها على أرضية القوانين الناظمة للجماعة وجدليتها.. وبداهة ان الثورة هي ثورة جماعية والاقتصاد الاشتراكي هو اقتصاد تعاوني جماعي.. والنظام السياسي هو نظام مجالسي أو جماعي.. وفي النتيجة تنشأ قيم التعاضد والوحدة والترابط الجماعية...وشخصية الفرد تنشأ وتتطور في إطار الإنتماء لقضايا الجماعة... أما حينما تنحصر اهتمامات الفرد فقط بمصالحه وقضاياه انما ذلك يقود الى ارتكابه أفعال من شأنها ان تنتهك حقوق الاخرين... والجماعة الثورية تتيح كل الفرص لمواهب ومزايا الاشخاص مثلما تحمي حقوق الافراد وتدافع عنها.. بل ان أبرز الشخصيات السياسية والفكرية قد ولدت وتكونت في الأطر اليسارية... حتى حينما حرمت من التعليم... فالاديب المبدع *حنا مينا* لم يلتحق بالمدرسة و*ستالين* قائد الاتحاد السوفييتي طيلة ثلاثة عقود لم يتعلم سوى أربعة صفوف في المدرسة و *ديمتروف* قائد الثورة البلغارية عامل.. ومعظم الجنرالات السوفيت في الحرب الكونية الثانية من أصل عمالي وفلاحي.. وهذا حال القيادات الفينتامية الخ.. والاخلاق اليسارية تستحث المبادرة سواء كانت عملية أو نظرية... وكثير من مقترحات وآراء الافراد تحولت الى سياسات عامة.

سادسا: التجدد المستمر ومواكبة المتغيرات.. فالوقوف في المكان يعني التخلف عن مستجدات الحياة... بينما اليسار يؤكد على طليعيته فهو يقف في المقدمة ويستجيب للتطور بكافة صوره وتعاسة تامة تحل بأي اتجاه يكف عن التطور والتجدد.

سابعا: الرفاقية الحميمة.. بالمساندة المتبادلة والقتال المشترك في سبيل الاهداف المشتركة كما حرارة التواصل الانساني بين رفاق الخندق الواحد والرفاقية نحو الكادحين وأبناء الشعب.

فالرفاقية تعني التضحية والزمالة والدعم والصداقة والنفس الطويل والابتعاد عن التذبذب...الخ.. وهي رابط قوي ودرع وقاية يصون الجماعة الثورية بكل الظروف.

ثامنا: الصدق والحزم واجتناب الكذب والرياء واستغلال النفوذ كما النزاهة والشرف والشهامة والحرص على مشاعر الناس ومطالبهم ومساعدتهم بكل الامكانات.... الخ.. والروح العملية وسرعة التنفيذ والابتعاد عن التجاهل والكسل والترهل.. كما يدعو اليسار للصلابة والاستقامة والثبات على المبادىء العادلة.

تاسعا: السلام... فاليسار سلمي بطبعه يكره اللجوء للقوة والتسلط مثلما يكره الحرب غير انه مضطر بحثا عن العدالة لمواجهة عنف وقهر قوة الظلم من استعمار واستغلال رأسمالي... وحل التناقضات التناحرية وغير التناحرية بالوسائل القادرة على الحل في سبيل مجتمع انساني يعيش في أخوة حقيقية بدون أسياد ومسودين... استغلاليين ومستغلين.. مترفين وجوعى.

عاشرا: الديمقراطية... فاليسار ديمقراطي يؤمن بشعار "*دع مئة وردة تتفتح*" اي دع الناس يعبرون عن أنفسهم ففي النهاية ما ينفع الناس يمكث في الارض أما الزبد فيذهب جفاء.. وفي اطار الديمقراطية يؤمن بالمساواة وحق الاختيار والحرية سواء كانت حرية الشعب أو الرجل أو المرأة.. ويفاخر اليسار بأخلاقياته ويتمايز على سواه على هذا الصعيد.. اذ نجد الرأسمالية على إستعداد للكذب والمراوغة بهدف الربح.. بل نجدها مستعدة للقتل واشعال الحروب في سبيل ذلك .. الخ، بينما الاتجاهات البرجوازية المحافظة والافكار القديمة تضطهد حرية الانسان وعقله في محاولة لتقييده ضمن قالب معين.. بل ولا تتورع عن اللجوء للعنف الدموي ضد الرأي الاخر... والأخلاقيات الوحيدة التي تقيم المساواة بين الناس دون تمييز ديني أو جنسي أو قومي هي الاخلاقيات اليسارية.. مثلما ان الاخلاقيات اليسارية وحدها هي الرافضة للاستغلال حتى النهاية مجتثة شأفة الإستغلال من جذوره، اي الملكية الخاصة الاستغلالية لتشغيل الآخرين والاستئثار بجهدهم... والأخلاق اليسارية وحدها هي المنسجمة في منطقها الساعي لحرية الانسان

وتحريره من كل العبوديات كما تحرير عواطفه من كل المخاوف والارهاب فهي لا تقيد عقله ولا تكبت انسانيته الا ضمن القواعد التي ينتجها لخدمته... فالقيمة الاولى هي الانسان وسعادته وكل شيء يسخر له.

اليسار والعلاقات الحبية

انكم اليوم تتوقعون تتمة موضوع أمس وإلحاحية العنوان تعادل حساسيته ونحن كيسار علينا التعرض لهذا العنوان واي عنوان له قيمة معرفية أو أخلاقية... فالعلم اليوم يخوض في أخص الخصوصيات والاطفال في العالم المتطور يفهمون في الجنس أكثر مما يفهمه شبابنا..

في البداية صباح الخير... ولكي اساعدكم في هضم الفول والبصل... هذه الوجبة شبه اليومية والمطبوخة والمصنعة بطريقة بليدة والتي لا تعني سوى المزيد من الكسل الذهني، ذلك ان الدم يتركز في المعدة لكي يهضم الفول بينما يتقلص امداده للدماغ فيصاب الجهاز بالخمول..

ما علينا... فما أرويه لكم هو قصة حصلت فعلا وملخصها ان أما حاولت ان تفرح بابنها فزوجته من امرأة. وكان الابن شابا يانعا تجربته في الحياة لا تتعدى القرية والورش الاسرائيلية... وفي الليلة الاولى " ليلة الدخلة " كما نسميها وينظر لها الوعي الاجتماعي السائد نظرة بدوية صرفة اي كعملية اقتحام يثبت فيها الرجل ذكورته والانثى شرفها.. أقصد بكارتها.. حاول الشاب مع زوجته عدة محاولات غير ناجحة.. طبعا تستطيعون تصور الأسباب: خرق مخزون

عمر بعمر الحياة وافتقار لأبسط المعلومات.. وفرويد عالم النفس الشهير يعزو غالبية البرود الجنسي لدى المرأة "ليلة الدخلة" ذلك ان الرجل لا يراعي استعدادات المرأة النفسية والجسدية فيؤذيها جسديا مما ينشأ عن ذلك خوفا وكراهية للموقف وتهيبا من العلاقة الجنسية.. أما الذي يراقب القطط والكلاب يلاحظ بيسر انها تمهد للعملية الجنسية يكون للانثى فيها حق الاختيار وهي بصراحة أكثر رقيا من علاقة بعض الناس.. المهم ان أم الشاب كانت تنتظر خروج ابنها من غرفة الزوجية وقد أثبت ذكوريته وكأن هذا ضروري ان يحدث في الليلة الاولى.. ولما خرج اليها منكسا اعلامه دخلت بدورها الى هذه العروس ومزقت بكارتها بيدها فنتج عن ذلك نزيفا واستدعاء طبيب وسبع غرزات... وهذه ليست القصة الوحيدة ولا النادرة مع/ الأسف في مجتمعنا.

في احدى الروايات السوفييتية تتحدث الكاتبة عن شاب شيوعي قروي عمره ١٧ عاما أرسلته منظمة الحزب في المدينة كادرا الى قريته لتأسيس منظمة حزبية بعد انتصار ثورة اكتوبر.. وكانت للكادر رفيقة حزبية وكونها المسؤولة والأكثر ثقافة إنجذب لها الشاب من طرف واحد وصار يتردد على بيتها كسواه طلبا في جواب على سؤال أو لبحث موضوع.. وذات مرة بينما كان الطقس شتويا وثلجيا يتوجه الشاب الى بيت المسؤولة فيراها تعانق شابا اخر.. فما كان فيه الا ان قذفها بكرة ثلجية حطمت الزجاج وارتطمت في جبينها وفر محزونا كسير القلب.. وظنا منه انها خانته أو خذلته علما انها لم تلتزم نحوه بشيء ولم تبادله أية عاطفة أو نظرة خاصة.. ولكن تربيته الذكورية لم تستوعب انها تحب سواه فانتقم منها في لحظة انفعالية ولكن ليكتشف لاحقا ان الرجل الاخر هو خطيبها... وبعد عامين أنهت مهمتها في القرية وعادت للمدينة ولم يلتقيا ثانية الا في مناسبة غريبة.. ومر زمن وتزوج صاحبنا من احدى قريباته غير ان حبه الاول ظل متأججا في صدره.. وكان يقول في عقله لا بأس وانا لا أحب زوجتي وهذا لا اقصده غير انني وفي لها وأحب اطفالي... وقد خدم الثورة وشعبه وارتقى في مهامه ومع نشوب الحرب الكونية الثانية بعد عقدين تقريبا أوكلت له مهمة قوميسار "مسؤول" سياسي في خط الجبهة الخلفي حيث كان يشرف على مستشفى متنقل.. وذات يوم وصلت مخابرة تلفونية توصيه بالاهتمام بعقيد مصاب اصابة خطيرة.. وفي الليل وصل العقيد على عربة.. واذا به امرأة حامل في شهورها الأخيرة مبتورة من فخذها وعلى كتفها رتبة العقيد...وفي القطار المتنقل حادثته وحادثها وسألته عن اسمه وعنوانه.. الخ اي عرفته بدون التعريف بنفسه وكون القطار معتما خشية قصفه من الطائرات الالمانية لم يتفرس بملامحها.. وفي اليوم التالي نقلوها الى شاحنة باتجاه مشفى ثابت يلائم حالتها.. فسقطت أشعة

الشمس على وجهها فرأى الندبة على جبينها وعلى الفور تذكرها بينما كانت الشاحنة تهم بالابتعاد.

والان... ان الشخصية اليسارية.. مكوناتها وأخلاقيتها ولو حاولت تجريدها بوجه عام لقلت ان الركن الاول هو الانتماء الطبقي العمالي، بل لولا ولادة الطبقة العاملة في التاريخ لما ظهر الفكر اليساري الاشتراكي ولما ظهرت بدورها الشخصية الاخلاقية اليسارية كما نفهمها.. غير ان الفكر اليساري باخلاقياته لا ينحصر دوره في تحرير العمال بل وتحرير الشغيلة ايضا من مثقفين وموظفين كما يحرر المرأة المستلبة والشعوب المستعمرة والمتخلفة... اي ان فئات اجتماعية اخرى معنية بالفكر اليساري التحرري... اي كتلة ثرية حسب تعبير غرامشي.. وعليه يكون الركن الثاني الوعي الثوري اليساري وبدون هذا الوعي تبقى الكتلة البشرية عفوية ومبعثرة وغير موحدة خلف برنامج موحد.. وعي يساري على كل الصعد وفي كل الميادين... وما أحاديثنا شبه اليومية الا جهد بسيط في هذا السياق.. أما الركن الثالث فهو الممارسة الثورية.. فاليسارية ليست انتماء طبقي للعمال والشغيلة والمضطهدين بل هما معا ويضاف لهما ممارسة عملية لتحرير الاوائل وترجمة الثاني "*لعمال لا بناضلون في سبيل تحريرهم هم مجرد عمال في ذاتهم وليسوا عمالا لذاتهم*" حسب تعبير ماركس، ومثقفون لا ينحازون للعمال والمضطهدين ولا يتطبعون بطباعهم لا يمكن ان يكونوا يساريين وانهم من حفظة الفكر وحسب، بينما المطلوب العمل بموجبه ايضا.. اننا حينما نقول وعي لا نقصد تعبيرا فضفاضا لا معالم له بل نقصد فهما أعمق للواقع وتطبيقا خلاقا لهذا الوعي في السلوك والنظر والتطبيق بحيث يتملك الوعي الانسان اليساري ويتملك الانسان اليساري الوعي الثوري ويحتكم لأخلاقياته بالكلمة والفعل معا.. وعنواننا اليوم ليس مسألة نظرية معرفية فقط بل وتطبيقية ايضا.. مطلوب منا الارتقاء بمستواها.. فمثلما نرتقي بوعينا السياسي أو الاقتصادي علينا الارتقاء بوعينا الاخلاقي ايضا.. وعلى الرغم من أهمية الاخلاق الجنسية غير انها جزء من الاخلاق العامة وحسب.. اي علينا ان ننظر للاخلاق بشمولية وان يبقى المنظر الشمولي ماثلا في أذهاننا وعدم إختزال الأخلاق بالجانب الجنسي فقط.. فخيانة الوطن قضية أخلاقية ومدمرة، واستغلال الاخرين قضية اخلاقية بشعة.. وصحفي مأجور يروج لأضاليل يعكس موقفا اخلاقيا منحطا .. واللهم نفسي وعائلتي ووظيفتي ومنصبي مسألة اخلاقية انانية قادرة في حالة تعميمها على تفسيخ وتحطيم اي شعب... وبناء عليه لقد قلنا علاقة حبية، اي العلاقة الخاصة بين المرأة والرجل، وليس حب امي واخواتي كما قال احمد زكي في مدرسة المشاغبين.

"*الحب شعور خاص متميز يصل درجة التملك*" (كما كتب عالم النفس بلاتينيون في كتاب علم النفس المادي)، خاص بين اثنين ومتمايز عن أية مشاعر اخرى وهو في غالبه ينشأ في الاوساط الشبابية ذلك ان الانسان في فترة الكهولة "الشيخوخة" يميل للمحافظة أو يستهجن ويستعظم على نفسه الحب... علما ان الحب يتوالد في هذه الفترة ايضا وهموم الحياة تثقل على الانسان الى درجة خنق ميوله الطبيعية فيشيخ المرء قبل أوانه...، ألم يصادف احدكم امرأة في أواخر العشرينات شاب شعرها وتساقطت أسنانها وتغضن وجهها ووراءها خمسة أو ستة أطفال؟ ألم يصادف احدكم رجلا يبدو كهلا في الاربعينات بينما عمره في العشرينات وقد فقد روح المغامرة والمرح وفقد أحلام الطفولة والصبا؟

ذات مرة شاهدت فيلما امريكيا اسمه ***الأفق البعيد*** "*ذي فار هورايزن*" وبدايته عن الحرب الهندية الباكستانية ومغادرة طائرة، حمولتها مجموعة من الصحفيين والجرحى والاطفال، ساحة المعركة الى الفضاء غير ان عواصف ثلجية تربك خط السير وتسقط الطائرة في جبال ثلجية شاهقة بدون ان تنفجر وجهاز الاتصال يتعطل مع الارتطام.. وبعد يومين أو ثلاثة يشاهد الركاب في أواسط الليل حبلا طويلا من اللهب يهبط نحو الوادي مقتربا منهم فيتوجهون اليه واذا به قافلة طويلة من الرهبان البوذيين وبيد كل واحد شعلة فيقتفون أثرهم... إلى ان يصلوا لتلتين متقابلتين يربط بينهما جسر طويل من الحبال.. وبمرورهم عليه يدخلون نفقا مظلما ومنه الى حدائق وسهول مزروعة بأشجار مثمرة وجداول مائية و... كما لو كانت الجنة على الارض .. وسأروي لكم هذا الفيلم في احدى الليالي طالما اعجبكم الفيلم الفرنسي الاخير.. المهم انه بعد فترة تنشأ علاقة حبية بين صحفي شاب وموظفة المكتب غير ان أحدا الرهبان يلفت نظره بأن عمر الصبية يتعدى ٨٠ عاما وانها بمغادرة هذا المكان الى المجتمع العادي حيث يعرب قسم من الفريق عن رغبته بمغادرة المكان.. سوف تهرم بسرعة غير ان الشاب لا يصدقه.. وحالما يحين موعد الخروج وبينما تسير القافلة بين تلال ثلجية تتباطأ الصبية فينظر اليها محاولا استعجالها واذا بها عجوز تماما.. فيصاب بصدمة ويأخذ بالصراخ فتنهال كتل الثلج على القافلة.. والفيلم مشوق وينطوي على عدة أفكار أهمها مصاعب ومعانيات الانسان المعاصر التي تسبب له الهرم والامراض قبل أوانه.. "*والحب قيمة تقدمية*" كما أشار ماركس.. وكما نلمس في حياتنا اليومية فهو يجدد روح الانسان ويخلق لديه اللهفة والحوافز ويستجيب لعطشه النفسي... الخ ويحمل ثلاثة أبعاد كما يخيل الي:-

١-البعد الاجتماعي:

فهو ليس قضية شخصية فقط بل واجتماعية ايضا كما أشار لينين وكما تبرهن الحياة... فلئن انعكس الحب ايجابا على المجتمع كأن يخلق علاقة وطيدة ووفاءا متبادلا وحرصا وتعاونا وارتياحا.. الخ، فهو بلا شك عامل بناء بخلاف التهتك والاستغلال والتأزم النفسي و.. فالانسان مدني بالطبع ويعيش مع الناس وبينهم وليس كطرزان أو روبنسون كروزو في الغابة، وسلوكه ينعكس على الاخرين وسلوكهم حياله يؤثر عليه.. وكلنا يلاحظ ان العلاقات الجنسية بين الحيوانات والطيور غير منظمة .. بمعنى لا يوجد زواج آحادي بين حصان وفرس أو بين زوج حمام أو بين الاسماك.. وفيما عدا نوع من السعادين الذي يرتبط الذكر بالانثى لسنوات طويلة أو طيلة العمر.. فالزواج الآحادي لا يوجد الا لدى الانسان.. بل ان الانسان القديم لم يعرف العلاقة الثابتة حيث كانت "الهيترية" سائدة، اي ان الرجل لكل النساء والمرأة لكل الرجال، بل ومثل هذه العلاقة غير المنظمة ما برحت مستمرة لليوم لدى عدد من القبائل في استراليا والبرازيل والهند، أما بعد مضي الجماعات القديمة منذ آلاف السنين فقد حلت العلاقة المنظمة التي بلغت أرقى صورها في العلاقة الآحادية بين رجل محدد وامرأة محددة.. وما دون ذلك بات يوصف بالخيانة.. اي لقد حلت قيمة جديدة في الغيرة والخيانة سواء في نظر الافراد ذوي الصلة أو في نظر المجتمع ذاته.. وتعمق الالتزام بين المتحابين سواء عاشا في بيت واحد وترسمت علاقتهما أو قبلئذ.. وأخذ المجتمع يهتم بهذه العلاقة ويراقبها.

٢-البعد السيكولوجي النفساني..

فالرجل والمرأة ينجذب احدهما للاخر... وهما متجانسين بداهة... اي ذكر وانثى... بينما الانسان لا ينجذب هذا الانجذاب المرهف الخاص نحو الشجر والحجر.. ذلك ان الحجر والشجر لا يلبي الحاجة النفسية المحددة بين الجنسين، انما تتوالد سعادة من نوع خاص وفرح من نوع خاص واشباع شعوري من نوع خاص.. وفي حالة ابتعاد أحدهما عن الاخر ينشأ توتر من نوع خاص وحرمان من نوع خاص ولهفة وانتظار... الخ. انها حاجة نفسية معقدة غاية في الرقة والتدفق والفيضان لا تعادلها حاجة نفسية اخرى ولا تساويها مهما كانت.

٣- البعد الجسدي "الجنسي"..

وهو بعد طبيعي وضروري ينسجم مع، وينبثق من، تكوين الانسان ذاته.. ولولا هذا البعد لما تناسلت البشرية ولما تواصلت. ففي التحليل الاخير ثمة غريزتين أساسيتين في الانسان هما غريزة الدفاع عن النفس وغريزة البقاء وما دون ذلك من امومة وغضب وغذاء.. الخ هي تفرعات وتجليات لهاتين الغريزتين... فالجنس جزء صميمي وبنيوي في الانسان يتكون وينمو منذ سن الطفولة كما يشير علماء النفس وينضج في سن الشباب.. وان كان يمكن قمعه ولجمه غير انه لا يمكن الغاؤه فهو حاجة طبيعية، شأن التنفس وحاجة الجسم للطعام أو شيء قريب من ذلك.. غير ان الانسان لا يقيم علاقة خاصة مرهفة مع وجبة العشاء أو مع البنطال الذي يرتديه أو الهواء الذي يتنفسه.. بينما مع الانسان الاخر يقيم علاقة خاصة فيستطيع ان يؤذيه وان يسعده.. ان يتألم لألمه أو يفرح لفرحه، ان يسانده او ان يدمره.. الخ، بل ان اللحظة الجنسية لها اشتراطاتها الانسانية المتميزة ايضا.

هذه الابعاد الثلاثة الاجتماعية والسيكولوجية والجنسية هي أبعاد أصيلة ومحتومة... والسؤال كيف يمكن التعبير عنها.. اي كيف يمكن تنظيمها؟؟

ان اليسار يستعرض أهم النماذج التي عرفها التاريخ الانساني ويتمثل العناصر الايجابية فيها ويتقدم برؤيته الاخلاقية الجنسية الجديدة شأن رؤيته الاقتصادية ورؤيته السياسية ورؤيته الادبية.. الخ، وهي كلها مستوحاة من الحياة الواقعية وفي ذات الوقت أداة ثورة لتغيير الحياة نحو الأفضل والأكثر انسانية... ان اليسار ثوري وأخلاقياته ثورية ايضا.. وفي التاريخ القديم ما قبل نشوء الملكية الخاصة، اي في القبائل البدائية.. التي كانت تعيش حياة تعاونية، وبقاياه قائمة لهذا اليوم، كانت العلاقات الجنسية تقوم على التجاذب اللحظي فيما الاطفال يعودون لأمهم، اي ما عرف بمجتمع الامومة... وهذا نلاحظه لدى القرود والحيوانات عموما وبعدئذ جرى تحريم العلاقة بين الأجيال يليها التحريم في ذات العائلة الابوية وتواصلت النظم تبعا لتطور البشرية.. وقد كان للحضارة الفرعونية منذ ستة الآف سنة والسومرية والصينية والاغريقية، وبعدئذ اليهودية، أدوار متمايزة.. ومنذ ٢٠٠٠ سنة ويزيد استقر شكل العائلة الأحادي، امرأة لرجل واحد، فضلا عن تعدد الزوجات والتوراة تشير الى زواج داوود من مائة امرأة وابنه سليمان من ألف امرأة... وكانت المعابد في المجتمع الهندي القديم تتيح للمصلين الترفيه الجنسي بعد الانتهاء من ممارسة طقوسهم... وبعض الدراويش في مصر يمارسون شيئا مشابها لليوم كما توضح الكتابات الاجتماعية والافلام

السينمائية.. بل ومنذ عقد أو أقل تبين ان الطائفة الدينية الامريكية التي انتحرت بالاجماع في احدى الغابات الافريقية كانت تمارس نفس الطقس... وباختصار اننا نجد أحيانا شكلا قديما مستمر لهذا اليوم ويحاول اعادة انتاج نفسه ولكن هذا لا يمكن تعميمه...

وفي المجتمع الرقي عرف الاسياد الزواج الأحادي وتعدد الزوجات ولكن الأنكى من ذلك هو تملك الاسياد للجواري وحرية تصرفهم بهن... بل وتملك الاسياد للرقيق عموما... وبقايا هذا المجتمع موجودة حتى اليوم في موريتانيا وافريقيا بل والنساء يبعن هنا وهناك للأثرياء.. وفي أوساط العبيد كانت تنشأ أجمل العلاقات الحبية المنزهة عن أية اعتبارات اقتصادية وربما بعضكم شاهد فيلم "سبارتاكوس" الذي رويته لكم في قصة سابقة أو فيلم "كوخ العم توم" وكلاهما يعكس الواقع الراقي بينهم، وبين الاسياد والسيدات كانت تنشأ علاقات حبية، غير أن الرجل بشكل خاص كان لا يقيد نفسه ويتجه لنسوة اخريات وما يملك من رقيق انثوي، بدون أدنى مراعاة لرغبات الرقيق... فهو يتملك الجسد والحياة معا ويتصرف بهما متى شاء وبما في ذلك البيع والقتل... أما أية مشاعر اخرى كان يمكن ان تنشأ بين الطبقات.. اي بين عبد وابنة سيد على سبيل المثال فمآلها الانطفاء وذلك انها كانت تواجه طريقا مسدودا... وفي المجتمع الاقطاعي الذي استمر الآف السنين كما المجتمع الرقي تحركت القيم الاخلاقية الجنسية للامام... فبين الاقنان والفلاحين انتشر الحب بالنظر الى الاحتكاك بين الجنسين في الفلاحة والزراعة.. غير ان القيم البدوية السابقة كانت تقمع هذا التطور ذلك ان القيم البدوية كانت تحاول حصر المرأة في الخيمة للطبخ والتفريخ.. وانتشرت العلاقات السرية التي نلاحظ امتدادها في أريافنا وأرياف العالم النامي عموما الذي لم ينفك يعيش مرحلة ما قبل الرأسمالية مدعوما ببعض التحولات.. مثلما انتشر الحب الرومانسي، اي الحب العاطفي الصرف، سواء من طرف واحد من بعيد أو من الطرفين عبر الخلوات واللقاءات السرية ولكن بدون التعبير عن هذه العواطف جسديا أو بمستوى معين من العلاقة الجسدية.. وشاعت ايضا العلاقات الحبية بين الأمراء والاميرات وأبناء وبنات النبلاء والأشراف حيث فرص التجاذب متاحة أكثر كما الغزوات الليلية... وقد استمر الزواج المدبر البدوي في المجتمعات التي عاشت البداوة ليعم الزواج المدبر على نطاق واسع في المجتمع الزراعي والفلاحي حيث تختار العائلة لابنها الزوجة " الملائمة" بينما لا يتاح للمرأة سوى القبول بهذا العريس او ذاك.. اي ان فرص اختيارها الحر بناء على معرفة وعاطفة مسبقتين بقيت محدودة رغم انتشار الرومانسية واللقاءات السرية التي افتقدت الجرأة للمجاهرة بها... وهذا نلمسه اليوم في بلادنا والبلاد المتخلفة.. وفي

الوقت الذي أجازت اليهودية الطلاق، وهذا حال الفلسفات القديمة الاخرى في مصر والصين والهند، جاءت المسيحية، التي انتشرت على نطاق أوسع من اليهودية، لتحرم الطلاق... وبعدئذ أجاز الاسلام الطلاق في المجتمع الذي انتشر فيه.. والمسيحية حرمت تعدد الزوجات خلافا لليهودية والاسلام الذي أباح ايضا ما ملكت اليد .. ومع مرور القرون والزمن برزت اجتهادات وتفسيرات متعددة للديانات في محاولة للتماشي مع التطورات.. غير ان البشرية، وان تأثرت بالمعتقدات الدينية التي جاءت منسجمة بقدر او بآخر مع ظروفها التي ولدت فيها، فقد كان لها قوانينها الموضوعية ايضا سواء انسجمت أو تناقضت مع الديانات في المسألة الجنسية.. فالاسلام مثلا الذي جاء محرما اللقاء بين المرأة والرجل "بأنه ما اجتمع انثى وذكر الا والشيطان بينهما" لم يلتزم به الا قلة من الناس.. اذ ان العلاقات الحبية نشأت وانتشرت في المجتمع القبلي الجزيري والضريبي التجاري الفلاحي على امتداد مئات السنين... ولا يعني ان تجيز اليهودية والاسلام تعدد الزوجات وما ملكت الايمان ان يستمر ذلك للأبد.. فبتدرج يتضاءل تقبل الناس لذلك ولم تستمر هذه الظاهرة سوى في أوساط شعبية محدودة.. واللباس بقي محافظا في مختلف المجتمعات واعتبر من الاخلاق ان ترتدي المرأة لباسا طويلا تغطي فيه جسمها سواء عرفت هذه المجتمعات الديانات السماوية المتعارف عليها أو معتقدات اخرى محلية الى ان حلت الثورة الرأسمالية والصناعية في القرون الاخيرة... وحيثما انتشرت علاقاتها الاقتصادية أنتجت أخلاقياتها الجديدة التي تفرض مشاركة المرأة في الحياة الاقتصادية والثقافية وبالتالي ارتدت لباسا أكثر سهولة يسر عليها الحركة فيما اعتبر لباسا عصريا بصرف النظر عن شطط الموديلات... مثلما غدت المرأة تملك ارادتها فأصبحت تختار شريك حياتها بصورة علنية وتعددت أشكال العلاقة المبنية على الزواج الآحادي... فمن علاقات حبية عميقة، سيما في أوساط الشغيلة، الى علاقات حبية في أوساط البرجوازية وتحمل أبعادا طبقية حفاظا على الثروة والوجاهة والنفوذ الى زيادة "دور الدعارة" حيثما تبيع عدد من النساء أجسادهن بالمفرق لقاء توفير سبل العيش.. وهذه الظاهرة قديمة وكانت موجودة في المراحل السابقة غير انها في الرأسمالية أصبحت أكثر تنظيما الى درجة ترخيصها أحيانا وهذا نعثر عليه في كل المجتمعات المتناحرة طبقيا بما في ذلك مجتمعنا الفلسطيني... وأكثر ما اتاحته التحولات الرأسمالية هو الإختلاط الانساني بين الرجل والمرأة في المصنع والشركة والمزرعة والجامعة والمدرسة والنادي والنقابة والحياة السياسية... الخ، وغدا الاختلاط ظاهرة طبيعية تمليها حقائق الحياة الجديدة.. وفي الوقت الذي يكفل ذلك حقوق الانسان وحرية الاختيار للرجل والمرأة... فلا أحد ولا قيمة تضطرهما لقمع انسانيتهما أو عدم التعبير عن عواطفهما.. فقد نشأ ايضا اضافة

للعلاقات العاطفية الانسانية الواسعة والعارمة بين الرجل والمرأة بأجمل ما تكون عليه العلاقات... فقد ظهر ايضا الحب الحر، اي العلاقة الحبية اللحظية لفترات قصيرة بدون التزام ثابت أو توجه لتتويج العلاقة بالزواج الا في حالة الانسجام العالي، وأحد التجليات كانت نظرية "كأس الماء" حسب تعبير لينين اي ولادة وموت العلاقة بسرعة كتفريغ جنسي وحسب ولكن بدون قهر او اضطهاد.. ومجرد رغبة عاطفية آنية كاستلطاف او لازالة توتر.. هذه باختصار أشكال العلاقة بين الجنسين على امتداد التاريخ.. فما هو الشكل الذي يقترحه اليسار ولا سيما على الصعيد العربي حيث تعشعش فيه غالبية الاشكال التي تطرقنا لها سيما الزواج المدبر حيث يستولي الرجل على المرأة بالجملة ودفعة واحدة... وهل نحن حقا نستوعب ونتحسس معنى الزواج المدبر بالنسبة للمرأة التي تنتقل من كنف والديها الى كنف زوجها بدون مراعاة لعواطفها وإرادتها وباستسلام كامل ذلك ان لا خيار لها سوى هذا الخيار.. بل وترضخ لمشيئة زوجها في كل شيء.. ليس فقط في نظام البيت والذهاب والاياب.. الخ، بل وحتى في الفراش ايضا.. فالرجل هو سيد البيت وهو المعيل وبدوره فانه يمارس سيادته على طريقته.. وعدوا أمزجة وأهواء وترسبات وعدوا مظالم وسحق روحي للمرأة الى درجة الاعتداء الجسدي والضرب المبرح في كثير من الحالات.. والرجل، بداهة، أقل حساسية لأنه الظالم والسيد الذي يفرض ارادته وهو المستفيد من هذه الوضعية بداهة.. ***فالرجل هو البرجوازي في البيت والمرأة هي العامل*** حسب كلمات الثوري "بيبل" ***انتم كيسار لا تقبلون هذه المعادلة فأنتم ثائرون على كل الاستغلالات والاضطهادات بما في ذلك الاضطهاد الذكوري للمرأة واضطهادها جنسيا ايضا.*** فماذا يقول اليسار؟؟

ان الاخلاق الجنسية لليسار مستقاة من الواقع الانساني وتحديدا النماذج الايجابية التي عرفتها الانسانية.. ومعروف لكم ان الاختلاط حقيقة قائمة وان التجاذب والتحاب حقيقة قائمة وان الوفاء والشغف حقيقة قائمة ايضا وان العلاقة العاطفية الوطيدة والمتناسقة التي ترتقي الى مستوى الزواج حقيقة قائمة.. وعليه فاليسار يرفض الاستغلال الجنسي العبودي للمرأة مثلما يرفض الفلتان الجنسي و"الهيترية" الحيوانية ويرفض ايضا الحب الحر ونظرية كأس الماء.. وكذلك يرفض الزواج المدبر والزواج غير القائم على الاختيار المتبادل والعاطفة الحارة ويحارب بداهة الدعارة وتحقير المرأة بدفعها لهذه المهنة المدمرة لانسانيتها... بل وفي الاشتراكية تندثر هذه الظاهرة إذ تندثر الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي انتجتها كما كتب انجلس في *أصل العائلة* وكما ثبت في التجارب الاشتراكية الحية.. مثلما يرفض اليسار تعدد الزوجات أو تعدد الازواج ويدعو لزواج آحادي

بصرف النظر عن الاستثناء والذي لا يشكل ظاهرة وباتفاق الطرفين ويدين العلاقات الجنسية المثلية بين الجنس الواحد رجالا أو نساء كشذوذ منافي للتكوين الانساني. بل وتزول ظاهرة الدعارة والشذوذ تماما في المجتمعات الاشتراكية كما هو في المجتمع الكوني رغم ان الاشتراكية لم تنفك في المراحل الاولى.. والموقف اليساري الجنسي يؤمن حقا بالمساواة بين الرجل والمرأة ويؤمن حقا بالإحتياجات والأبعاد الاجتماعية والنفسية والجسدية للعلاقات الحبية... ويؤمن حقا بمشروعية وضرورية العلاقة الحبية بين الجنسين.. *فالحب قيمة تقدمية* كما نوه ماركس وأثبتت الحياة معا.. ويؤمن بأن الحب يقوم على علاقة عاطفية ودية متبادلة بين الشريكين.. اي ليس حبا من طرف واحد، ويؤمن بأن الحب الحقيقي لا يكون متبادلا فقط بل متجذرا وعميقا الى درجة ان الإنفصال يعني بلية.. مصيبة كبرى كما كتب انجلز.. ويؤمن بتحرر الحب من أية مطامع وأهداف اقتصادية أو نفوذية.. فوازعه هو العلاقة العاطفية المحضة حسبما أشار انجلز ايضا.. ويؤمن بأن الحب يجمعه أهدافا ثورية مشتركة واهتمامات مشتركة كما كتب فوتشيك الذي أعدمته النازية وأعدمت زوجته .. ويؤمن بأن مآل هذا الحب هو بيت الزوجية كما أشار لينين.. الزوجية المبنية على الحب والاختيار المتبادل، وهذا الحب لا يمكن ان يتكون الا في رحم الاحتكاك والاختلاط والمعاشرة الاجتماعية بدون مخاوف وممنوعات... بل ان المخاوف والممنوعات ينشأ عنها الحرمانات والعلاقات السرية التي لا يمكن منعها طالما ان العلنية ممنوعة وان التربية السليمة في البيت والمدرسة و.. الخ هي التي تزود الفتاة أو الشاب بالمناعة الاخلاقية.. أما الجهل والتحريمات فلا ينتج عنهما الا جهل وشطحات وأمراض نفسية شتى.. وعليه فاليسار يقدم نموذجه ليس النظري على الورق بل والعملي الذي يتكرر ملايين المرات يوميا في أرجاء العالم سواء الناس كانوا ينحازون للفكر اليساري أم يقتفون اثر موقف اليسار بدون علم منهم.. ويخطىء تماما من يختلق تحفظات أو محظورات من الاختلاط والحب المتبادل ذلك ان لا احد على الارض أكثر حرصا على الرجل المحبوب من المرأة التي تحبه..

فالحب شعور حساس ومرهف وخاص جدا وترتبط به ذكريات وسعادة واشتياق وحاجات متبادلة وفرح مشترك.. وهذا كله ينتج الحرص المتبادل والحماية المتبادلة والرغبة الجامحة باستمرار.

وختاما ان النموذج اليساري ليس نموذجا خياليا بل انه يعيش بيننا وهو موجود سواء تسامحت التقاليد معه أو كبتته ولاحقته.. فلا توجد قوة بوسعها الغاء حركة التاريخ والمكونات الأصيلة للانسان.

الى هنا انتهت المداخلة وننتقل الى المداخلة التالية تحت عنوان "نقاط وعنـاوين تربوية"

نقاط وعناوين تربوية

أذكر انني قرأت في احد كتب علم النفس حادثة حقيقية عن جرف موج لقارب صيد كان يقل ثلاثة اشخاص الى عرض البحر.. وعلى امتداد ثلاثة اسابيع والاصدقاء الثلاثة يصارعون قساوة الطبيعة بدون مياه صالحة للشرب أو طعام.. اذ ان غذاءهم قد استنفذ ونادرا ما حالفهم الحظ في اصطياد سمكة الى درجة انهم التهموا جلود الاحذية والادوات الموسيقية.. وكان غريبا أن تنقلهم الامواج من شمال الإتحاد السوفييتي الى شواطىء أمريكا وهم أحياء... وفي لقاء صحفي كان أكثر ما لفت نظر الصحفيين ان الاصدقاء الثلاثة حافظوا على رباطة جأشهم وتعاونهم.. أليس هذا ملفت للنظر في مثل هذه التجربة الصعبة، التي تفقد الانسان صوابه وتوازنه؟؟

وفي رواية "اللاز" *للطاهر وطار* التي قرأتها منذ عقدين تقريبا يتطرق الكاتب لمشهد مأساوي ولكن بطولي ايضا حينما تقرر عناصر يمينية متزمتة في جبهة التحرير إعدام عناصر يسارية مناضلة بدوافع دينية.. وحين تبين ان الإعدام هو مصير العناصر اليسارية، لم يجد هؤلاء أمامهم سوى الإجتماع ومناقشة الموضوع بهدوء ورفاقية.. فكيف حافظوا على الهدوء والرفاقية في اشد اللحظات توترا؟؟

أيها الرفاق؛ صباح الخير..

لقد تعمدت استحضار هذين المثلين من الذاكرة.. واليوم أراني ميالا لتناول، أو بصورة أدق، استعراض طائفة عناوين تربوية صغيرة ولكن مترابطة.. ذلك اننا كيسار نبذل جهدا كبيرا في التثقيف الفكري والسياسي والتنظيمي.. أما في المسألة التربوية فجهودنا أقل وهذا عادة ندفع ثمنه.. وما استحثني أكثر هو تصرف هذا الرفيق أو ذاك على نحو منفر كالألفاظ الخشنة في المزاح.. والجدل الحاد اثناء مبارياتنا الرياضية.. طبعا انكم تلمسون ان خيمتنا هي الأكثر حيوية ومرح.. اذ علينا فعلا ان نفكفك التعقيدات المتراكمة في النفس بحيث يتصرف كل واحد على سجيته بدون قمع.. فهنا لا يوجد مدرس يحمل عصا ولا أب يفرض أنظمة غالبا ما تربك عفوية الأبناء ولا حكومة تقهر وترعب الشعب ولا آله يقرر ويحرم ويعاقب حين يختار العقل الانساني شيئا مخالفا لما هو مرسوم.. فكل شيء يناقش جماعة ويقرر بالأغلبية أو بالإجماع بدون إفراط في النظم..

مثلما انكم تلحظون ان مناخاتنا تشجع على الرياضة التي تكسر الرتابة وتخلق أجواء محفزة مفيدة للجسم والارادة ولكن على الواحد فينا ان يكون رفيقا لرفيقه يحب له الخير فعلا ويفرح حتما حين يتغلب عليه أو يلعب أفضل منه... فالواحد فينا يعمل جهد استطاعته ويتبارى مع رفاقه ولكن حينما يتقدمون عليه يسعد لهم.. أو ان يكون رفاقه أفضل منه وأوعى منه وأصلب منه وأنشط منه وأذكى منه... فهذه قوة للجماعة وقوة له.. ويبعث على التضامن ان يستند الواحد فينا الى شركاء نضال أقوى منه وأفضل.. ويكون المرء في الطريق القويم حينما يطور نفسه أكثر وعلى كل الصعد.. وليس حينما يتفوق على سواه، المهم ان يسير للأمام لا ان يغلب.

وانتم تذكرون حينما "تبصطر" جيراننا وحملوا ألواح الخشب وشحنهم أميرهم باتجاه هجومي.. وكان من السهل علينا الرد عليهم بنفس اللغة ولكننا اخترنا جوابا أخر يعيد تربيتهم بحيث يفهموا ان التناقضات الصغيرة لها طرائق اخرى للحل لا يدخل في عدادها العنف والجنازير... اذ ان واجبنا الوطني يقتضي منا مساعدتهم للسير للأمام وليس كسر عظامهم أو اهانتهم.. وبالطبع اننا لا نقبل من أحد كسر عظامنا أو إهاننتنا.

وباختصار ثمة مبدأ اخلاقي يحكمنا في علاقتنا مع بعضنا البعض كما في علاقتنا مع جيراننا سواء كانت لهم لحى أو كانوا حليقي اللحى.. وهذا المبدأ يقوم على الفرح لفرح الاخرين ومساعدة الاخرين... وفي سياق ذلك نجد الفرحة لأنفسنا كذات فردية وذات جماعية.

قد يقول قائل هذه أخلاقيات مسيحية لا مكان لها في مجتمعنا المتخلف والبدوي.. والرد يكون لأننا كذلك بالضبط ثمة حاجة ماسة لهذه الأخلاقيات... والمهارة والأصالة ان لا نسمح للظروف وأخطاء الآخرين بنزعنا من أنفسنا وتلويث طباعنا.. اذ ما فائدة ان يربح المرء العالم ويخسر نفسه كما قال عيسى بن مريم.

وحديث اليوم هو تتمة لمداخلة الأمس وأول أمس "اليسار والاخلاق" وكالعادة لا يوجد من جانبي تحضيرا وانما سأترك لتداعيات الراهن ان تنساب، علما انه ماثل في ذهني رؤوس أقلام أكثر الحاحية.

التربية في جوهرها كما اعتقد ان تتحول المعرفة الى موجه للفكر والسلوك.. اي اننا حينما نتعلم مبدأ النقد نمارسه على الذات والغير.. وحينما نعي المبدأ الديمقراطي نمارسه في البيت والحياة وننحاز له... وحينما نعي الفارق بين الجبن والشجاعة نصبح شجعانا في الفكر والسلوك... وهكذا دواليك..

والمربي تتوافر فيه اشتراطات عديدة.. وحسن التربية لديه يتكون في غمرة التجربة الطويلة والمتشعبة التي يعيشها... وكلنا يذكر المربي *مكارنكو* الذي خلق من اصلاحيات المشردين وقطاع الطرق.. من الأحداث قادة ثوريين في روسيا السوفييتية ما بعد انتصار الثورة الاشتراكية، وهذا المربي الكبير استفاد من تجربة عمال كومونة باريس سنة ١٨٧٠ حيثما كان الاجتماع العام أعلى سلطة ينتخب الحكومة الثورية والقاضي والمدير وهو الذي يحدد الرواتب ويحاسب هؤلاء ويملك صلاحية عزلهم وانتخاب سواهم.. انها ديمقراطية مباشرة.. و"مكارنكو" أمسك بهذه القاعدة لما للرأي العام من قدرة تربوية لجميع المشاركين في النشاط المحدد .. ومارسها فعليا وخرج بنظرياته التربوية المستوحاة من تجربته الحية.

ومن جانبي انني اميل لهذا الشكل.. اي ان يكون اجتماع الخيمة هو أعلى سلطة لترتيب شؤوننا.. اما الجهة الادارية فتنتخب وتحاسب في هذا الاجتماع.. وما امكن يحاسب الاجتماع الجميع بناء على نقاش حي وتبادل اراء وتصويت.. الخ..

اننا ننطلق من مصلحة الجماعة وقيم الجماعة وهذا ينبغي تكريسه في كل شيء بالحفاظ بداهة على دور ومسؤوليات ومزايا ومبادرات الافراد..ونحن حينما نميل لهذه الفكرة او تلك انما نقيم حساباتنا على أساس المعيار الإخلاقي العملي.. اي نتائج هذه الفكرة على الانسان فردا وجماعة.. فان كانت ايجابية زكيناها وان كانت مؤذية تفاديناها.. اما إن برز تناقض بين مصلحة الجماعة ومصلحة الفرد فاننا ننحاز لمصلحة الجماعة وما امكن من حفظ لمصالح الافراد.. والنقاط الأكثر الحاحية من الطبيعي ان تعنينا كلنا بدرجة او بأخرى... اذ ما فائدة استعراض نقطة تخص فردا واحدا فقط؟؟

أولا: **الثقافة** وأهميتها في غنى عن الشرح.. ففي نهاية المطاف ان الذي يميز الانسان عن الحيوان هو قدرة الاول على التجريد... اي القدرة على التفكير وامتلاك صورة الشيء وصفاته بدون تواجده المباشر.. ولينين

ينصح الشباب: *تعلموا، تعلموا، تعلموا*... فالثقافة ميكانيك رئيسي لتطوير الفرد والجماعة.. وثقافة غالبيتنا أو كلنا ثقافة محدودة وتكاد تنحصر في أبجديات سياسية وايديولوجية.. بينما المطلوب تعميق المامنا بفكرنا اليساري كما الإحاطة بالافكار والايديولوجيات الاخرى والاطلاع على أية معارف نظرية متوافرة في شتى الميادين... وبدون فهم فكر الغير لا يمكن معالجته، مثلما لا يمكن معرفة نقاط ضعف فكرنا وبالتالي التغلب عليها... لاحظوا ان عدونا القومي مثقف بل ويخصص أجهزة كفؤة لدراسة مجتمعنا ويرسم سياساته حيالنا على أساس هذه الدراسات... ومن ناحيتنا على كل واحد فينا ان يكرس الساعات الطوال يوميا... أو على الاقل ساعتين أو ثلاثة للمطالعة الفردية ولتعميق الوعي وتوسيع المدارك الثقافية... اذ من غير المعقول ان يكون الواحد منا يساريا بدون احاطة بالفكر الرأسمالي ومنجزاته أو دراية بالافكار والفلسفات القديمة بما في ذلك الأديان وظروف نشأتها.. او بدون اطلاع على مسائل معاصرة كثيرة في عالم العلم والفن و.. اننا أبناء أوآخر القرن العشرين وعلينا ادراك ما يحيط بنا.. فالجهل سلاح فتاك يستخدم لذبحنا... وأمر مؤسف حقا ان يضيع وقت غالبيتنا في المقاهي وسهرات السمر والتزاور بينما يمكن الافادة من الوقت بطرائق أفضل... وكل ما اقترحه هو تخصيص عدة ساعات يوميا للتعلم الذاتي بدون اغلاق الباب على أحد أو مصادرة اهتمامات وتسليات أحد. "فيساري" يعني عصري.. وعصري أن نفهم العصر.. أما ان يحصر المرء نفسه في قرية أو مخيم أو مدينة (هي مجرد حارة صغيرة بمقاييس العصر) وحزمة مؤلفات.. فهذا لا يعدو كونه انغلاقا لا ينتج عنه الا ضيق افق على كل المستويات.. والثورة هي فكر وفعل معا في علاقة جدلية مستمرة.. اي دعونا نتحرر من بعض التخلف الذي أورثنا اياه تخلف مجتمعنا.. وعلى الأقل على صعيد ثقافي.

ثانيا: **تعميق يساريتنا وفهم أعمق لفكرنا اليساري**.. اي تملك أكبر للمنهاج العلمي المادي الجدلي وانتاجاته وقراءاته لواقعنا الخاص، سيما الوثائق التي يصوغها العقل اليساري ونقدها وتصويبها واغنائها باستمرار.. فثمة قضايا فكرية ينبغي استيعابها وثمة قضايا سياسية وقضايا أخلاقية وقضايا اقتصادية وادبية وجمالية وفنية.. الخ.. كل هذا يتوجب تشربه بحيث يغوص عميقا ويشرش في العقل والنفس.

واليسار رؤيا أولا أو/و رسالة تاريخية والانحياز يكون لها أولا والعمل يكون لتحقيقها أولا.. ولكيما نكون يساريين علينا هضم وتمثل هذه الرسالة والعمل بمقتضاها.. وكما قال لينين منذ زمن " *لكي تؤمن يجب ان تفهم*"... ونحن علينا ان نفهم، ان نطالع، ان نلم ونحيط وبعدئذ ان يوجه منظورنا الفكري سلوكنا العملي السياسي والتنظيمي واليومي..

ومن قبل حددنا أهمية النظرية الثورية وطريقة فهمنا لها.. ركزنا على شعار "**اعادة انتاج الوعي النظري**".. وفي الحقيقة ان هذا التعبير *لغرامشي*، أجل اعادة انتاج وعي نظري يستقرىء ويحلل خصوصيتنا الفلسطينية والعربية وهويتنا المحلية وتراثنا وتاريخنا.. وحينها يغدو اليساري يساريا حقيقيا... وعلى الاقل على صعيد الفكر النظري... وهذا بدوره ينعكس بتأثيرات ثقيلة وحاسمة على شخصيته ونمط تفكيره وتصرفاته وعلاقاته... وبالملخص يتحول لانسان جديد.

ثالثا: **العادات الاجتماعية والطقوس.. كيف نتعامل معها؟** معلوم لديكم ان الدين هو العنصر المركزي في تراثنا الفكري بما ينتج عنه من قيم ونظرات وعادات..الخ فضلا عما راكمته الحياة والذاكرة الشعبية من مفاهيم وتقاليد وفلكلور...، فهل نصطدم بكل ذلك... أم ننتقد كل المواريث فنأخذ ما يصلح للعصر ونقفز عن ما عداه؟ طبعا ان الصدام الجبهي الكلي اي رفض كل شيء لا ينتج عنه عزلة عن الجماهير فقط بل ويعكس ايضا موقفا عدميا يتنكر للايجاب في الماضي والتاريخ.. أما الصحيح فهو تشريح ونقد الموروث باتجاه فرز الحنطة عن القش بالاستناد الى الهوية الفكرية الثورية... طبعا لا يسمح للموروث ومزاج الناس أيا كان باحتواء القوة الثورية... ذلك ان القوة الثورية الطليعية هي ثورة على الواقع الذي هو امتداد ديالكتيكي للماضي وتسعى لتفنيده جذريا.. وبالتالي ان أية مراعاة للمزاج الشعبي وطقوسه وعاداته لا تعني المسايرة والرضوخ بل تحسس واهتمام لتغيير كل ما ينبغي تغييره وتكريس كل ما ينبغي تكريسه.. ونحن أيضا ننتمي لكل ما هو ثوري وعظيم في تاريخ وبطولات وانجازات امتنا.. غير اننا لا نكتفي بذلك والا تحولنا لماضويين ولا نسعى لبعثه ثانية ليس لان ذلك غير واقعي فحسب بل لأننا لسنا سلفيين ايضا.. اننا أبناء هذا العصر الذي تمتد جذورة في التاريخ بما يشمله العصر من جديد وما شمله التاريخ من ايجاب وعناصر تقدمية.

علينا اتباع التدرج في شرح برنامجنا وزرعه في عقول وقلوب الناس.. أما الصدمات الكهربائية والقهر أو الاستخفاف بتأثيرات الماضي على الناس فهي تعود بالضرر وحسب.. أي مطلوب منا الابداع في اعادة صياغة الحاضر.

مثلا: ان **العونة** تقليد فلاحي تقدمي ويخدم الفكرة الاشتراكية.. ومن الصائب ان نبرز أهميتها وان نساهم فيها.. وان الهدية في الافراح والتواجد في الاتراح لمواساة المفجوعين أو التونيسة من قبل أهل الميت هي عادات متأصلة يمكن المساهمة فيها بطريقة من الطرق.. وان العرس تقليد لا مهرب منه ولكن ان يكون عرسا تقليديا وتبذيريا فهذا غير ضروري.. وان احترام الكبير تقليد صحيح ولا غبار عليه في استمراره طالما لا يكبح نزعات التجدد والشباب.. والكرم الفلاحي جميل ولكن في حدود القدرة.. وان يرتدي الناس لباسا تراثيا ومحافظا شيء مفهوم أما تحريم اللباس العصري تحت عنوان احترام عادات الآباء والأجداد فهذا يغتال حرية الاختيار.. بل ان اللباس نفسه يتطور ولا يثبت على حال.. وان نحرص على أخلاقيات شعبنا الجنسية وعلى السمعة المحمودة للانسان شيئان طبيعيان.. اما ان نحرم على الرجل أو المرأة حق إختيار شريك الحياة والتعرف عليه فهذا موقف رجعي نموذجي... وان نقدر مشاعر الذين يمارسون الصلاة أو الصيام موقف حضاري وديمقراطي أما ان يفرض فرضا وقسرا على الانسان أن يصلي أو يصوم فهذا الموقف لا ديمقراطي ولا حضاري.. اي اننا مع الاختيار وضد القسر.. وعلى الدوام يتوجب الحرص على سمعتنا وصدقيتنا بحيث يرد سلوكنا العملي على التشهيرات والاتهامات المغرضة والكاذبة التي يمطرنا بها كل من يقف ضد فكرنا وأهدافنا الانسانية.

رابعا: **الحوار الهادىء وحلم الطباع يتممان الموقف العلمي**.. أنكم تلاحظون الفارق بين يساري ثوري مقنع وأخر غير مقنع سواء لرفاقه وزملائه او لجمهرة الناس علما ان كليهما يكون لديه الوعي وذات الموقف... ومرد ذلك يعود في غالب الاحيان الى شكل عرض الفكرة.. ولما كان الواحد فينا يسعى لاقناع غيره برأيه عليه بداهة ان يجيد تحليل فكرته وان يجيد ايصال الفكرة لسواه.. وهذا يقتضي الحديث الهادىء مثلما يقتضي الحلم وتفادي التشنجات والعصبية.. فالصوت العالي الانفعالي لا يقنع أحدا

وتوتير النقاش ينفر الناس وبالتالي نخسر ولا نربح.. فالفكرة الصائبة تقتضي شخصا ملائما لعرضها وتسويقها.. اي الى اداء صحيح شأنها شأن الاغنية وشأن قيادة السيارة..الخ.
ورجائي ان نهذب طباعنا أكثر... اذ لا يخفى عليكم حدة طباع البعض منا وعدم قدرته على امتصاص اي مساس به أو اختلاف معه.. بينما سعة الصدر هي المطلوبة وتفتح الذهن هو المفيد بحيث يصغي الواحد فينا بامعان لرأي سواه باتجاه الانفتاح عليه والافادة من الايجاب فيه وان يكون متسامحا من الناحية العاطفية.. فلا يتشدد في الامور الصغيرة التي لا قيمة لها.. وان يتساهل مع رفاقه لخلق مناخات أدفأ وأفضل.. فالحدة ثغرة مزعجة وتثير النكد في النفوس.

خامسا: **آلية اتخاذ القرار أو تكوين وجهة النظر..** يهمنا أولا الوصول لمضمون فكري صحيح.. غير ان هذا يقتضي شكلا اداريا ملائما.. ولا يجب ان نستهين بالادارة فهي علم وبدونه لا يمكن التقدم على طريق صياغة الافكار أو ادارة شؤون المؤسسات.. الخ وكثيرا ما تكون ادارتنا للامور متخلفة.

والاجتماع هو محطة مفصلية لاتخاذ القرار أو تكوين وجهة النظر... وكيما يتعدى الاجتماع حدود التداول.. علما ان التداول وتبادل الرأي هو أحد سمات تكوين الفكرة، غير ان التداول يفرض الانتقال لطور أعلى في ابداء الرأي وعدم التكرار أو الابتعاد عن المساجلات غير الضرورية.. كما يقتضي التعليل الهادىء للفكرة بعيدا عن التشنج والانفعالية عوضا عن انفتاح الذهن على آراء الاخرين واستيعاب ما فيها من ايجاب بسلاسة أكاديمية.

وحينما يجتمع حفنة من الناس لاتخاذ قرار لا مناص من عريف لادارة الاجتماع وبالتالي افساح المجال للجميع لابداء الرأي على التوالي بحيث يلخص كل واحد صوته في أفكار محددة بما لا يكرر غيره ولا يساجله... وفي النهاية يتم تصنيف الاراء وايجاد القاسم المشترك بينها أو التفارق وبالتالي التصويت عليها.. والأقلية، بداهة، تلتزم برأي الأغلبية كقرار رسمي يمثل الاجتماع ليبادر الجميع بتنفيذه بحمية ودافعية صادقة. فالاجتماع مربي ومقرر.. ولكن ما العمل حينما يأتي قرار الأغلبية مغايرا لاجتهاد وهوى الأقلية؟؟ الجواب ليس الحرد ولا التمرد.. فالاول

صبيانية والثاني نتائجه عكسية.. أما الصح فهو النضال الداخلي بشرح الرأي مرة ومرات بنفس طويل لاقناع الاخرين.. وفي التحليل الاخير لا خيار سوى خيار الانضباط لقرار الأغلبية.. أما النضال الداخلي فيثمر عادة طالما لا يدعي احد احتكاره للحقيقة.

سادسا: **الحس الاخلاقي في سياق بناء الشخصية الثورية الجديدة؛** ينبغي تنمية الحس الاخلاقي الذي يجعل الواحد فينا مرهفا تجاه الاخرين فيكون مصدر عون لهم وليس عبئا عليهم.. يهتم بمشاعرهم ولا يهينها أو يثقل عليها.. يتعامل بانسانية رقيقة غير همجية وأخوية... يتشبث بالسلوك الأخلاقي القويم الذي لا يؤذي حتى في حالة تعرضه للايذاء طالما ذلك ممكنا ولا يمس بالهيبة والحقوق الجماعية.

ان علينا الغوص العميق في نفسيات الناس وان نبتعد عن الجفاف والنزعة السطحية التي لا تحلل ولا

تغوص في العمق.. فهموم الناس كثيرة ومعانياتهم أكثر الامر الذي يقتضي تفهم شطط وفجاجة وسذاجة البعض.. فليس كل تصرف خاطىء دوافعه معادية أو شريرة.. وليس كل حركة أو نأمه بسوء طوية وانما الكثير منها بحوافز طيبة حتى حينما تكون خاطئة.. ولنتذكر قصة البؤساء وجان فالجان.. فرياحينها مثمرة احيانا والترفع عن التفاهات ضروري في أحيان اخرى.

وبصراحة انني لا افهم حدوث جدال أو اهتمام بأمور شخصية صغيرة جدا بينما التساهل والتسامح فيها ييسر حياتنا، "*فيسر ولا وتعسر*" طالما ان حجم الامر بسيط جدا وذو طابع شخصي ولا مدعاة لتضخيم الصغائر.. واللطافة مفيدة كثيرا.

سابعا: **حدود الصلاحيات..** لكل جماعة نظام يتم صياغته جماعيا.. ولكل شخص خانة ومسؤولياته وصلاحياته تتقرر بناء على ذلك.. فإداري في نقابة صلاحياته ضمن هذا النطاق.. وصحافي صلاحياته ضمن هذا النطاق، ومندوب للعلاقات الوطنية صلاحياته ضمن هذا النطاق.. والمسؤول الاداري للخيمة صلاحياته ضمن هذا النطاق وهكذا دواليك.. وليس من حقي بما امارسه من دور تثقيفي ان اقوم بترتيب ايام النظافة أو أماكن

النوم لأن هذا من مسؤولية سواي.. وليس من واجب وزير الدفاع ان يتحدث في امور سياسية لوسائل الاعلام بينما هو غير مكلف بذلك..الخ اي لا يجب خلط الاوراق ولا تعويم الحدود.. فالمسؤولية الجماعية لا تنفي المسؤولية الفردية والعكس صحيح ايضا.. والفرد ينتمي لجماعة بما تتسلح به من سياسات ونظم.. وهو بدوره يتماثل مع هذه السياسات والنظم بتدرج حتى يبلغ درجة الاتساق.. ولا مكان في الجماعة لفرد نافر على الضد من الجماعة.. أما مزاياه فينميها ويعبر عنها بل انها تزهر وتتفتح من خلال الجماعة.. ولا مكان لمن يقول "انا بدي هيك وهيك" بل "اقترح ان نعمل كيت وكيت".. فهو ينطلق من الكل ويعرض تصوره للنقاش.. وحتى حينما تعتور/النواقص النظام العام يبذل جهده مع جهد سواه لكسب الأغلبية اللازمة لتعديل او تبديل النظام.. واحيانا هذا يتطلب زمنا طويلا.. اذ ان النفس الطويل كلمة السر أما المزاج العجول فهو سريع الغضب وينكص للوراء بسرعة.. ألم نتعلم الصبر في الحياة؟ وأليس الصبر صفة لازمة للمناضلين ولمن يتعرضون للاعتقال والتحقيق؟ وأليس الصبر خاصية من خواص العمال والفلاحين وهذا يقودنا الى:-

ثامنا: **الجزع البرجوازي الصغير**.. اذ بقدر ما تلعبه الفئات الوسطى من دور هام في التاريخ غير انها سريعة الاندفاع وسريعة اليأس تتقدم بجرأة وتتقهقر بدون نظام.. تستشهد في لحظات قد تتطلب أولا تتطلب وتستسلم في لحظات قد تتطلب أو لا تتطلب ... اي انها متطيرة و"تطوش على شبر مية".

فاليسار اليوم مأزوم بقدر أو بأخر.. وبذلك ترى العناصر البرجوازية الصغيرة التي كانت في غاية الحماس والمقدامية في مرحلة سابقة متشككة اليوم ومفزوعة.. والسؤال هنا: هل اليسار هاوي ام محترف.. طفل أم بالغ وحكيم.. رخو أم صلب؟

ان اليساري حازم ومتفولذ لا ترتعش معنوياته ولا تهتز قناعاته.. يموت وهو واقف وهامته مرفوعة.. وحينما يكون على خطأ يراجع نفسه ويصوب مسيرته ويمضي للامام.. وكل واحد فينا فيه بواطن قوة وعناصر ايجابية غير ان هذا لا يكفي.. اذ على الدوام ينبغي تشديد التصلب.. ومنذ زمن قال لينين "*ليس ثمة ما هو أسخف من الرضا عن*

النفس" ومثار استغراب حقا ان يتسرب الارتباك والجزع الى أفئدة وعقول البعض من اليساريين حتى في لحظات التراجع والهزيمة... فأصحاب المبادىء الانسانية العظيمة أقوياء صلاب.

تاسعا: **قوة المثال..** الجماعة الثورية بحاجة لنماذج عملية واقعية من لحم ودم.. فمثل هؤلاء مهماز قوي التأثير يحفز ويشجع ويدل على الطريق.. وهذا الشيء يوجب على الجميع ان يرتقوا بأنفسهم اذ من خلالهم تلد النماذج. و *لوركا* الشاعر والشهيد الاسباني قال منذ الثلاثينات ان المرء يستمرىء التراخي.. بينما المطلوب المزيد من الحزم والعزم والتصميم.. والمزيد من الصلابة والجلد.. والمزيد من الشجاعة والتضحية.. والمزيد من الصبر والاصطبار.. وعموما ان لدى الانسان القوة والضعف.. أما الشجاع فيقاوم وأما الجبان فيفرط كما قال *فوتشيك* ذات يوم قبل ان تعدمه النازية في الاربعينات.

ومطلوب ايضا المزيد من التهذيب الحضاري والمزيد من اللطافة الاجتماعية.. فالناس يحاكمون الانسان بناء على سلوكه.. بل ان الفكر ينعكس في السلوك في التحليل الاخير كما حلل احد أبطال احدى روايات *حنا مينة*.

ولا ننسى ان المطلوب ايضا خلق أجواء ايجابية وبث شحنات ايجابية تشجع الناس وتشحذ عزائمهم وتبعد عنهم التوتر والاحباط والضياع.

واريد ان اسأل: لماذا يحن الانسان لحبيبته وخطيبته أو عائلته؟ طبعا الاسباب عديدة ولكن احداهما انه يحمل عواطف حارة نحوهم.. أجل حارة.. وهذا حال العلاقة الرفاقية فهي تنطوي على حرارة اخوية "ومحل ما يحب الانسان يطب" كما يقول مأثورنا الشعبي.. وطالما اننا نعيش في هذا المكان الصحراوي القاحل [*المقصود هنا معتقل أنصار الصحراوى فى النقب*] فأدعى بنا ان نعزز حرارة التواصل الانساني والاخوي بيننا بحيث يرتاح كل واحد ويستفيد ويتعلم كل واحد.. فلا يندم على اعتقاله ولا تستفز أعصاب أحد بسبب الضجيج أو صوت المذياع العالي سيما حينما يصدع صوت أكثر من راديو.. أما ما نصطلح على تسميته الاذاعة الالزامية حيث لا يراعي هذا او ذاك خصوصية غيره او حاجة الخيمة للهدوء فتجد مذياعه يصرخ بصوت عالي.. يا صديقي خفض

الصوت واسمعه بمفردك.. اذ ليس من حق أحد ازعاج سواه بل ان واجبه التخفيف عنه ومد يد المساعدة المعنوية له.

وقصارى القول اننا مدعوون للتطور.. مدعوون لتحسين أنفسنا.. مدعوون لعدم التوقف عن التقدم والصعود.. فمن بين الجمهرة سوف ينبثق اعظم الثوريين، المهماز، قوة المثال.. وكما قال لينين "*ان طبقة واحدة لم تنتصر في التاريخ بدون زعامة لها*" ودعونا في كل الاحوال نتكامل بعضنا مع بعض.. هذا يتمايز في جانب وذاك في جانب اخر وثالث في جانب ثالث ورابع وخامس.. فلعلنا مجتمعين نشكل قوة مثال فنكون أملا لانفسنا وأملا لغيرنا.

عاشرا: **نقطة عقلية**.. وهي تتعلق **بطريقة التفكير أو منهجيته**.. والمتصور ان يبقى ماثلا في الذهن ان الحياة حزمة متناقضات.. فالتنوع والتناقض ملازمان للحياة.. بل ان التناقض هو جذر التطور وقانون الحياة.. وفي داخل الصواب نعثر على الخطأ وفي داخل التطور نرى التخلف.. وفي مواجهة الاحتلال ينشأ النضال الوطني وتلازما مع الرأسمال تلد الطبقة العاملة.. الخ... بل وعلينا ان لا نستهجن وجود ثغرات في أعظم الثورات وثغرات في أعظم النظريات وثغرات في أعظم الثوريين.
كما ان مكونات الحياة مترابطة وليست مجرد أجزاء منفصلة معزولة..فالإستقلالية الذاتية للماهيات هي أحد وجوه الماهيات.. اما الوجه الآخر لها فهو ترابطها ضمن نظام الكليات.. وهذا يقتضي فميا يقتضي رؤية هذا الترابط وتاثيراته.

وانتم تعلمون أبجديات علم الصحافة.. فأي صحفي يتعلم حين تحليل اي خبر الاجابة عن اسئلة من طراز اين..متى..كيف.. ولماذا..؟ ونحن نستفيد من هذا الكلام برؤية اي موضوع من عدة زوايا.. فلا زاوية واحدة لأي شيء.. فمثلا ان شكل الطاولة يختلف حينما تراها من الأسفل او من الأعلى او من الجانب او من الامام..وكيما ترى الطاولة بصورة مكتملة عليك ان تراها من كل الزوايا.. وهذا حال اي موضوع آخر.
ويخطر في ذهني في هذه اللحظة مثل روسي يقول "هل تعرف الفارق بين الذكي والحكيم؟ فالذكي هو الذي يصحح خطأه بسرعة أما الحكيم فهو الذي يتفادى الوقوع في الخطأ" وفي بلادنا تنتشر مقولة "وتأخذه العزة بالإثم" فيعاند ويستمر على عناده بدون جرأة على التخلص من

الخطأ.. بينما مطلوب منا ان نتصرف بذكاء اذا كنا نفتقد الحكمة.. او لعلنا نتملك الحكمة ايضا.

حادي عشر: **المطابقة بين الاقوال والافعال**.. فهذه المطابقة تعني الصدق في السياسة حسبما كتب لينين.. اذ رغم الأهمية العلمية للفكرة غير ان صدقيتها تثبت بتطبيقها والبرهنة عليها في الممارسة وما أمكن يتعين نقل اي قرار وأي توجه وأية نظرية الى حيز التطبيق مع العلم ان شروط التطبيق تكون غير ناضجة في مراحل معينة وسهل رسم البرامج أما ترجمتها فصعب جدا.. اذ من السهل بمكان ان يقوم مهندس بارع بتصميم مدينة ملاهي على سبيل المثال، أما انجاز هذا التصميم ببناء المدينة فيقتضي سنوات بمشاركة مئات ومئات العاملين.. وبدون عزم لا يمكن التصميم النظري او البناء التطبيقي للمدينة.

هل سمعتم النكتة الروسية التي انتشرت في السنوات الاخيرة وتفيد بأن ستالين قاد قطار الاشتراكية فقتل كل الركاب ما عدا وزير داخليته باربا.. أما خروشوف فأجلس القتلى والموتى على مقاعد.. بينما بريجينيف عزف لهم الموسيقى وطلب منهم الرقص بينما غورباتشوف شغل محركات القطار بينما كان يحمل الموتى.. اي ان قطار الاشتراكية بقي متوقفا في المحطة ولم يقلع.. وهذا بداهة غير صحيح رغم ما تحمله النكتة من مرارة.. فللتجربة الاشتراكية السوفييتية إنجازاتها وعيوبها ونواقصها، كما ان عهد غورباتشوف دمر القطار.. العبرة هي العمل لتحويل الافكار العظيمة لممارسة عظيمة.

ثاني عشر: **الكادرية**. مهام كادرية بالتوازي بين المرتبة والاعباء.. فالكادر يبادر وهو ذهب الحزب حتما.. وكيما يكون كذلك فهو يؤدي مهاما عادلة لشعبه.. اي ان للأسم مسمى معادل فإداري في نقابة يشترك في قيادة النقابة ويساهم في تنسيب العمال وتنظيم صفوفهم والدفاع عن حقوقهم.. وكادر فني يؤدي مهاما فنية ويثبت كفاءة ابداعية في الرسم أو الموسيقى أو الغناء أو النحت.. وكادر أدبي ينتج ادبا أو نثرا أو شعرا أو نقدا.. الخ.. أما الجنرالات بدون جيش، كما حال الجيش اليوناني كثير الجنرالات بينما لم تنجح في كبح مخططات تركيا في قبرص، أو قيادي يحمل مرتبة مركزية في حركة سياسية بينما لا يفلح في بناء منظمة

ثورية وتفعيل طاقتها وحل تناقضاتها والارتقاء بمستوى عضويتها.. إلخ فمثل هؤلاء ليسوا جنرالات او قادة..

وانتهازية صرفة وجود قيادات تحمل القاب وتتبوأ مناصب بدون أعباء وأعمال يومية توازيها... وهي من أسوأ اشكال البيروقراطية.. وتحت عنوان التخصص لا يجوز حشد متخصصين غير أكفاء او لا يؤدون مهام توازي الاستحقاقات المطلوبة.. فالذي يناضل يقود والذي ينتج اكثر من سواه يقود. الخ، أما البالونات المنفوخة بالهواء فلا مكان لها..

(يعطيكم العافية وفي الغد سنكمل).

ثالث عشر: اليوم نستعرض نقاطا اخرى.. وهي كما لاحظتم متفرقات لا يجمعها خيط واضح علما ان ثمة خيط يجمعها ولكنها ضرورية ولا بد من اكمالها.

المبادرة: في الوقت الذي يتوجب الانضباط في كل الاحوال كصفة عمالية ثورية شأن احترام النظم والتقيد بالصلاحيات يتوجب ايضا تشجيع المبادرة وحصرها على أوسع نطاق.. بل ان مبادر واحد يساوي عشرات الانضباطيين التواكليين الذين ينتظرون ضغطة زر من أعلى.. فالانضباط يتكامل مع المبادرة ولا ينقصها.. شأن المبادرة التي تلتزم بالسياسات العامة والقوانين المرعية ولا تنتهكها.

والمبادرة لا تنحصر في الميدان العملي كأن يستجيب الثوري لتململ طلبة في جامعة إحتجاجا على رفع أقساط الطلبة أو احتجاج عمال على ظروف عملهم أو اعتراض على انتخابات مزورة أو المشاركة في تظاهرة اندلعت فجأة.. الخ بل ان المبادرات النظرية لها أبعاد خاصة ايضا كأن يتقدم هذا الذكي أو ذاك المتمرس في ميدان معين باقتراحات معللة لتطوير النشاط أو اتباع توجهات جديدة او دفع العمل باتجاه مواقف جديدة.. الخ فهذا مبدع يتقدم بمقترح لتشكيل مدرسة فنية مع تبيان طرائق لتمويلها وذاك منظم يتقدم بمقترح لاعادة تنظيم جوانب معينة بما يكفل السرعة والجماعية والضوابط الاخرى.. وثالث مثقف يستطيع المساعدة

في تأمين طاقم طوعي لشرح الفكر الثوري لحلقة دراسية ورابع يتقدم بمشروع قرار حول مسألة معينة.. الخ

وأية هيئة قيادية ملزمة بالتجاوب والتفاعل المستفيض مع هذه المبادرات.. فهي ملح الطعام وكل شيء بدونها يصبح باهتا وكالحا.. والمبادرات لا تنبثق من عقول القيادات فقط بل وتنبثق من العقول الخلاقة والمبتكرة في الصف الكادري والقاعدي ايضا.

رابع عشر: **التمايز**.. لا شك ان قابليات الناس متعددة ومتفاوتة ولا شك ان ذكاء الناس وجذريتهم وصلابتهم.. الخ متفاوتة.. ولا شك ان وعي الناس وثقافتهم وسعة اطلاعهم وقدرتهم على توظيف هذه المعلومات وانتاج فكرهم متفاوتة.. فلكل انسان مزايا.. ولكن من البديهي ان البعض، اي القلة، متمايزون على سواهم.. وهذا التمايز ليس مجرد كلمة أو صفة يخلعها المرء على نفسه.. بل لها مقاييسها المادية والذهنية والخلقية الملموسة.. اي ان له معاييره التي تبرهن عليه.. وهذه المعايير هي الاساس التي تجعل محاكمتنا للتمايز علمية وصحيحة.. اذ ليس طبعا ان يزهو المرء بنفسه ويعتقد نفسه كبير الثوريين وأبرز المفكرين وأشد الصلاب تفولذا ويقف في مقدمة الخلص.. الخ.. ولكن حين نضعه في كفة الميزان ونضع سواه في كفة الميزان ونرى انتاجه وانتاج سواه.. صلابته وصلابة سواه في التحديات والامتحانات الصعبة.. تضحياته وتضحيات الاخرين و.. حينها ترجح هذه الكفة اوتلك.

ومن الطبيعي ان يفرح الثوري لرفقاء النضال وان يحب تميزهم عليه... فذلك مبعث قوة للفريق فالمرء يستقوي برفاقه ويضعف حينما يكونون ضعفاء.. في سنوات النضال يترددون مرة ويحسمون أمورهم مرة اخرى.. يقفون بشموخ في الزنازين أو يحنون هاماتهم.. يبدعون في أعمالهم أو يتبلدون متحجرين.. ينتجون فكرا بدل الضحالة والسطحية واجترار الكلام القديم..الخ.

فقط الفج الذي لم ينصهر في الجماعة هو الذي يشغف بنفسه ولا يحب ولا يتمنى تفوق رفاقه عليه، وهذا الميل بداهة لا يخدم العمل الثوري.

وعليه بعد اثبات الموهبة.. اي بعد التأكد من التمايز بأنه بيضة صالحة وليست فاسدة.. يتعين على الجميع احاطة هذا المتمايز أو تلك برعاية والتفاف كمناخ صحي كيما يفقس تمايزه ويشرش لانتاج كادر لامع أو قائدة واعدة.. وما أحوج اليسار لمزيد من الكادرات والقيادات الجديدة والمجددة.

وكلنا يسمع عن الموهوبين الذين تتنقيهم الدولة الاشتراكية وتوليهم رعاية وتدريبا خاصة في الميدان الرياضي أو الثقافي أو الاكاديمي أو الفني.. الخ.. فمن هؤلاء يظهر أبرز الرياضيين الذي نراهم في الاولمبياد أو على شاشة التلفزيون أو كبار المخترعين والرسامين.. بل وان الاحتكارات الرأسمالية تغطي نفقات تعليم المتفوقين في الجامعات مقابل تعاقد بأن يعمل هؤلاء بعد تخرجهم في مؤسساتها الاقتصادية لغاية استثمار تمايزهم..

وبكلمة واحدة دعونا نستوعب التمايز وندعم الموهوبين في هذا الحقل او ذاك بدون تشجيع نشوء الاغترار والفردية لديهم بداهة.

خامس عشر: **الاختلاف**، فيما علينا تشجيع الموهبة ومنح الفرص للموهوبين والاذكياء علينا في ذات الوقت تفهم اختلاف الناس بعضهم عن بعض.. فهذا لديه بصيرة سياسية وذاك شاعر وآخر ميداني ورابعة زعيمة شعبية وخامس موجه اجتماعي وسادس إداري دقيق وسابع وثامن.. وهذا سريع التفكير وذاك بطيء وثالث متوسط.. ومناضل مزاجه عنيف وآخر هادىء الطباع وثالث متطرف ورابع حالم رومانسي وخامس يصغي بعمق وسادس مفوه ومتحدث لبق وسابع وثامن...

وشأن الفواكه أنواع والخضار أنواع والطبخات أنواع.. فالناس ليسوا نسخة كربونية كل واحد مماثل للاخر ومثلثات متساوية.. حتى انه في الحياة الواقعية لا يوجد تساوي مطلق وتطابق مطلق.

وتأسيسا لا خيار سوى بخلق التكامل بين الناس وذلك بوضع كل انسان في الخانة التي يمكن ان يخدم فيها أكثر من سواها.. بالاضافة الى تخليصه من ثغراته وعيوبه.. وتفكير مغلوط تماما اعتبار كل من يختلف معي في طباعه وخصاله انه على خطأ بينما انا على صواب.. والصحيح

ان كل واحد لديه طاقة البناء الحكيمة كما يسميها الاديب مكسيم غوركي .. وان طباعي المفيدة في لحظات قد تأتي لحظات اخرى وتتطلب طباعا مغايرة.. والمهم هو تجميع كل المنوعات في سيمفونية واحدة.. فلا أعيب على اخر صفاته الطيبة الايجابية لانها تختلف عن صفاتي الطيبة الايجابية.. فكل ما يفيد ويبني مطلوب.

سادس عشر: **الهم الشخصي والعام**، اناني أم ثوري.. فعلى الدوام سيكون المناضل معرضا لامتحان الانحياز لشؤونه الشخصية من عائلة ووظيفة وراحة ومغريات الحياة.. أم الانحياز للشأن العام الوطني والطبقي والطلائعي بما يعنيه من تضحيات ومعانيات وعدم استقرار شخصي وتقصيرات عائلية.. اي الفرد أم المجموع.. المصلحة الشخصية أم المصلحة المجموعية الشعبية؟

ومن الجيد ان يكون واضحا بان الانانية واليسارية لا يجتمعان.. وان تفضيل الهم الشخصي على الهم الوطني يتناقض مع المبدأ اليساري.. فالأنانية والذاتية خاصيتان برجوازيتان يليهما الجشع وو.. ولا مناص من الاعتراف بأن حمل بطيختين في يد واحدة مسألة متعذرة.. ولا مجال الا إختيار واحدة على حساب الاخرى.. وقد يكون هذا الحساب كبيرا وراديكاليا او أقل.. ولكن كمحصلة عامة من المستحيل ان يختار الثوري قضايا الجماهير بدون التضحية بأمور شخصية.. بل أحيانا قد يضحي بكل الامور الشخصية حينما يستشهد أو تلامس التضحية ذلك حينما يمضي سنوات طويلة في السجن ويناضل طيلة حياته بكل ما يرتبط بذلك من توثب وقلق وحرمانات وا م.. والمحترفون يضعون أنفسهم ٢٤ ساعة في الـ ٢٤ ساعة تحت تصرف العمل الثوري.. فما بالكم حينما يكون للثوري زوجة وأطفال وللثورية زوج وأطفال.

الحسم مطلوب.. فلا متسع للوسطية وعلى الثوري الانخراط حتى نخاع العظم كملكية عامة للقضايا الشعبية والوطنية.. وكلما أطل الامتحان برأسه عليه حسم انحيازه بدون تردد الى ان يغدو محسوما من رأسه الى كعبه.

سابع عشر: **الثوري الحق**.. الثوري الحق ديمقراطي الى أبعد الحدود وهنا ليس غرضي استعراض مضامين الديمقراطية فقد تناولناها من قبل. ولكن حسب التذكير بالعنوان وحسب.. فالثوري ديمقراطي مع عائلته ومع اصدقائه ومع شعبه ومع رفقائه ومع.. ويؤمن حقا بالمساواة بين الناس وحقهم في الاختيار واحترام الرأي والرأي ا خر.. ليس على صعيد سياسي فقط بل وعلى صعيد حقوق الانسان وفي داخل البيت والمدرسة.. وان تكون متفوقا على سواك هذا شيء مفهوم.. أما ان تضطهد سواك فهذا منافي لاخلاقيات اليسار والذي يثور على الظلم والجور والتخلف وقهر العقل و.. فالتفوق يستخدم لخدمة ا خرين .. ولاناس يحبونك ويحترمونك ويثقون بك لا العكس .. فهذا ما يتوجب ان يكون لا ان تخيفهم وترهبهم.. فاليساري يحوز على القيادة والزعامة نتيجة إيثاريته وصوابيته وثقافته واستقامته وتضحويته وصلابته وعدالته وبطولته التي يجدر تعميمها والحذو حذوها.. وليس من النضج والثورية في شيء الاستقواء على الاخرين.. والمساس بكرامتهم.. الحمار ليس له كرامة علما انه يتألم حينما تؤذيه، أما الانسان فلديه كرامة ونحن ثائرون لتحرير كرامتنا من الاضطهاد والتنكيل.. وبأي حق نعتقل وبأي حق يجري تعذيبنا وبأي حق تتم معاملتنا بهذه الطريقة كما لو كنا من جنس أدنى أو من عالم الاجرام.. اي من حقنا ان نثور دفاعا عن حقوقنا وكرامتنا.

ثامن عشر: **تنمية المهارات** ... الانسان مجموعة أبعاد.. وبقدر ما تكون هذه الابعاد أغنى وأعمق بقدر ما تكون شخصية الانسان أعمق وأغنى.. ونحن لا يجوز ان نسترخي ونكف عن التطور.. فمن يتوقف يتأخر ولا بد من المناضل ان يتغلب علي نواقصه.. فغير الرياضي يلعب رياضة.. والذي لا يحب المطالعة يوطن نفسه على المطالعة.. والذي لا يعرف قيادة السيارة يتعلم ولا يعرف السباحة يتعلمها.. ويتعلم بعض الموسيقى وتذوقها وتوسيع معارفه الفنية ومشاهدة المسرح وتعلم الطباعة واستخدام الكمبيوتر..

ويحضر في ذهني كتاب قرأته من تأليف "مارجيلات" مؤسس حرب العصابات المدينية في البرازيل في الستينات حيثما يتحدث عن ١٨ مهارة تستلزمها حرب العصابات.. وشيء قريب من ذلك كانت تجربة التوباماروس في الباراغواي..

فالحياة الثورية تتطلب اشتراطات معينة.. والحياة المعاصرة تتطلب مهارات معينة.. وشأن القراءة التي غدت شرطا لا مهرب منه للانسان المعاصر خلافا لانتشار الامية في مجتمعات القرون الوسطى، وقبلئذ فان بعض المهارات غدت ملحة ايضا كالطباعة ومعرفة ابجديات علم المحاسبة وعلم الطب وتربية الطفل.... شيء مؤسف حقا ان لا يتقن الثوري أية مهارة عملية تقتضيها مهامه... وربما بعضكم قد شاهد المسلسل البريطاني "المحترفون" كفريق تابع لوزارة الداخلية.. أو فرق الكوماندوز بما تملكه من كفاءات ذهنية وعملية عالية.. وهذا مفيد لنا التعلم منه.

تاسع عشر: **الاغاني الثورية والفلكلورية**.. اذ من الجيد الاصغاء لها ونشرها جماهيريا. فهي والفن الغنائي الراقي كما هو غناء فيروز أو الرومي أو الشيخ امام أو مارسيل أو جوليا بطرس.. وكذا بعض الموسيقيين والافلام الملتزمة والمشوقة الراقية فكرة واداء و.. كل هذا يصقل مشاعر الانسان ويرتقي بذوقه.. وهذا حال قراءة الأدب وتذوق الفن.. فالفن والأدب ضروريان للانسان المتحضر.

عشرون: **الجيل الفتي- الشبابي**.. ان من يربحه يربح المستقبل ومن يخسره يخسر.. واقصد الفئة العمرية بين ١٥-٢٠ هذه الفئة التي كانت تجتذبها المناشطات الانتفاضية في سنوات سابقة غدت اليوم تعيش فراغا رهيبا.. وان لم يتم توجيهها بما يتلاءم مع ميولها ضاعت طاقاتها وتعثرت خطواتها وتفسخت.. وأرى ان من أفضل البوابات لاستمالتها هي البوابة الرياضية بتفرعاتها كما الرحلات الجبلية.. بينما أوساط فيها تشدها الاهتمامات الثقافية والفلكلورية.. ومن هذه البوابات الى التأطير بما يتلاءم مع الاهتمامات والميول.. فهذا الجيل لم يفقد الامل بالانتصار وهو مشبع بأحلام عظيمة ويختزن مكنونا هائلا.. خلافا للجيل الأكبر منه الذي يعاصر الثورة وحمل نجاحاتها وهزائمها فكان جيل عدم الانتصار.. خلافا للجيل الاقدم الذي عاصر نكبة ٤٨ وهزيمة ٦٧ فجاء مثلا لهذه المرحلة.. وهنا أتحدث عن أجيال وقاعدة عامة وليس عن استثناءات بدوائر في كل جيل.. والجيل، كما هو معروف ٢٥ عام.. ويا حبذا لو ينجح اليساري في مد نفوذه وقواعده بين ثنايا الجيل الفتي الجديد فيساعده على اطلاق طاقاته ويعزز ثقته بنفسه ويعقلن تفكيره ويغذيه بالفكر العلمي..

فالى العمل.. ارى الحرارة قد اخذت منكم كل مأخذ.. او كما قال رفيقنا ابو "ش" بأن فلانا قد نام حينما حطت الطائرة في مطار بيروت واخر لم يستيقظ الا على قرعات السؤال..

وشكرا لكم.

اليسار والمرأة

من المؤكد ان بعضا منكم قد قرأ رواية "الأم"، حيثما تحولت الام المقموعة، بيتيا، من قبل الزوج عنيف الطباع، بفعل تأثرها بشخصية إبنها ورفاقه الى مناضلة عتيدة رغم كهولتها، وهذه القصة ليست مجرد خيال أدبي خصب لغوركي، بل ان لها أساسا واقعيا برع في تصويره في رواية خالدة تطبع باستمرار منذ مطلع القرن حتى اليوم.

ومن المؤكد انكم بغالبيتكم قد طالعتم كتاب "دومتيلا" الثورية البوليفية الامية التي غدت مناضلة نقابية فزعيمة نسوية وسياسية معروفة على نطاق عالمي بما صحب مسيرتها القاسية والعنيدة من تضحيات غير عادية.
وكلنا سمع عن استشهاد شادية ابو غزالة عضوة حركة القوميين العرب، وفيما بعد عضوة الجبهة الشعبية بينما كانت تعد عبوة متفجرة، أو استشهاد دلال المغربي التي قادت كوماندوز فدائي على شواطىء تل ابيب، أو التعذيب الوحشي الذي تعرضت له رسمية عودة وعائشة عودة في اعتقالات عام ٦٩..الخ.
هذه نماذج تعمدت استعراضها أمامكم لشد الانتباه لموضع هام، هو اليسار والمرأة، فصباح الخير، وكلكم تصغون كما ألاحظ.

في هذا اليوم اننا لا نتطرق لقضية جزئية أو هامشية، بل نتطرق لقضية مركزية تخص نصف المجتمع وتشمل بتأثيراتها المباشرة وغير المباشرة المجتمع بأسره.. اذ لا يمكن تصور مجتمع معافى- نصفه غير معافى، مثلما لا يمكن تحقيق حرية وكرامة المرأة بدون تأمين الحرية والكرامة للمجتمع، شأن الاسرة بالضبط، فهل يمكن ان نتخيل مناخات تربوية ونفسية مريحة لأطفال بينما أمهم متعبة نفسيا ومضطهدة اجتماعيا؟! وهل نتخيل زوجا سعيدا في بيته بينما زوجته غير سعيدة في بيتها؟!

ونحن حينما نتعرض لقضية المرأة انما نتعرض للأم والأخت والأبنة والجدة والخالة والعمة... اي امي وامك، ابنتي وابنتك، اختي واختك.. للمرأة المناضلة والمعلمة والعاملة وأبنة الشهيد وزوجة الاسير.. عن نساء بلدنا ونساء امتنا ونساء البشرية قاطبة.. اي ليس عن روبوتات ولا عن مخلوقات وهمية أو قطعة أثاث صماء أو حفنة تراب بدون إحساس.

والمبدأ الاساسي في المنظور اليساري هو رفض الاضطهاد الجنسي، أي إضطهاد الرجل للمرأة والتمييز ضدها تمشيا مع الرؤية اليسارية العامة التي لخصها لينين بالقول "*اننا ضد كل الاستغلالات والاضطهادات، سواء كان الاستغلال طبقيا او اضطهادا قوميا او اضطهادا جنسيا او اضطهادا دينيا*"... وطبقا للتحليل اليساري للظواهر على أساس بعدها التاريخي وظروف تكونها وحركتها، فان الظلم الذي أحاط بالمرأة قد نشأ عن معطيات معينة، بزوالها يزول الظلم وتتحقق المساواة الكاملة بين المرأة والرجل.

وكلكم لا بد انه درس شيئا عن المجتمع الأمومي القديم في الجماعيات الاولى والذي لم تنفك بقاياه حية لهذا اليوم في بقاع عدة من العالم كما القبائل في غينيا الجديدة وقبائل في أقاليم هندية وفي قلب الغابات البرازيلية والافريقية حيث ينسب الاطفال للأم ذلك ان الاب غير معروف، مثلما تحظى الأم بمنزلة خاصة حتى ان بعض الرسومات القديمة تشير الى وضع المرأة في مكان متقدم على الرجل، حيث ينحني الثاني لها ويعبدها ضمن اعتقاد انها خالقة للحياة وهذا ايضا نلحظه في الاسماء الانثوية لهة الاغريق قبل ا ف السنين.

ولكن مع نشوء الملكية الاقتصادية الخاصة بالنظر الى تطور قوى الانتاج حيثما أصبح يتشكل فائض استأثر به الاقوياء وزعماء القبائل، تراكم مع الانتقال من حياة الصيد الى الحياة الرعوية والزراعية، غدا الرجال يحرصون على توريث أبنائهم وليس أبناء سواهم ثرواتهم والتمتع بها، فأخذوا يربطون عددا من النساء بهم دون غيرهم.. فظهرت العائلة البطريركية التي يقودها الرجل.
ولئن كان عمر الأنسان كما تشير الاكتشافات العلمية نحو ٥ ملايين سنة، فمنذ بضعة آلاف من السنين فقط عرفت الانسانية العائلة الأحادية، اي امرأة لرجل واحد، ورجل واحد لعدة نساء كما هو واضح في كتابات الانثروبولوجيا وعلم التاريخ سيما الحضارات القديمة كالفرعونية والصينية وما بين الرافدين والاغريق... وفي البدايات كان يخص الرجال الاغنياء أنفسهم بالعديد من النساء.. وبتدرج تم حصر النساء.. والتوراة على سبيل المثال، اي منذ أقل من ٢٦٠٠ سنة، تفيد بأن الملك داود تزوج من مائة امرأة بينما ابنه الملك سليمان، الذي بنى الهيكل، تزوج من الف امرأة، ٣٠٠ منهن من الجواري و ٧٠٠ من السراري والسيدات.

وتاريخ المنطقة في تلك الفترة نموذج انتقالي للعائلة البطريركية التي تطورت بتدرج الى ان تحقق الزواج ا حادي المكتمل، اي رجل واحد لامرأة

واحدة بدون تعدد زوجات، كما المجتمع المعاصر الذي باتت قيمه لا تتقبل تعدد الزوجات أيا كانت تخريجتها سواء من وجهة نظر المجتمع أو من وجهة نظر المرأة ذاتها.

وبداهة ان وضع المرأة اليوم وحقوقها هما أفضل بما لا يقاس من وضعها وحقوقها حينما كان يستولي الرجل على العديد من النساء تحت عنوان الجواري والزوجات والسبايا، فلم تكن مجرد أداة للرجل فقط، تتعرض للضرب والبيع ومصادرة أبنائها، بل وايضا كان ينظر لها كشيطان يغوي ويضلل الرجل، وهذا واضح في سفر التوراة الذي يتحدث عن تغرير الافعى لحواء لكيما تأكل التفاحة المحرمة، فيما حواء قامت بإغراء آدم، فتناول تفاحة ايضا خلافا لتعليمات الرب، فغضب الاخير وطردهما من الجنة وقال حسبما جاء في التوراة (*ستلدين في الآلام وتمؤتين في الآلام*) للدلالة على خطيئتها، بل وحينما تلد ذكرا تكون إجازتها شهرين وحينما تلد انثى تكون إجازتها شهر واحد.. بينما بعض الاتجاهات المسيحية تحرم على رجل الدين الزواج أو اقامة علاقة جنسية مع المرأة ناظرين لها كدنس ومصدر شر.. والتمييز في الإرث وان كان متفاوتا بين الديانات سواء كانت اليهودية او المسيحية او الاسلام، غير ان حقوق المرأة تبقى أقل من حقوق الرجل، زوجة كانت أم ابنة أو اخت. وفي الديانات الثلاثة الأطفال ينسبون للأب الذي من حقه الاستئثار بهم في حالة الطلاق، بينما المجتمعات المتطورة اليوم تناقش محاكمها أهلية الاب وأهلية الأم ورغبة الاطفال وبعدها تقرر اين يعيش الاطفال مع نظام للزيارة والترويح سواء إلتحق الأبناء بأمهم أو بأبيهم.

وفي المجتمع البدوي والقبائلي غلبت النظرة الدونية للمرأة ، فهي أدنى سواء في دورها الاقتصادي حيثما احتجزت في الخيام والكهوف للطبخ والانجاب، كما استثنيت من المشاركة في تقرير الشؤون العامة كالحرب والترحال..،، وكانت عرضة للسبي والاغتنام، فالقبيلة التي تنهزم في الحرب تغتنم القبيلة المنتصرة ممتلكاتها ونسوتها ويجري توزيع كل ذلك على المحاربين والقادة بدون أدنى احترام لكرامة وارادة المرأة.. وتكرست القيم الذكورية التي ترى المرأة كعنصر ضعيف وعاطفي وجاهل لا يصلح الا للبيت.

وفي المجتمع الزراعي – الاقطاعي، كما المجتمع التجاري – الضريبي، بما صاحبه من بداوة، الذي عرفه التاريخ العربي، سيما في الجزيرة منذ الف سنة ويزيد، سادت نظرة مشابهة للمرأة مع بعض التحسين، فهي لئن استمرت

حبيسة البيت وتحت سلطان الرجل، أبا كان أم زوج، غير ان مشاركتها في الحياة الفلاحية الزراعية اعطتها بعض الحقوق والتأثير مثلما ان العوائل الارستقراطية الاقطاعية والعوائل التجارية أخذت تعلم بناتها خصوصا في ميدان التهذيب الذي يتلاءم مع حياة النبلاء كما في ميدان الموسيقى والشعر وركوب الخيل، ليفسح هذا المجال فرصا محدودة للاحتكاك والمعاشرة بين الجنسين وبالتالي التحابب والزواج، علما ان المرأة في العصر الاقطاعي عانت من عذابات جديدة مثل بتر "البظر" الذي هو العضو الجنسي الأهم لديها، كما حزام العفة الحديدي الذي يغطي وسطها اثناء غياب زوجها.

أما المنعطف الراديكالي الذي قلب وضع المرأة رأسا على عقب فهو الثورة الصناعية – البرجوازية حيثما تطلبت الحياة الانتاجية اليد العاملة للمرأة التي كان عليها ان تتعلم وان تكتسب المهارات المهنية لكيما تستجيب لمتطلبات العمل بما استوجبه ذلك من فهم جديد للمرأة بأنها قوة إنتاج بناءة وطاقة فعل وعقل مقتدر، لتفسح بالتالي ظروف التعليم والعمل لها، وللرجل القدرة على الاختيار والحب على نطاق واسع، وهذا كله أكسبها ثقة بالنفس فأخذت تدعو للمساواة مع الرجل على أساس الأجر المتساوي للعمل المتساوي.. وتبوء المنصب بناء على الكفاءة وتأسيس الجمعيات النسوية التي تقوم على توعية وتنظيم النساء كمقدمة فتحت المجال لمشاركتها في الحياة السياسية، حزبية كانت او برلمانية، حيثما لاحظناها وقد صوتت في بداية القرن في فرنسا.. وفي أوائل العشرينات في أمريكا، ليعمم حقها في الانتخاب لاحقا في أرجاء العالم، بل ولتغدو هذه الأيام تشكل ٤٦٪ من قوة العمل الأمريكية ونسبة قريبة من ذلك في أوروبا واليابان والصين ونحو ٤٨٪ في الاتحاد السوفييتي السابق، فيما كانت بين ٧٠-٧٢٪ في القطاعين التعليمي والطبي، فضلا عن اختراقها كل هياكل المجتمع والاقتصاد والثقافة والفن.. حتى انها كانت تشكل ٢٧٪ من عضوية الحزب الشيوعي السوفييتي السابق وأقل من ذلك بقليل في المجالس السوفييتية، ولها حضورها في برلمانات العالم الرأسمالي المتطور كما في الحكومات، حتى انها بلغت رئاسة الحكومة في الهند وسيرالانكا والباكستان وتركيا وكندا وفرنسا ووزيرة هنا وهناك، واحتلت مناصب كبيرة في سلك القضاء والتعليم الجامعي والأدبي والفن ومختلف ميادين الحياة، مثلما انها شاركت في نضال حركات التحرر الوطني حيث برزت ذوات الشعر الطويل في فيتنام، كما الثورة الجزائرية والصينية، ودور معقول في نضال الشعب الفلسطيني واللبناني والسلفادوري وجنوبي افريقيا، وباتت شريكا فعليا في الحركات السياسية الديمقراطية لها نسبتها وفعلها التي يصعب تصور هذه الحركات بدونها.

الشعب الفلسطيني واللبناني والسلفادوري وجنوبي افريقيا، وباتت شريكا فعليا في الحركات السياسية الديمقراطية لها نسبتها وفعلها التي يصعب تصور هذه الحركات بدونها.
وقصارى القول لقد قطعت المرأة شوطا كبيرا جدا، من الاستلاب الى الشريك الكامل في صنع التاريخ ومستقبل البشرية كدليل قاطع على ان الفارق الفسيولوجي بين تكوين الرجل والمرأة، حيثما يفترقان جزئيا ويتقاطعان على وجه العموم، لا يجعل من الرجل أقوى من المرأة أو المرأة أقوى من الرجل في الميدان الذهني والعمل البناء، ذلك ان العصر لم يعد عصر العضلات والسيف، بل عصر الصناعة والكمبيوتر والثقافة والطاقات العقلية والمهنية.

وعموما، من الناحية البيولوجية الصرفة، ان ما يحدد جنس المولود هو عدد الكروموسومات التي يحويها الحيوان المنوي الذي يلقح البويضة، فان كان يحوي ٢٣ زوجا من الكروموسومات كان الجنين انثى ولئن كان ٢٢ زوجا ونصف كان الجنين ذكرا، وثمة نوعين من الحيوانات المنوية فقط، الاول له ذنب قصير والثاني طويل يتسابقان نحو قناة فالوب في رحم المرأة حيث تمكث البويضة، وحالما يخترق الحيوان غلاف البويضة يتبدل تركيبها الكيماوي ولا تستقبل سواه.

وقد أثبت علماء الطب ان الكروموسوم الاضافي للأنثى يزودها بمناعة بحيث تكون حصانة المولود الانثى أعلى منها لدى المولود الذكر في البدايات.. أما الصفات الفارقة كاللون ونوع الشعر والهيكل والطول... فهذا إنما تحدده الجينات كنتوءات تتوزع على الكروموسومات... ويرفض العلم النظريات الشوفينية والعنصرية التي تعتقد زورا بأن دماغ العنصر الابيض أرقى من دماغ العنصر الاسود او أن دماغ الرجل أرقى من دماغ الانثى.. بل لقد دحضت مسيرة التاريخ هذه الاكاذيب حيث برز السود والمرأة في مختلف حقول الحياة الأكثر تعقيدا، وكما ان البيض يتفوقون على بعضهم بعضا ويتفوق بعضهم على بعض السود فان السود يتفوقون على بعضهم بعضا وبعضهم يتفوقون على بعض البيض، وهذا حال الرجل ايضا حيثما يتفوق الرجال على بعضهم بعضا ويتفوق بعضهم على بعض النساء، الشيء ذاته يقال عن مجتمع النساء حيث يتفوق بعضهن على بعض ويتفوق البعض منهن على بعض الرجال.

اي لقد أسقطت كل الخزعبلات في هذا الصدد ودحرت تماما من الناحية العلمية.. والمسألة كلها مرهونة بالظروف التي يعيشها الانسان.. ولهذا السبب

أصاب ماركس حينما انشأ يقول "*اذا كانت الظروف هي التي تخلق الانسان، علينا ان نخلق ظروفا إنسانية*"، مما يجعلنا كثوريين عقلانيين يساريين نتبنى موقفا منصفا وتحريريا للمرأة نظريا وعمليا، بل ومن الصعب ان يكون المرء ثوريا في الميدان السياسي على سبيل المثال بينما هو استغلالي على صعيد طبقي، ورجعي على صعيد اجتماعي حيال المرأة ومتخلف على صعيد الذوق الفني.. الخ..

فهذا إنما يدل على عدم إتساق في شخصيته بل انه يجمع عدة شخصيات في آن.. بينما الاتساق والتجانس في الشخصية الثورية يوحدان نسغ الثوري ووعيه وسلوكه، وعليه يتوجب ان نتحرر من "إنبش قشرة الثوري في موضوع المرأة تكتشفه رجعيا عفنا" كما كتب لينين.

بل ليس مبالغة القول بان مقياس تطور الشعوب يقدر بمدى تحرر المرأة ومشاركتها في الحياة العامة، ناهيكم ان الثورات المعاصرة لا تنتصر الا بقدر مشاركة النساء فيها، وهذا لمسناه لمس اليد في السنوات الاولى للجيشان الانتفاضي حينما انخرطت النساء الفلسطينيات على نطاق واسع في التظاهرات والمصادمات والمناشطات العديدة جنبا الى جنب مع الرجل، وهذا كان ملحوظا بصور أجلى وأوسع في الثورة الفيتنامية، بل ما كان ممكنا انتصار شعب فيتنام الصغير على الاستعمار الفرنسي ومن بعده الاستعمار الامريكي لولا تحشيد كل طاقاته من رجال ونساء في شتى الميادين.

وربما اعداد من الناس لا يعجبهم ما أنجزته المرأة من تقدم، بل وقد يتذرعون بظواهر الانفلات الجنسي في العالم الرأسمالي، ككلمة حق يراد بها باطل، لإعادة عجلة الزمان للوراء، وحجز المرأة في البيت كماكينة "تفريخ للاطفال" وتربية النشيء الجديد والتعبد في الكنسية ، كما خطب هتلر، غير ان هذا شيء مستحيل، اذ حتى لو حصلت ردة سياسية لا يمكن إعادة عجلة التاريخ للوراء، فالمرأة غدت متعلمة ومثقفة ومنتجة وجزءا صميميا وبنيويا في المجتمع المعاصر، ولن تستطيع اي قوة قهرها ومعاملتها كما الإماء والجواري او كما لو كانت عورة، بل على العكس ان الرسم البياني يشير الى تزايد نسبتها في الجامعة والعملية الاقتصادية والسياسية والفنية.. ليس في العالم التكنولوجي المتطور فقط، بل وفي العالم المتخلف النامي ايضا، وهذا نراه حتى في واقعنا الفلسطيني، ففي الاراضي المحتلة تشكل المرأة ١٢٪ من قوة العمل بالأجرة، ناهيكم عن مساهمتها في الزراعة الفلاحية بدون اجرة، وعدد صفوف الثانوية يتزايد، والأمر

نفسه ينطبق على المعاهد والجامعات، واللباس العصري بإختيار المرأة ينتشر أكثر فأكثر، وتعدد الزوجات يتقلص أكثر فأكثر، وتتبلور حركة نسوية ترسي أطرها هنا وهناك، وتنخرط بملموسية أوضح في النضال التحرري..الخ وهذا كله يتماشى مع قانون التطور العالمي.

ورغم هذه المسيرة الصاعدة التي لا يمكن حجزها وايقافها لم تنفك تعاني المرأة من اضطهادات عدة، بل انها **مضطهدة المضطهدين** كما قال الثوري الالماني "بيبل" وهي **البروليتاريا في البيت فيما الرجل هو البرجوازي الاستغلالي كما ذكر انجلس.** ويمكن تلخيص إضطهادات المرأة في بلادنا بما يلي:-

١- **اضطهاد قومي**

فهي تخضع كما الرجل لقهر الاحتلال الصهيوني الذي اجتث شعبنا من أرضه وشرده وهود أرضه ويمارس القمع والبطش المنظم ضده، ونساء العالم لا يعانين ما تعاني المرأة الفلسطينية بهذا الصدد.. وهذا الاضطهاد لا يزول الا بالاستقلال الناجز.

٢- **اضطهاد طبقي**

من قبل الرأسمال الاستغلالي، وهذا يشمل النساء العاملات حيثما تستغل كشغيلة كما الرجل الشغيل، وتستغل كامرأة لانها تتلقى اجرة أقل ولا تمنح فرصا متساوية للرجل في القيادة والتسرب للوظائف الهامة.. وحقوق المرأة العاملة الفلسطينية هي درجة أدنى مما حققته المرأة العاملة في العالم المتطور علما انهما يتساويان في جوهر الاستغلال.. طبعا لقد أحرزت المرأة في البلدان الاشتراكية السابقة والبلدان الاشتراكية القائمة منجزات أكبر، وعلى الأقل تحققت العدالة الاشتراكية بإزالة الاستغلال والطبقات الرأسمالية التي تستغل الشغيلة نساء ورجالا.. والاستغلال الطبقي للمرأة والرجل لا يزول الا بإزالة علاقات الانتاج الرأسمالية وحلول الاشتراكية محلها.

٣- **اضطهاد اجتماعي ذكوري للمرأة**

وهذا يقع عليها وحدها ويمارسه الرجل ضدها من خلال قيم بالية ونزعة متسلطة وتعامل دوني معها، وتجليات هذا الاضطهاد عديدة جدا، ووطأتها على المرأة لا تقل عن وطأة الاضطهاد القومي والاستغلال الطبقي.

فمنذ الولادة يحبذ الأهل الذكر على الانثى، بل وعرف التاريخ العربي القديم وأد البنات، اي دفنهن وهن أحياء، ليتلو ذلك التمييز في التربية البيتية حيثما تفرض القيود والتحريمات على الطفلة فيما تمنح فرص الحركة والاختلاط للولد، وهذا يستمر في التعليم المدرسي، حتى ان الألعاب التي تتوافر للذكور ذات طابع عقلي بينما للإناث ذات طابع تقليدي، فيما الاهل يوفرون فرص التعليم في حالة الاختيار بين الابن والابنة للذكر سيما في التعليم العالي، اي يجري إعداد الابن لمعترك الحياة فيما يجري إعداد الابنة للحياة الزوجية كأم وحسب!

وبينما تتسامح التقاليد مع الشاب في حالة ان ينسج علاقة حبية مع فتاة وتتسامح مع حقه بالتعارف والاختيار قبل الزواج، تتعامل بتزمت وقهر مع المرأة ان حاولت إستخدام نفس الحق، بل وقد تتعرض للضرب والتخويف مع ان الزواج من اخص خصوصيات المرأة، فتجد نفسها بدون تعارف ومعاشرة واختلاط مجبرة على الموافقة على هذا الذي يطلب يدها او ذاك كما لو كانت سلعة لا ارادة لها، فالزواج المدبر هو السائد في مجتمعنا ولم تفلت منه الا أوساط محدودة وسيما في أوساط المثقفين والمثقفات او الذين يقيمون علاقات حبية سرية واسعة الانتشار، ناهيكم عن زواج البدل الذي تقايض فيه المرأة بامرأة اخرى من أجل تزويج شقيقها!! وبعد الزواج لا يتم التعامل المتكافىء بين المرأة والرجل، بل الرجل هو السيد والمرأة هي التي تلبي الرغبات وتتكيف معها، فالنظر لها بأنها خرجت من ضلع الرجل كما جاء في التوراة، وانها لا تملك حنكته وقوته و ... بل عليها ان تلبي رغباته الجنسية حتى لو كانت الرغبة من طرف واحد، أما في حالة الخلاف حول اي موضوع فعليها ان تنصاع، وان لم يكن بالكلمة فباليد، وحينما يغلب على أمرها تلجأ لبيت اهلها (تحرد)، وان تفاقم الخلاف يتزوج الرجل من امرأة اخرى، فيمنح الاولى الطلاق أو يبقيها معه، أما الأطفال فهم من نصيب الاب بل وان قسى عليها يحرمها من اللقاء بهم، والبعض في مجتمعنا يتعاطى حتى اللحظة مع تعدد الزوجات سيما الرجال المقتدرين ماليا متجاهلين السحق المعنوي والتدمير الروحي الناتج عن ذلك للمرأة الاولى، طبعا بعض النسوة يستسلمن لذلك، حفاظا على بقائهن قريبات من ابنائهن، ناهيكم عن التدخل أحيانا وبأسلوب قسري لفرض لباس معين عليها بدون قناعة منها، على أرضية انها كتلة جنسية ومادة اثارة تحاسب ملابسها بالسنتمتر، والخطورة هنا في زاوية

النظر للمرأة، اي ليس على أساس انها إنسان مساوي للرجل لها ما له وعليها ما عليه في كافة الميادين، بل تنحصر المرأة في بعد واحد مبالغ فيه.

طبعا يفترض فتح المجال للتعددية، فمن ترغب باللباس التقليدي فهذا خيارها، ومن ترغب باللباس العصري والمظهر العصري فهذا خيارها بدون اتهامات وتسلط، والتسريح والماكياج هما جزء من الزينة لمن تشاء من النساء شأن حلاقة الشعر والذقن لدى الرجل.. وكلكم يعلم ان اللباس والشعر لا يحددان اخلاقيات المرأة مثلما لا يحددان أخلاقيات الرجل.. وانما القيم والقناعات الداخلية للانسان هي التي تقرر سلوكه، وما علينا سوى زرع بذار محمودة في الانسان لكيما نحصد ثمارا محمودة منه، والعكس صحيح ايضا، وحرية الاختيار في اللباس لا تعني بداهة تعري الانسان، امرأة كان ام رجل، وانما هو مألوف ومنتشر وحسب، آخذين بالاعتبار ان موديلات اللباس متحركة وان ما كانت ترتديه العجائز في الثلاثينات لم تعد كثير من النساء يرتدينه اليوم، بل وهذا الحال ينطبق على البسة الرجال ايضا...

ولو لخصت رأيي الشخصي بكلمة واحدة لقلت ما قالته المفكرة سيمون دي بفوار "*الزينة واللباس أمران شخصيان للمرأة ولكن هذا لا يعني ان يتحولا الى 'هنا بياع الجنس'*" .. والمسألة بداهة نسبية وكلما تطورت أخلاقيات الرجل وتحرر من انفلاتيته المكبوتة في تقييم المرأة، كلما رآها إنسانا كامل كامل الارادة، الامر الذي يحرره من أحكامه المسبقة والمغرضة للمرأة وزينتها، لهذا ليس غريبا ان يكون شعور الرجل الذي ينشأ في وسط متفتح متطهرا من الخيالات المريضة قياسا بالرجل الذي نشأ في وسط اجتماعي مخنوق.

واريد ان اختتم كلامي بما يلي:-

مطلوب منا، نحن الذين نحمل توجهات طليعية ونزعات ثورية ونتسلح برسالة تاريخية لتحرير البشرية من مختلف المظالم، ان نعمل مع المرأة على الثقة بنفسها وان نعزز لديها ومعها الفكر الثوري المحجوب عنها.. فمثلما ان العمال تزودوا بالنظرية الثورية بواسطة المثقفين الثوريين لينتجوا لاحقا قياداتهم

العمالية وبالتالي تحرير انفسهم بأنفسهم، فان نفس الآلية واجبة في المسألة النسوية.. وبداهة هناك أرضية مشتركة كبيرة تجمع المرأة المظلومة بالرجل المظلوم كالاضطهاد القومي والطبقي، ولكن هناك ايضا خصوصية مكثفة للمرأة هي اضطهاد الرجل والقهورات الذكورية الشوفونية لها، الامر الذي يبيح لها خوض نضال لرفع هذا الاضطهاد عنها.

وهنا ثمة خطرين ومحذارين، الاول النسووية اي "*الفمينزيم*" التي تحاول اعتبار الرجل عدوا للمرأة، وبالتالي الصراع معه، ذلك انه يوجد ما هو مشترك بين الرجل المضطهد والمرأة المضطهدة، بل ان الاولوية في ظروف نضال شعبنا هي للكفاح التحرري الاستقلالي.. بينما المحذور الثاني يكمن في افكار خصوصية المرأة كما لو كانت لا تشكو من معانيات خاصة تستوجب الدحر حتى في زمن الكفاح التحرري الاستقلالي، بل انه بدون افساح المجال للمرأة لكيما تعمل وتختار وتعبر عن نفسها لا مجال لاسهامها في المعركة الاستقلالية.

وعليه ان أفضل بوابة يمكن ان تفضي بمسيرة المرأة التحررية نحو الانتصار، اي التخلص من كل الاشكال الاضطهادية، هي اكتساب الوعي الذي يدعو لتحريرها كشريك كامل في بناء المستقبل والتصدي لهموم المجتمع، وبالتالي انخراطها في العملية النضالية سواء كانت اجتماعية كما اللجان والأطر والجمعيات النسائية او الحركة السياسية ومناشطاتها النضالية كما لاحظنا في زمن الانتفاضة، جنبا الى جنب مع انخراطها المتزايد في العملية الاقتصادية، اي حقول العمل الانتاجي والتعليمي والطبي والخدماتي.. وقد يكون العمل الاقتصادي في ظروف البلدان المتطورة مفتاح تحررها، اي المفتاح الذي يكسبها الثقة والدور البناء، وبالتالي النضال المشترك، بينما في ظروف البلدان المتخلفة، كما فيتنام أو الصين في عقود النضال الثوري أو تجربتنا الفلسطينية، حيثما تسود البطالة في أوساط النساء ولا يتاح الا لنسبة محدودة الالتحاق بالعمل الاقتصادي، يكون المفتاح هو مفتاح آخر سوى العمل الاقتصادي وجنبا الى جنب معه.

لذا ليس غريبا ان تكون أبرز الزعامات النسائية في مجتمعنا من نسوة نشيطات اجتماعيا وسياسيا كما بارزات اكاديميا وثقافيا، وهذا يجب احترامه بعمق وتشجيعه بمثابرة.

وكل واحد فينا عليه واجب بأن يكون قوة دفع لتحرير المرأة ليس على نطاق شعبي فقط، بل على نطاق بيتي ايضا، إذ أن في ذلك منفعة متبادلة وراحة

بيتية للجميع، فأم أو زوجة أو اخت لها شخصية وبأي عمل ووزن وأقل تأثرا بالعادات، والقيود الظالمة هي بلا شك تكون فاعلة في الحياة وشريك حقيقي وسند حقيقي لكل واحد فينا، اي ان اي نجاح للمرأة فيه فائدة لها، وهذا ينبغي دعمه بقوة، مثلما ان ذلك يعود بفائدة على المجتمع عموما ايضا.

تصوروا لو ان زوجة كل واحد فيكم منتجة وتستطيع الصرف على البيت، بينما انتم قابعون في السجن، وتصوروا لو ان كل زوجة واحد فيكم لها شخصية قوية ومحبوبة تستطيع تحمل أعباء الابناء والاهل، وتصوروا لو ان زوجة كل واحد فيكم تزوره على الشبك لتحمل له أخبار طيبة ومريحة تعكس راحة بالها واستقرار اوضاعها، او تحمل له انباء في حقل يهتم به...الخ أليس هذا مثار مسرة لكم يخلق في نفوسكم التوازن والهدوء، بدلا من الذي نسمعه بين الحين والاخر.. ان اطفالي يجوعون وابي على خلاف مع زوجتي ولا حل الا باستئجار بيت مستقل لا استطيع تسديد اجرته، وهذه الزيارة حضرت الوالدة والزوجة وهما تنوحان بكاء مرا قائلات: هذه اخر مرة تدخل فيها السجن، كما لو كان الكفاح الوطني خطيئة..الخ.

من الجيد ان يحضر كل ذلك في أذهاننا لكي نتحسس بالضبط أهمية اضطلاع المرأة بدورها في شتى المجالات، بل ان قوة الاحتلال قد تضاعفت بفعل مشاركة المرأة وتخندقها في جبهة العدو، فالمرأة الاسرائيلية تشكل ٤٢٪ من قوة العمل الاسرائيلية، ليس في حقل الأعمال الهامشية فقط، بل انها فاعلة في كافة الميادين، في الحقل الاقتصادي والعلمي والقضائي والسياسي و.. ألم ترون عدد من النساء في الكنسيت وقيادات الاحزاب، ألم ترون المرأة في سلك القضاء وفي التلفزيون وفي المؤسسات البنكية.. ألم ترونها أكاديمية في الجامعات، وتحمل رتبة عسكرية عالية في الجيش وجهاز الشرطة..الخ.

اننا أيها الزملاء لا نفهم تحرر المرأة، كما يروج اعداء المرأة، اي التعري والانفلات الجنسي الذي يشارك به الرجل ايضا، بل نفهم تحرر المرأة على أساس ما آتينا على ذكره فيما سلف، ونعرف ان هذه المسيرة طويلة شأن المسيرة الوطنية، بل انها في احدى حلقاتها جزء منها، وقبل المسيرة الطبقية، بل انها في احدى حلقاتها جزء منها، ومثل المسيرة الحضارية والديمقراطية وما يرتبط بها من ازاحة للشوفينية الذكورية.

وعلى الدوام من الضروري ان نقتنع بعمق ان طاقات وذكاء وموهبة المرأة تؤهلها للعب دور يتعدى جدران البيت رغم كل التقدير لدورها كأم وزوجة وأخت في داخل البيت، وعلى الواحد فينا ان يبدأ بنفسه وان يجترح نموذج إيجابي لسواه.. **فكفانا مناضلين متكرشين ينتظرون من يغسل لهم الجوارب واللباس الداخلي كباشا متقاعد، ولنتخلص من عفننا الداخلي.**

وشكرا

اليسار والديمقراطية

كما يخيل لي ان موضوعنا اليوم هام.. وقد عرضته في غير معتقل بالنظر الى أهمية وضرورة تمثله.. فهو حلقة مركزية.. أو بند رئيسي في برنامج اليسار العربي بما فيه الفلسطيني.. بل اليسار في هذه القضية يتمايز على سواه.. وكلنا يعلم ان الحلقة المركزية، حسب التوصيفات اللينينية، هي الحلقة الاساسية في السلسلة التي تقطر وتقود الحلقات الاخرى.. وبالتالي فهي تستدعي صرف الجهد الأساسي فيها.. طبعا ان الديمقراطية في واقعنا الفلسطيني اليوم لا تأتي في المقام الاول.. فالنضال ضد المشروع التصفوي وشق الطريق للحرية والاستقلال هي الحلقة المركزية.

دعونا نبدأ، أهلا بالجميع، بما في ذلك ضيفنا الشيخ، وصباح الخير:

الديمقراطية تعبير لاتيني قديم مكون من شقين، "ديمو" اي شعب، و"قراط" اي حكم، وأول من مارس أجنة الديمقراطية هم الاغريق قبل ٢٥٠٠ سنة تقريبا، اي في العهد اليوناني القديم، وهو العهد الذي أنتج كبار الفلاسفة كهيروقليطس وأبيقور وارسطو وافلاطون وسواهم، مثلما أنتج الاسكندر وغزواته.. وحسب ذاكرتي فقد مورست الديمقراطية في حدود ضيقة كانتخاب مجلس من قبل الأسياد يدخل في عداد صلاحياته شن الحرب وتعيين قائد الجيش وانشاء تحالفات جديدة، وهذا كله لم تساهم في صنعه الطبقات الدنيا.. ذلك ان فلسفة الأسياد كانت مسيطرة حنيذاك والتي عبر عنها خير تعبير افلاطون حينما صنف ووزع الناس على ثلاثة معادن، النحاس والفضة والذهب. أما النحاس فهم العبيد المسترقين والعمال وهم منذ ولادتهم وحتى موتهم يبقون على هذا النحو، أما الذهب فهم رجال الكهنوت والامراء والأسياد، واما الفضة فقد كانت تشمل الفرسان والحرفيين.. وهذا دفع ارسطو للقول بان المنتصف الاسفل للعبد يسيطر على منتصفه الاعلى.. أما السيد فمنتصفه الاعلى، اي عقله، يسيطر على غرائزه.
ورغم المظهر الديمقراطي الانتخابي، غير ان الديمقراطية كإنجاز حضاري ومفهوم غاية في التشعب هي من انتاج الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ التي رفعت شعار "حرية – إخاء – مساواة" حينما انتفضت الجماهير بقيادة البرجوازية الصاعدة ضد النظام الملكي والكهنوتي الاقطاعي... وقبل هذا التاريخ كان الملك وامراء المناطق والولايات والكنيسه هم الذين يحكمون البلاد ضمن نظام الوراثة.

وكان لنشوء علاقات الانتاج البرجوازية حيث الثورة الصناعية وما استوجبته من نشاط اقتصادي مشترك على نطاق الامة بما يكفل حرية تنقل السلع والاستثمار وتحرير أقنان الارض لتلبية احتياجات الصناعة من الايدي العاملة وتوحيد العملة وانهاء القيود التي يفرضها النبلاء الاقطاعيين على مقاطعاتهم.. الأمر الذي ترافق مع انتقال الرأسمالي من التراكم البدائي الى التراكم الرأسمالي، لتتبلور طبقة اجتماعية جديدة هي الرأسمالية الصناعية والتجارية التي قادت العملية السياسية الثورية، فأطاحت بالنظام الاقطاعي وأحلت محله نظام سياسي برلماني تمثيلي قائم على الانتخابات، ووحدت السوق تحت شعار "*دعه يعمل، دعه ينتج، دعه يبيع*" وأقامت الدولة المركزية بجيشها وحدودها.

وحديثنا لا يستهدف الديمقراطية الاقتصادية، اي اقتصاديات السوق، بل النظام السياسي والمجتمع المدني، وينبغي الاعتراف بداية ان الديمقراطية الليبرالية.. اي الرأسمالية هي انجاز عظيم في التاريخ شأن إنجازات الرأسمالية الاخرى كالثورة الصناعية والتكنولوجيا والعلم الجامعي وثورة المواصلات.. الخ، واننا كيسار وان كنا لا نتوقف عند حدود الديمقراطية الليبرالية، بل أننا نثمنها ونستوعبها للانتقال لما هو أبعد منها، اي الديمقراطية الاشتراكية المباشرة التي كانت نواتها تجربة "كومونة باريس" العمالية عام ١٨٧١ حيث انتخبت الجموع الثائرة مباشرة القضاة والحكومة الثورية المؤقتة ومدراء المدارس.. وقررت حقها في محاسبتهم وعزلهم، لتأتي المجالس الشعبية السوفييتية عام ١٩٠٥ وفيما بعد عام ١٩١٧ في روسيا شكلا أكثر ديمقراطية من البرلمانية النيابية..الخ.

طبعا لم تنفك الديمقراطية الاشتراكية في طور التشكل، اذ ما برحت الثورة الاشتراكية محدثة وتتعلم في سياق تجاربها التي تمر بين مد وجزر.. وهذا طبيعي اذا ما قارناه بالديمقراطية الرأسمالية التي يصل عمرها الى قرن ونيف، وسارت بطريق متعرجة بين اخفاقات ونجاحات لتستقر على الحال الذي نراه اليوم علما ان الرأسمالية هي ذاتها التي انتجت ايضا الفاشية متنكرة لكل القيم الديمقراطية الليبرالية.

رغم كل ذلك الا اننا نناضل لدمقرطة المجتمع الفلسطيني والعربي على قاعدة الديمقراطية الليبرالية ضمن نموذج ملائم لخاصياتنا المحلية، وذلك كاستجابة موضوعية ضرورية لمعطيات واقعنا، اي ان واقعنا يتطلبها ويلح عليها شأن الحاحه على التعليم والتصنيع وفك التبعية وتوحيد الأمة وسوقها و..الخ،

وهذا ما تطرقنا له في مداخلة "الثورة الوطنية الديمقراطية" اي اننا لا ندعو لبدعة أو فكرة مستوردة بل نستجيب لمعضلات مجتمعنا مستفيدين من تجربة البشرية.. فمجتمعنا حافل بالتنوع، وهو في أمس الحاجة لتوظيف طاقات الجميع ونبذ الملكية وحكم الأفراد.. الخ.

فما هي أهم معالم الديمقراطية التي نحتاجها وندعو لها؟؟ انها المبادىء الاساسية التالية:

١- حق الاختيار بما في ذلك حقوق الانسان

٢- المساواة بين المواطنين في الحقوق العامة

٣- دستور ناظم للمجتمع، أو دولة القانون

٤- المجتمع المدني

٥- العقل الجماعي هو أعلى سلطة

وهذه المبادىء تتجلى في قواعد وتمظهرات عديدة تندرج في صلب الديمقراطية فمثلا ان:-

حق الاختيار:

يعني حق الناس في تشكيل أحزاب واعتناق ايديولوجيات بما يجيز ويفضي الى التعددية واحترام الرأي والرأي الآخر، او كما قال فولتير: **انا ضد رأيك ولكنني مستعد للموت دفاعا عن حقك في التعبير عن رأيك**، وبالتالي حرية الصحافة والنشر والطباعة، كما حق الاضراب والتظاهر والابداع في حقل الادب والفن بكامل تفرعاتهما من رواية وشعر ونقد وموسيقى وسينما ومسرح ونحت ورسم وتصوير..الخ وبالتالي حق الانتظام النقابي والرياضي والاجتماعي على شكل نوادي وجمعيات..الخ.

وحقوق الانسان تكفل لكل انسان حق العمل والتعلم والتملك والسفر وحرية التفكير والاعتقاد بدون قهر أو تكميم أفواه، كما منح صوته الانتخابي لمن يشاء واختيار طعامه ولباسه وشريك حياته..الخ.

وان العقل الجماعي:

يعني بان يقوم النظام السياسي على أساس الانتخابات بمشاركة كل المواطنين الذين بلغوا ١٧ أو ١٨ عاما لإنتخاب برلمان تمثيلي من خلال صناديق الاقتراع بما يصاحب هذه العملية من حملات إعلامية انتخابية وحق الترشيح بدون تمييز ديني أو جنسي..الخ.

فانخراط الناس في عملية انتخابية للمجلس التشريعي هو انتصار لسلطان العقل الجماعي حينما يفوز كل من يحوز على مشروعية انتخابية، فيما المجلس المنتخب هو أعلى سلطة ينبثق عنها القوانين والتشريعات الناظمة للمجتمع بكافة مؤسساته.

فالشعب ينتخب ممثليه وهؤلاء يقودون الشعب الذي منحهم ثقته، وحينما يفشلون يتحفظ عليهم الشعب ويحجب عنهم اصواتهم في الانتخابات المقبلة، ويمنح اصواته لآخرين بينما يستوجب تداول السلطة سلميا.

بل وان الحكومة التي تتكون من ائتلاف حزبي أو حزب حظي بأغلبية برلمانية (اي ٥٠+١٪ كحد ادنى) ملزمة بتنفيذ أكبر قدر من وعودها وبرامجها الانتخابية كيما تحافظ على تأييد الجماهير لها، بل وهي تلجأ لاستفتاء الشعب في القضايا المصيرية مثلما فعل *ديغول* حينما قرر الانسحاب من الجزائر، أو قرار الحكومة الروسية التي استفتت الشعب منذ أقل من عام حول خطط *يلتسين* الاقتصادية بالعودة لاقتصاد السوق والخصخصة.. ناهيكم عن اهتدائها (أي الحكومة) بنتائج الاستطلاعات التي تجريها مراكز الاستطلاع المحايدة والموضوعية كما فعل *بوش* قبل ضرب العراق وبعد الضرب.

فالاستناد والاستطلاع مظهران ديمقراطيان، مثلما ان العقل الجماعي يتجلى من خلال علمنة الدولة بفصل الدين عن مؤسسات الدولة مع الافادة بداهة من كل ما يقتنع به العقل الانساني في الدين مع انتاج فكره ونظرياته الخاصة به ايضا.

و دستورنا الناظم:

يعني ان يتولى المجلس المنتخب الذي حاز على مشروعية ديمقراطية بصياغة قانون ناظم يتطور باستمرار تماشيا مع المستجدات والهموم التي يصادفها الشعب، بالافادة من خبرة الشعوب الاخرى.. وقد لاحظنا مؤخرا

ان الملك حسين قد كلف لجنة مكونة من ٢٥ شخصية ضمت مختلف القوى السياسية والاكاديمية والقانونية والدينية التي بدورها تقدمت بمسودة الدستور الذي أقره البرلمان المنتخب.

والدستور عادة يشتمل على فصول ومواد تغطي مختلف جوانب الحياة التي تظهر علاقة الحاكم بالمحكوم وحقوق المؤسسات والأفراد، وقضايا الملكية والاقتصاد، والميراث ونظام الزواج وقانون العقوبات.. الخ.. والبرلمان بدوره يقر الميزانية وصلاحيات رئيس الاركان وصلاحيات البلديات والحكومة.. ولا ننسى ان الحقوق والحريات محكومة بالقانون المقر.

والدستور ايضا ينص على فصل السلطتين التشريعية مصدر القانون والسلطة التنفيذية اي الحكومة التي عليها ترجمة قرارات البرلمان فضلا عن سياساتها العامة في مختلف الحقول بما لا ينتهك الدستور، كما السلطة القضائية التي تراقب وتضبط عمل الحكومة والبرلمان ومختلف المؤسسات والافراد طبقا للقانون، والقضاء من خلال المحاكم يفض المنازعات التي تنشأ داخل المجتمع، بل ان قرارات المحكمة العليا تحمل صفة الالزام الذي لا رادة له بما في ذلك على الحكومة.

اي ان سلطات الحكومة غير مطلقة وسلطات رئيس البلاد غير مطلقة، وسلطات البرلمان غير مطلقة، بل انها كلها محكومة بالقانون الذي يسهر على تنفيذه القضاء الذي لا يخضع لتوجيهات الحكومة.

و المساواة بين المواطنين:

في الحقوق العامة تعني ان لا يصار الى تمييز الناس بناء على جنسهم، رجل أو امرأة، أو اديانهم أو معتقداتهم وقناعاتهم الضميرية بل على أساس كفاءاتهم وسلوكهم وعملهم بما يكفل الحريات والحقوق للافراد تماشيا مع القانون.. وبالتالي فخانات الناس ووظائفهم تتم بموجب كفاءاتهم المهنية وسلوكهم العملي.

فهذا عضو برلمان فائز يفوز بأصوات مؤيديه وليس لانه رجل أو امرأة، متعبد أو غير متعبد، وتلك رئيسة بلدية ليس لانها امرأة بل لأنها فازت في الانتخابات، وثالث رئيس جامعة من أصل مسيحي أو مسلم هو رئيس جامعة بناء

على تأهيله المهني وليس دينه، وهذا وزير لأن حزبه فاز وشكل مع سواه ائتلاف معين بصرف النظر عن دينه أو جنسه... الخ، فطاقات الشعب كلها مستثمرة.. حتى ان الدول المتطورة شطبت من جواز السفر الدين والجنس واللون، فالانسان انسان بصرف النظر عن دينه أو معتقده أو جنسه أو لونه.

وعليه فالدستور في الوقت الذي يكفل المساواة بين المواطنين فهو يلزمهم بالتقيد به بدون تمييز ايضا، فالناس يدفعون ضرائب مثلا بصفتهم مواطنين وحسب، أما ان تفرض الجزية على دين دون سواه، فهذا لا مكان له، والناس يتبوؤن مناصبهم بناء على موائمتهم وأهليتهم، أما ان يحرم دين معين أو المرأة من حق الولاية أو القضاء فلا مكان له، والناس يتقيدون بالدستور، أما الذي يعتدي على أملاك الناس فالمحكمة تحاكمه بصرف النظر عن دينه أو جنسه..الخ.

و المجتمع المدني:

يعني بإيجاز كل ما أتينا عليه، فضلا عن استقلالية المنظمات الحزبية والنقابية والثقافية والفنية عن السياسة الرسمية للحكم، فما يحدد برامج هذه المؤسسات هو المؤسسات ذاتها كمعبر عن مصالح وآراء فئات وقطاعات اجتماعية محددة، وحتى التلفزيون والراديو يفتحان بواباتهما للإبداع الشعبي ومبدأ الكفاءة، أما ان يكون وزير الاعلام وزيرا للثقافة فيسخرها لخدمة الألاعيب الاعلامية أو هذا أو ذاك يحكمان مجال عملهما بما يتوافق مع الخط العام للحكومة وسياساتها، فهذا مصادرة لدور الثقافة والابداع مثلما انه مصادرة للرأي الاخر المخالف لسياسة الحكم.

وفضلا عن ذلك اعتماد المحاكم لحل المنازعات بدون اللجوء للعنف والاغتيال، وعدم مطاردة الناس بناء على معتقداتهم السياسية أو العقائدية وفتح المجال واسعا لكل الطاقات الابداعية في شتى الميادين للنهوض بالمجتمع.

كما ان المجتمع المدني مبني على أساس تداول السلطة سلميا، فالذي يخسر الأغلبية البرلمانية يتخلى لصالح الذي يفوز بالأغلبية، بدون انقلابات واقتتال وتزوير، مع الحفاظ على حق الأقلية في التعبير عن نفسها ومعارضة الأغلبية... وأما السجال والجدل بين الأغلبية والأقلية فيحرضهما معا على تطوير أنفسهما بما يعود بالفائدة على الجماهير، وهذا التناقض بداهة هو جذر التطور على كل

الصعد البرنامجية والفنية .. وطالما ان كل اتجاه ومدرسة مجبران على تقديم أفضل ما لديهما لاقناع واكتساب الجماهير، فالديمقراطية نهج حياة في البيت والمدرسة والعلاقات العامة وفي كل الميادين.. والان دعوني ايها الزملاء أقوم بتوسيع وتعليل أهمية الديمقراطية لشعبنا الفلسطيني..

لا يعد اكتشافا القول ان مجتمعنا يشهد تحولات اقتصادية رأسمالية سواء في ميدان الصناعة أو الزراعة أو قطاع الخدمات والملكيات العقارية، فثمة أرباب عمل يملكون وسائل انتاج وشغيلة يكدحون لديهم بما يفضي اليه ذلك من مصالح طبقية متناقضة، اضافة الى قيادة جناح لمنظمة التحرير هو ذاته سوف يقود سلطة الحكم الذاتي، وقوى اخرى كانت معارضة سوف تعارض في المرحلة الجديدة ايضا، اي لقد كانت على الدوام تناقضات سياسية.. ولو اردت الذهاب أبعد من ذلك لقلت ان ثمة دزينة منظمات أو أكثر تشكل الخريطة السياسية الفلسطينية، كما ثمة تباينات واتجاهات في حقل التعليم والثقافة والفن والتنمية الاقتصادية.. الخ، وكل هذه الانقسامات والتباينات هي انعكاس لتباين الواقع الاقتصادي والاجتماعي لشعبنا.. فشعبنا ليس طبقة واحدة بل طبقات وشرائح، وهو ليس قوة اجتماعية واحدة بل قوى اجتماعية ولا يعيش في أوساطه ايديولوجية واحدة بل أيديولوجيات، وليس سياسة واحدة بل سياسات، وهو لا يجمع على رؤية واحدة حول اي موضوع بل انه حافل بالرؤى... فالتنوع والتعددية قانون عام كان وسوف يبقى في بلادنا وبلدان العالم قاطبة.

ومن الطبيعي ان لا تتحقق الديمقراطية كاملة الا في دولة مستقلة ذات سيادة غير ان مجتمعنا يمكن ان يكون ديمقراطيا في كافة الجوانب فيما عدا الجوانب التي لا يتيحها الاحتلال، بل علينا ان نعمل لاجراء أكبر قدر من الديمقراطية.

ودعونا نتصور ماذا سيكون حال شعبنا فيما لو حاولت قوة سياسية واحدة تحظير نشاط والغاء وجود بقية القوى؟ هذا يقود الى قهر وضرب هذه القوى الامر الذي يدفعها للسرية وتشديد النضال لانتزاع حقها في العمل والتنظيم وتحظير نشاطها يعني تفرد قوة واحدة في قيادة المجتمع ومؤسساته فيما تهدر طاقات القوى الاخرى علما ان لديها دوافع امنية وتنموية للمجتمع.

وماذا سيكون حال شعبنا فيما لو انتهى الجدل بين البرامج المختلفة على كل الصعد سياسية أو اقتصادية أو ثقافية..الخ؟ الجواب هو جمود البرامج السائدة

وعدم كشف عيوبها وتفريغها من حوافز تطورها، وبالتالي جمود المجتمع وشل نزعات تطوره.

وماذا سيكون حال مجتمعنا المتخلف أصلا والمقهور من قبل الاحتلال فيما لو تم التعاطي الظالم مع المرأة والعنصر المسيحي والاشخاص الذي لا يكترثون بالدين؟ هذا سيقود لا محالة الى تعطيل أكثر من نصف قواه ومشاغلة النصفين في معارك جانبية بما يزيد المجتمع تخلفا واضطهادا.

وماذا سيكون حال مجتمعنا ان تم الاعتداء على حقوق الانسان وحقه في الاختيار والتدخل في أخص خصوصياته؟ طبعا النتيجة واضحة هي تدمير روحه واطفاء انتمائه وابداعه وحشره في ظروف لا يعيشها الحيوان، فتغتال امكانية تشغيل عقول الناس ومشاعرهم لكسر حلقة التخلف والسلبية.

ماذا سيكون حال شعبنا فميا لو حكمه زعيم ديكتاتوري قمعي أو قمعي ودموي لا يعترف بالانتخابات الديمقراطية ويضع نفسه محل البرلمان التشريعي ولا يعترف بتداول السلطة سلميا؟ سنكون كما جمهوريات الموز الفاشية في امريكا اللاتينية، وماذا وماذا...

أجل ، أجل ان الديمقراطية خشبة انقاذ وانهاض لشعبنا، وهي تلح الحاحا على مختلف المشارب الفكرية والتيارات السياسية لتمثلها والتشرب بقيمها في الحياة اليومية قبل وبعد الحياة السياسية، فلا مجال لمجتمع ديمقراطي في ميدان دون سواه، بل ها هي مجتمعات متأخرة تاريخيا كما الحال في المنطقة العربية وفى بلدان العالم النامي تسبقنا على هذا الصعيد كما الهند والباكستان والمكسيك وسيريلانكا.. وهي شأننا تنتمي للعالم النامي وتقاليدها لم تعرف الديمقراطية من زمن بعيد.

ولو سمحتم لي بالاشادة بما يلي، ألم يكن أمامنا كشعب وثورة فرصة نموذجية لتقليص فجوة التناقض الفلسطيني-الفلسطيني فيما لو سارعت القيادة المتنفذة لمنظمة التحرير باجراء استفتاء شعبي حول الانخراط أو عدم الانخراط في خط مدريد-واشنطن أو اتفاق اوسلو وترجماته ؟ ففيما لو حازت على أكثرية بسيطة أو كبيرة لأمكن الانضباط لسياستها مع استمرار معارضتها، أما في حالة ان يحصل الموقف المناهض على أغلبية فالاجدر بها ان لا تسير في هذا الاتجاه مع استمرار سعيها لكسب الجماهير.

فالاستفتاء يوضح مزاج الناس ويكسب القيادة مشروعية وصدقية أو يحررها منهما، وهو مخرج جيد شأن الانتخابات العامة لتخفيف ولجم التناقضات الداخلية... وبصراحة ان شعبنا لا يحتاج الى مزيد من التفسخ والخلاف.

ومنذ زمن يناضل اليسار الفلسطيني لتعميق الديمقراطية على أساس التمثيل النسبي ومبدأ الكفاءة والمساءلة والقيادة الجماعية.. ولا نستطيع القول ان القيادة البرجوازية اليمينية معادية تماما للديمقراطية، فهي تتقبلها جزئيا مثلما ان انحيازها لها قد نما مع مرور الزمن، غير ان المطلوب ديمقراطية أعمق وأوسع توحد الشعب حقا وتوظف كامل طاقاته حقا حتى في لحظات الانقسام السياسي.

ويؤسفني القول ان المجتمع الاسرائيلي، اي عدونا القومي الذي يمارس سياسة دموية واحتلالية واستيطانية وعنصرية ضدنا هو على الصعيد الداخلي ديمقراطي حقا وموحد الطاقات حقا ولا يعيبنا ان نتعلم منه.. وهنا تحضرني طرفة كتبها المفكر السوري الراحل ياسين الحافظ حينما قارن في أحد مؤلفاته بين الثورة الفيتنامية والثورة العربية، كتب بما معناه ان هوشي منه القائد الملهم للثورة الفيتنامية أصدر تعليماته للثوار بعد اقتحامهم قلعة "بيان ديان فو" حيث استسلمت الحامية الفرنسية عام ١٩٥٤ داعيا اياهم للمحافظة على المكتبة الفرنسية الخصبة.. بينما المظاهرات في سوريا عام ١٩٤٥ واحتفالا بالجلاء قامت بمهاجمة المكتبة الفرنسية وأشعلت فيها النيران.. "***فليس العار ان تتعلم حتى من عدوك بل العار ان تبقى على جهلك***".

واريد ان اذكر أمامكم مشهدا حصل معي في فترة التحقيق، هذا الموضوع الذي لم يحن بعد هتك اسراره والخوض فيه، فالضابط الرئيسي الذى تولى معظم فترة الاستجواب كان يتمتع بقسط لا بأس به من الثقافة والذكاء والالحاح.. طبعا لا استطيع امتداحه أخلاقيا، فهو مجرد جلاد ويشتغل في مهنة أكرهها تماما سواء كانت في هذا البلاد أو أية بلاد اخرى، حاول مرة الاستخفاف بالعرب واهانتهم بالقول انكم لستم ديمقراطيين، حكاما وشعوبا، بينما الديمقراطية ركن رئيسي في الحضارة المعاصرة..الخ.

فكان ردي، لقد بدأنا الخطوات الاولى وان بريطانيا وفرنسا باعتبارهما المعقلين الكلاسيكيين للديمقراطية كانتا ذات يوم غير ديمقراطيتين، وقد سارا في هذا المسار، وها نحن نسير ايضا.

والديمقراطية ايها الأصدقاء ليس صعبا البرهنة على منافعها والذود عنها نظريا ، بل ان لها قيمة تكتيكة عملية ايضا، اذ انها سياج حامي لشعبنا تدرأ عنه مخاطر مهلكة في المرحلة الراهنة، وان نزرع قيمها وتعبئة الجماهير بها يشكل قاعدة ضغط على النزقين والمتطرفين الذي يمكن ان يدفعوا الامور في مجتمعنا باتجاه الاقتتال والتسلط، اذ ليس غريبا ان نصادف هنا وهناك دوائر وأوساط تضيق ذرعا بالرأي الآخر، فينفذ نفسها سريعا بما يجعلها تختار الطريق الاقصر، ولكن المدمر، بضرب الاخرين بما ينطوي عليه ذلك من محظورات.. وشعبنا صغير وتناقضه مع الاحتلال لم ينته، وان دفع التناقض الداخلي الفلسطيني الى تناقض رئيسي انما هو جريمة سياسية فظيعة.. أحد أسلحتنا لمواجهتها والحيلولة دون وقوعها هو تعميق الوعي الديمقراطي في أوساط شعبنا وقواه المنظمة.

فتناقضاتنا يجب ان لا تحل الا سلميا وعبر النضال النظري والنقابي.. وبتعبير شمولي عبر الوسائل الديمقراطية والجماهيرية، وهذه قناعتنا سواء واجهنا عقبات في تعميمها شعبيا أم لا.. اذ ان الديمقراطية خط عمل شأن خطوط العمل الاخرى، وترسيخها يتطلب سنوات وسنوات.

ولسنا هنا بصدد رسم برنامج مواجهة المرحلة الجديدة.. اذ ان المداخلة محصورة في المسألة الديمقراطية التي كنت أرغب لو كان لدينا مراجع يمكن الاستناد اليها لاغناء الحديث، غير انه لا يوجد، شأن المداخلات الاخرى،.. ولكن لا بأس، فالمرء يتصرف بناء على واقعه "وينطلق من الموجود لصنع المطلوب" كما كرر جيفارا غير مرة.

وفي الغد نناقش المضامين ونختم المجال للحوار الجماعي، يعطيكم العافية

وشكرا.

اليسار والمسألة التنظيمية

أهلا بالجميع وصباح الخير.. حديثنا اليوم متشعب وقد يستغرق أكثر من لقاء ثقافي، وسوف اترك للتداعيات ان تتوالى بدون ان تحكمني منهجية معينة سوى محاولة القاء الضوء من عدة زوايا على المسألة التنظيمية.. هذه المسألة التي تعد ركنا رئيسيا من أركان النظرية الثورية.. وانتم تعلمون ان التنظيم يضاعف الثورى عشرات المرات، اي ان أقلية منظمة تنظيما محكما ومرصوصا أقوى من أغلبية مفتتة تتنازعها الاتجاهات.. والتنظيم، حسب تعريفات وزير الدفاع الفيتنامي الذي شرحه في لقاء صحفي طويل مكون من مئات الصفحات، هو الاجراءات والتدابير التي تكفل تفعيل أفضل للقوى والطاقات وتسوية التناقضات فيما بينها باتجاه خدمة الاهداف العامة، أو شيء من هذا القبيل كما تختزن ذاكرتي.

واريد ان اذكركم بما أتيت عليه في استعراضي المقارن بين الثورات، اي حينما انتصرت قوة صغيرة مكونة من مئات المقاتلين الكوبيين بقيادة الثوري الفذ *فيدل كاسترو* على الآلاف من جنود باتستا في الحملة الاستراتيجية التي سبقت اختلال ميزان القوى وانتقال الثورة الى مواقع الهجوم عام ١٩٥٨.

بل ان الحزب البلشفي بقيادة لينين التي كانت عضويته تصل بالكاد ١٣٠ ألفا في مجتمع يناهز ١٣٥ مليون، قد أفلح بالتحاقه بالطبقة العاملة والفلاحين والجنود باسقاط الحكومة البرجوازية المؤقتة في اكتوبر عام ١٩١٧.
واتذكر عام ٦٩ حينما كنا في الثانوية كيف ان طالبا واحدا يتمتع بنشاط وجرأة ومحبوب بين أقرانه كان ينجح بجر المدرسة للاضراب أو التظاهر، وربما بعضكم عرف تجارب مشابهة سيما في الارياف حيث ان نشيطا واحدا قادر على تحريك قرية بأسرها.

وفي حديثي عن الأخلاق ذكرت ان الانتظام والتنظيم من بين القيم الاخلاقية الهامة في الفكر اليساري وتقليد من بين تقاليد الطبقة العاملة، وعلى الدوام ثمة تراتبية ما وتنظيم ما لأية جماعة ولأي مجتمع، غير ان الخصائص التنظيمية للطبقة العاملة والمجتمع الاشتراكي الذي انبثق عنه لها مضامين وأسس جديدة.. وأول أشكال التنظيم للطبقة العاملة هي التريديونية النقابية وتحديدا في

بريطانيا في أواخر القرن ١٨، حيثما كانت الاتحادات العمالية تطالب بحقوقها النقابية كتحسين الأجور، وحق الانتظام النقابي، وحق الاضراب، وتخفيض ساعات العمل، اذ لم يكن قانون يوم العمل من ٨ ساعات مقرا بعد..الخ، وجاء هذا الشكل النقابي للتصدي لمهام محددة طابعها مطلبي بدون ان يتسلح العمال بوعي نظري نقدي يكشف أسباب استغلالهم... وما ينتج عن الواقع الاقتصادي من واقع اجتماعي ونظام سياسي، بل لم تصل التريديونية لشعارات سياسية، فحصرت نفسها بالقضية المطلبية لتحسين شروط العمل في اطار علاقات الانتاج الرأسمالية.. وهذا طبيعي اذ ان طبقة جديدة تلد في التاريخ لا يمكن ان تلد منتصبة القامة، بل طفلا رضيعا يحبو ويتعثر ريثما يقف على قامته ويمضي بعزم.

أما على المستوى السياسي فعوضا عن الأجنة الاولى تأسست أول حركة ثورية واضحة المعالم بعد عام ١٨٤٥ باسم حركة العادلين، وفي مؤتمرها عام ١٨٤٨ الذي شارك فيه الشابين ماركس وانجلز كمثقفين ثوريين، الاول يحمل شهادة الدكتوراة في الفلسفة، تبدل اسمها وأصبح عصبة الشيوعيين صدر بيانها الختامي باسم البيان الشيوعي الذي غدا انجيل الثورة، بل ما فتئت القوى الثورية تقرأه لهذا اليوم.. لتبيان خلل المجتمع الراسمالي والصراع الطبقي وبين حتمية الثورة الاشتراكة وتتبع متغيرات تلك الحقبة.. وقد زامن ميلاد العصبة التي امتدت الى عدة بلدان اوروبية، مد ثوري اجتاح فرنسا والمانيا وبلجيكا وسواها بقيادة البرجوازية الديمقراطية، لكي يلي ذلك انتكاسات ومساومات وتراجع استمر حتى انعقاد مؤتمر الاممية الاولى عام ١٨٦٤... وكان مركز الحركة الثورية حينذاك اوروبا، غير ان ممثلي الطبقة العاملة الذين شاركوا في المؤتمر أتوا من اوروبا وأمريكا وروسيا.. وكان على ماركس الذي بات مشهورا على نطاق واسع القاء الخطاب الافتتاحي.. واوروبا كما تعلمون كانت مركز الصناعة وبالتالي مركز الطبقة العاملة والفكر السياسي المرتبط بالمرحلة التاريخية الجديدة.. ولم يكن غريبا ان تشتهر بريطانيا بالنظريات الاقتصادية سيما التي اقترنت *بريكاردو* و *آدم سميث*، والمانيا بالنظريات الفلسفية التي ارتبطت باسماء *هيجل* و *فورباخ* و *هولباخ*، ، وفرنسا بالنظريات الاشتراكية الخيالية *لسان سيمون* و *فورييه* كما *لروبرت اوين* وكل هذا مهد لولادة الماركسية.

وكان من الطبيعي ان تنشأ التجربة التنظيمية الجديدة للطبقة العاملة كما فكرها التغييري في اوروبا، ذلك انها كانت طليعة البشرية وقتذاك والاعلى تطورا.. فهي رحم الثورة الصناعية والعلمية بما تمخض عن ذلك من نظريات

في كافة الميادين والتجربة التنظيمية، اي الأممية الاولى، التي جاءت خطوة كبيرة للأمام قياسا بعصبة الشيوعيين تنازعتها ثلاثة تيارات، التيار المغامر بزعامة *باكونين* والتيار الاصلاحي اليميني بزعامة *برودون* والاتجاه الجذري الذي مثله ماركس وانجلز.

وعام ١٨٧١ اندلعت ثورة عمالية في باريس هي الاولى من نوعها في التاريخ ردا على عجز البرجوازية الفرنسية التي انهزمت في الحرب مع المانيا.. غير ان سلطة العمال الظافرة التي اسميت كومونة باريس لم تستمر سوى أقل من شهرين ونصف بعدما وقعت في عدة أخطاء أهمها، عدم تأميم البنك المركزي وحصر التجربة في باريس بدون الامتداد الى فرساي والريف.. الخ، مما اتاح للبرجوازية الفرنسية تجميع قواها بدعم من البرجوازية الالمانية التي اطلقت سراح الاسرى الفرنسيين فهجمت الثورة المضادة على الكومونة وأغرقتها في بحر من الدماء بقتل ٦٠ ألف وجرح عدد أكبر وفرار عشرات الالآف للخارج.

عام ١٨٧٦ وفي محاولة للخروج من أزمة التناقضات التي عصفت بالاممية اقترح ماركس نقل مركزها الى الولايات المتحدة حيث ماتت بهدوء.. وفي أخر الثمانينات وتحديدا عام ١٨٨٩ تألفت الاممية الثانية التي كان أحد قادتها انجلز، كما *كاوتسكي* و *برنشتين*، فانضوى تحت لوائها الاتجاه الجذري الثوري كما الاتجاه اليميني الاصلاحي، وفي هذه الفترة بدأت تتشكل تويات الحركة الاشتراكية الروسية واتحدت لاحقا في حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي في روسيا.

غير ان سياسة المهادنة التي انتهجها الاتجاه الجذري حيال الاتجاه الاصلاحي أدى الى تمادي الاتجاه الثاني وسيطرته على معظم، ان لم يكن، كل مراكز القرار في الاممية فانحرفت يمينا فيما أنجلز مات عام ١٨٩٥ لاحقا بصديقه ماركس الذي توفي عام ١٨٨٣ كأكبر عبقريين عرفتهما سيرة الحركة العمالية، ولكن ليأتي لينين حاملا تراثهما ومواصلا تعاليمهما النظري العلمي والثوري.. وهو لم يحذ حذو أخيه الكسندر الذي حاول اغتيال القيصر بتكليف من حركة اعتمدت اسلوب الاغتيال والعمل المغلق، وقال كلمته بعد اعدام شقيقه "لن نختار هذا الطريق"، وبالفعل لقد اختار طريق العمل الدؤوب لبناء حزب ثوري جماهيري يجمع مختلف أساليب وأشكال العمل كضرورة سياسية لاسقاط النظام القيصري.

ولئن كان ماركس ورفاقه قد تحدثوا عن بناء الطليعة السياسية، غير ان لينين هو مهندس نظرية بناء الحزب الثوري، بل لقد نجح فعلا في بنائه وباتت مجهوداته على هذا الصعيد هي أحد مساهماته الرئيسية في تطوير الماركسية واكمالها في ذاك الزمان، بل انها لا تقل اهمية عن تحليلاته للامبريالية واكتشافه لقانون تفاوت الارتقاء وتعريف المادة وممارساته الثورية الخصبة.

ولولا براعة لينين التنظيمية لما حالفه التوفيق بقيادة الحزب البلشفي، اي حزب الاغلبية حينما انشقت الأقلية عام ١٩٠٣، وبالتالي لما نجح بقيادة العملية الثورية التي دشنت ثورة اكتوبر الاشتراكية عام ١٩١٧ التي أعلنت عن عهد جديد دخلته البشرية، عهد انتصار ثورة العمال الذين تحالفوا مع فقراء الفلاحين والمثقفين الثوريين فبنوا مجتمعا جديدا غير وجه الانسانية.. أجل لقد تحطمت حلقة في سلسلة الرأسمالية العالمية، مثلما حطمت الثورة البرجوازية الفرنسية عام ١٧٨٩ حلقة من حلقات النظام الاقطاعي عهد ذاك.

وتأسيسا عليه، لقد برهنت التجربة الروسية ليس على أهمية والحاحية الحزب الثوري كهيئة أركان للنضال الثوري فحسب، بل وعلى الطراز الخاص للحزب، بحيث تتوافر فيه شروط انتزاع الانتصار، ومن بينها الجمع بين السري والعلني واتقان كل اشكال النضال والتغلغل في صفوف الجماهير وغير ذلك من الاشتراطات، بدون ان ننسى الاهمية الفائقة للقيادة الموهوبة الجذرية والديناميكية... الخ، وبداهة لقد برهنت هذه التجربة الفذة التي اقتحمت السماء العلاقة الجدلية بين التنظيم والعفوية، اذ رغم الانفجارات العفوية للجماهير سواء كانت سياسية أو نقابية فان العنصر الواعي، اي الحزب المنظم الملتحم بالجماهير المنظمة الواعية، هو الرهان الرابح القادر على قيادة السفينة نحو الانتصار.. فالحزب هو الذي يحمل الوعي والبرنامج للجماهير وهو الارادة المثابرة لتنظيمها وتوحيد طاقاتها مثلما انه قادر على توفير قوتها وتوجيه حركتها، انه البوصلة العقلانية التي تحدد حركة السير.

****

فما هو الحزب الطليعي؟

انه الطليعة السياسية للجماهير الطليعية التي تقود كل العملية الاجتماعية الثورية سواء كانت في حقل السياسة أو الاقتصاد أو الفكر أو الادب والفن..الخ، فهو المعبر عن التطلعات التقدمية للشعب، وبالتالي فهو يضم أو ينبغي ان يضم كل العناصر الطليعية المعبرة عن النزعات الثورية في المجتمع.. فهو ليس ملجأ للعجزة والجهلة والخاملين والهامشيين، انه المحرك والدينمو والقائد الذي ينفذ في كل المواقع التي تشكل محركا وقائدا للجماهير، انه كالفنان الطليعي الذي يقف أمام الجماهير ويمد يده لها حسب تعبير المسرحي بريخت.

وبداهة ان الحزب الثوري هو الشكل الأكثر تنظيما الذي يحكمه قانون الوحدة الفكرية والسياسية والتنظيمية ووحدة الارادة والعمل بدون ان ينفي ذلك بداهة الجدل وحرية الرأي والاجتهاد والسجال الداخلي المحكوم بالاقنية والضوابط المعهودة التي لخصها لينين بكلمة واحدة " *حينما نختلف أمام البرنامج السياسي والنظام الداخلي والقرارات الحزبية التي ما ان تصدر حتى ننضبط لها كرجل واحد.*"

والشكل الأكثر تنظيما يستوجب الانضباط الحديدي للبرامج والقرارات وتنفيذ المهام بهمة عالية وروح وثابة، فالميل العملي يجسد المهام وهو الذي يختبر الطليعة فيما اذا كانت قواها منفصلة عن أعمالها أم انها تجمع هذه وتلك، وهذا ينطبق بداهة على منظمات وأعضاء الحركة الثورية.

وأمر منطقي ان تكون الطليعة في مقدمة الفعل الجماهيري، اي ان تسبق العفوية وتعقلنها، أما ان غدت في ذيل الحركة الجماهيرية فهذا دليل على افتقادها للطبقة الطليعية سواء بصورة دائمة أم عارضة.. والحزب الثوري لكيما تتوافر فيه شروط الطليعة يتوجب عليه فيما يتوجب الانغراس عميقا في صفوف الجماهير، في كل قرية ومخيم وحي ومدينة ومؤسسة ومصنع ومزرعة أي أن يكون حيث تكون الجماهير، يتحسس همومها ونبضها ومشكلاتها ويناضل معها وفي مقدمتها.

فمثلا لقد تأخر الحزب الشيوعي الفرنسي في الانخراط في صفوف الطلبة والعمال الذين نزلوا للشوارع عام ١٩٦٨، بل لقد انتقد انتفاضتهم فأضاع فرصة ذهبية، مثلما لم يستطع كسب الجماهير الثائرة، وانتفاضتنا الفلسطينية التي اندلعت في أواخر عام ١٩٨٧ كانت منعطفا هاما، فمن انخرط فيها حصد ومن تباطأ

ونأى بنفسه خسر، وكما يقول مثلنا الشعبي "الذي يذهب للسوق يتسوق" أو يبقى بمعزل وتهمشه الجماهير.

ولكيما يؤدي الحزب دوره ليس مطلوبا منه رصد المتغيرات واستخراج المهام والشعارات فقط، بل عليه ان يكون سباقا بحيث تكون امتداداته هي جزء من المتغيرات أو فاعلة فيها منذ البداية ... وان حضوره الجماهيري وامتداده في كل مكان هو الذي يكفل له بان لا يطرأ حدث بدون مشاركته وعلمه.

اي ان قضية الانتشار هي قضية مفصلية.

طبعا مفهوم انه تأتي لحظات حاسمة في التاريخ، فان لم يقتنصها الحزب عزله التاريخ لزمن قد يطول وقد يقصر، وهذه اللحظات وان كانت تختص بفن التكتيك، غير ان أهميتها توجب ذكرها هنا ايضا.. فالحزب الشيوعي الاندونيسي الذي كان يضم حوالي مليوني عضو، فضلا عن عشرة ملايين في أطره الديمقراطية العمالية والنسوية والشبابية في بداية الستينات، لم يحسم موضوع السلطة وتسليح الشعب الامر الذي سهل على "سوهارتو" القيام بانقلابه الفاشي ضد "سوكارنو" حليف الشيوعيين والتالي ابادة الحزب الذي لم تقم له قائمة منذئذ، اي لقد تهدم الحزب نتيجة خطأ سياسي.

وأحيانا يتفرغ الحزب من صفته الثورية فيغدو أشبه بجسم مجوف وليس اتحادا حرا لمناضلين ثوريين، القيادة متبقرطة والقاعدة بليدة وتواكلية، فيما برامجه تتلقاها الجماهير كمتأملة وسلبية أكثر منها فاعلة ومتفاعلة، فما ان يتعرض الحزب لامتحان جدي حتى يتحلل وتنفض من حوله الجماهير، مثلما لاحظنا في الاتحاد السوفييتي السابق الذي كان قوام عضوية الحزب ١٩ مليونا، والحزب الشيوعي في المانيا الديمقراطية السابقة، الذي كانت عضويته ١،٧ مليون مفرغين من الروح القتالية، وأشبه ما يكونوا بموظفين متثائبين اهتزت سيقانهم جزعا وتبعثروا مددا حالما اختلت سلطة النظام.

وهذا درس كبير يتعين الافادة منه، فالطليعة الثورية ليس بصفتها الجماهيرية فقط، بل والأهم من ذلك وقبل ذلك بصفتها الثورية التغييرية، فالحزب يعيد لعناصره ثقتها بنفسها وينهي استلابها ويوحد ارادتها على أساس الاقتناع لا التخويف ولا القهر، فيربيها على أسس صلبة وديمقراطية.

والان ما هي أهم المبادىء التنظيمية، أو دعوني اقول، ما هي أهم الجوانب التي أرى ضرورة اعلاء شأنها في هذه اللحظات؟

١- **المركزية الديمقراطية:** فهي العمود الفقري الذي بدونه يختل كل شيء بالجمع بين الثنائية المتناقضة، المركزية من جهة والديمقراطية من جهة اخرى. والزاوية التي يتوجب الاهتمام بها هي فهم أعمق للمركزية الديمقراطية ضمن أفق أوسع يكسبها مضامينها الغنية بما يكفل التزام الجميع بالوثائق الرسمية، قيادة وقاعدة.. وخضوع الأقلية لرأي الأغلبية، وأدنى لقرارات أعلى، كما صياغة الوثائق والقرارات والبنى الحزبية على اسس ديمقراطية صحيحة، وبالتالي تحقيق الوحدة الداخلية والصوت الواحد للحزب.. ولا مدعاة للاسهاب هنا، فلعلنا نفرد لهذا القانون يوما منفصلا.

٢- **حرية النقاش والحوار المستفيض** لتجسيد مقولة "الحزب عقل جماعي"، فالحزب، وان كان ثلاثة مستويات كمحصلة عامة كما يشير *غرامشي* والتجربة العلمية، مركز قيادي يخطط ويقرر المسائل المركزية، وجسور كادرية لنقل السياسات والقرارت والتعبئة بها، وقاعدة واسعة منفذة، غير ان هذا لا يلغي، بل يلزم، اطلاق عملية تفاعل واسعة بين المستويات الثلاثة، بحيث تأتي القرارات انعكاسا حيا لارادة المجموع الثوري، والنقاش عملية متواصلة لا تتوقف، بل طالما يتوقف النقاش ويكف العقل عن التساؤل يموت الحزب ويتوقف التطور.. وقد أصاب *مهدي عامل*، شهيد الكلمة الحية والمكتوبة، حينما انشأ يقول "*الموت في التماثل والتناقص حياة هذا الزمان*".

ولا يجب ان نتهيب من الجدال وتعدد الآراء، بل يجب ان لا يصدر اي قرار إلا بعد اعراب جميع من هم على صلة عن ارائهم ومداخلاتهم، بدءا بأعلى هيئة حزبية وصولا الى أدنى مستوى حزبي، والقرارات والخطط بعد اقرارها يجري تفاعل المنفذين معها بتمحيصها واكسابها لحم التفاصيل واستخراج آليات لتطبيق الأكثر ملاءمة..

٣- **المبادرة:** والمقصود بذلك ليس المبادرة الميدانية التي تستجيب لحدث أو موقف لا يقبل الانتظار فقط، بل والأهم من ذلك التقاط الحزب لأية مقترحات أو تصورات صحيحة تتقدم بها المنظمات الحزبية والعناصر الموهوبة والنابهة، والتجاوب السريع معها، فهذه لجنة واسعة الخبرة في

الحقل التنظيمي تتقدم بمقترح لاعادة تنظيم ميدان معين، وتلك لجنة صحفية تتقدم بتصوراتها لتطوير الحقل الصحافي وربطه بالنشاط السياسي، وذلك متمرس في شؤون الأسر وتجربة المعتقلات يمكن افساح المجال له ليقول كلمة مفيدة لترميم الثغرات، ورابع متبحر في علم السياسة وعالمها يمكن استثمار كفاءاته ومقترحاته.. الخ بحيث تشكل كل هذه المساهمات أدوات تطويرية للعمل.

وفي كل الاحوال يتعين الاقتناع من ان العقل الجماعي والخبرة الجماهيرية هي أوسع طاقة وتجربة حية من عقل وخبرة أية قيادة، بل ان احدى واجبات القيادة تكمن في تكثيف وتجريد خبرة وعقل مجموع منظمات الحزب كونها المطلعة أكثر من سواها على الحزب ومحتوياته.

وطالما ان حرية الجدل مكفولة جنبا الى جنب مع المبادرة فان حيوية كبيرة تتدفق في عروق الحزب، الامر الذي يجعله يتمتع بالشباب والتجدد بل ويحاصر ويكنس الاخطاء والبلادة ويرتبط فيما يرتبط بذلك رفد الهيئات القيادية بكادرات شبابية ودماء جديدة باستمرار بالجمع بين الحراس القدامى والجيل الجديد، اي التباين والتجدد.

وأحد الفروق بين الحزب الثوري والحزب الفاشي ان الاول ديمقراطي كما قال بكلمات مشابهة غرامشي.

(اليوم اتوقف، مع اعترافي ان عرضي لم يكن موفقا كثيرا، وفي الغد اكمل حديثي متناولا أبعادا اخرى.)

صباح الخير، اليوم أواصل عرض نفس العنوان.

معلوم لنا جميعا ان ثمة قوانين وشروط رئيسية لا مناص منها لاحراز النصر في ظروف الكفاح الوطني، كما بينت كل تجربة وتجربة:

١- **توافر حزب ثوري:** وهذا الحزب قد يكون على شكل بؤرة كما حال التجربة الكوبية، اي مجموعة مقاتلين ينمون في غمرة المعارك، أو حزب طليعي يضم عناصر مؤثرة وفاعلة في المجتمع بما يمكنه من قيادة القطاعات الفاعلة عبر امتداداته وبرنامجه، كما هناك الحزب الثوري الطليعي الجماهيري، الذي يضم ما أشرنا اليه، فضلا عن استمالة جماهير شعبية، اي كتلة جماهيرية هائلة، فيكسب الاغلبية لصفه.

٢- **بناء الجبهة الوطنية المتحدة:** التي تضم كافة القوى الاجتماعية والسياسية الوطنية ذات المصلحة بالاستقلال، ونتذكر هنا جبهة الفيتكونغ التي كانت تضم أكثر من دزينة من الحركات والملل بقيادة الحزب الشيوعي، أو التحالف بين الحزب الشيوعي الصيني وحزب الكومنيتانغ ضد اليابان في النصف الثاني من الثلاثينات، وكما هو الحال في م.ت.ف، رغم هيمنة فريق واحد على مؤسساتها وقراراتها، وكلما تماسكت الجبهة المتحدة كلما كان فعلها أكبر وطريق نضالها أقصر، وعلى صعيدنا لقد تشكلت ايضا في لحظات معينة جبهة قومية عربية مناصرة، مرة على صعيد شعبي ومرة على صعيد رسمي، غير ان هذه المحاولات كانت هزيلة ولم ترتقي الى مستوى الصراع.

٣- **ممارسة ثورية:** سواء خط سياسي صحيح وخط عسكري صحيح كما هو دارج في الأدبيات الفيتنامية، أو ممارسة أكثر تشعبا تشمل ذلك فضلا عن النضال النقابي والاعلامي والدبلوماسي والتعبوي والفني.. وبداهة انه بدون ممارسة ثورية في الميدان الكفاحي تتراكم نجاحاتها سنة بعد سنة الى ان يختل ميزان القوى لا يمكن حسم الصراع وبلوغ شطآن الانتصار.

٤- **شعب منتظم ومعبأ:** مستعد للنضال والتضحية في سبيل الأهداف العادلة، سواء جرت هذه العملية عبر التحريض والتعبئة، أو نتيجة اطلاق شرارات كفاحية ونضالات ديمقراطية- وعبر كل ذلك وبداهة ان الذي يحدد استراتيجية الثورة هو طبيعة التناقضات، وعلى أية حال سوف اعود لعلم الثورة لاحقا ولكن هنا جدير الاشارة الى نقطتين:

أ- **مركز الثقل الجماهيري :**

الذي يعني الامساك به خلق توازن وسيطرة على الحركة الجماهيرية وتوجيهها نحو أهدافها.. وفي حالتنا قد يكون المخيم في قطاع غزة هو مركز الثقل حيث يشكل اللاجئون ما نسبته ٧٠٪ في القطاع غالبيتهم الساحقة ما انفكت تعيش في المخيمات، بينما في الضفة الفلسطينية قد تكون المدينة هي مركز الثقل بما لها من تأثير تحكمي بالارياف والمخيمات سيما وان نسبة اللاجئيين في الضفة لا تزيد عن ٣٠٪، أقل من نصفهم يقطنون في المخيمات، ولو كنا نعيش حرب مغاوير كما التجربة الكوبية مثلا لأمكن تصور ان يكون الريف وليس المدينة هو مركز الثقل.

وان تحديد مركز الثقل لا يلغي الخصائص الطبقية للفئات والشرائح الاجتماعية المختلفة اذ لا خلاف ان لكل فئة وشريحة خصائصها، فللعمال خصائصهم وكذا الحال بالنسبة للفلاحين والانتلجنسيا والطلبة والبرجوازية الانتاجية كما الكومبرادورية والتجارية..الخ.

وبناء على تحديد دقيق لمركز الثقل وتشخيص علمي للخصائص والسمات الطبقية يصار لرسم خطط العمل التنظيمية وسواها من خطط.

ب- **كسب الأغلبية:**

اذ ان حزبا لا يكسب الأغلبية ليس حزبا ولا يساوي شيئا حسب كلمات لينين، وهذا صحيح كمحصلة عامة أكثر منه كبداية، ولنا ان نتخيل امكانية الحيلولة دون تمرير المشروع التسووي الجاري فيما لو كان الخط الجذري يحظى بأغلبية على طول سنوات النضال، بل لأمكن تخيل تبدل الكثير من السياسات الفلسطينية.

ومثلا لقد حاز الحزب البلشفي في انتخابات مجالس السوفيتيات، فور انتصار ثورة اكتوبر، على ثلثي الاصوات، بينما حصل الحزب الشيوعي القبرصي في وقت سابق على أصوات انتخابية تعادل تسعة أضعاف عضويته الحزبية وعلى صعيد التوسع الحزبي العاصف في فترات المد كما الفترة بين شباط واكتوبر عام ١٩١٧ تضاعفت عضوية الحزب البلشفي ستة مرات، ونلاحظ شيء مشابه للفصائل الفلسطينية في زمن الانتفاضة.

ولكيما يجسد الحزب الثوري مقولة الحزب القائد، يتوجب عليه قيادة العملية الاجتماعية برمتها، ليس من خلال قرارات فوقية، بل من خلال تغلغله في كل خلايا جسم المجتمع، وهذا يقتضي ان يحيط الحزب نفسه بمنظمات ديمقراطية واسعة الانتشار، وهذا يقودنا باشارة سريعة

للمنظمات الديمقراطية:

١- انها صيغة تنظيمية فضفاضة لا تتطلب تشرطات سوى السمعة الوطنية المحمودة، على ان يتوافر لها عمود فقري قوي ومنضبط.

٢- احدى الضمانات المطلوبة لها ان تقودها عناصر حزبية ثورية على ان تفوز هذه العناصر من خلال عملية انتخابية وبناء على جدارة حقيقية واختيار الهيئة العامة، مع الحرص التام على عدم احتكار العناصر الحزبية للمواقع القيادية والكادرية.

٣- هي منظمات نقابية ومهنية وبالدرجة الأساسية تعنى بشؤون قطاع جماهيري معين، أما اهتمامها بالجانب السياسي يأتي بالدرجة الثانية.

٤- تشمل مختلف الفئات والقطاعات الجماهيرية، عمالية، نسوية، طلابية، وانتلجنسيا، مبدعين، فلاحين، تجار..الخ اي تأليف أطر متنوعة.

٥- تعتمد المبدأ الديمقراطي في عملها وتشكيل هياكلها وصياغة برامجها.

٦- تحكمها برامج ولوائح داخلية تحدد اهدافها وتوجهاتها ونظام حياتها.

ومن الطبيعي ان يتنامى دور هذه المنظمات في المرحلة الراهنة التي تمر بها القضية الفلسطينية في الوطن المحتل، اي مرحلة الحكم الذاتي وتقهقر العملية الانتفاضية، بينما كان من الطبيعي ان تتنامى الآليات التنظيمية النضالية في زمن الانتفاضة كلجان المقاومة الشعبية واللجان الضاربة..الخ، والنشاط الديمقراطي يجب ان يشمل فيما يشمل ايضا مختلف الفئات العمرية، الجيل الأقدم في الاربعينات والخمسينات والستينات كما جيل الفتوة والاطفال بين ١٢-١٨ سنة كل حسب اهتماماته، والتركيز على تربية الجيل الجديد، وربما ملائمة وتوحيد النشاط الاجتماعي والفني والترويحي والاعلامي على أساس جغرافي، فالنشاط

هو الذي يوجب الشكل التنظيمي كقاعدة عامة، بدون المساس بالطابع المهني للاطر الديمقراطية.

أما النقطة الختامية التي أرغب بالتنويه لها فهي ضرورة بناء حركة جماهيرية من قبل اليسار الثوري، اي عدم الاقتصار على منظمات سياسية تحيط بها فقط منظمات ديمقراطية وانما تيارا شعبيا عارما حتى ولو كان يرتبط هذا التيار في حدود التعاطف السياسي أو الفني أو التصويت في الانتخابات أو التبرع المالي أو الانحياز الجزئي للبرنامج النقابي أو بدون الالتزام بعضوية وأطر محدودة.

وان توسيع نسيج العلاقات الاجتماعية يخلق مناخات مؤيدة لليسار، علاقات تراعي هموم الناس وأفراحهم وأتراحهم وتضمن التكافل معهم.. وان بوابات الدخول للأوساط البرجوازية تختلف عن بوابات الدخول للأوساط المثقفة عن الدخول للأوساط الشعبية عن الدخول للفئات المعوزة المستورة.. وان الزيارة بصرف النظر عن شكلها هي جسر الاحتكاك الأهم بالجماهير، على ان تراعى مشاعر الناس وتقاليدهم في كل الاحوال، فالسلوك النافر والمنفر لا يعود الا بالضرر، وهذا ينطبق على الصدق مع الناس، فالصدق خصيلة مفصلية تجسد نفسها بالكلمة والفعل معا.

وان المبادرة المحلية الموقعية تجعل العناصر المبادرة محط احترام الجماهير، أما التكاسل والغياب عن الحدث والمناسبة فلا ينتج عنهما الا العزلة، والابتكار صفة مطلوبة في التعاطي مع الجماهير، والابتكار لا حدود له، أما النمطية وحصر الطرائق فينجم عنهما قصور في الوصول لبعض الأوساط والافادة منها.. وهنا ينبغي قدح زناد التفكير المطموس والتفكير مرة اخرى.
ولا يجب ان ننسى أهمية تفهم آراء وامزجة الناس وميولهم، اذ من حق كل انسان ان يختار، اي *"دع مئة وردة تتفتح"* كما قال *ماوتسى تونغ*، بل علينا ان نتعلم الاصغاء بعمق لأفكار الناس ومعتقداتهم مع تفاعل هادىء ومسؤول ومقنع ولفت نظرهم الى نقاط يمكن ان تثير تساؤلات لديهم تدفعهم باتجاه منطقي وعقلي ولكن بتهذيب ونفس طويل، اذ لا يجوز خسران اي انسان.
ومن المؤكد انكم جميعا تعلمون قيمة التحريض الحي، التحريض بالكلمة التي تصل أذان الجماهير مباشرة، التحريض المفهوم بعباراته السلسه الميسورة، والتحريض عملية متواصلة لا يجب ان تتوقف ابدا، اذ من التحريض الى التنظيم الى النضال، هذا هو التوالي الذي تمر فيه الارادة الجماهيرية، ومن يفلح في

كسب عقول وعواطف الناس يكتشف طاقاتهم.. بل ان الجماهير هي التي تصنع تاريخها، أما الطليعة الثورية فلا يتعدى دورها توتير القوس او بكلمات صينية "وتر القوس ودعه ينطلق".

حاولوا ان تتصوروا نتائج حملة تحريضية منظمة على الصعيد السياسي والنقابي والاخلاقي.. لمدة ستة شهور أو عام واحد يشارك فيها كل العناصر المؤطرة، ماذا باعتقادكم يكون الحصاد؟ المشكلة ان العناصر الثورية قصيرة النفس أو متحلقة حول نفسها أو متعالية لا تتقن سوى استخدام التراكيب النظرية الصعبة التي هي نفسها في غالب الاحيان تستظهرها بدون ان تفهم ترابطها، أو انها تمسس قضايا حساسة بدون ميزان دقيق..الخ.

(على اية حال دعونا نتوقف لتوديع الشاب المغادر في الساحة، وغدا نواصل، تفضلوا.)

يبدو ان العرض قد طال، صباح الخير للجميع:

اليوم سوف استكمل متطرقا ليس للطليعة الثورية فقط، بل وللمناضل الثوري ايضا كونه كمحصلة عامة يحمل جوهر الكلية.
في السابق كان يكتفى باستخدام تعبير الطليعة السياسية، ولكنني افضل اضافة لفظة "الثورية" ايضا، ذلك ان الالوان قد اختلطت هذه الايام وبات على الطالع والنازل يستخدم تعبير الطليعة السياسية، ولكي نميز بين طليعة وطليعة غدا من الضروري اضافة الثورية، *اي التي تسعى للتغيير الجذري* وانتزاع الاهداف المركزية.

معروف ان المسألة الاساسية في الثورة هي السلطة السياسية، فمن يمسك بالسلطة يمسك بقرار وبالتالي يتحكم بمؤسسات المجتمع الى حد بعيد سيما الجيش والاعلام الرسمي والخطط الاقتصادية...الخ.

وفي ظل الاوضاع التي يعيشها شعبنا، اي الاحتلال وغياب الدولة المستقلة، تكون الخطوة الاولى اجراء تغيير في القيادة الطبقية للثورة والحركة الوطنية، بحيث تنتزع الاتجاهات الوطنية الديمقراطية القرار أو على الاقل تغدو القوة القائدة في الشارع تمهيدا لقيادة منظمة التحرير، كخطة لا بد منها في طريق الانتصار، ذلك ان برجوازيتنا الفلسطينية انغمست في حل سياسي لا يفضي الى

الحرية والاستقلال، بل وهي منذ اتفاق شباط مع الملك حسين عام ١٩٨٥ تخلت عن هدف الدولة المستقلة وقبلت بالفيدرالية مثلما تخلت عن وحدانية تمثيل م.ت.ف لتقبل بالمشاركة الاردنية في التمثيل كما جاء في إتفاق ١٩٨٥.

وعليه فكل العملية التنظيمية لبناء الأداة السياسية الجماهيرية انما غرضها هو الهدف السياسي الوطني، هذا الهدف الذي يعبر عن المصالح العليا للشعب الفلسطيني، وعلى امتداد ربع قرن سمح ميزان القوى الفلسطيني الداخلي للقيادة اليمينية بالامساك بزمام م.ت.ف، بل ان فئويتها أتاحت لها الهيمنة أكثر مما يتيح لها حجمها، فغاب التمثيل النسبي واستبعدت كفاءات وطاقات شعبية لا يستهان بها.

طالما اننا متفقون على ان هدف العملية التنظيمية وما يرتبط بها من نضالات وتعبئة .. انما غرضه الاول تحقيق هدف سياسي، فهذا يقودنا تلقائيا لتعريف البرنامج والتكتيك.

البرنامج: هو العلم، وهو عبارات مكثفة مقتضبة تحدد المرحلة التاريخية وتناقضاتها وبالتالي هدف النضال وقوى الثورة والتحالفات وأشكال النضال، هو عادة بضعة صفحات واكثر قليلا، ولكنها تستند الى دراسات وأبحاث وأوراق وتفكير جماعي مستفيض، فكل كلمة وكل فاصلة لها قيمتها.

أما التكتيك: فهو الفن، اي الخطوات والمواقف والطرائق التي تتبعها الحركة الثورية لبلوغ وتنفيذ البرنامج، وهو من اعقد جوانب العمل الثوري.

وبعد استخلاص البرنامج والتكتيك يأتي دور بناء الادوات والامكانات القادرة على ترجمتها.. وعموما تتكون أركان الطليعة الثورية من :

١- **الركن السياسي:** اي البرنامج والتكتيك كما أسلفنا، وفي سياق ذلك تحديد الحلقة المركزية العامة، والحلقة المركزية في كل ميدان من ميادين العمل، في سياق معطيات متغيرة بما تلقيه من اسقاطات وتحريك على الحركة المركزية.

٢- **الركن التنظيمي:** اي البناء التنظيمي وعلاقة الحزب بالجماهير، "*فالحزب كائن حي ينمو* " كما كتب *فوتشيك*، ينمو بتدرج وتواتر في اتجاه اندماجه بالجماهير والتعبير الحقيقي عن تطلعاتها.

٣- **ركن كفاحي:** يتوهج في غمرة النضال الدؤوب بكافة الاشكال مستهدفا حل التناقضات، بل وتتجدد نضالاته كلما تكونت تناقضات جديدة.

٤- **هوية فكرية:** مرشد نظري لتحديد كل ما أتينا عليه والتملك المعمق لها.

٥- **ركن طبقي ثوري:** يعكس الانتماء الكادح والعمالي للطليعة، والتحرري للشعب بأسره بما في ذلك المرأة، وهذا يتجلى بداهة في التركيب الطبقي للحزب حيث يشكل العمال والشغيلة النسبة الاساسية، فضلا عن انخراط المرأة بفعالية فتية.

وعليه، الى اية درجة تنطبق مواصفات الطليعة السياسية على اليسار الفلسطيني، وتحديدا الجبهتين الشعبية والديمقراطية، طبعا لا يخفى على الجميع خصوصية نضالنا وواقع شعبنا، كما لا يخفى على الجميع حجم اليسار الذي قد يشكل كمحصلة عامة في الداخل والخارج نحو ٢٠٪ من الخريطة السياسية المنظمة، ولا يحتاج الى تذكير بأن شهداء اليسار على امتداد ربع قرن يناهزون ثلاثة الآف شهيد وأكثر منهم من الجرحى وأضعافهم من المعتقلين..الخ بل وخاض كل معارك الثورة..

ولا نبالغ بالقول ان اليسار كان صمام أمان الثورة والعين الساهرة على البرنامج الوطني الاستقلالي وقاعدة الضغط على انزلاقات القيادة اليمينية والبرجوازية.

مثلما ان نسبة العمال في صفوفه لا تقل عن الثلث فضلا عن نسبة تربو على ١٦٪ للنساء، فيما البقية تتكون عموما من مختلف الفئات الشعبية والمسحوقة.

ولكن ينبغي عدم تجاهل النقاط التالية:-

١- ان اليسار، رغم انجازاته، غير انه لم ينجح في بلوغ الوزن والتأثير الذي يؤهله لضبط القيادة اليمينية ومنعها من ولوج مسار مدريد- واشنطن-القاهرة بما ينتج عنه من كارثة تهدد فعليا كل نضالنا المعاصر وحقوق شعبنا.
٢- ان اليسار رغم تضحياته ونضالاته غير انه يشكو في الاعوام الاخيرة من أزمة كفاحية كشفت عوراته وسمحت لغيره بالتقدم عليه.
٣- ان اليسار رغم الظروف الصعبة التي تحيط به سواء باغلاق عواصم المنطقة في وجهه وتجفيف موارده المالية خلافا لسواه، فانه ايضا يشكو من عيوب ذاتية كثيرة، منها تفتته وعدم وحدته، ومنها تثاقله وتسلل الخمول الى صفوفه في لحظات تتطلب همة عالية وروح عملية وثابة لا تعرف الملل أو السكون، فضلا عن بهتان الشعور بالمسؤولية لدى أوساط واسعة فيه.

وهذا كله يقتضي استشعارا بالمسؤولية للتصدي لمعضلات العمل من قبل كافة العناصر اليسارية قاعدية كانت أم كادرية أم قيادية، بل لربما ان على المنظمات المحلية قسط أكثر من سواها.

وهذا ينقلنا للحديث عن مواصفات العضو الثوري:

في البدايه مفيد تذكيركم باحدى شخصيات رواية الدون الهادىء، اي ذاك الثوري الذي تغيب عن امه ثمانية أعوام قضاها في مهام حزبية سرية، وقد أتته التعليمات للتوجه لجبهة الحرب، وكانت المهلة الزمنية المتاحة له ليلة واحدة، أمضاها لدى امه العجوز التي بالكاد تعرفت عليه.. وفي اليوم التالي غادر، حيث درج في الادب السوفييتي تعبير من نوع : اين تكون؟ الجواب: أكون حيث يقرر الحزب، اي حيث يتطلب العمل الثوري.

ولكيما ينصهر العضو في الحزب الثوري حتى نخاع العظم عليه ان يتسلح بقناعة راسخة بأهداف الحزب والجماهير، وحينها يمكن الحديث عن العضو كملكية عامة، اذ مثلما ان الحزب ملكية عامة للجماهير يضحي بكل شيء في سبيل أهدافها، فان العضو ملكية عامة للحزب والجماهير، يضبط حياته واهتماماته ووقته وعقله وطاقاته وأولوياته، أولا وعاشرا، بما يلبي الموجبات والشؤون العامة.

ومثلما ان من واجب الحزب ان يتجدد ويرصد المتغيرات ويبادر على الفور لصنع الأحداث والتاريخ، فان العضو الثوري صورة مصغرة عن الحزب، فهو يتجدد ويعي ما حوله ويشق طريقه للمساهمة في صنع التاريخ... ويتخلص تماما من الخمول والتكلس والتجاهل والمطمطة واضاعة الوقت، ويتذكر دائما كلمة أو تحذير الشاعر الاسباني "ان النفس تستمرىء التراخي" فيشد براغيه.

ومثلما ان للحزب ركن كفاحي، فان الأعضاء هم الذين ينفذون المهام الكفاحية، وهم يتعلمون مهارات العلم الثوري في معمان الممارسة والتحريض في جمهرة من الناس وتسيير مظاهرة أو أكثر من ذلك أو أقل من ذلك.. والعضو يتهيأ ضمنيا ومعنويا وبالممارسة للقيام بأية مهام عملية قد توكل له تبعا لاستحقاقات البرنامج، وهو لا يأنف من أية مهمة سواء كانت تنتمي للعمل المنمنم الصغير الذي يشكل في مجموعه تيار جارف أو ينتمي للاعمال الكبيرة والجدية، فهو جاهز دوما، بل ان الجاهزية الجماعية هي دلالة على أساس قوة الحزب.

ولا نأتي بجديد حينما نعترف ان ميول الثوريين مختلفة ومتعددة، الامر الذي يستلزم الاستجابة لها، غير ان هذا لا يصل حد التهرب من اداء المهام التي تقتضيها العملية الثورية والارتقاء بميول ومهارات الثوريين تلاؤما معها.

ولئن تحدثنا من قبل عن تنامي الحزب وتملكه للمنهاج الفكري والاستفادة من ذلك في برنامج وقرارات، فان الامر نفسه ينسحب على العضو الثوري، فهو يتطور باستمرار ويهضم منهاجه ويعمل بموجب قراراته وتاكتيكاته، لا مجال لهضم العلاقة بين الحزب والعضو، بل ان الثاني يتماثل مع الاول ويفعل فيه في آن .

والانضباط صفة لازمة، ولكن جنبا الى جنب مع الاستقلالية الشخصية، شأن الحزب بالضبط، فهو ينضبط للسياسات والوثائق المركزية وأهداف ومصالح الجماهير، ولكنه ايضا لا يفرط بالاستقلالية ولا يرضخ للضغوط أيا كان نوعها، والحال نفسه يقال عن العضو الثوري الذي ينضبط لنظم وسياسات الحزب ولكن لا يتصرف كبيدق شطرنج او كمسلوب الارادة، بل انه يفكر ويناقش وينتقد وينتخب، بل وانه يبادر ويبدع ايضا.

فالحزب الثوري يربح كثيرا حينما يكون الاعضاء ذوي ارادة حرة واستقلالية بالرأي أكثر بكثير من أعضاء امعات يبصمون فقط. فالحزب يحرر

عناصره من العقد والمخاوف والاستلاب، وهو بذلك يحولهم لقوة تحريرية للشعب المستلب والطبقات الشعبية المستلبة والمستغلة.

ومثلما ان الحزب الثوري صلب ومتفولذ وقاهر للأعداء وثائر جموح لا يستسلم ولا ييأس فهذا حال العضو الثوري ايضا فهو صلب متحدي لا يستسلم ولا يستكين ابدا، فهو ضمير حي لا ينام ولا تشده أو تغريه متع الحياة.

وبعد ....

الى أية درجة نحن في هذه الخيمة نمثل صورة للعضو الثوري والشخصية اليسارية التي تطرقنا لها قبل أسابيع؟

أترك الاجابة لكل واحد فيكم، ليفكر بامعان وبمنهج نقدي صارم يرى الايجاب والسلب نقاط قوته وعناصر ضعفه، ما راكمه وما ينتظره في اتجاه المطابقة بين الاقوال والأفعال،الفكر والممارسة.

والسلام عليكم.

المحـــــــــــــــور

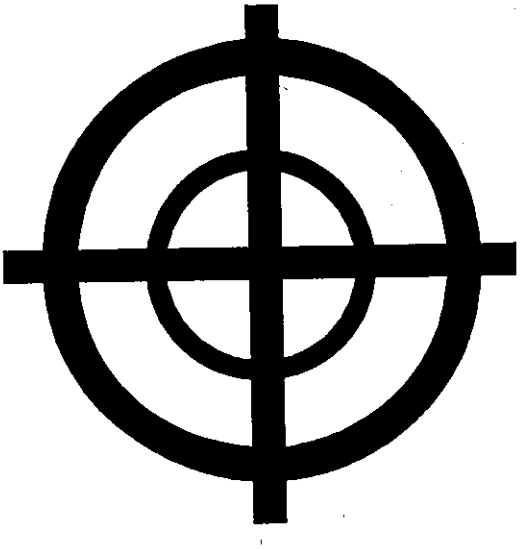

الثانـي

اليسار والنظرية الثورية، اعادة انتاج أم جمود

صباح الخير للجميع، راجيا شدة الانتباه والاصغاء لحديثي اليوم فهو جاف الى حد ما، ولكن لعلني أنجح في تيسيره وتبسيطه. والامر ليس مرهونا بي فقط، بل طابع الموضوع يفرض ذاته ايضا. فالايديولوجيا لها مصطلحاتها التي لا مهرب منها مثلما لها منطقها الذي ينبغي استيعابه.

أذكر انني قرأت في غير مكان ان أحد عوامل انتصار الاتحاد السوفييتي السابق على النازية التي كانت أقوى عسكريا ومتسلحة بترسانة أكثر تطورا هو العامل الايديولوجي، فالقناعات الفكرية الاشتراكية والايمان بعدالة ومنجزات العهد الاشتراكي زودت الشعب السوفييتي والجيش الاحمر السوفييتي بروح معنوية قتالية وبسالة عالية، وهذا لمسناه ايضا في التجربة الفيتنامية حينما قاتلت الثورة بامكاناتها المحدودة الامبريالية الفرنسية وبعدئذ الامبريالية الامريكية وانتصرت عليهما. ولهذا لا غرابة ولا مبالغة في كلمة *لينين* حينما قال "*أعطني منظمة من الثوريين اقلب روسيا رأسا على عقب*" وقد قلبها فعلا، وهو القائل ايضا أو بصورة أدق هو الذي صاغ قانون "*ان حزب الطليعة يسترشد بنظرية الطليعة*" وهذا القانون ليس صائبا فقط لان لينين قد صاغه بل تأكد في غمرة الحياة السياسية للعديد من الحركات الثورية، الى درجة ان الغالبية الساحقة من الثورات في القرن العشرين وأعظمها على الاطلاق كانت تسترشد بالفكر الثوري اليساري سواء أنجزت مهاما اشتراكية أو مهاما وطنية ديمقراطية مهدت الطريق للتحولات الاجتماعية الاشتراكية.

وعليه لماذا أنتم يساريون؟ هل لأنكم تنتمون او تؤيدون فصائل يسارية، أم نتيجة تطور طبيعي في تفكيركم انتقلتم بموجبه من الفكر الغيبي والقبلي والقرون الوسطى الى الفكر الرأسمالي بمنجزاته الهائلة ومنه الى الفكر الاشتراكي أم بفعل احداث معينة أم نتيجة تجربة ذاتية هي جزء من وعي الذات الطبقية أم لأن الفكر اليساري ينطوي على مميزات وخاصيات يفتقد لها اي فكر وفلسفة اخرى، أم نتيجة كل ذلك وسواه؟

فالانسانية على الدوام أنتجت فكرها في غمرة صراعها مع الطبيعة لتأمين احتياجاتها، وترسمت طريقها ببطء، ولكن بمثابرة. والعلم المعاصر بات على المام بحضارات الشعوب القديمة وثقافتها ، كالحضارة السومرية في العراق منذ

ستة الآف سنة والحضارة الفرعونية في مصر بنفس الفترة والحضارة الصينية وسواها... وفي زمن أقرب الينا نعرف ثقافة القبائل العبرانية ومسيرتها المسجلة في التوراة وكتابات كونفوشيوس في الصين وبوذا في الهند وشعوب القارة الامريكية والاغريق والرومان في اوروبا، وبعدئذ المسيحية منذ الفي عام تقريبا في فلسطين واسلام الجزيرة العربية منذ ألف واربعمائة سنة وكل شعب معروفة اسهاماته في حقل الفلسفة والثقافة...الخ.

والشعوب لم تكف في يوم من الايام عن مواجهة التحديات وواصلت الاجابة عن أهم التساؤلات والمشكلات، وثمة غزارة هائلة في الفكر والنظريات الى ان صعدت البرجوازية في اوروبا وأنتجت المرحلة الرأسمالية ببنائها التحتي والفوقي وامتداداتها العالمية، وكانت منعطفا عظيما بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى. ونجاحاتها وانجازاتها الاقتصادية والعلمية والفنية فاقت كل تصور حتى باتت البشرية في نصف قرن تسير للأمام وتحرز نجاحات تفوق نجاحاتها في قرون وقرون، وجاء الفكر الاشتراكي باضافاته النوعية على صعيد التنظيم الاجتماعي وعلم الثورة والعدالة..الخ.

والفلسفات الكبرى في التاريخ، والاديان الرسمية جزء صميمي منها، كلها تقدمت بتصوراتها وأحدثت ثوراتها قياسا بأزماتها وظروفها واشتملت على منظومة أرآء ومعتقدات فلسفية وسياسية وأخلاقية...الخ بصرف النظر عن مدى شموليتها، كما بقطع النظر عن درجة الاتساق والتكامل بين مكوناتها و اتفاقها أو عدم اتفاقها مع حقائق العصر وعلومه.

وشأن ترابط وتواصل التاريخ المادي، حيثما يكون الحاضر امتدادا ارتقائيا للماضي على صعيد الاقتصاد والعمران و.. فان الامر ذاته ينطبق على تواصل وترابط التاريخ الفكري والمعرفة النظرية بمجملها. وبالتالي ففي الوقت الذي انبثقت فيه النظريات اليسارية من رحم الممارسة على كل الصعد، فهي ايضا احتوت أهم العناصر الايجابية في الفلسفات التي سبقتها.

فما هي أهم مميزات النظرية الثورية اليسارية-:

١- انها نظرية متطورة ومتجددة دوما ارتباطا بتطور وتجدد الحياة:

فهي ليست جامدة أو مكتملة أو أزلية كما حال الفكر الغيبي مثلا؛ ثابت النص والحدود. انها مرتبطة بالممارسة التاريخية، اي الواقع الاقتصادي السياسي

والثقافي والاجتماعي والفني والابداعي للبشرية، هذا الواقع الذي يلد المتغيرات وتنبثق من جوفه المستجدات، الامر الذي يجعل كل النظرية مجبرة على استيعاب كل منجز علمي، وخلاصة ذات قيمة تبرهن عليه الحياة.
فالنظرية اليسارية جدلية كما قال الواقع بالضبط، والعلاقة بينها وبين الممارسة هي علاقة جدلية ايضا، الفكر يرشد ويوجه الممارسة والممارسة تصوب وتغني الفكر في علاقة حية دائمة الحركة.

وعليه فآباء النظرية اليسارية لم يضعوا سوى حجر الاساس، فيما على ورثتهم، أي على المثقفين الثوريين، الاضافة المستمرة والاغناء المستمر اتصالا بخبرة الانسانية. لهذا ليس غريبا ان يأتي لينين بعد ماركس في زمن انتقال الرأسمالية الى الطور الاحتكاري، وليس غريبا ان يضيف العديد من كبار الثوريين استخلاصات نظرية هامة في زمن ما بعد ثورة اكتوبر الاشتراكية سواء بالنظر الى خبرة التطبيق أو ما برهنت عليه التجربتين الصينية والفيتنامية من خلاصات في النضال الثوري الوطني-الديمقراطي. والشيء نفسه يقال عن اضافات *غرامشي* في ايطاليا و *لوكاش* في هنغاريا، واليوم في زمن الثورة التقنية والانهيارات في المنظومة البيروقراطية الاشتراكية من الطبيعي استخراج العديد من المقاطع النظرية المفصلية لاضافتها الى العلم النظري اليساري، وبالتالي التخلص من كل الجوانب الشائخة في النظرية التي تجاوزها الزمن أو التي لم تعد صالحة للزمن.

فالنظرية اليسارية ليست متطورة دوما فقط، بل وتاريخية ايضا، اي منبثقة من واقع الحياة، وتتجدد في كل مرحلة تاريخية جديدة تعبرها البشرية. فجدل الواقع هو جدلها، اي أن جدل الحركة الموضوعية المادية والفكرية ينعكس فيها وعليها، فهي زبدة هذه الحركة وما هو علمي وجوهري فيها.

لذا فان القولبة، اي الجمود، كما الانفصال المفتعل بين النظرية والواقع المتغير، هما غريبان حقا عن ماهية النظرية، بل انهما كفيلان بقتلها، وعليه لم يكن بمقدور *ماركس* ولا سواه الاجابة على قضايا تجاوزت عصره ولم يكن بمقدور *لينين* وسواه رصد متغيرات لم تحدث في زمانه، وهذا ينطبق على كبار المفكرين في الاربعينات أو الستينات وفي نفس السياق ليس صدفة ان ينبري *كاسترو* للتنظير دفاعا عن قضايا العالم الثالث في ظل المعطيات الحالية، ولا يكون صدفة ظهور مفكرين كبار يحللون عوامل انهيار التجربة الاشتراكية في

الاتحاد السوفييتي والنجاحات البارزة للرأسمال الاحتكاري كأرضية تفسح المجال لاستخلاص برامج التغيير الثوري في الزمن الراهن...

اي ينبغي ان يحضر في أذهاننا دوما لفظي **جدلية وتاريخية النظرية**، ولكن هل الجدلية والتاريخية تنفيان الجوهر العلمي للنظرية؟
الجواب: كلا ، فجوهر النظرية هو منهاجها.

٢- امتلاكها المنهاج المادي الجدلي:

هذا المنهاج العلمي المتماسك داخليا والقائم على قوانين ومبادىء ومقولات، انما هو مستقى بقوانينه/ومبادئه ومقولاته من واقع الحياة. اي ان المنهاج النظري يتطابق مع الموضوع، وحينما نقول قانون صراع الاضداد، فصراع الاضداد هذا موجود في الواقع، وحينما نقول مبدأ كلية الارتباط، فكلية الارتباط موجودة في الحياة، فالعالم مترابط، وحينما نقول الشكل والمحتوى كمقولة منهجية فلكل شيء شكل ومحتوى... وعلى ذلك قس.

فهو منهاج ثبتت علميته في الممارسة كأكبر معيار للحقيقة، والاستناد اليه أنتج أعظم العلوم، والعلوم ذاتها جاءت لتبرهن على علمية المنهاج. وحتى أعداء الاشتراكية الرأسماليين يهتدون بذات المنهاج وان كانوا لا ينسجمون معه للنهاية، اي لا يتقبلون بعض نتائجه حينما تصطدم بمصالحهم الرأسمالية الاستغلالية والاستعمارية، وهذا حال أنصار الفلسفات والطروحات ما قبل الرأسمالية، فهم ايضا وان كان مبناهم الفكري أقل تجانسا وأقل علمية، غير انهم كثيرا ما ينظرون ويحللون بمنهاج مادي وجدلي.

فالمنهاج المادي الجدلي ليس فكرا لليساريين كما انه ليس وقفا عليهم، فهو منهاج علمي يستخدمه من يشاء سواء باتساق أو بعدم اتساق سواء جزئيا او كليا، وهو في أساسياته من صياغات الفيلسوف المرموق *هيجل* غير ان *ماركس* استكمله، أما مأثرته الأهم فكانت تجليس المنهاج على قدميه بعد ان كان واقفا على رأسه حسب تعبير *انجلز* . أي ان المنهاج بقوانينه ومبادئه ومقولاته موجود في الواقع، وهذه الجدلية بدورها تنتقل للوعي، كوعي محكوم بذات المنهاج، وليس العكس، اي جدل الوعي يولد جدل الواقع، اي الاطروحة والطباق والصيرورة كما تصورها مثاليا *هيجل*.

فالتناقض، أيها الرفاق والزملاء، بين شعبنا والاحتلال موجود ونشأ عن اغتصاب الغزو الصهيوني لفلسطين ونتيجة وجوده كعلاقة صراعية مع شعبنا. والغزو يقوم عقلنا باكتشاف ورصد هذه العلاقة التناقضية فيعيها، اي ان التناقض يوجد في الحياة أولا وبعدئذ في الوعي ثانيا. اذ كيف يمكن ان ينشأ وعي بدون وجود أساسه؟! اي لولا وجود الغزو وشعبنا لما نشأت فكرة عن ذلك. وهذا مثال توضيحي.

وماركس لم يستند فقط الى صياغات *هيجل* الجدلية، بل استوعب أهم ما جاء في الموروث الفكري للبشرية، أو ما توافر بين يديه، في مختلف الميادين الفلسفية والاقتصادية والاخلاقية..الخ، وهو لم يقم بتجميع هذه المعلومات تجميعا ميكانيكا، مثلما لم يكتف بما جاء فيها، بل لقد وظف هذا الموروث لانتاج فكر نظري ثوري جديد في كل الميادين. اي لقد صاغ المنهاج المادي الجدلي واستخدمه في حقول الاقتصاد لينتج علم الاقتصاد ونظرياته، واستخدمه في الميدان التاريخي لينتج المادية التاريخية من تعاقب المراحل وتشابكها، واستخدمه في ميدان الفلسفة لينتج نظرياته الفلسفية (المادية الجدلية) واستخدمه في حقل الفكر والثورة وعلم الاجتماع لينتج الاشتراكية العلمية وكل ما أنتجه انما كان استخداما خلاقا للمنهاج في اطار حقائق المرحلة التاريخية التي عاشها، اي معطيات الواقع حينئذ، وجاء لينين ليستخدم نفس المنهاج في اطار حقائق المرحلة التي عاشها ولينتج بالتالي اضافاته، وهذا ما فعله سواه ايضا، وطالما تتجدد وتتغير معطيات الحياة فسوف تنبري وتتقدم أبرز العقول مستخدمة ذات المنهاج لتحليل وقراءة الجديد، وبالتالي اضافة ما يثبت من هذه التحليلات والابداعات للعلم النظري. فالنظرية لا يمكن ان تكتمل ابدا ولا يمكن ان تتوقف عن التطور ابدا.

وباختصار ان شعار اعادة انتاج النظرية، هو شعار علمي وطيد.

ولكن هل حقا ان الشيء العلمي في النظرية اليسارية محصورا في المنهاج فقط؟

جوابي: ان جوهر النظرية هو المنهاج، اي ان الصفة الأساسية التي تميز النظرية عن سواها من النظريات هي منهاجها المادي الجدلي، ولكن العلم النظري لا يتوقف على المنهاج فقط، بل وعلى انتاجه وصياغاته الصائبة ايضا. فمن خلال المنهاج تم اكتشاف *قانون القيمة وفائض القيمة* وبالتالي *الصراع الطبقي* وحتمية *الثورة، وانهيار الرأسمالية* وحلول *الاشتراكية بقانونها الرئيسي "من كل حسب عمله ولكل حسب انتاجه"*، مثلما تم اكتشاف *قانون تفاوت الارتقاء ونشوء*

الامبريالية بخصائصها و *النضال الوطني والتبادل اللامتكافىء*، و *القانون الاجتماعي الثاني* و حق *تقرير المصير* وعلاقة *الطليعة بالعفوية* و *دور الجماهير في التاريخ*، ومنبت *سلوك الانسان* وأمراضه النفسية و *تكون العقل* و حركة *المجتمع* وعوامل تطوره وتعاقب تشكيلاته وسمات الطبقات...الخ.

ان الاستخلاصات والاحكام العامة للنظرية هي استخلاصات وأحكام عامة، غير ان تجلياتها متباينة وتتفق مع الخصائص القومية لكل شعب.

فمثلا ان صراع الطبقات في بلدنا يختلف عن صراع الطبقات في فرنسا رغم القاسم المشترك للصراع الطبقي، تبعا لخصائص الصراع الاجتماعي في فرنسا والصراع القومي في فلسطين. وان الوعي الاجتماعي والسيكولوجية الاجتماعية في اليابان مغايرتان بقدر كبير عن الوعي الاجتماعي والسيكولوجية الاجتماعية في مصر رغم اشتراكها في آلية تشكيلهما، أما سبب التباين فيعود الى تباين الواقع المادي بقدر كبير بين البلدين كما تباين الموروث التاريخي.

٣ - الثورة والجذرية الشمولية

فقبل انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية عام ١٩١٧، كان السجال النظري مع النظرية اليسارية يصورها بانها رومانسية وغير قابلة للتحقيق وعليه فهي غير واقعية ومجرد أحلام كأحلام *أفلاطون* في "المدينة الفاضلة" ، غير ان انتصار الثورة السياسية عام ١٧ فتح الطريق لبناء مجتمع جديد اشتراكي. وقد لوحظ هنا ان النظرية كانت لا تحصر نفسها في دعوات اصلاحية وترقيعية للمجتمع الرأسمالي وما قبل الرأسمالي وانما قامت بثورة جذرية هدمت مرحلة وأرست مقدمات مرحلة جديدة على مختلف المستويات. اي انها كانت ثورة جذرية، مثلما كانت ثورة شمولية ترشدها نظرية شمولية ضمن علاقة جدلية متبادلة.

وقد أفلح الفكر الاشتراكي ليس بسحق مؤسسات الاستغلال والمجتمع القديم بل وأفلح ايضا في بناء المجتمع الجديد، بمؤسساته المتنوعة التي تشمل كل جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والفنية والاخلاقية والفلسفية، وبفضل ذلك تم شق طريق تاريخي جديد لم تعرفه البشرية من قبل. وبالتالي برهنت النظرية على جذريتها وشموليتها في آن، وترجمت عمليا المقولة اللينينية المكثفة " *اننا ضد كل استغلال طبقي أو اضطهاد قومي أو جنسي* (الرجل للمرأة) *أو ديني* (دين الأكثرية ودين الأقلية) "، وبالتالي القضاء على مخلفات القرون الوسطى

والجهل واطلاق أيدي العلم بدون قيود. والرسالة التاريخية الاشتراكية لا تتهاون مع اي مظهر استغلالي، فهي حرب لا هوادة فيها على الطبقات الرأسمالية الاستغلالية، كما هي حرب لا هوادة فيها على الاستعمار وركائزه، وهي حرب على الانانية والجشع والاضطهاد الذكوري للمرأة، مثلما انها حرب على القمع والاوتوقراطية والاغتراب وتسعى فعلا لبناء مجتمع ديمقراطي انساني يخلو من استغلال الانسان لأخيه الانسان، ويفجر طاقاته وابداعات البشر في طريق دائم التطور والتجدد في سبيل خلق مجتمع السعادة وجنة الارض.

وبناء على ما سلف، من الطبيعي ان يحتاج شعبنا للفكر النظري اليساري كمرشد في تحليل الوضع الموضوعي وادارة الصراع مع اعدائه، وهو بحاجة له لامداده بخبرة النضال الثوري والأحزاب الثورية، وهو بحاجة لمنظوراته بشأن المسألة اليهودية وحلها، وحق تقرير المصير لشعبنا كركن نظري لينيني لا يقبل المساومة ، اذ "*اياكم والمساومة على المبادىء ، اياكم والتنازل النظري*" كما انشأ ماركس، وهو بحاجة لمنهجه لرسم البرنامج التنموي – الديمقراطي لشعبنا، وكشف تناقضات الحياة وتقديم الحلول العلمية لها...
ولكن ثمة خطر يهدد النظرية اليسارية، اي خطر الجمود العقائدي (الدوغماتية) وبالتالي النظر للفكر اليساري بطريقة ايمانية كما ينظر أتباع الديانات للدين وهذا يستحق بعض التوضيح.
في البداية اريد ان أسرد لكم اسطورة *سرير بروكست* وهي اسطورة افريقية على ما أظن، ملخصها: ان احد الحكام أراد تزويج ابنته فنشر الخبر داعيا الفرسان وعلاة القوم للتقدم ومن تنطبق عليه المواصفات تكون ابنته من نصيبه. وكان لديه سرير بطول ابنته. واي فارس يلقيه على السرير، فان كان أطول يقوم بقطع أقدامه لكيما يتلاءم مع السرير، أما قصار القامة فيمطهم لكيما يصبحوا بطول السرير.

والمقصود من هذه الاسطورة هي انه لا يجوز مطابقة الواقع على النظرية، بل المطلوب الاسترشاد بالنظرية لاستخراج وعي يعالج قضايا الواقع، شأن الطبيب الذي يتعلم في كلية الطب في دولة متطورة، وحينما يعود الى موطنه يسترشد بما تعلمه لمعاينة أمراض الناس واختيار الادوية الملائمة لهم، اي انه لا يملي أمراضا على الناس بما يتلاءم مع علمه وادويته، بل العكس هو الصحيح.
ويجدر الاعتراف ان تيارا دوغمائيا نشأ في أروقة اليسار وقد تنفذ احيانا في مواقع قيادية رغم نفيه عن نفسه هذه التهمة، ومشكلة هذا التيار هي فهمه غير الماركسي– اللينيني للماركسية اللينينية اذ بينما لينين يؤكد على ان النظرية مرشد

وليس عقيدة جامدة، وانه نفسه قام بتطويرها، وانه وماركس لم يضعا سوى حجر الزاوية للنظرية الاشتراكية، كف الورثة، أو كفوا، بقدر معين عن تطوير النظرية والاضافة عليها كما لو كانت مطلقة وتصلح لكل الازمان.

معلوم لكم ان الفكر اليساري هو مجموعة نظريات، اي منظومة أفكار فلسفية واقتصادية وسياسية وأخلاقية وفنية واجتماعية وثقافية.. بما يغطي مختلف ميادين الحياة، وهذا ينطبق أيضا على الفكر الرأسمالي ، بل قد نجد الفكر الرأسمالي متشعب أكثر في ميدان علم النفس والفن وأكثر غنى على صعيد الديمقراطية وحقوق الانسان، والشيء نفسه يقال عن الفكر الديني كفكر شمولي رغم ضحالته وعدم توافقه مع متغيرات الحياة.

وليكن جليا ان اي فكر يفصل نفسه عن الممارسة التاريخية للبشرية، اي يتوقف عن تمثل واستيعاب المتغيرات الجديدة، انما يحكم على نفسه بالعزلة والشيخوخة تمهيدا للموت البطيء. وهذا هو العامل الأساسي الذي أنتج منظومة الافكار الرأسمالية، اذ بعد ان عجز الفكر القديم عن مواكبة المتغيرات انبثقت هذه المنظومة كعملية تاريخية، وبعد التناقض بين الطابع الجماعي للانتاج والطابع الخاص للتملك نشأ الفكر الاشتراكي وأخذ يتكون ويتبلور بتدرج وكان *ماركس ولينين* هما العقلين الاستراتيجيين الألمع الى درجة نسب النظرية اليسارية لهما (الماركسية-اللينينية). ومثلما أحرزت الرأسمالية في القرون الثلاثة الاخيرة نجاحات وانتصارات باهرة -- وهذا جاء بداهة على حساب الفكر القديم الاقطاعي والديني ومخلفات الماضي، فمنذ قرن ونصف تقريبا تأسس الفكر الاشتراكي وانحازت له كتل بشرية ضخمة مما أدى لإنتصاره في عدد من البلدان -- الى درجة يمكن القول معها ان هذا الفكر يحتل الدرجة الثانية في انتشاره وقوته عالميا. وقصارى القول لقد أنتجت البشرية الفكر الرأسمالي والرأسمالية كضرورة موضوعية، شأن الفكر والمراحل السابقة، ونفس الشيء يقال عن الفكر الاشتراكي والمرحلة الاشتراكية، اذ لا يمكن تجاوز الماضي وانحياز مئات الملايين من البشر للفكر الرأسمالي أو الاشتراكي، وفي النتيجة بناء تشكيلة اقتصادية-اجتماعية من ذات الطراز لمجرد التسلية أو كبدعة أو خالف تعرف أو نتيجة جهل..الخ.

وبعد ....

ان المنطق الداخلي للنظرية اليسارية هو منطق جدلي، وان النظرية هي نظرية حية ولا تعترف بشيء جامد، فكل شيء في الحياة يتحرك، وهذا حال النظرية، فالتطور مبدأ عام في الحياة والحركة و الصيرورة ملازمة للكون بكافة موجوداته، وهذا يسري على النظرية اليسارية ايضا فهي ان كفت عن التطور تصاب بالجمود والشيخوخة.

وفيما لو اعتبرنا أفكار *ماركس و لينين* نهائية ومكتملة، فهذا انما يناقض منطقها ويناقض منطق الحياة، مما يوجب شحذ الذهن الثوري لمراجعتها ارتباطا بحقائق العلم وفي ذات الوقت اغنائها باستمرار تماشيا مع المستجدات في ممارسة الحركة الاجتماعية.

فمثلا لقد لاحظ لينين في أواخر القرن ١٩ الأزمة التي دخلت فيها الماركسية ، وبعد اعترافه الصريح بذلك بادر لتحليل المرحلة الامبريالية وتقدم باضافته التي أخرجتها من أزمتها، بل لقد قاد عملية سياسية ثورية أفضت لانتصار الثورة الاشتراكية الاولى، وعبر مسيرته تقدم باسهامات عديدة في ميدان الفلسفة سيما تعريفه للمادة وفي ميدان السياسة سيما بناء الحزب الطليعي وفي الاقتصاد سيما تحليلاته للاحتكار والطور الامبريالي..الخ.

وهذه الأيام لا يجب ان نخجل من الاعتراف بأن النظرية الماركسية-اللينينية تواجه أزمة، لا تتجلى فقط في انهيار عدة حلقات اشتراكية، بل كذلك جمود أصاب النظرية فكف الاشتراكيون عن تطويرها. والخلل هنا لا يكمن في المنهاج الجدلي وصياغاته العلمية، بل في عدم استخدام هذا المنهاج وصياغاته العلمية في رصد وتحليل المتغيرات التي طرأت على البشرية في العقود الاخيرة، وبشكل أخص في العقدين الاخيرين حيث دخلت البشرية عهد الثورة التقنية، ثورة الالكترون بنتائجها على كل الصعد، كما الأسلحة النووية ايضا..

وتخليص النظرية اليسارية من أزمتها مناط بكافة القوى الثورية اليسارية، سيما القيادات النظرية الثورية. وقد تتوفر شخصية فذة كما لينين، أو عدة عقول عبقرية، وجهد جماعي للحركات الثورية التي تسهم من خلال ابداعاتها المحلية بما تنتجه من كتابات ومؤلفات تحمل قيمة محلية وعالمية في آن على غرار كتابات الشهيدين *حسين مروة و مهدي عامل*،كما اسهامات المفكر المصري *سمير امين*، بدون ان ننسى *كاسترو* أو سواه..

ان النظرية اليسارية هي نظرية نقدية شاملة، وهي في حد ذاتها تنقد نفسها، لهذا يمكن الوثوق بامكانية كسرها للحلقة الحالية -- حلقة الأزمة. فالبشرية بحاجة لها، فهي النظرية الأكثر اتساقا وعلمية وثورية، ولا يمكن شطبها طالما انها تملك هذه المزايا، شأن العلم الجامعي، اذ من المستحيل ان تهدمه أو تتجاهله البشرية، وشأن علم الطب وعلم الهندسة... فالنظرية اليسارية هي فلسفة علمية ومنهاجها علمي وقضاياها الأساسية علمية كانجازات لا يمكن الاستغناء عنها.
وعلى العكس فإن الايديولوجيات الاخرى تحاول ان تقتبس أو ان تجاري الفكر اليساري في مسائل عديدة، فهي تدعي انها تسعى ايضا للعدالة الاجتماعية والتطور والتحرر واطلاق طاقات الانسان، والقطاع العام حتى ان ٥١٪ من قوة العمل الامريكية تعمل في القطاع العام كما أشار هيجل في احد كتبه، وانها تسعى للسلم والابتعاد عن الحرب...الخ.

أما المنهاج المادي الجدلي فالبشرية كلها تستخدمه بدرجة أو باخرى، ببعض من التجانس او بتجانس كامل.

ومفيد ان نتحدث هنا قليلا عن المنهاج على ان نفرد له يوم خاص.

المنهاج هو الدرب، الطريقة، الأداة التي تستخدم في القراءة والتحليل شأن الخريطة التي يستخدمها البناء لكي يبني مركزا تجاريا مثلا، أو بصورة أدق العلم الهندسي الذي يستند اليه المهندس في رسم هذه الخريطة.

فالمنهاج يشمل أعم القوانين والمفاهيم، الموجودة أصلا في الحياة، وتحتكم لها الحياة في حركتها، ليأتي المنهاج كمحصلة لهذه القوانين والمفاهيم.

وأهم القوانين هي (وحدة وصراع الاضداد + التراكم الكمي يؤدي لقفزة كيفية + نفي النفي، كما مبدأ التطور والتغير الدائمين + مبدأ كلية الارتباط + البعد التاريخي..الخ يضاف لذلك نسبية المعرفة و و..)، كل ذلك على أرضية مادية، اي ان الحركة وبواعثها وقوانينها كلها موجودة في المادة... فالمريض يعاين كما هو ويتم الكشف عن أسباب مرضه وبالتالي اجتراح علاجه، وللهزيمة أسبابها، وللتطور أسبابه، ولكل مشكلة أسبابها الموجودة في الحياة بدون خيالات وأوهام.. والمنهاج برمته نتعرض له بالشرح والتمحيص في أوقات اخرى.

والمهم ان ماركس حينما استرشد بالمنهاج المادي الجدلي أدرك ان الفكر انعكاس للواقع ضمن مرحلتي المعرفة الحسية والمنطقية فدرس التاريخ لينتج المادية التاريخية ودرس المرحلة الرأسمالية وقوانينها التي هي تجلي لقوانين الجدل فتوصل لاستنتاجات نظرية بدت كما لو كانت أحلام، ولكن بعد أقل من نصف قرن انتصرت أول ثورة اشتراكية.. وهذا حال لينين...

اي لقد اختبر التاريخ النظرية اليسارية وأثبت صوابية استنتاجاتها وانشاءاتها. والممارسة كما هو معلوم، اي التطبيق، هو المعيار الحاسم في معرفة الحقيقة وهنا ينبغي الانتباه فالعلم اليساري ليس محصورا في العلم السوفييتي، فالسوفييت لهم اسهاماتهم الهائلة على كل الصعد، غير ان نموذجهم النظري والتطبيقي ليس كل الاشتراكية نظرية وتطبيقا. فضلا عن ضرورة الانتباه الى نشوء وتشريش البيروقراطية في المجتمع السوفييتي ، اي سيطرة شريحة تحجرت سنة بعد سنة وكفت عن الابداع ومواكبة التطورات وأخذت في النتيجة تنظر لسياساتها الى درجة تسخير العلم بقدر كبير لتبرير سياساتها، بينما كان يتوجب ان تصاغ السياسات استنادا للعلم النظري الذي يمحص ويدرس كل الظواهر والعمليات.

وكان من نتيجة ذلك غياب التعددية الاشتراكية وبالفقر في الجدل- التناقض كمظهر للديمقراطية، وبالتالي خرق أحد مقولات المادية التاريخية التي تؤكد على ان الجماهير هي صانعة التاريخ، فانعزل الحزب عن الجماهير، وانعزلت القيادة عن الحزب وغدت قراراتها قرارات فوقية وأوامرية وبعيدة عن مشاركة وتحسس الجماهير، وتضاءل انتاج الفكر، أو على الاقل كانت سرعة الاحداث أكبر من سرعة انتاج الفكر الذي يرصد ويحلل ويستنبىء ويوجه التفكير القيادي، وان يحاول مقاربة الواقع ورسم السياسات الصحيحة لتثويره والارتقاء به.

والماركسية- اللينينة هي ديمقراطية وجدلية في تكوينها الأصيل غير ان الترجمات العملية من قبل اتباعها كانت معاكسة أحيانا وكان لا مناص من دفع الثمن.

وعلى العموم سوف نفرد حديثا خاصا للبيروقراطية.

وختاما أعرف انني تحدثت بايجاز شديد، ولكن لعل الشعار الأهم في هذه المرحلة هو تعريب الماركسية – اللينينية واعادة انتاجها ضمن أوضاع شعبنا وامتنا، ومداخلاتي كلها تأتي في سياق تقديم رؤوس أقلام في هذا الاتجاه وحسب.

يعطيكم العافية وشكرا ومعذرة على جفاف العرض.

رأي يساري حيال عوامل انهيار الاتحاد السوفييتي

دعونا نحضر في الموعد المحدد، فليس دائما تتوافر فرص من هذا القبيل، لتبادل الرأي ولانعاش العقل الجماعي وضبطه وتوجيهه، اذ غير طبيعي ان يتأخر فلان أو يتثاءب علان كما لو كنا في حصة مدرسية غير جذابة وبالمناسبة عرف عن *ديكارت* الفيلسوف الدقة، ليس دقة التفكير فقط، بل ودقة المواعيد ايضا الى درجة ان الناس كانوا يضبطون ساعاتهم تبعا لموعد وروده في الشوارع متجها الى مكان عمله.

المهم صباح الخير أيها الرفاق:

أذكر كلمة قالها *كاسترو*، الذي يمكن اعتباره ضمير الثورة العالمية والثوري الأكبر في هذا الزمن الشاحب، والمدافع الأبرز عن المبادىء والعالم النامي بالكلمة الحية والموقف الصلب والدعم المباشر بصوره المختلفة رغم امكانات كوبا المحدودة وحصار الامبريالية الامريكية، ليس بمقاطعة كوبا اقتصاديا فقط منذ انتصار الثورة عام ١٩٦٠، بل وقد اتخذ الكونغرس الامريكي قرارا في الأعوام الاخيرة يقضي باستقطاع اي مبلغ من المساعدات الامريكية لأية دولة تعادل قيمة التبادل التجاري بين هذه الدولة وجزيرة الحرية الكوبية، ناهيكم عن الضغط على دول مختلفة لكيما تنضم للحصار الامريكي، وهذا بلا شك كانت له اسقاطاته السلبية على الحياة الكوبية سيما في مجال السلع الاستهلاكية وفي حقبة خسارة كوبا للسوق الواسعة للاتحاد السوفييتي السابق واوروبا الشرقية التي كانت تصدر لها كوبا السكر وسواه وتبتاع البترول وسواه بأسعار تفضيلية.

وكانت امريكا، التي أقامت محطة تلفزيونية واخرى للراديو تبثان على امتداد ٢٤ ساعة في اليوم برامج معادية بالاسبانية من ولاية ميامي التي تبعد نحو ٦٠ ميلا عن الشواطىء الكوبية، كانت تخطط كما يبدو لاثارة قلاقل واضطرابات داخلية في كوبا تستند اليها للغزو واسقاط الثورة بالقوة، الامر الذي دفع الحكومة الكوبية الثورية لتسليح ٢ مليون من الميلشيات ... فهي كحكومة ثورية لا تخشى الجماهير خلافا لأنظمتنا العربية، وحفرت أنفاقا تحت هافانا العاصمة وسواها مجهزة بامكانات الصمود والقتال طويل الامد، وشكلت مجموعات تحريضية من

الثوار القدامى زارت كل بيت كوبي لشرح المخطط الامبريالي ومتقضيات مواجهته..الخ.

ماذا قال كاسترو؟ قال بما معناه (*ليس من الشرف في شيء حمل رايات الثورة في زمن المد بل في زمن الجزر والتراجع... واننا نغرق كوبا في البحر ولا نسلمها للامبرياليين.. والرأسمالية القائمة على الاستغلال الطبقي والنهب الاستعماري والتمييز العنصري والدعارة والجشع... لا يمكن ان تكون مستقبل البشرية*)

هذه الكلمات ذات مغزى في فترة تشهد انهيارات وتراجع في المعسكر الاشتراكي، وهي بداهة ليست مجرد كلمات بل لها استحقاقات وتفرض سياسات تعكس مضامينها أيضا فالثوري الحقيقي يزداد عطاء بظروف التحديات.

واريد ان أتطرق لأمر حصل معي اثناء فترة التحقيق رغم ميلي للابتعاد عن الخوض في تجربتي، اذ لم يحن بعد وقت التطرق لها، ولكن غايتي اظهار كيف تجير المخابرات الاسرائيلية انهيار الاتحاد السوفييتي لضرب قناعاتنا بالاشتراكية وقيمنا الثورية.. بعد أيام من المناقشات ذات الطابع الفكري والثقافي والتي ظهر جليا فيها -كما أظن- تفوقي، وهذا طبيعي بحكم مهنتي ، فهم في التحليل الاخير ضباط مخابرات لديهم ثقافة غير ان تخصصهم أمني، وهم في ميدانهم أذكياء ومتمرسون وفريق متكامل يفكر ويخطط بصورة جماعية، غير انهم أقل ثقافة بكثير من أشخاص حرفتهم الثقافة والفكر. وكان الهجوم منظما، من عدة ضباط، على التجربة الاشتراكية كنموذج تطبيقي كما على قوانينها، سيما فائض القيمة ومستقبل البشرية وتبيان محاسن الرأسمالية سيما الجانب الديمقراطي والمبادرة الفردية، وبطبيعة الحال كانت لي آرائي المعللة ... وأذكر بعدها ان أحدهم روى لي القصة التالية عن خوري وصقر ملخصها ان صقرا اعتاد التبويل على صليب الكنيسة الأمر الذي أثار حفيظة الخوري، فصمم على اصطياده واستنطاقه لمعرفة دينه وفيما اذا كان مسيحيا أو مسلما أو يهوديا... فملأ له كوبا من الخمر ووضعه بجانب الصليب يوم الجمعة فما كان من الصقر الا ان شربه وبال على الصليب فقال ان الصقر ليس من ملة المسلمين، وأعاد الكرة يوم السبت فتكرر سلوك الصقر ومن جديد بال على الصليب، فقال الخوري ان صاحبنا ليس يهوديا، ووضع له كوب الخمر مرة ثالثة يوم الأحد فتصرف الصقر على نفس النحو، فوصل الى استنتاج بأنه ليس من أتباع عيسى بن مريم، فما كان منه الا ان ملأ كوب الخمر بعد ان أذاب فيه منوما فشربه الصقر ونام فأمسكه الخوري

وبعد ايقاظه سأله من أنت؟ فرد عليه الصقر : أنا احمد قطامش الصقر الاحمر... اي ان غرض المخابرات القول انني أتحدى التاريخ وحدي، محاولين بهذا المنطق هز قناعاتنا الفكرية، ففي حالة نجاحهم يفقد الثوري الأساس العقائدي الذي يبعث فيه القوة المعنوية وحينذآك يسهل هزه كما لو كان شجرة شائخة ينخرها السوس.

فالذود عن المبادىء واجب مركزي ومصيري لا يقل أهمية عن واجب نقد هذه المبادىء لترميم ثغراتها وتطويرها لمواكبة تطورات الحياة.

وعليه فما الذي أدى الى انهيار الاتحاد السوفييتي وتفككه؟

في مداخلة سابقة تناولنا النظرية الثورية وخصائصها وخلصنا الى نتيجة مؤداها ان ثمة حاجة ماسة للنظرية لتوجيه الممارسة لتكثيف علومها ودروسها في استخلاصات وتجريدات نظرية، مثلما ان الفكر الثوري لا يطبق وانما يرشد الممارسة الثورية ويعقلنها . واليوم ابدأ حديثي بالاشارة الى ان الاشتراكية لم تتدثر وانما نموذج معين هو الذي انطفأ هو النموذج التطبيقي البيروقراطي كما الفهم النظري الجمودي الذين جسدهما أكثر ما جسدهما الاتحاد السوفييتي – رغم انتصاراته ونجاحاته العظيمة– ونسخته المصغرة في اوروبا الشرقية، أما الاشتراكية بوجه عام، بصرف النظر عن تقييمنا لها فهي لم تنفك حية ترزق وتحرز تقدما ملحوظا سيما في الصين حيثما يعيش ١،٢ مليار نسمة ومعدلات نمو اقتصادي قومي تناهز ١٢٪ وفيتنام التي يقطنها نحو ٧٠ مليون نسمة وبمعدلات نمو مشابهة، فضلا عن كوريا الشمالية وكوبا وبلدان ذات توجهات ثورية كما حال أنغولا الافريقية، كمبوتشيا ولاوس، فيما فاز اليسار ثانية في بولندا ولاتفيا وليتوانيا وأذربيجان وحصل على أغلبية في ولاية كيرالا الهندية ومملكة نيبال وعلى ٢٢٪ في اليمن حيثما يقود الجنوب، وهو يتحضر للنجاح في ايطاليا بعدما سيطر على أهم المدن الايطالية، ويمثل نحو ٢٥ ٪ من قيادة حزب المؤتمر الافريقي الذي يتوقع فوزه في أول انتخابات ديمقراطية في جنوب افريقيا وعلى نسبة تفوق ذلك في بلغاريا واليابان، بينما الحزب الشيوعي الروسي حصل على ١٢٪ من الاصوات بدون حسبان حجوم أحزاب يسارية اخرى لم تشارك في الانتخابات التشريعية الروسية، وهناك أحزاب يسارية مقاتلة رئيسية كما حال حزب العمال الكردي في تركيا الذي يضم نحو ٢٠ الف مقاتل ويتزعم النضال الكردي الديمقراطي، وجيش الشعب في الفلبين الذي يسيطر على شمال الفلبين بقوة مقاتلة مؤلفة من أكثر من ١٥ الف مقاتل، واليسار الفلسطيني واللبناني،

وجبهة فارابوندو مارتي في السلفادور والجبهة السندينستية في نيكارغوا التي حازت على ٤٤٪ من أصوات الناخبين وتتوقع لها التقارير امكانية النجاح في الانتخابات المقبلة، وبداهة هناك حركات يسارية ممتدة في أرجاء المعمورة لا يتسع الحديث لاستعراضها وتبيان حجمها.

كما وتشهد صفوف اليسار في مختلف البلدان ثورة نقدية للفكر سوف تسفر لا محالة عن طي صفحة الجمود العقائدية والميكانيكة باتجاه اعادة انتاج النظرية لكيما تواكب المتغيرات العاصفة التي تجتاح العالم مستفيدة من الزلزال الذي أصاب اوروبا الشرقية وبذلك يتم اجتثاث الاغصان اليابسة في شجرة النظرية وافساح المجال الواسع لفروع خضراء جديدة تؤمن الينعان والثبات لشجرة المعرفة الانسانية.

وقبيل الاجابة على السؤال الجوهري: **لماذا انهار الاتحاد السوفييتي القلعة الأهم للاشتراكية؟** علينا توضيح معنى الاشتراكية بايجاز شديد، كما التنويه لشروط نجاحها.

أضافت الرأسمالية للتاريخ علاقات الانتاج الرأسمالية ووحدة السوق جنبا الى جنب مع الاستغلال الطبقي، وفضلا عن الديمقراطية الليبرالية وما ارتبط بذلك من ثورة فكرية وفنية وصولا الى الامبريالية ونهب الشعوب حيث نرى تفاصيلها وحيثياتها في منجزات وسياسات العالم الرأسمالي.

وجذور كل هذه الفلسفة يكمن في المبادرة الفردية وحرية الاختيار، *اي دعه يعمل ، دعه ينتج ، دعه يبيع، ودعه يفكر*، دعه يعتقد. بينما يكمن جذر الاشتراكية في الجماعية والتنظيم الاجتماعي فأهم ما أضافته الاشتراكية للتاريخ هو الملكية الجماعية والاجتماعية للثروة البشرية، حيث ينتفي الاستغلال تماما وتقام الدولة التي تعكس اتحاد الشغيلة الأحرار، اي الغاء الطبقية الاستغلالية في الاقتصاد والغاء الطبقية القمعية في السياسة والثقافة، بما يرتبط بذلك من ثورة فكرية وأخلاقية وتخطيط على كل الصعد.

ولو أردنا التفصيل المقتضب تسهيلا للفهم لقلنا: حالما تغدو الجماهير الشعبية مستعدة للموت في سبيل التغيير أو لديها القابلية النامية لمثل هذا الاستعداد، فيما نظام الطبقات الاستغلالية غير قادر على الحكم والاستمرار كما السابق اي تعصف فيه تناقضات تنمي لديه امكانية العجز عن الحكم كما السابق،

حينذاك تتدلع الثورة السياسية بشروطها وأشكالها العديدة والتي سنتناولها في وقفات اخرى.

وبالتالي فان الاشتراكية تعني أول ما تعني اقامة نظام سياسي ديمقراطي تعكس سلطته السياسية الجماعية تحالف الشغيلة من عمال وفلاحين ومثقفين، أما التعددية الحزبية فهي مسألة مرهونة بظروف كل شعب ومرحلة، وان كانت التجربة قد أثبتت صوابيتها والمهم هو دحر النظام السياسي للطبقات الاستغلالية والرجعية.

وتعني ثانيا .... جماعية وسائل الانتاج من أرض وآلات ومنشآت وبنوك ومؤسسات وقطاع خدماتي سواء تعاونيات جماعية فلاحية وانتاجية للمشاركين فيها، أو ملكية الدولة التي تعني ملكية الشغيلة ذاتهم، بينما القانون الاساسي الذي يحكم الطور الاشتراكي هو *من كل حسب طاقته ومن كل حسب جهده بدون استغلال لأحد*، وبداهة ان هذه التعاونية الانتاجية لا تتحقق دفعة واحدة، بل بتدرج مثلما ان الاشتراكية لا تنفي الملكية الخاصة غير الاستغلالية ناهيكم انها تكفل الملكية الفردية في كل الاحوال (الأجور + البيت العائلي + والاستثمارة المحيطة + الممتلكات البيتية...)

وتعني ثالثا .... ثورة ثقافية وفنية وأخلاقية تحرر العقل من القيود المكبلة والقيم الرأسمالية والاقطاعية والجشع... لتسويغ الثورة وأهدافها..الخ.

وتعني رابعا .... اقامة علاقات مبنية على التكافؤ والمساواة مع البلدان الاخرى وتقديم يد المساعدة للشعوب في نضالها من أجل التحرر والعدالة.

والثورة الاشتراكية لا تتحقق الا حينما تتوافر قوى انتاج متطورة كما كتب ماركس وأكد التاريخ. اي لا يمكن بناء اشتراكية بدون اختيار شعبي، اي الانسان ومهاراته، بوصفه الأداة العقلانية في قوى الانتاج، بل ولا مجال للاشتراكية بدون الآلة الصماء المتطورة في قوى الانتاج، اي التكنولوجيا وما ينجم عنها من تمركز للثروة كما حال البلدان الرأسمالية المتطورة. ولئن كان ممكنا نجاح ثورة سياسية اشتراكية في بلد متوسط التطور، غير ان بناء اقتصاد اشتراكي مشروط بدعم من بلدان اشتراكية أكثر تطور مع الاعتراف بحتمية تباطؤ بناء القاعدة المادية- التقنية للاشتراكية التي هي الأساس التحتي للمجتمع الاشتراكي.

ولما كان الشرط الموضوعي متوفرا في الغرب الرأسمالي أو اليابان، اي تطور الآلة وتمركز الثروة، غير انه لا مجال لثورة اشتراكية بدون انحياز الانسان لهذا الخيار التاريخي والامر ذاته ينطبق على انحياز وحماس الناس للفكرة الاشتراكية في هذا البلد النامي أو ذاك كما الحال في اليمن الجنوبي أو فيتنام مثلا بينما يفتقران للشرط الموضوعي مما يجعل المرحلة وطنية ديمقراطية مع تحويلات اشتراكية .. حتى ان لينين حينما انتصرت ثورة اكتوبر أنجز أول ما أنجز مهمات برجوازية ديمقراطية، اي السلام وتوزيع الاراضي على الفلاحين وتحديث المجتمع الروسي جنبا الى جنب مع تأميم الملكيات الكبيرة وارساء جذور النظام الاجتماعي الاشتراكي.

ومستوى تطور القوى المنتجة عامة يتوافق معه مستوى تطور لعلاقات الانتاج، وهذا وذاك يتوافق معهما البناء الفوقي، وبالتالي تتجدد المرحلة الاقتصادية الاجتماعية التي يمر بها مجتمع معين، بصرف النظر عن دور الايديولوجيا وعوامل اخرى كالديموغرافيا والجغرافيا... في تطوير المجتمعات.

وعلى سبيل المثال ان أدوات الزراعة البدائية القديمة كالمحراث الروماني والاعتماد على أمطار الطبيعة أو الأقنية البسيطة وانسان تلكم المرحلة الأمي بمهاراته المهنية المحدودة، خلق معه علاقات الانتاج الاقطاعية القائمة على قانون الربح العقاري. بينما ظهور المشاغل القائمة على تقسيم العمل، اي المينيفاكتورة في اوروبا والتي يشابهها نظام الطوائف في بلدان الشرق وما استلزمته من فئة تجارية تربط الريف بالمدينة، كانت بداية لنشوء التراكم الرأسمالي البدائي، ومع اكتشاف الكهرباء تحولت تلكم المشاغل الى مصانع لتجيء هذه بداية للثورة الصناعية بما تعنيه من تكون للطبقة الرأسمالية مالكة وسائل الانتاج وطبقة الشغيلة التي تعمل في هذه المصانع، وذات الشيء ينطبق على صعيد المزارع الرأسمالية بما يربط المالكين والشغيلة من علاقات انتاج رأسمالية قانونها الأساسي فائض القيمة.

وكان هذا هو الطور الاول في الثورة الصناعية، أما الطور الثاني فهو الانتقال للانتاج الثقيل، اي انشاء المصانع التي تنتج المصانع، انتاج وسائل الانتاج وبالتالي البضائع غير الاستهلاكية من طراز الباخرة والسيارة والدبابة... الخ. أما الطور الثالث فهو حديث العهد حينما استخدم الالكترون، اي ما يعرف بالثورة التقنية حيث الكمبيوتر والروبوت والاستخدام المعقد للكيمياء والتأثير على الجينات...الخ.

وفي كل طور ارتقائي عرفته الآلة تصاحب معه ارتقاء للانسان الذي يخترع ويستخدم هذه الآلة وبالتالي علاقات انتاج موازية.

وكان من الطبيعي ان تتناقض الطبقة البرجوازية الصاعدة وعلاقات الانتاج الرأسمالية اللتين تشكلتا في أرحام الاقطاع مع علاقات الانتاج الاقطاعية والنظام السياسي الاقطاعي فاندلعت الثورات البرجوازية، ومع تبلور الطبقة العاملة وما تعانيه من استغلال شأن فقراء الفلاحين وفئات الشغيلة الاخرى الأدنى مرتبة طبقية -- وهي تلاحظ انها هي القوى الاجتماعية التي تنتج الخيرات والحضارة فيما يملك سواها الخيرات كما يسيطر على النفوذ ومراكز السلطة والقرار، كان من الطبيعي ان تثور لالغاء التناقض بين الطابع الاجتماعي للعلم وبين الطابع الخاص للتملك وما ينتج عنه من استغلال واغتراب.

وعليه، ماذا كان حال روسيا عشية ثورة اكتوبر الاشتراكية عام ١٧؟

١- وصف لينين روسيا (والمقصود بها روسيا + اوكرانيا اللتين توحدتا تحت العلم القيصري في أواسط القرن ١٩ لتشكلا لاحقا أكثر من ثلثي الاتحاد السوفييتي سكانيا وأكثر من ٧٠٪ من انتاجه القومي) وصفها بأنها بلد نصف برجوازي - نصف اقطاعي، ونصف استعماري ونصف مستعمر، اي انه في الوقت الذي كانت تنتشر فيه علاقات العمل المأجور في الصناعة والزراعة، كان نظام القنانة الاقطاعي وبقايا القرون الوسطى تعيش معها جنبا الى جنب، فتتداخل وتتعايش أنماط الانتاج المختلفة في ذات المرحلة بما يتوافق معها من نظم ادارة ونظم سياسية قيصرية، الى درجة دفعت الصحافة الغربية للاشارة الى ان اوروبا الغربية تسبق روسيا بقرن من الزمان، هذا في الوقت الذي كانت امريكا تتقدم بدورها على اوروبا.

وبينما كانت روسيا عشية الثورة تستعمر عدة بلدان كبولندا والسويد وبلدان في آسيا الوسطى، كانت الشركات الرأسمالية الفرنسية والبلجيكية والالمانية تنهب خيرات الشعب الروسي وتلعب بسياسات الحكم القيصرية، فيما كانت الكهرباء محصورة في المدن والتعليم لا تناهز نسبته ٥٪، بينما ذكر كاتب اسرائيلي مؤخرا مستحثا حكومته على اغتنام فرصة الظرف السياسي الحالي في روسيا لتهجير أكبر عدد من اليهود، ذلك ان عدم

الاستقرار مؤقت في مجتمع كانت فيه نسبة الامية ٩٧٪ قبل اكتوبر بينما اصبحت نسبة التعليم وحملة الشهادات ٩٧٪ بعد الثورة.

والريف الفلاحي كان فقيرا جدا بالنظر الى الضرائب الصارمة والتلاعب في أسعار المحاصيل والافتقار للقروض والتسهيلات، أما المواصلات فكانت خارج المدينة.بدائية كما فرص العلاج والتعليم كانت وقفا على أبناء الطبقات الثرية من البرجوازيين وأصحاب الاطيان، والفوارق الطبقية كانت شاسعة كما ان القمع القيصري حينها في غنى عن الشرح مصادرا كل الحريات والحقوق المصرفية والسياسية.

وهذه العوامل تضافرت وتفاقمت في زمن الحرب العالمية الاولى، تلكم الحرب التي دارت بين ضواري رأس المال العالمي لاعادة اقتسام العالم، حيث انخرطت فيها روسيا مخلفة فواجع فظيعة ومجاعة وصلت حد التهام لحاء الشجر كما تصف الادبيات السوفيتية، فيما الفلاح كان يتوجه الى جبهة القتال وبرفقته حصانه الذي يعد في منزلة أحد الابناء في العائلة الفلاحية.

كل ذلك في ظل هبوب رياح الثورة بالافادة من خبرة الثورة البرجوازية الفاشلة عام ١٩٠٥، التى حضرت الجماهير بمختلف قواها للانتفاض في شباط عام ١٧ فاطاحت بالقيصرية، غير ان الحكومة الثورية المؤقتة بقيادة *كيرنسكي* استمرت في الحرب مما حدا بالحزب البلشفي لرفع شعار مفهوم للجماهير ويستجيب لها (*الارض-السلام -كل السلطة للسوفييت*) وأفلح بالفعل في اكتوبر من نفس العام باطاحة الحكومة المؤقتة واقامة حكم السوفيتات، اي المجالس الشعبية المنتخبة، ولكن ليواجه الثورة المضادة والتدخل الخارجي بمشاركة أربعة عشر دولة رأسمالية أرادت تحطيم البيضة قبل ان تفقس حسب تصريح تشرشل وزير المستعمرات البريطاني حينذاك، غير ان السلطة السوفيتية صمدت..

٢- كان على لينين القائد والمعلم الكبير للطبقة العاملة والثورة بعد ان قاد عملية قهر الاعداء والتي اضطرته لاتباع سياسة *شيوعية الحرب*، اي مصادرة الانتاج فيما عدا الحد الادنى من متطلبات المنتجين والفلاحين لكي يوفر المداخيل اللازمة للانفاق على متطلبات الدفاع عن الثورة، لكن بعد دحر الغزو الخارجي عام ١٩٢١ استبدل هذه السياسة بالسياسة الاقتصادية

الجديدة، اي النيب، حيثما استبقى الانتاج للمنتجين الاحرار بينما دفعوا الضريبة وحسب، مما أتاح المجال لنمو الرأسمال الصغير.

ومن هذه الضرائب وأرباح مشروعات الدولة كان ينفق على الجيش والمرافق العامة وجهاز الدولة عموما فضلا عن كهربة سريعة للبلاد حيثما أضاء أرجاء أكبر دولة في العالم وشق الطرقات وبات القطار يصل لكل مكان. فضلا عن تأمين المياه والتعليم المجاني والعلاج المجاني، وتحققت القفزة الجامعية وبنيت الوحدات السكنية ونشأت المدن الحديثة المتطورة، ووزعت الأراضي على الفلاحين...

وبداهة لقد أممت السلطة الاشتراكية الصناعات الثقيلة والمزارع الرأسمالية والاقطاعية فغدت ملكا للشعب بأسره، وشرعت ببناء الاشكال التعاونية والقاعدة المادية التكنيكية للاشتراكية.

وبعد موت لينين عام ٢٤ فقدت الثورة والنظرية الثورية قائد ملهم استراتيجي وتكتيكي ومنظر ومجدد كبير، وعلى أبواب صعود النازية التي تكرست في انتخابات عام ٣٣ في المانيا اندفع *ستالين* للامام مجبرا تحت الحاح حاجة الصناعة بغية "تلبية الاحتياجات العسكرية لمجابهة النازية" الى حرق المراحل فأرغم عشرة ملايين فلاح للدخول في تعاونيات، وكونهم لم يكونوا جاهزين اعتقدوا بأن الدولة تريد مصادرة أحصنتهم فقتلوا نحو عشرة ملايين حصان كما يشير *دوتيشر* في مجلداته الثلاثة عن *تروتسكي*.

ومعروف لكم ان التعاونية الفلاحية لا تقوم بناء على قرار سلطوي وانما كاختيار شعبي يرى الفلاح فيه حياة أفضل، ودخل أعلى، وطرائق عمل أكثر حداثة، اذ من خلال التعاونيات يتم استخدام حاصدات ودراسات وتراكتورات وأسمدة واشراف هندسي وري... بينما هذا شبه مستحيل، ان لم يكن مستحيلا، حينما يكون الفلاح وحيدا.

مثلما ان الاستثمارة الفلاحية لم تستنفذ طاقتها التقدمية، وقتذاك، اذ ما انفكت واسعة الانتشار في بلد نصف برجوازي، وتملأ حلم الفلاحين، وتحفزهم للعمل الغيور للوفاء بمتطلبات السوق وتحقيق الربحية، بينما لم تكن امكانات الدولة تسمح بتأمين الكثير من الالآت والخبراء الزراعيين... وباختصار كان يتوجب الانتقال المتدرج للتعاونية بناء على انحياز فلاحي،

والامر ذاته ينطبق على الانتاج الحرفي الصغير في الصناعة، والملكيات الصغيرة عموما.

بيد ان صعود النازية وقبلئذ التدخل الخارجي والنزعة الارادوية التي ابتغت بناءا سريعا للاشتراكية، وحداثة التجربة ذاتها، كلها عوامل أفضت الى الهروب للامام رغم الانجاز التاريخي العظيم خلال عقدي الثلاثينات والاربعينات بأرساء أسس الاقتصاد الاشتراكي والانسان الاشتراكي ضمن الاطوار التأسيسية الاولى.

٣- اندلعت الحرب الكونية الثانية، اذ بعد خطأ الشيوعيين والاشتراكيين في الانتخابات الالمانية عام ٣٣، حينما افترقوا ولم يتحالفوا، فاز الحزب الوطني النازي بقيادة *هتلر* بنحو ١١ مليون صوتا فيما حصل الحزبان مجتمعين على ١٣ مليون صوتا، وأخذت طبول الحرب تقرع في أواخر الثلاثينات، وتحسست قيادة *ستالين* حتمية الحرب فوقعت اتفاقية عدم اعتداء مع المانيا، بينما كان قرارات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي تقضي بالاعداد للحرب، فشهوة النازية لم تشبع من احتلال النمسا وبولندا.. بل اجتاحت الاراضي السوفيتية ايضا، وبينما انهارت اوروبا، فيما عدا بريطانيا، وتقدمت امريكا للمشاركة في الحرب ولكن بطاقات محدودة، تحمل الاتحاد السوفييتي شرف المسؤولية الاولى للتصدي للنازية وتحطيمها، وكان ثمن ذلك سقوط ٢٠ مليون سوفييتي، بينهم ٣ ملايين شيوعي، فضلا عن ٤٠ مليون اصابة وتدمير أكثر من ٢٠ ألف مدينة وقرية ضمن سياسة الارض المحروقة النازية، وكانت التقديرات بأن الاتحاد السوفييتي بحاجة لعقدين من الزمن لكيما يعيد بناء ما هدمته الحرب غير انه بعد خمسة أعوام فقط (عام ١٩٥٠) كان الدخل القومي السوفييتي معادلا لدخله عام ٤١ (عشية الحرب)، وهذا معناه تاريخيا تأخره عشرة اعوام، اي لقد ضاع عقد من الزمن بسبب الهتلرية الهمجية، وليس هذا وحسب بل وبعد اندحار الخطر الرأسمالي النازي الذي عرفته البشرية كأكبر خطر هدد الانسانية عهد ذاك، وأملى تحالف الاشتراكية والرأسمالية الديمقراطية في امريكا وبريطانيا، نشب تناقض أساسي بين الاشتراكية والرأسمالية التي امتلكت السلاح النووي واستخدمته في نجازاكي وهيروشيما، فسكتت الحرب الساخنة لتحل محلها الحرب الباردة. فأمريكا التي خرجت بخسائر طفيفة قياسا بغيرها حيثما لم تتعرض حدودها الا لغارة جوية واحدة من قبل الطائرات اليابانية على ميناء بيرل هاربر، ولم تقدم سوى ما يعادل عشر

مليارات دولار للاتحاد السوفييتي في حربه الوطنية العظمى، تولت امريكا اعادة بناء اوروبا تحت عنوان *مشروع مارشال*، مما أتاح لاحتكاراتها نفوذا وأرباحا هائلة، بل وانتشارا عسكريا كما لو كانت مسؤولة عن حماية اوروبا، وصعدت كدولة عظمى، بل الدولة العظمى الاولى، وشرعت بتقوية ترسانتها العسكرية بميزانية تعادل ١٦٪ سنويا من ميزانيتها العامة. وعلى سبيل المثال لقد أنفقت امريكا في السنوات الاربع الاخيرة على التوالي، وكما نشرت تقاريرها الرسمية، ٢٦٥ مليار دولار + ٢٩٥ + ٣٠٠ + ٣٠٥ مليار دولار، بينما *كلينتون* وعد بتخفيض ٥٠ مليار.

وكان من البديهي ان يمتلك السوفييت السلاح النووي وان ينفقوا مبالغ هائلة وبنسب مشابهة لتعزيز ترسانتهم العسكرية لكي يحرزوا توازنا عسكريا وقوة ردع مطلق مع الغرب الرأسمالي، فلا يتيحوا للرأسمالية امكانية التفوق وبالتالي املاء ارادتها على البشرية كما لاحظنا ذلك مؤخرا بالعدوان الاطلسي على العراق أو اجتياح بنما وقصف ليبيا أو مؤامرة تصفية القضية الفلسطينية..الخ . وبينما امريكا أكثر ثراء بل وحلفاؤها في اوروبا أكثر ثراء من حلفاء السوفييت وتنهب سنويا من العالم النامي نحو ٢٥٠ مليار دولار كما أشار *غورباتشوف*، اضطر الاتحاد السوفييتي الاعتماد على اقتصاده وعلى حساب مستوى حياة شعبه لتغطية مصاريف سباق التسلح، بل ويشير *حسنين هيكل* في أحد كتبه ان *روكفلر* رجل المال الامريكي الشهير أخبره في الستينات ان غاية امريكا من سباق التسلح هو هدر الطاقات الاقتصادية السوفيتية واستنزافها لغاية ضرب أفضليات الاشتراكية وهدمها.

ومعلوم لكم ان القطاع العسكري هو قطاع استهلاكي لا انتاجي، اي انه بالوعة أموال، وعلى امتداد عقود والاتحاد السوفييتي ينفق عليه من انتاجه القومي، بل وينفق على *حلف وارسو* عموما ذلك انه القوة الاساسية والمتطورة عسكريا وبدونه يتحلل الحلف ويصبح شذر مذر، اي ان عبئه كان مضاعفا هنا. كما معلوم لكم ايضا انه عموما يتعذر تحويل القطاع الانتاجي العسكري الى قطاع انتاجي مدني، ومثل هذا الكلام تكرر على لسان اعضاء قياديين في أكثر من بلد اشتراكي ما قبل الانهيار.

٤- الدعم الاممي السوفييتي للشعوب، وهنا الحديث يدور عن المساعدات الكبيرة التي قدمتها روسيا واوكرانيا على سبيل المثال للجمهوريات السوفييتية الأشد

فقرا في الجنوب كما أذربيجان أو كازاخستان أو قرغيستان..الخ فهذا يدخل في نطاق التنمية الشمولية للبلاد بغية تقليص الفجوة بين الجمهوريات الأكثر تطورا والجمهوريات الأقل تطورا كثنائية ورثتها الثورة من العهد السابق، وانما المقصود المساعدات الهائلة من جانب الاتحاد السوفييتي لحلفائه في بلدان الكتلة الاشتراكية التي حررها الجيش الاحمر السوفييتي في الحرب العالمية الثانية، كما مساعداته لفيتنام وكوبا وكوريا والصين في أواخر الخمسينات، الى ما قبل نشوب الخلاف السوفييتي الصيني، كما المعونات لبلدان العالم الثالث التي انتهجت سياسة معادية للامبريالية وخطا تنمويا مستقلا

ولا جديد في القول ان الثورة الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي هي الأسبق وانها نجحت فعلا في بناء قاعدة اقتصادية – تكنيكية جبارة كانت تتقدم بعقود على مستوى التطور في البلدان الاشتراكية الاخرى أو ذات التوجه الاشتراكي الامر الذي يلزم السوفييت على تقديم التكنولوجيا والخبراء والهبات والاعفاءات من الديون... الخ لهذه البلدان على امتداد عشرات السنين بما يعنيه ذلك من استقطاعات رئيسية من الموازنة السوفيتية والتي عادل في مجموعها مئات المليارات، وحسب معلوماتي فالسوفييت كانوا يستقطعون ٨٪ من موازنتهم للمساعدات الخارجية بينما لم ينهبوا احدا، فعلاقاتهم كانت مبنية على التكافؤ بل والتسهيلات خلافا للامبريالية التي يحكمها قانون اللاتكافؤ فتنهب خيرات العالم النامي مما يزيد الفجوة سنويا بين دول المركز الامبريالي وبلدان المحيط.

وللتدليل على الهبات والتسهيلات كان الاتحاد السوفييتي يشتري السكر الكوبي وسواه من السلع بأسعار تفوق سعره في السوق الدولية بفارق سنوي يعادل مليار دولار ناهيكم عن المساعدات الاخرى التي تقدرها الصحافة الامريكية بـ ٥ مليار دولار سنويا، والامر نفسه ينطبق على فيتنام، أما مساعداته الاساسية فقد كانت لدول الكوميكون، اي البلدان الاوروبية المشاركة في السوق الاشتراكية سيما البترول والتكنولوجيا والسلاح.. الخ. بدون ان ننسى هباته وتسهيلاته لبلدان العالم الثالث التي كانت تتجه لفك التبعية بالغرب الرأسمالي كما حال مصر في زمن عبد الناصر أو الجزائر والعراق في عقود سابقة أو الهند أو .. وكانت تتجلى الهبات والتسهيلات هنا على شكل منح تعليمية وخبراء وقروض بفائدة رمزية تصل لـ ١٪، مع

بعض الاعفاءات وأسعار معقولة للسلاح مع اعادة جدولة تسديد أثمانها... فلقد انهار الاتحاد السوفييتي وله مديونية على سوريا وليبيا والهند وسواها ..

ويحضر في ذهني رقم أشار له *كاسترو* في خطاب ألقاه أمام منظمة الوحدة الافريقية منذ سبعة أو ثمانية أعوام عن وجود حوالي ١٧ ألف خبير كوبي في بلدان العالم النامي، فلئن كان هذا حال بلد صغير فما بالكم بقلعة الاشتراكية؟!

٥- أحرزت الاشتراكية معدلات نمو جيدة في خططها الخمسية منذ قيام الثورة عام ١٩١٧ الى اوائل الثمانينات . ويكفي ان نتذكر هنا بأن الانتاج القومي الروسي كان عام ١٧ يعادل ١٨٪ من الانتاج القومي الامريكي بينما أصبح يعادل ٧٥٪ في أواسط السبعينات مما يدلل على ان وتائر التطور كانت في الاتحاد السوفيتي، رغم الحرب العالمية الاولى والثانية وسباق التسلح والمساعدات الاممية، هي أسرع بما لا يقاس. ولمعلومكم فلقد حاصر العالم الرأسمالي الاتحاد السوفييتي وقطع العلاقات معه بعد الثورة وحتى اوائل الثلاثينات، اي انه كان ينمو ليس بالاعتماد على ذاته فقط بل وفي أجواء معادية ايضا. وقد مضت سنوات كان الانتاج القومي يزيد بنسبة ٣٠٪ أو أقل او أكثر، وهذه نسبة غير عادية في بلد كبير كالاتحاد السوفييتي.

وأذكر هنا حكاية صغيرة قرأتها في جريدة موسكو الناطقة بالعربية حينما كنت في بداية اهتمامي بالثقافة في السبعينات، تدور عن عضو كونغرس زار الاتحاد السوفييتي وطاف في عدة جمهوريات، بما في ذلك كازاختسان، ورأى بام عينه الانجازات والمصاعب التي يواجهها السوفييت، وأظن ان هذه المرحلة تمت بعد لقاء *نيكسون بماوتسي تونغ* عام ٧٢ في بكين التي مهد لها كيسنجر وكانت غايتها دق اسفين أو الافادة من التناقض في العلاقة بين السوفييت والصينيين، وعضو الكونغرس أراد ان يكون انطباعات أو يستحصل معلومات تساعده على تحديد موقف أيهما أهم لامريكا العلاقة مع السوفييت أم الصين؟

المهم، لقد أعرب عن رأيه أمام القيادة الكازاخية بأن الاشتراكية لم تحقق لهم تقدما يذكر، وكيلا يتحول الرد الى مساجلة منطقية غير مجدية وضعوا تحت تصرفه طائرة هيلوكوبتر طافت فيه على الحدود الجنوبية في افغانستان وباكستان ليلا، وسأله مرافقه ماذا ترى في بلادنا وفي البلاد

المجاورة، أجاب: هنا مدينة حيثما الكهرباء تسطع في المدن والبنايات الحديثة، وهناك ظلمة على مرمى العين فرد عليه مرافقه: اننا على امتداد قرون كنا وجيراننا ضمن نفس الظروف السياسية ومستوى التطور الاقتصادي كما الحال متشابه في فقر الموارد الطبيعية، ولكن أنظر ما بين طريق التطور الاشتراكي وطريق التطور غير الاشتراكي. فقال عضو الكونغرس لقد وصلتني الرسالة وفهمت.

وشيء مشابه الان في جزيرة الحرية الكوبية، اذ رغم الحصار الامريكي واستنزاف المقدرات الناتج عن الانفاق العسكري دفاعا عن الثورة وتحسبا من غزو أمريكي .، ففي كوبا أعلى مستوى معيشي في أمريكا اللاتينية والتي تنتمي لها جغرافيا وبيئويا وتاريخيا.. بينما كان حالها كحال سواها من بلدان القارة قبل انتصار الثورة، بل ان الجمهورية الكوبية هي الوحيدة التي تؤمن تعليما مجانيا متكافئا للمواطنين كما علاجا مجانيا، بل ان قطاعي التعليم والصحة هما الأكثر تطورا في القارة، ناهيكم عن انعدام البطالة والدعارة والتحكم الامبريالي خلافا للحال في القارة، عوضا عن التنمية الثقافية والفنية حماية للشخصية الكوبية، بل وانتم لاحظتم عدد الميداليات التي فاز بها الفريق الكوبي في دورة الاولمبياد بما يفوق كل البلدان النامية التي تنتمي لها كوبا، ولمعلومكم ان المستوى الرياضي هو أحد مقاييس السباق بين الشعوب والحضارات شأن الفن وتحرر المرأة...

وكل هذا يبرهن من جديد، كما قال سكرتير منظمة الشبيبة الشيوعية الكوبية، على أفضليات الطريق الاشتراكي، بدون ان نتطرق للجوانب الاخرى كالعدالة الاجتماعية وثورة الكرامة والابداع...

وغورباتشوف حينما تبوأ مركز الامانة العامة عام ٨٥ انتقد بمرارة الخطتين الخمسينتين لأنهما لم تحرزا معدلات نمو سنوي بأكثر من ٢،٥ ٪ بما يشبه الحال في أمريكا ومعظم البلدان الرأسمالية المتطورة، ورفع شعار التعجيل ووعد بمضاعفة الانتاج القومي الى نهاية القرن اي بمعدل سنوي يصل لـ ٦٪ كما حال اليابان في السنوات الاخيرة.

٦- رغم ما راكمته الثورة السوفيتية من انجازات عظيمة، سيما تحطيم النظام القيصري وانتشال المجتمع من وهنة التخلف والقرون الوسطى بما يشبه

الواقع العربي اليوم، ووضعته على طريق الحداثة والنهوض على كل الصعد، الامر الذي جعل الاتحاد السوفييتي الدولة الثانية في العالم، بل وأرست دعائم الاشتراكية حيثما زال احتكار الثورة والسلطة من قبل أقلية رأسمالية تمارس الاستغلال للشغيلة وكان لها الفضل الاول في قهر أعتى عدو عرفته البشرية منذآك، اي النازية الجامحة التي أرادت استعمار البشرية، وتحقق التوازن الاستراتيجي مع الغرب ودعم ثورات العالم قاطبة، وانتشر الفكر الثوري الذي يفصح عن حقوق وأهداف العمال المسحوقين والشعوب المضطهدة الامر الذي كان مهمازا يحرض الجماهير على الثورة ويفرض على رأس المال العالمي التقهقر وتلبية المزيد من الحقوق حتى داخل المجتمعات الرأسمالية ذاتها، حيثما نلاحظ اليوم هجوما منظما من قبل الاحتكارات على حقوق الشغيلة بل وغزوا استعماريا عسكريا لأكثر من بلد نام كما العراق والصومال وبنما...

وهذا كله لم يكن ممكنا في زمن الاتحاد السوفييتي.

ان قائمة الانجازات طويلة ولا يمكن اختصارها في بضعة دقائق، بل وشهدت الخمسينات والستينات واوائل السبعينات مدا ثوريا عارما في أرجاء المعمورة جاء تدعيما للمد الثوري في أعقاب الحرب العالمية الثانية، حيثما لاحظنا انتصار الثورة الصينية كما انتصار الثورة في نصف فيتنام ونصف كوريا والاستقلال السياسي لعشرات البلدان التي كان تخضع للاستعمار العسكري، ليتواصل المد بعدئذ في جنوب شرقي آسيا وعدد من الاقطار العربية والافريقية واللاتينية، بل وليتنامى النفوذ اليساري في غير بلد اوروبي رأسمالي..ولكن في أواخر السبعينات أخذت تتجسد ظاهرة ملفتة للنظر، أبرز معالمها الركود الاقتصادي، اذ بينما انتقلت الرأسمالة الى طور الثورة التقنية، ثورة الالكترون، بما عنته من مضاعفة الانتاج القومي الناتج عن القفزة في أدوات الانتاج، وبالتالي رفع المستوى الاستهلاكي لشعوبها وبالطبع للأجراء، الامر الذي انعكس على روحهم الثورية أو على روح فئات واسعة منهم، من خلال استخدام الكمبيوتر والروبوت والثورة الكيميائية التي أنتجت تراكيب وأصناف جديدة بمواصفات أفضل وأقل كلفة ، وانتاج مضاعف مرات ومرات في الزراعة الى درجة ان ١٪ فقط من قوة العمل الامريكية تكدح في الزراعة لتحقق لها اكتفاء ذاتيا وفائضا يصدر للعالم.

والثورة التقنية عززت من دور الاحتكارت فوق القومية بحيث سيطرت فروعها على الاقتصاد العالمي بفعل تكنولوجيتها العالمية والقوة الاقتصادية الهائلة بين ايديها الى درجة انه ٣٠ احتكارا عالميا يملك نحو ٧٠٪ من ثروة الكرة الارضية، وهذه الاحتكارات هي التي تتحكم بالتجمع الصناعي العسكري والمدني في العالم الرأسمالي وبالتالي في سياساته.

وهيكل يتحدث – *وبالمناسبة انه عقل كبير ومؤلفاته تمد القارىء بمعلومات هامة لا يمكن ان يعثر عليها لدى سواه* – عن البورصة هذه الايام بعد ان أصبح العالم قرية صغيرة بفعل ثورة المواصلات التي أتاحت تكوين سوق عالمية توفر للاغنياء فرصا واسعة للهيمنة والربح، حيثما تبلغ قيمة الأموال المتحركة في بورصة نيويورك وطوكيو وفرانكفورت ولندن وباريس..نحو ٤٠٠ مليار دولار يوميا بين شراء وبيع أسهم وشراء وبيع عملات مختلفة، بينما يبلغ حجم تبادل البضائع ٤ مليار دولار، اي ان حركة تنقل الاموال أسرع مئة مرة من حركة تبادل البضائع.

وفي الظروف الجديدة زادت قوة الاحتكارات الرأسمالية واصبحت قادرة على التحكم اكثر بالمواد الخام وأسعارها سواء كانت النفط أو المعادن والثروات الجوفية...الخ. كما ازداد تحكمها بالتكنولوجيا وتوظيفها لأغراض سياسية وذات الشيء يقال عن النقود والمديونية...

ومن البديهي في ظروف تعاظم قوة الاحتكارات ورشوة الشغيلة بفتات من عائدات الثورة التقنية وما تركه هذا المستجد من حراك اجتماعي زاد من اتساع الفئات الوسطى حيثما هبطت قوة العمل في الصناعة وتنامت بوضوح في الخدمات، وتركيز رهيب للثروة والمقدرات العسكرية والاعلامية في أيدي رأس المال، لا بد من تبهيت عوامل الانفجار الثوري وتأجيله -- اي لقد أفلحت الرأسمالية في تجديد نفسها وامتصاص أزماتها، وبالتالي احراز قصب السبق على ما عداها والتفوق على ما عداها. فهي غدت القوة الاقتصادية – التكنولوجية الاولى، والقوة العسكرية الاولى، والقوة العلمية والاكاديمية الاولى والقوة الاعلامية والفنية الاولى، وبالطبع المجتمع المشبع بالسلع الاستهلاكية أكثر من سواه والأكثر جودة وتنوع، والذي يكفل حقوق الانسان في الاختيار وحرية المعتقد والتفكير والابداع والحركة والسفر.. أكثر من سواه...

اما حال العالم النامي فهو في غنى عن الشرح، مجرد مزرعة تابعة ومنهوبة تعشش فيها مصالح الاحتكارات، وهو ليس موضوعنا الان، أما الاشتراكية، سيما الاتحاد السوفييتي السابق، فقد أصابته آلية الكبح، اي لقد تفاقمت البقرطة فيه فأفضت فيما أفضت الى الجمود الاقتصادي.

وهنا ينبغي الاشارة الى ان قوام جهاز الدولة في الاتحاد السوفييتي كان يربو على ١٨ مليون، وهذا بداهة جهاز ضخم، تتركز بين يديه كل السلطات والصلاحيات، وخططه المركزية الأوامرية ملزمة للمجتمع ومؤسساته بصرف النظر عن آلية صياغة هذه الخطط، والحزب ، سيما قياداته وكادراته، هو صاحب النفوذ الاول في هذا الجهاز، اي لقد تماهى الحزب في الجهاز وغدا سلطة حكم وليس قيادة. ولئن كان التاريخ قد تجاوز النظام السياسي الاقطاعي وما سبقه حينما كان يحكم الناس زعيم قبيلة أو ملك أو خليفة ومجموعة مستشارين، ولئن كان يبحث عن نظام سياسي لا تتحكم بناحيتيه أقلية رأسمالية تنتخب كل أربع سنوات كما الحال في الرأسمالية والتي جاءت خطوة للأمام قياسا بالعهود السابقة، فان الحزب الشيوعي السوفييتي أعطانا نظام من طراز مختلف حيثما تفرد لوحده بالسلطة. وان كونه ناهز الـ ١٩ مليون عضو + ٢٥ مليون في منظمته الشبيبية، لا ينفي حقائق من نوع ان قياداته قد تبقرطت وغدا التجديد فيها محدودا، فغالبية المكتب السياسي تحجرت في مواقعها وقد حل هذا المكتب محل اللجنة المركزية، فيما الصحيح هو العكس، وكذا هيئات الدولة القيادية والتخطيطية أصابها ذات التحجر. وبينما كان المطلوب اقامة اتحاد الشغيلة الأحرار حسب تعبير ماركس، تشكلت شريحة بيروقراطية حاكمة من غير الشغيلة. وان كونها لا تملك ملكية خاصة او أسهم في شركات أو وحدات انتاجية ورواتبها عادية لا ينفي حقيقة كونها قد اصيبت بالخمول والتكلس وعدم القدرة على مواكبة الجديد، بينما الاشتراكية في جوهرها الأصيل هي ديمقراطية تقوم على مبدأ المجتمع المدني، اي على استقلالية المؤسسات وجدالها المستمر مع السلطة السياسية، فاتحاد النقابات له دوره كما اتحاد الكتاب والصحفيين كما اتحاد المرأة والسلطة القضائية..الخ. فكل مؤسسة تمارس دورها بحرية سواء اتفقت أو تناقضت مع السياسات الرسمية ولكن ضمن القانون- الدستور العام الناظم للمجتمع حكاما ومحكومين معا، أما ان يحل الحزب محل المؤسسات ويلغي دورها أو يتحكم بأنفاسها فهذا له محاذيره سيما اذا كان الحزب هو الوحيد في الدولة، اي لا أحزاب اخرى تتصارع معه وتجادله وتجبره على تطوير برامجه ويجبرها على تطوير

برامجها لاقناع الناس وتلبية تطلعاتهم... والوجه الاخر للتنظيم الاجتماعي الاشتراكي هو الديمقراطية، وهذه تستوعب المحتويات التقدمية للديمقراطية الليبرالية التي هي قفزة هائلة قياسا بالتاريخ ما قبل الرأسمالية، ولكن لتعيد صياغتها وتقدم مضامينها الأعمق والأكثر جذرية، وتحديدا المجالسية المنتخبة في كل مكان بوصفها السلطة الأعلى، فالمجلس المنتخب محليا من قبل الجماهير والتي تملك حق عزله هي القيادة المحلية، وهذا حال المجلس المنتخب في المدينة والمستشفى والمصنع...الخ، على غرار كومونة العمال في باريس عام ١٨٧١ بل وتطويرا لها، اي المجالسية والانتخاب المباشر الشعبي معا، يصاحب كل ذلك تجديد يكفل التواصل والديناميكية معا، مثلما يوجب الترشيح الحر داخل أجهزة الحزب والمنافسة الحرة بين قوائم الحزب والقوائم الاخرى.

والاشتراكية لا تنفي التعددية بل ان التعددية ضرورية، اذ بدون تناقض وجدل يعشش العفن ويشل ميكانيك التطور، اذا ما تذكرنا ان الجدل، اي التناقض، هو قانون طبيعي وهو جذر الحركة في الحياة.
والخطط التنموية على كل الصعد تصاغ من قبل الوحدات الانتاجية والمجتمعية ليصار الى استخلاص الاتجاهات الأساسية العامة كاطار تتحرك في اطاره مبادرة ومنافسة الوحدات والقطاعات المحلية، اي بطريقة ديمقراطية لكيما يتبنى الشعب هذه الخطط بوصفها خططه ومن صيغه ولخدمته بعيدا عن الطريقة الأوامرية، فضلا عن الاستناد للحساب الاقتصادي الذي يلزم كل وحدة بالربح كيلا تتراكم العجوزات – وكل منتج على العمل كيلا يتحول العبء على المجتمع وحسب قانون "*من كل حسب طاقته ولكل حسب عمله*" بدون استغلال المجتمع للفرد أو استغلال الفرد للمجتمع.. وباختصار على الاشتراكية ان تتقدم بمنظورها الديمقراطي وتكمله وتنضجه في غمرة الممارسة التاريخية.

والاشتراكية تعني الابداع، فهي في الأساس نظرية مبدعة أنتجتها البشرية، كما انها ممارسة تطبيقية مبدعة تجاوزت فيها البشرية المراحل السابقة، وابداعيتها لا حدود لها، وان كفت عن الابداع شاخت وماتت، وان كفت عن التجديد شاخت وماتت شأن الكثير من الافكار الرأسمالية والفلسفات التي سبقتها.. فقانون الحياة هو التطور، والذي لا يواكب التطور يتخلف وتتخطاه الحياة.. ومن البديهي والحال هذه ان تنجح الاشتراكية في انتاج أدب مبدع وعلم عسكري مبدع وعلوم عديدة متقدمة، ولكن ان تتوقف عند

حدود الطور الثاني في الثورة الصناعية، اي الانتاج الثقيل وشذرات من علم الالكترون الذي برعت في استخدامه في القطاع العسكري بينما أخفقت بقدر ما في القطاع المدني، أو دعونا نقول لم يوازي تطورها مستوى التطور في قلاع الرأسمالية ، فهذه كارثة بكل معاني الكلمة.

أيها الاصدقاء، لو أردت تشبيه مدلولات ثورة الالكترون بغية تسهيل الفهم لقلت، هناك جيشان يقتتلان بسلاح متماثل هو الرشاش، وأحد الجيشين قام بتصميم وتصنيع طائرة مقاتلة، فيما الأخر قام بتصنيع مصفحة، فالنتيجة معروفة لكم، فالجيش الأول هو المنتصر لا محالة، وانتصاره سيمكنه من فرض ارادته على الجيش الأخر لا محالة... أو مزارعان كانا يستخدمان ذات الاداة، اي المحراث، وينتظران رحمة السماء لتسقط الامطار، ولكن ليبادر احدهما باستخدام علم الهندسة والري الحديث وعلم الجينات، فيما الأخر على حاله أو يقوم بشق أقنية بدائية ومعزقة... فماذا ستكون النتيجة

وهذا يمكن سحبه على المتبارين في الرياضة وفي الصحافة والجامعة و... وذات المبدأ ينسحب على المجتمعات ايضا.

وقصارى القول، رغم ان *غورباتشوف* في لقائه مع الروائي "*ماركيز*" يقول ان العلم السوفيتي أقوى العلوم، وهناك الكثير من التكنيك المهمل في الادراج غير انه كان امتدادا لعهد السبعينات الذي لم يولى المراكز البحثية الجامعية والمعملية الاهتمام الكافي.. فالقيادات البيروقراطية لم تستوعب أهمية الانفاق على المراكز البحثية، فكانت بخيلة، بينما في كل جامعة أمريكية وشركة أمريكية كبيرة معمل بحثي ومخترعين ومصممين وموهوبين وعلماء كان انتاجهم الذهني في محصلته رافعة قوية انتجت نظريات واختراعات تحولت لتكنولوجيا وانجازات.

والبيروقراطية لم تفضي الى الركود في ميدان الاقتصاد أو في ميدان النظام السياسي فقط بل امتد الركود الى الميدان الايديولوجي، فيما سمي بالجمود العقائدي، فالاضافات على النظرية الاشتراكية لم تكن بغزارة وزخم المستجدات في الحياة، الى درجة أخذت تعامل النظرية كما لو كانت دينا جديدا، والموقف العقائدي هو موقف ايماني كما الدين، بينما النظرية ليست كذلك ومنهجها مناقض تماما، هذا موضوع قائم بذاته... وما يهمنا هنا هو الاشارة له وحسب، وبالتالي الاشارة لتجلياته التي دفعت المنظرين السوفييت رغم اسهاماتهم الجليلة في اغناء

المكتبة الانسانية، غير ان ميلا كان يتخلل كتاباتهم أو الكتابات المعروفة لنا يقوم على تبرير النظرية وليس اعادة انتاجها، كما لو كانت المؤلفات الماركسية- اللينينة تحوي على اجابات وحلول لمشكلات الانسان والعصر، بينما الصحيح انها تحتوي على رؤى من هذا القبيل غير ان ورثة النظرية ودعاتها ملزمون في كل مكان لرصد المتغيرات المحلية والدولية وتقديم تصوراتهم الثورية حيالها، وبذلك يحافظون على جدل النظرية، فهي ليست عقيدة جامدة مثلما انها غير مكتلمة ولن تكتمل أبدا بالنظر الى ولادة الجديد دوما في أحشاء البشرية.

والان أنتقل الى خاتمة حديثي بالقول، ان كل ما سقته وعرضته كرؤوس أقلام لا يفسر وحده عوامل انهيار النموذج الاشتراكي البيروقراطي، فهو يسلط الاضواء على جوانب من لوحة الأسباب، ولكن علينا التمييز بين السبب الأساسي والأسباب الرئيسية والأسباب الفرعية، كما بين العوامل الموضوعية والعوامل الذاتية، ولو أردت ان اختصر اجتهادي، لا تعوزني الجرأة للقول، ان كل ما أسلفت وما يمكن ان تضيفوه انما يندرج ضمن الرئيسي والفرعي والموضوعي، اما الأساسي والذاتي، اي الحاسم من وجهة نظري ، هو القيادة التكنوقراطية الغورباتشوفية وما أنتجته من منظومة آراء برنامجية هي في جوهرها التطبيقي كما رأيته، وبقطع النظر عن بريقها او جوانبها المنطقية، هدامة ومعادية للاشتراكية.

ولا يمكن فهم اعادة البناء - البيروسترويكا + المكاشفة والحديث بصوت مسموع- الجلاسنوست، والتفكير السياسي الجديد، اي الاضلاع الثلاثة لفلسفة عهد غورباتشوف وفريقه الا بمعرفة اصولهم الطبقية ومعرفة الشريحة الاجتماعية التي ينتمون لها... وهنا بيسر يمكن ملاحظة انهم بمجملهم من الاكاديميين وأهل الاختصاص من التكنوقراط المتنفذين في أعلى المراتب الوظيفية- البيروقراطية.

اي ان فريق غورباتشوف حارب البيروقراطية ببيروقراطية اخرى، والجمود العقائدي بانحراف وارتداد عن العقيدة، ونقض الركود الاقتصادي ليهدم الاقتصاد الاشتراكي، وجدد النظام السياسي ليهدم الدولة، وراجع السياسات الخارجية ليرضخ أمام الامبريالية ويبشر بانها المنقذ والحل، بل ووعد شعبه طويلا بالتكنولوجيا الامريكية، وقرأ الجديد التاريخي ليسقط شعار الثورة ودعم الثورات، والمصارحة والحديث المسموع لديه أنتجا حملة اعلامية وثقافية منظمة لتشويه كل المسار التاريخي للثورة ومحطاتها ورموزها وليصور كل ذلك

كسيناريو مذموم، وتحت عنوان فصل الحزب عن الدولة همش الحزب ونحاه جانبا وبدلا من دمقرطته أشاع البلبلة فيه...الخ.

ولئن كان لينين وسواه قد حللوا خصائص البرجوازية الصغيرة سيما شرائح الانتلجنسيا، كما *بليخانوف ولينين* وسواهما حللوا دور الأفراد في التاريخ، غير ان الجديد يشير الى ان الانتلجنسيا حتى داخل المجتمع الاشتراكي يمكن ان تنشأ في صفوفها تيارات مدمرة داخل الحزب الشيوعي، مثلما ان الافراد يمكن في ظروف معينة ان يلعبوا دورا مضاعفا خطرا.

وترتيبا عليه، فلئن كان المجتمع السوفيتي مريضا ويواجه نظاما عالميا احتكاريا قويا، غير انه لو قدر لاتجاه أكثر جذرية في تشبثه بالاشتراكية كخيار تاريخي، متحررا من البيروقراطية والجمود العقائدي، ان يتبوأ موقع القرار لأمكن تصور ان ينجح في تخليص الاشتراكية من الصدأ الذي لحق بها والحزب من الأمراض التي فتكت فيه... غير ان تيارا يمينيا برجوازيا صغيرا مبهورا بالرأسمالية بطرائقها على رأسه غورباتشوف هو الذي أمسك الدفة وكان من المحتم ان يقود السفينة للتفسخ والغرق طالما يلجأ لوسائل غير اشتراكية في انقاذ الاشتراكية، بل انه لم يخفي انحيازه للاقتصاد السوقي والديمقراطية الليبرالية التي أطلقت كل شياطين اعداء الاشتراكية بما في ذلك العناصر الصهيونية، فيما لجمت وحاصرت وعزلت الاتجاهات الأشد تمسكا بالاشتراكية.. فلا ينقذ الاشتراكية الا المزيد من الاشتراكية والديمقراطية الاشتراكية.

وكما تلاحظون فالوضع لم يستقر بعد للقوى الاجتماعية البرجوازية والمافيات الجديدة، فالأزمة لا تني تتفاقم على صعيد سياسي الى درجة توجيه *يلتسين* فوهات المدفعية الى مقر البرلمان كما "نيرون" حينما أشعل النار في روما القديمة، وتنامى تيار قومي فاشي في أوساط المجتمع تتعاطف معه قطاعات واسعة من الجيش الذي يشعر بالمهانة بعد تفكك الاتحاد السوفييتي وعربدة الجيش الامريكي، كما استشراء الأزمة الاقتصادية حيثما يتقهقر الانتاج القومي بصورة ملحوظة الى درجة خطيرة وبأقل من ٢٠٪ مما كان عليه الحال قبل عقد، بينما يتزايد عدد السكان واتساع موجة البطالة لتناهز ٢٥٪ وتضخم مالي يزيد عن ٢٠٠٪ فيبتلع الأجور ويجعل الغالبية يعيشون دون خطر الفقر، وسلع استهلاكية مفقودة من رفوف السوبرماركت أضعاف أضعاف ما كان عليه الحال من قبل، ومديونية تتصاعد سنة بعد سنة ولم تحصد تمنيات *غورباتشوف* ومن بعده *يلتسين* أية دعومات حقيقية من الغرب الرأسمالي، اذ ان الغرب لا يمكن ان يكون بابا

نويل الذي يوزع الهدايا، بل على العكس فهو لا يتحرك الا حينما يضمن لنفسه ربحية عالية، فهو ينهب ولا يساعد، بل من المستحيل ان ينقذ الاشتراكية لأنها عدوه التاريخي وبديله، كما انه من المستحيل ان يفرز بناء روسيا رأسمالية انتاجية لأنها والحال هذه ستنافسه كما اليابان بالضبط.

ان المجتمع السوفييتي السابق يعيش مخاضا رهيبا وعميقا، وثقتي راسخة بأن الاشتراكية هي مخرجه الوحيد، ولكنها اشتراكية ديمقراطية مغايرة للنموذج البيروقراطي السابق.

الان اترك المجال للتفاعل والنقاش، معتذرا على الاطالة.

وشكرا.

اليسار والثورة الوطنية – الديمقراطية

في أحد مؤلفات *نيقولا شاوي* الذي كان مندوبا عن الحزب الشيوعي السوري الذي كان يضم فرعي سوريا و لبنان المندمجين حتى أواخر الخمسينات، وبالمناسبة حتى اللحظة الراهنة لا يوجد تمثيل ديبلوماسي -- سفارات بين سوريا ولبنان -- بالنظر الى خصوصية العلاقة التاريخية بينهما وتشابك النسيج الاقتصادي – الاجتماعي، يذكر شاوي الذي كان عضوا في الكومنتيرن، اي اللجنة التنفيذية للاحزاب الشيوعية في العالم التي كان على رأسها العامل ديمتروف قائد الحزب الشيوعي البلغاري، انه في احد مؤتمرات الكومنتيرن في الثلاثينات روى ديمتروف الطرفة التالية عن مرشح برجوازي للبرلمان البلغاري: بينما كان المرشح يقوم بحملته الانتخابية لكسب اصوات الناخبين عقد اجتماعا شعبيا لثلاثة قرى متجاورة، وأخذ يطلق الوعود بأنه سيضمن علاجا مجانيا وشق طرقات ويضمن انارة الكهرباء، بل سيبني جسرا يربط بين القرى الثلاثة، فقام أحد الفلاحين وقال له: ولكن لا يوجد نهر في المنطقة، فرد عليه المرشح البرجوازي: سأحفر لكم نهرا!!

وهذه الطرفة تدلل على رياء وكذب البرجوازية.

واليسار لا يمكن ان يكون مخادعا وكذوبا، فهو ينطلق من الحقائق وبمنهج علمي يحدد خطط العمل ووتائر النجاح والانجاز، ويخطىء تماما من يعتقد انه بوسعه خداع الشعب، فالحس الشعبي في التحليل الأخير قادر على تمييز القمح من الزوان، ولا يبقى في الوادي غير حجارته، اي غير الحقائق كما كتب *الطاهر وطار* في رواية اللاز، أما *جوبلز* مسؤول الاعلام الهتلري الذي ابتدع نظرية، أو بصورة أدق قربة، *اكذب ثم اكذب ثم اكذب يصدقك الناس وتصدق نفسك*، فهي مجرد قربة قد تغرر صاحبها أما الجماهير فهي ميزان حساس قادر على الاختيار والمفاضلة.

واليسار يؤمن بأن الجماهير هي صانعة التاريخ، أما الأفراد العظام فهم لا يتعدون الحلقات الأقوى في السلسلة الجماهيرية، وهم بقدر تمثيلهم لتطلعات وأهداف الجماهير بقدر ما استطاعوا قيادة السلسلة، وحتى في لحظات خاصة حينما يتناغم مع طموحاتها واحلامها.

ولأن الامر على هذا المنوال لا مناص من عرض الحقائق على الجماهير واستخراج الخطط الصحيحية الممكنة التحقيق، اما اية خطط طموحة ومضخمة تفوق امكانات الجماهير فسوف تبقى حبرا على ورق بل وقد تصاب الجماهير بالاحباط والنكوص في حالة ان تعمل وتعمل بدون بلوغ النتائج المتوخاة، فالرومانسية العاطفية مضرة وهي ضرب من الارادوية المنفصلة عن الواقع الموضوعي الذي لا يمكن تجاهله.

على هذا النحو يفكر اليسار، انه تفكير علمي وحسب وعلى سبيل المثال فهو لا يخدع شعبنا فيقول له ان اسقاط الحل الامريكي الاسرائيلي يمكن ان يتم سريعا بل انه عملية نضالية سياسية طويلة قد تستمر سنوات، او قد تستمر سنوات وسنوات ذلك ان الامر ليس مرهونا بالارادة الثورية فقط، بل وبالارادات الاخرى التي تجري مصارعتها، واستعدادات وميول الجماهير، وعوامل اخرى محلية واقليمية ودولية.. الخ. اما الفريق البرجوازي الذي يزعم بأن الحكم الذاتي هو بمثابة سلطة وطنية وخطوة تقضي الى دولة مستقلة، فهو انما سيدخل في مأزق التناقض مع منطق الاشياء حينما تكتشف الجماهير ان النتائج مغايرة للوعود وهذا تدركه منذ اليوم الفئات الطليعية مثلما بدأت تتلمسه قطاعات من الجماهير.

ودعونا ننتقل الى صلب العنوان مباشرة:-

ان الذي يحدد طابع اية ثورة كفعل تغييري جذري ينقل المجتمع من تشكيلية اجتماعية- اقتصادية الى تشكيلة اجتماعية اقتصادية ارقى في سلم الارتقاء، هو طبيعة المرحلة التاريخية التي يمر بها الشعب المحدد، وبالتالي توجهات الشعب الثائر. ونحن حينما انتقينا عنوان الثورة الوطنية - الديمقراطية في المنطقة العربية بشكل خاص والعالم النامي الثالث بوجه عام -- وللعلم الكتابات الحديثة باتت تقسم العالم النامي الى عالمين ثالث كما البلدان النامية الاعلى مرتبة في تطورها كما البرازيل والهند وكوريا الجنوبية وتايوان..الخ وعالم رابع أقل تطورا كالكثير من البلدان ومنها البلدان العربية المتفاوتة في درجات تطورها.

اجل حينما اصطفينا هذا العنوان، وهو على اية حال مصطلح نظري مستقى من المكتبة اليسارية شأن آلاف المقولات الدارجة في الثقافة الانسانية بما في ذلك ثقافة شعبنا (*حق تقرير المصير - اشتراكية - حزب طليعي - قوى الثورة - الطبقة القائدة - الاستغلال الطبقي - الامبريالية- المظهر الرئيسي والمظهر الثانوي - المجتمع المدني - الديمقراطية المباشرة - اسلوب الانتاج -*

النباء التحتي والبناء الفوقي – المنهاج المادي – الجدلي التاريخي – التراكم الكمي والقفزة الكيفية – المدرسة الواقعية الاشتراكية في الفن والادب – صراع الاضداد – قوى الانتاج وعلاقات الانتاج..الخ.

ومن الضروري تناول عنوان الثورة الوطنية–الديمقراطية بل ومن الضروري المبادرة الدائبة من قبل النظريتين سيما في العالم النامي لتشريح هذا العنوان واكسابه مضامينه بالاستناد الى الخصائص الغنية للعالم النامي الممتد في قارات عدة، ومعظم بلدان العالم ويناهز عدد سكانه ثلاثة مليارات نسمة، وهذه مسؤولية اليسار في هذه البلدان اولا كيما يعاد انتاج الفكر النظري تبعا للخصوصية المحلية اخذين بالحسبان ان المكتبة السوفيتية تعالج اولا هموم العالم الاشتراكي والرأسمالي الاحتكاري رغم اهمية مساهماتها المتعلقة بالعالم النامي اي انها تتحدث اولا عن الثورة الاشتراكية ومعضلاتها على كل الصعد، وفي ضوء الزلزال الذي اصاب الاتحاد السوفييتي السابق، من المتوقع ان تولي الكتابات النظرية في العالم المتطور وما كان يسمى بالمنظومة الاشتراكية اهمية اكبر لهذا الزلزال، مما يزيد من مسؤولية مفكري العالم النامي حيال قضاياهم المحلية، وعليه ان هذه المداخلة تندرج في هذا السياق اذ ان اهل مكة ادرى بشعابها كما يقول مأثورنا الشعبي.

وفي البداية يتعين تشخيص الواقع العربي، معاينة وضعيته الراهنة، قراءة تناقضاته باقتضاب شديد كأرضية لتحديد برنامج المهام الثورية وفي اذهاننا ان الوضع الموضوعي اي درجة تطور المجتمع العربي هي الاساس الذي لا مهرب منه للانطلاق لاستخلاص المهام كما الطبيب بالضبط، فهو يعاين حالة المريض وبناء على حالته يحدد العلاج.

طبعا ان الواقع الصيني على سبيل المثال يختلف عن الواقع الفرنسي وهذا وذاك يختلفان عن الواقع العربي فالواقع الصيني يشهد تحولات اشتراكية جنبا الى جنب مع تحديث الصين ونقلها من مجتمع القرون الوسطى التي عششت على امتداد مئات ومئات السنين الى المجتمع الصناعي المعاصر بما يرتبط به من ذهنية وقيم وقوى انتاج بينما الواقع الفرنسي يعيش حالة مغايرة، حيثما تسيطر الاحتكارات الرأسمالية على الاقتصاد والسياسة والثقافة فيما بلغ التطور الصناعي التكنولوجي شأوا عاليا جنبا الى جنب مع ديمقراطية ليبرالية كلاسيكية ترسخت على امتداد قرنين ويزيد، وبالتالي فمن الطبيعي ان تكون المهام الثورية هي مهاما اشتراكية لتشريك وسائل الانتاج وارساء نظام المنتجين الاحرار، اي الشغيلة، اما

الواقع العربي فهو على نحو مغاير ولأننا لا نعترف الا بالتاريخ وعلم التاريخ كما كتب ماركس بحتا اي ما حدث في التاريخ، بدءا بمراحله السحيقة القديمة وحركة صعوده ومراحله، الى التاريخ الحديث والوضع الراهن، وبالتالي فان كان لكل امة خصائصها، غير ان هناك قوانين عامة ومراحل متشابهة تحكم المجتمع البشري عموما، وبالتالي ثمة قواسم مشتركة عظمى تجمع تاريخ امتنا العربية بتاريخ البشرية وقواسم مشتركة عظمى تجمع واقعنا بواقع غيرنا ومستقبلنا بمستقبل سوانا من الامم، فهل يمكن استقراء واقعنا من واقع الشعوب والامم التي تسبقنا في درجة التطور مطبوعا بخصائصنا القومية؟ في واقع اوروبا وفي واقع الصين وفيتنام على سبيل المثال؟

معروف ان الثورة البرجوازية التي اجتاحت اوروبا فيا لعقدين الاخيرين من القرن ١٨ وطليعتها الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ قد حطمت علاقات الانتاج الاقطاعية التي كان يحكمها قانون الريع العقاري سواء من خلال الاتاوة او المحاصصة، والغت نظام القنانة وكنست ما يرتبط بالمرحلة الاقطاعية من نظم كالحدود بين مناطق الامراء، والعملة المحلية والجمارك التي تحد من تنقل البضائع ووزعت الكثير من اراضي الاقطاعيين على الفلاحين وبالتالي انتصرت علاقات الانتاج الرأسمالي في الصناعة والزراعة حيث قانون فائض القيمة الذي تستغل الرأسمالية بموجبه العامل والشغيل، توحدت السوق الداخلية ضمن حياة اقتصادية مشتركة بكل امة بدون حدود تجزيئية داخلية، فغدت حرية الحركة مكفولة للايدي العاملة كما حرية تبادل السلع، وانطلقت الصناعة التي نشأت في ارحام الاقطاع بقوة كبيرة.

ونتج عن ذلك وتزامن معه تدمير للنظام السياسي الاقطاعي للملوك ونبلاء اوروبا وصعود النظام البرجوازي الجمهوري حيثما توحدت ٦٢ مقاطعة المانية في دولة قومية واحدة على رأسها سلطة مركزية واحدة بجيش واحد، والحال نفسه كان في فرنسا وتكرر في ايطاليا..الخ.

وبداهة لقد حل النظام السياسي البرلماني المبني على الفصل بين السلطات وعلى التعددية السياسية وحرية الصحافة والانتخاب..الخ. محل سلطة الملوك والامراء ورجال الدين، وبأختصار حلت الديمقراطية البرجوازية وساد منطق العقل فالبرلمان المنتخب هو الذي يسن التشريعات والقوانين بديلا لارادة الكنيسة ومعتقداتها السماوية، وما ينتجه عقل الانسان في ميادين العلوم هو الموجه لحركة المجتمع وقفز التعليم وترسخ العلم الجامعي.

وخرجت المرأة، اسيرة البيت وآلة تفريخ الاطفال، الى الحياة العامة وانخرطت في الحياة الاقتصادية والعلمية والسياسية و... وغدت بقدر او بآخر شريكا كاملا في تقرير شؤون المجتمع والبيت، والقانون المدني اسقط التمييز الجنسي والديني وبات الانجاز هو المعيار في تقييم الانسان ودوره، هذا بايجاز شديد. وعلى الهامش يمكن القول ان واقع اوروبا منذ قرنين او يزيد كان يشبه الى حد كبير في كثير من الجوانب الجوهرية بواقعنا العربي اليوم، بل ان وضعنا اسوأ من ناحية التبعية بكل تجلياتها.

ودعوني اذكركم ان الطاقة الانتاجية للعامل الياباني اليوم تعادل انتاج ١٤ عامل مصري!! اي اننا متأخرون عن اوروبا نحو مرتين او يزيد وهذا ليس غريبا فقد كتبت نيوزويك ان روسيا ما قبل ثورة اكتوبر عام ١٩١٧ كانت متأخرة عن اوروبا نحو قرن كامل وثمة تقديرات ان الصين، حينما تسلم الشيوعيون سلطتها عام ٤٩، كانت متأخرة أكثر من قرنين عن اوروبا أما اليوم فانها تتاخمها وتلحق بها.

فالصين كانت مجتمعا فلاحيا اقطاعيا تسوده مخلفات القرون الوسطى (ادوات انتاج بدائية + انسان امي متدني في مهاراته المهنية وانتاجيته + اقطاع مسيطر اقتصاديا وامبراطور ادارته مطلقة شأن الملوك ورجال الدين في المجتمع الغربي والشرق أوسطي + فكر كونفوشيسي غيبي مؤسس على طاعة الحكام والتقاليد + صين مجزأة بين امراء الحرب ونفوذ استعماري من خلال الشركات الاجنبية وسلعها + بدايات برجوازية في المدينة على شكل قاعدة صناعية ضيقة وما ينتج عنها من قوى اجتماعية...

وعلى أية حال لا موجب للاسهاب لأننا سنقف امام سلسلة الثورات في وقت لاحق. والمهم ان الثورة قد اندلعت وخاضت حربا شعبية استمرت عقدين ويزيد بقيادة الحزب الشيوعي طردت النفوذ الاستعماري سيما القوات اليابانية في الشمال الصيني، كما اسقطت النظام الاقطاعي وقامت باصلاح زراعي جذري، وشرعت ببناء قاعدة صناعية متطورة وملكيات تعاونية جماعية ملك للمتعاونين، سواء في الكومونات الزراعية ام التعاونيات الانتاجية، كما ملكيات اجتماعية سيما في القطاع الثقيل للدولة التي هي دولة تحالف العمال والفلاحين والمثقفين والثوريين، وفضلا عن ذلك قامت بتحديث الصين حيث نشرت التعليم، وكهربت البلاد، ومدت الطرقات وخطوط المواصلات في الارجاء الواسعة، اضافة لنهضة

ثقافية وفنية ورياضية وحررت المرأة بقدر كبير حيثما باتت شريكة رئيسية في مختلف ميادين المجتمع...الخ وعليه، فقد انجزت العديد من المهام وهي بدأت تسير على الطريق الاشتراكي ولكن ماذا عن واقعنا العربي؟

سياسيا:

أمة عربية مجزأة على ٢٢ دولة ودويلة الغالبية الساحقة لأنظمتها، ان لم يكن كلها، تابع للامبريالية، فالتبعية والتجزئة مفردتين تلخصان جوهر الحال. أما فلسطين فقد جرى اغتصابها من قبل مشروع استيطاني استعماري بالاضافة الى ابتلاع تركيا لخليج الاسكندرونة السوري، وايران لمنطقة عربستان واسبانيا لسبتة ومليلة، والاحتلال الاسرائيلي للجنوب اللبناني وشريط اردني في الاغوار ناهيكم عن الشمال الكردي العراقي والجنوب السوداني اللذين يتوجب حل مشكلتهما، بما يراعي الخصوصية القومية ووحدة البلاد في آن واحد..

ويمكن قول ما قاله *فرانز فانون* في *معذبو الارض* " لقد خرج الاستعمار من الباب ليعود من الشباك "، اي لقد حلت الامبريالية بنفوذها السياسي والاقتصادي في المنطقة العربية محل النظام الاستعماري العسكري، أما استقلال الاقطار العربية فهو في عداد استقلال صوري على شكل علم ودولة في الامم المتحدة وقليل من التنمية.

اقتصاديا:

عوضا عن نهب الشركات الاجنبية من خلال سيطرتها على النفط كأهم سلعة عربية واسترداد عائداته ثانية عن طريق توريد السلع الرأسمالية العسكرية والمدنية للسوق العربية الاستهلاكية في اطار قانون التبادل اللامتكافيء فثمة مديونية متزايدة لمؤسسات الاقراض الدولية بما يرتبط بها من فوائد للغرب واستبقاء المنطقة العربية كمحيط استهلاكي لمنتجات المركز الامبريالي الانتاجي. والتكنولوجيا نشتريها ولا نصممها فعقليتنا تستخدم ولا تنتج. وعموما لقد قطع العالم العربي شوطا محدودا في التصنيع وتحديث ورسملة الزراعة بما يشبه الخطوات الاولى للثورة الصناعية في الغرب، منذ ثلاث مائة عام. أما الثورة الصناعية الثانية في القرن العشرين والثورة التقنية في العقدين الاخيرين فهو أبعد ما يكون عنهما وأكثر ما يفعله هو ابتياع بعض ما تفرج عنه الرأسمالية العالمية من أدوات تكنولوجية. والاصلاح الزراعي الذي شمل عدة اقطار لم يشمل كل الاقطار بل وجرى الاقبال على الاصلاح الزراعي في أكثر من بلد حينما وزع الاقطاعيون على عائلاتهم وذويهم الاراضي لمنع تأميمها.

ثقافيا:

رغم الارتفاع الملحوظ في مستوى التعليم وانتشار الثقافة والصحافة المرئية منها والمسموعة والمقروءة والفن و... قياسا بما كان عليه الحال ما قبل موجة الاستقلال في الاربعينات غير أن المنطقة العربية مرتبطة ثقافيا بالغرب وهذا حالها على صعيد الصحافة بل وان مؤسساتها الجامعية ما انفكت في خطواتها الاولى ولم تتحول لمنبع للنظريات والاختراعات والتصميمات...الخ. كما هو شأنها في العالم المتطور ناهيكم ان الامية اي الذين لم يحصلوا على ستة صفوف مدرسية ما برحت مستوطنه وتناهز نسبتها ٧٠٪ حسبما اشارت تقارير الجامعة العربية، وبالنسبة للافكار الغيبية والخرافات والترهات فهي تسري في عروق المجتمع من المحيط الى الخليج، اما المثقفون فحدث ولا حرج فالنظم تلاحقهم بدأب فأما أن تشتري اقلامهم واصواتهم او تضمن سكوتهم او تخرسهم وتجوعهم بدون ان تفسح مجالا واسعا لهم للابداع والمشاركة الفاعلة في قيادة المجتمع، وما اسهل لجم مثقف او مثقفة او الضغط عليه لتشريده او اعتقاله علما ان المثقفين هم رافعة انهاض الشعوب.

ديمقراطيا:

مع الاعتراف بتسرب رياح الديمقراطية الى عدة مربعات عربية وعلى الاقل نسمات التعددية السياسية وافساح المجال للانتاج الفكري والفني، غير ان الديمقراطية بمفهومها الشمولي واطلاق طاقات الشعب ومواهبه لكنس مخلفات الماضي البالية بناء على مبدأ المساواة والمبادرة هي ابعد ما يكون.

ولا تفوتنا الاشارة هنا الى استبدادية ودكتاتورية الحكام ملوكا ورؤساء الذين يتصرفون بذهنية كهنوت الكنيسة الاقطاعيةكما لو كانوا ورثة الله على الارض ومالكي صلاحياته المطلقة، بل واشاعة الخوف في نفوس الناس بصورة دائمة.

اجتماعيا:

يلاحظ سيطرة الطبقات البرجوازية التابعة وبقايا العوائل الاقطاعية على مختلف ميادين المجتمع العربي حتى أن صعود البرجوازية القومية في مرحلة الخمسينات والستينات كان مؤقتا ومهد لإنبثاق البرجوازية التابعة، اما العشائرية

والقبلية فهي كواقع اجتماعي او تقاليد ومخلفات ذهنية تحتل رقعة واسعة، والمرأة محجوزة في البيت بوجه عام، ونسبة هامشية لا تتعدى ١٠٪ غدت فاعلة في الحياة العاملة والنظرة السلفية المستقاة من قرون خلت التي تميز بين الناس على اساس المعتقد الديني وليس الكفاءة الامر الذي ينعكس في العلاقات الاجتماعية وسواها نجد اصداء قوية لها تغذيها نزعات متزمتة في الاوساط الشعبيةوالمحافظة.

هذا بايجاز، *فماذا عن برنامج المواجهة، برنامج المشروع النهضوي العربي؟* البرنامج الضروري الذي يحتاج انجازه لعقود من السنين.

بداية يجدر الانتباه الى ان تاريخنا الفلسطيني متأخر عن تاريخ الشعوب العربية الاخرى، ذلك ان الشعوب العربية قد احرزت استقلالا سياسيا، شكليا واجرت تنمية معينة، اما شعبنا فلم ينفك يخوض نضالا تحرريا في سبيل الاستقلال والدولة ذات السيادة بعد ان ابتلع المشروع الصهيوني اكثر من اربعة اخماس ارضه. ويتراءى بيسر تداخل المهام الوطنية بالمهام الديمقراطية والتحويلات الاشتراكية، اي يتعين على برنامج الثورة العربية ان يشمل هذه الابعاد معا، اي انجاز المهام التي لم تنجزها البرجوازية والمهام الجديدة ايضا.

فعلى الصعيد الوطني: يتعين التحرر من النفوذ الامبريالي وفك التبعية بالغرب الرأسمالي بما يقتضيه ذلك من اطاحة بأنظمة التبعية وقواها الاجتماعية البرجوازية وما قبل البرجوازية، وبالتالي قيام انظمة الجبهات الوطنية المعادية للامبريالية والرجعية الصهيونية بقيادة القوى الاكثر جذرية، فضلا عن حل القضية الفلسطينية حلا عادلا.

وكذا التحرر الاقتصادي بفك التبعية للشركات الاجنبية واقامة علاقات مع العالم الخارجي سيما غير الاستعماري على اساس التبادل المتكافىء والاعتماد على الذات والانتقال من الاقتصاد الاستهلاكي الى الاقتصاد الانتاجي، وفي سياق ذلك تحقيق شعار نفط العرب للعرب- ومصادمة الغزو الثقافي والفني الاستهلاكي الغربي مع الافادة من كل ما هو ايجابي والتركيز على انتاج ثقافة ثورية وفن ثوري يحميان هويتنا العربية ويعبئان الجماهير في معركة التحرر والبناء والابداع.

وبكلمة واحدة كنس كل الوشائج التي تجعلنا تابعين للمركز الامبريالي وامتلاك المقدرات والقرارات وصياغة الخطط التي تنهض بامتنا وتعيد لها حقوقها وامجادها كقوة رئيسية في مسيرة البشرية.

وبطبيعة الحال لا تفوتنا الاشارة الى ضرورة تحرير الاجزاء العربية المحتلة وحل المسألة الفلسطينية بما يتيح لشعبنا حق العودة الى دياره وتقرير المصير وبناء الدولة المستقلة. والحل الديمقراطي الجذري للصراع وكل المهام الوطنية انفة الذكر هي مهام ديمقراطية برجوازية غير ان برجوازيتنا العربية اثبتت عجزا محضا في انجازها، فانتقلت الى مسؤولية الجماهير الشعبية والقوى الثورية الشعبية وفي القلب منها الطبقة العاملة وطلائعها السياسية بصرف النظر عن ضعفها راهنا.

وعلى صعيد المهام الديمقراطية: يأتي في المقام الاول بعد التطويح بالنظم التابعة توحيد الامة العربية واقامة دولة الوحدة على اساس سلطة مركزية واحدة وحياة اقتصادية مشتركة وازاحة الحدود التجزيئية ومنح حرية التنقل والاقامة وحركة السلع والاستثمار... وبناء جيش مركزي واحد.. الخ وهذه بداهة عملية تتم بتدرج.

والتوغل ابعد فأبعد في تصنيع المجتمع العربي ليس بشراء التكنولوجيا الغربية فقط بل بانتاج هذه التكنولوجيا بحيث يلبي معظم او كل احتياجات المجتمع بدءا بالسيارة والتلفزيون والثلاجة، ومرورا بالألبستو... وصولا الى الباخرة والطائرة والصاروخ والكمبيوتر، اي الالتحاق بالشعوب المتطورة كما تحديث الزراعة باستخدام الري والالات والكيمياء..الخ. باتجاه الاكتفاء الذاتي اذ من المخجل ان يستورد العالم العربي اكثر من ٧٠٪ من احتياجاته الغذائية بينما السودان وحدها تملك المقومات لكيما تكون سلة تلبي متطلبات الامة العربية، وتزامنا مع ذلك التغلب على التخلف وبقايا العصور الغابرة، اذ لم يعد مستساغا في القرن ٢١ افتقار الانسان للخدمات الاولية كالكهرباء والمواصلات والمسكن والتعليم والمسرح و..الخ. وبطبيعة الحال تحقيق الديمقراطية السياسية والتعليمية وبناء المجتمع المدني على كل المستويات، وهذا العنوان نقف على مضامينه لاحقا.

وبالديمقراطية وحدها نكفل توظيف جميع طاقات الامة العربية، كما مشاركة المرأة وتحريرها من قيود العادات والمفاهيم البالية وهذا ايضا عنوان مستقل نتعرض له فيما بعد.

وكل ما اتيت على ذكره هو مهمات برجوازية، اما التحولات التي لا مهرب منها فهي تأميم الرأسمال الكبير الاجنبي والمحلي واقامة قطاع عام يكون تحت تصرف الدولة لكيما تقف وتنتصب قامتها، كما سن قوانين تكفل حقوق العاملين ومساواة المرأة بالرجل فعليا والنظر لتفاوت التطور بين قطر عربي واخر وتفاوت الثروات، فمن الطبيعي ان ينعكس ذلك في تحديد المهام وطابعها، أو كلما تطورت قوى الانتاج وتمركزت الثروات ووسائل الانتاج كلما كانت الاجراءات الاشتراكية أعمق، مثلما يؤخذ في الاعتبار تكامل الخط الاقتصادي بين اجزاء الامة العربية.
وعليه فالثورة العربية غير مقبلة على مصادرة الملكيات البرجوازية الصغيرة والمتوسطة وغير مقبلة على اجبار الفلاحين والحرفيين على الدخول في تعاونيات، فمثل هذه التعاونيات هي طوعية، بل وعلى العكس فهي ستكفل دعم الانتاج الصغير والاستثمارات الفلاحية المستقلة بل وتوزيع أراضي على الذين لا يملكون.

وهذا ينبغي ان يكون جليا في الاذهان.

ثقافيا وفنيا واخلاقيا: في غنى عن الشرح القول ان ثورة ثقافية يتوجب اطلاق مفاعليها الان وبعد اجراء التغيير السياسي، فالطبقات الثورية مجبرة على انتاج فكرها الثوري وفنها الثوري وأخلاقها الثورية منذ اليوم وفي الامس وفي الغد لمواجهة الثقافة والفن والاخلاق الاستهلاكية من انتاج البرجوازية التابعة والغزو الثقافي الامبريالي.

ثقافة ملتزمة وفن ملتزم وأخلاق ثورية ملتزمة بقاضايا الجماهير ومناوئة لمعسكر الاعداء والتخلف، ثقافة وفن وأخلاق تزرع الايمان بالاهداف العظيمة للثورة والتنظيم والتعاضد الجماعي ورهافة الاحساس والتذوق الحضاري.. الخ والثورة عملية ابداعية وهي تحفز مبادرات وابداعات الناس فلا تلجم احلامهم ولا اصواتهم ولا ريشاتهم ولا عقولهم ولا..انها تطلق العنان بعقول الناس وفكر الناس لانتاج نظمهم وقوانينهم وو.. وهي بداهة تقضي علىالامية وتؤمن تعليما مجانيا

للمواطن شأن العلاج المجاني والسكن في بيوت عصرية بأجر زهيد جدا ورمزي..الخ.

اجتماعيا: هز عروش الطبقات البائدة، التآلف غير المقدس بين البرجوازية التجارية والكمبرادورية والتكنوقراط المتأمرك والطفيليين التابعين للغرب والمحميين من الغرب، وبازالة الاساس الاقتصادي والسياسي الذي مكنهم من السيطرة على المجتمع العربي يزول الكابوس الجاثم على صدور الامة العربية الذي يعيد انتاج تخلفها وتبعيتها منذ عقود، وتنفتح الطريق أمام القوى الاجتماعية التقدمية من العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين والبرجوازية الصغيرة والمتوسطة الانتاجية الوطنية، اي كل الذين يسعون لتنمية المجتمع العربي ووحدته ومقرطته وانهاء تبعيته وتحريره من الاستعباد على طريق التقدم الاجتماعي وازالة استغلال الانسان لأخيه الانسان.

وقصارى القول ان الثورة الوطنية الديمقراطية العربية بآفاقها الاشتراكية مطالبة باحراز أهم ما احرزته الثورة البرجوازية الاوروبية وجوانب مما احرزته الثورة الصينية أو الفيتنامية اللتين تحرزان أعلى معدلات النمو القومي في السنوات الاخيرة ولكن ضمن طابع عربي خاص وهذا كله يقع على كاهل الطبقات الأكثر انسحاقا وفي المقدمة منها الطبقة العاملة ويسارها الثوري المستقبلي بعدما اعلنت البرجوازية القومية عن افلاسها وعجزها رغم ما أحرزته من نجاحات في الخمسينات والستينات وبعدئذ في عدة اقطار عربية حيثما تشكل التجربة الناصرية نموذجها الافضل رغم اية ملاحظات ومآخذ عليها.

وينتصب في مقدمة المهمات اليوم التصدي للمؤامرة التسووية الامريكية الاسرائيلية رأس حربة المخطط المعادي لترتيب المنطقة العربية سياسيا واقتصاديا واجتماعيا بحيث تضمن الامبريالية استحلاب ثروات الامة العربية سيما نفطها وعائداته بعقود من الزمن، فضلا عن ضمان التفوق الاسرائيلي وتطبيع علاقاتها مع محيطها، وسحق كل المكتسبات الثورية التي انجزتها الأمة العربية والشعب الفلسطيني في المراحل السابقة، وهذا بداهة يقتضي انهاء الثورة المعاصرة وتصفية أو تصليب الحقوق الوطنية الفلسطينية لزمن قد يطول وقد يقصر. فالمشروع الامبريالي اقليمي وجزء من النظام الدولي الاستعماري الجديد، وان امر مواجهته هو خيار طبيعي لكافة الشرفاء والحريصين على شخصية وحقوق ومستقبل الأمة العربية مهما طال الطريق وعظمت التضحيات وينبغي ان

يكون واضحا بما فيه الكفاية ان اليسار العربي رغم ضعفه وأزمته هو القادر على الامساك بمقود الصراع بدون تذبذب أو ارتداد وهو قادر على تقديم برنامج انهاضي شمولي، الشيء الذي يضع على كاهله مسؤولية تاريخية جسيمة تستوجب منه أول ما تستوجب الخروج من أزمته ولف الجماهير الشعبية حول برنامجه، ذلك ان برنامجه هو برنامجها، برنامج انقاذ الامة العربية والشعب الفلسطيني وصياغة مستقبلها الوضاء، وهذا آت لا محال لأن ذلك يمثل حاجة موضوعية لشعوب الامة العربية، بدون تحقيقه تبقى رازحة في قيود التخلف والجهل والتبعية والتفتت، واضيع من الايتام على مائدة لئام القرن الـ ٢١، قرن التكتلات الكبرى، فالعالم النامي كله آن له ان ينتفض ويتحرر من فلك الامبريالية والشركات فوق القومية سوف يصطدم وطريق تطوره بجدار مغلق فيتقهقر للوراء بينما العالم الصناعي يمضي بوثبات سريعة للأمام وتقتنا بالمستقبل يجب ان لا تتزعزع، والهزائم ليست أبدية، ومفيد تعديل مزاجكم بايراد القصة التالية عن صن يات قائد الثورة الصينية البرجوازية في اوائل القرن الحالي، الذي يعتبر أب الصين الحديثة، حينما كان ثائرا على رأس الجماهير ضد النظام الامبراطوري الاقطاعي. وكان عائدا مجهدا من احدى المعارك وجنوده مثخنين بالجراح والاصابات فاستقبله مساعده في خيمة القيادة وخاطبه قائلا: أراك سيدي متعبا وجندك يجرجرون اذيال الهزيمة. فما كان منه إلا ان قال: لا بأس انها مجرد الهزيمة الثانية عشر، وبالفعل واصل القتال واقتحم العاصمة فيما بعد، وهذا كله قبل ان يقود *ماوتسي تونغ* حربا شعبية طويلة في الثلاثينات وظافرة في نهاية الاربعينات.

موقف يساري حيال الدين

حديثي اليوم يتعرض لموضوع حساس وشائك من وجهة نظر الوعي الاجتماعي السائد أو من وجهة نظر الجماهير ولا اخفيكم انني ببعض التردد اتناوله علما ان اطلاعي جيد ومخزوني في هذا الشأن يشتمل على قراءة متبصرة بقدر أو بآخر لأهم المراجع الدينية كالتوراة والاناجيل ومعها كراسات مسيحية، كما القرآن والعديد من المجلدات الاسلامية سواء للبطي أو لباقر الصدر أو للغنوشي أو لحوا وللراشد وللسيد سابق وسواهم وكان من الطبعيي ان افرد جزءا أكبر لدراسة الاسلام بالنظر لتمازج تاريخنا العربي والفلسطيني بعناصر الدين والقومية معا وهذا ما اشار اليه المفكر الكبير وشهيد الكلمة *حسين مروة* في رائعته.. "النزعات المادية في الفلسفة الاسلامية " فضلا عن ظاهرة المد السياسي الديني لاقليم الشرق الاوسط في العقدين الاخيرين والذي انعكس على الشارع الفلسطيني ايضا.

والفكر السياسي كما هو معلوم لا يتبنى موقفا عدميا حيال اي فكر، اي *لا والسلام عليكم* بل يدرسه دراسة نقدية محضة مستفيدا من عناصر العقلانية الصائبة.. ونابذا جوانبه الخاطئة والشائخة التي لا فائدة يرجى منها مثلما انه يدرك قانون تواصل الفكر البشري. فالموروث الفكري تجده حاضرا في الفكر المعاصر ولئن كان من المتعذر وجود مجتمع أو بنية اقتصادية راهنة بدون جذور ممتدة في الماضي، فهذا حال الفكر النظري ايضا. وهذا يوجب الاحاطة بتراثنا والذي يشكل الدين الاسلامي عاموده الفقري بل مكونه المركزي، عوضا عن التاريخ السياسي الاسلامي الذي لم ننفك نعيش نتائجه.

وعنوان المداخلة هو الدين اي النص وبالتالي فلن اتطرق الى التاريخ السياسي بصرف النظر عن مجرياته وتقييمي له، الا لماما بما يفرضه علي منطق العرض وبعيدا عن كل عصبوية وكرأي اكاديمي بارد الا من حرارة الحقيقة كما يخيل لي. اقول ، ان الاسلام وتاريخه السياسي هما دين وتاريخ ومجتمعنا الذي نحن، أي اليسار الفلسطيني والعربي، جزء صميمي منه، فهذا الدين وذلك التاريخ يشرش في الحاضر وتلافيف الوعي والعادات والسيكولوجيا الاجتماعية التي نشأنا فيها وتربينا على غذاء مقولاتها في البيت والمدرسة والحياة اليومية..الخ.

وبنفس القدر من النزعة الاكاديمية علما انني كما تعرفون لست اكاديميا انما أصف نفسي كعقلاني ثوري اتعاطى الفكر و كاتب في أحسن الاحوال.

ادرك ان الثورة العظيمة التي احدثتها الديانات في التاريخ البشري القديم وهذا حال الفلسفتين البوذية والكونفوشيه في الشرق الاقصى، اي في الهند والصين واليابان..الخ.

فقد كانت لليهودية كنص انجازات لا يمكن انكارها، وهذا يمكن الوقوف عليه من خلال تفحص النص التوراتي بصرف النظر عن المسيرة السياسية التي تمحورت في غزوة فلسطين. منذ الخروج من مصر اي خروج العبرانيين من سلالة الاسباط الاثني عشر اي ابناء اسرائيل، الذي هو يعقوب بن اسحق، وهذا الاخير ابن ابراهيم الذي وجد له موطىء قدم من خلال شراء قطعة ارض صغيرة لدفن زوجته سارة، ليدفن بجانبها لاحقا بعد وفاته فيما يسمى مقام ابراهيم الخليل في مدينة الخليل اليوم، وهذا حال اسحق الذي دفن زوجته راحيل في بيت لحم فيما يسمى قبة راحيل الموجودة حتى اليوم، وما قبلئذ لم يكن للعبرانيين القدامى أية حقوق في فلسطين التي كان يقطنها العرب كما هو مبين ومذكور عشرات المرات في التوراة وكتب التاريخ، حتى ان الامير العربي الذي كان يحكم غزة منع موسى وجموع اليهود من عبور قطاع غزة ولو مجرد ممر وحالما التفوا من الجنوب ودخلوا الاردن قاموا بأول مذبحة ضد قرية اردنية لم يتركوا حيا منها سوى الاناث البكراويات بقرار من موسى ذاته كما هو مسجل في التوراة، وبعدئذ مات موسى ليقوم قائده العسكري يشوع بن نون باجتياح الاغوار ومناطق عديدة من فلسطين، واسفار التوراة تشير للمعارك والخسائر التي وقعت في صفوف الفلسطنيين والمغانم التي أحرزها اليهود وصولا الى قصة داوود الراعي الذي قتل بالمقلاع الفارس الفلسطيني القوي جوليات وزواجه من مئة امرأة آخرهن زوجة أحد ضباطه وانجاب سليمان منها الذي بنى الهيكل بمواصفاته المشروحة في التوراة واقتنائه الف امرأة كزوجات له..الخ والعودة للتوراة مفيدة جدا لمعرفة بعض صفحات التاريخ القديم.

ولا يهمني هنا ما يقال عن التوراة من انها مزيفة، وذات الشيء عن الانجيل، فالعهد القديم والعهد الجديد، اي التوراة والانجيل، هما نصين تداولتهما الأجيال ما قبل الدعوة الاسلامية واستمرا الى هذا اليوم. اذ معلوم ان عمر التوراة ٢٦٠٠ سنة بينما الانجيل قرابة ٢٠٠٠ سنة فيما القران حوالي ١٤٠٠ سنة، ولا يوجد نصوص اخرى سوى النصوص التي نقرأها، ناهيكم بأن الجانب العقيدي في الديانات الثلاثة مستقى مما جاء في التوراة المتوفرة بين ايدينا، والجانب

العقيدي هو الأساس والأهم في الديانات والانجيل يقوم على نفس الموقف الايماني الوارد في سفر التكوين التوراتي بل ان رؤيا مرافقي المسيح تقدم تصورها ليوم القيامة وما يمكن ان يحل بالناس ايضا. وسرد حياة المسيح وأقواله هي النص الانجيلي الذي ينبئنا بأحداث كثيرة بصرف النظر عن درجة التماسك بين هذه الاحداث، وعيسى ابن مريم ينتمي لعائلة يهودية فلسطنيية، بل كل الانبياء الذي تتوارد اسماؤهم في الكتب القديمة هم عبرانيون ويهود، والتوراة تشير لهم كملوك وزعماء، وقد لفت نظري ما جاء في كتاب *الاسلام*، لسعيد حوا الذي قال ان البشرية عرفت نحو ١٢٤ الف نبي بدون الخوض في التفاصيل، أي من وأين وما هي المراجع.. الخ؟.

والمسيحية تتصف بروحانية عالية فهي تخلو من العنف تماما الى درجة ان المسيح قال: ***لا تبغضوا اعداءكم ، ومن لطمك على خدك الايمن ادر له خدك الايسر***، فالعطف والمحبة والحنو تجسد العلاقات الانسانية والتأمل الفلسفي في الذات الالهية صفة مميزة ايضا تتقاطع مع التأمل البوذي الأسبق تاريخيا من المسيحية، إذ تعود البوذية الى نحو ٢٥٠٠ سنة تقريبا، وفي مستويات قيادية ينعزل البوذي لمدة عامين أو ثلاثة في غرفة معتمة لا يرى فيها انسان أو يخالط احدا بغية الاندماج في الرب ومفيد تجديد مزاجكم بالطرفة الانجيلية التالية كمثال للصبر والإصطبار والتضحية من قبل ثوري فلسطيني هو *يوحنا المعمدان* المعروف في النص القراني باسم يحيى، وهذا الرجل كما جاء في الانجيل ولد لأسرة يهودية ووالده هو شيخ يهودي طاعن في السن يدعى زكريا وأمه أنجبته بينما كان عمرها قد تجاوز السبعين عاما! وكانت فلسطين حنيذاك يحكمها المستعمرون الرومان، فعاش مطاردا نحو أربعة عقود يحرض على الرومان والفساد ويدعو الاهالي للتمرد والثورة مبشرا بمنقذ للشعب، وبالمناسبة ان كلمة المسيح هي كلمة لاتينية (المشيح) ومعناها بالعبرية المنقذ، وصديقنا في الثورة يوحنا عاش حياة متقشفة يأكل العسل والجراد ويلبس جلود الجمال متنقلا وشريدا هذه المدة الطويلة يكرز، اي يدعو، بين الناس حاثا اياهم على الايمان ومطهرا اياهم بتعميدهم في نهر الاردن، وكان يقول انه لا يساوي "حزام صندل" النبي المقبل كما جاء في الانجيل، وذات يوم هبط من على تلة شاب أشقر فقال ها هو المسيح...

وكيلا أنسى فقد اعتقل الحاكم الروماني هيرودس صديقنا يوحنا وهذا كان على علاقة عشق مع هيروديا التي قتل زوجها، وفي يوم ميلاده أحيا حفلة

صاخبة دعا اليها ابنة هيورديا طالبا منها بأن ترقص له في عيد ميلاده فاشترطت عليه رأس *يوحنا المعمدان* مقابل ذلك، وبالفعل قطع احد الحراس رأس مفكر زمانه ووضعه على صينية فضة حملته المغنجة على رأسها ورقصت، تصورا ان أقدم ثوري فلسطيني في زمانه قد ذهب ثمنا لهزة وسط، فهل من الغريب ان تذهب الكثير من رؤوس ثوريينا في هذا الزمان ثمنا لشيء مشابه! ان الطغيان في جوهره واحد.

أما الاسلام فهو في غنى عن الشرح فهو أكثر شمولية وتشعبا الامر الذي يعكس تشعبات وتطور المجتمع قياسا بالمراحل التاريخية السابقة التي عرفته القبائل والشعوب التي كانت في زمن اليهودية والمسيحية، وليس غرضي هنا اجراء مقارنة بين الديانات الثلاثة فهذا موضوع كبير ومعقد ، وانما كنت استهدف من خلال هذا التقديم تناول ما هو أشد جوهرية في الدين عموما.

وكما ارى، فالدين هو منظومة أفكار ونظريات فلسفية وسياسية واقتصادية وأخلاقية..الخ، بقطع النظر عن مدى الاتساق الداخلي بين العناصر المكونة للدين كما بصرف النظر عن مدى انسجام ذلك مع حقائق الحياة المعاصرة، اي أنه جاء انعكاسا ومعالجا لمشاكل الواقع وقتئذ، بما يخدم الانسان، فهو رؤيا ورسالة والمتدين يخدم هذه الرؤيا والرسالة، وعلى الدوام كانت ثمة ديانات، بل والافكار المعاصرة هي بمعنى من المعاني دين، والدين ادى دورا مفصليا لدى الشعوب التي تسلحت به ، طبعا هناك شعوب لم تعرف الديانات التي عرفها المجتمع المحلي، كالشرق الاقصى وافريقيا وامريكيا الجنوبية،أو عرف بعضها الدين في مراحل متأخرة جدا عن طريق المبشرين والغزوات الاستعمارية، بينما كان لدى هذه الشعوب معتقداتها الارضية الدينية، ولكن المختلفة عن الديانات المحلية. وحينما نتحدث عن الشرق الاقصى مثلا فانما نتحدث عن حوالي ٢ مليار نسمة أو اكثر اي ما يعادل ٤٠٪ من البشرية.

ولو اخذنا بتقسيمات البوطي وحوا للدين لقلنا ان ثمة جانب عقيدي + تشريعات + أخلاقيات بما يرتبط بها من عبادات. والجانب العقيدي يحظى بالمكانة الاولى بل والجوانب الثانية تنبثق عنه وتتصل به. ويتمحور الجانب العقيدي في قصة الخلق والكون ويحاول الاجابة على سؤال فلسفي قديم سبق اليهودية بكثير، اي منذ ان ارتقى التفكير الانساني وشرع في تحليل الظواهر والعمليات التي تدور حوله، لماذا تشرق الشمس وما هذه الدائرة المضيئة في السماء، وما سبب الزلزال ومن اين تأتي الافكار ولماذا ينبت الشجر وهل من

حياة بعد الموت، وما سر الانجاب وهل حمل المرأة له علاقة بالرجل ام بروح اخرى؟...والاف الاسئلة الاخرى.

وليكن معلوما لديكم ان عمر الحضارات قديم، وما يقوله علماء التوراة الكبار ويتداولونه منذ مئات والاف السنين بأن عمر الكون أقل من ستة الاف سنة وتحديدا نحو ٥٨٧٥ سنة يحتاج الى تمحيص وحسب السيناريو التوراتي بأن آدم عاش أكثر من ٩٠٠ سنة وبينه وبين نوح عشرة أجيال تتوالى بالاسم وهذا واضح في المؤلفات القديمة كما في كتاب قرأته منذ زمن غير بعيد عنوانه *بحث في الاساطير والمخيلة البشرية* لبروفيسور فرنسي، والكتاب يختص في الادب أكثر من علم التاريخ والفلسفة.

ولو أردنا تجاهل عمر الكرة الارضية التي تراها بعض النظريات العلمية كجزء منسلخ عن الشمس المشتعلة وعمرها ٥ مليون سنة فيما الارض ٣ مليار سنة والتي بردت عبر مئات ملايين السنين، بل لم ينفك جوفها مشتعلا، الامر الذي يعبر عن نفسه من خلال البراكين التي تقذف الحمم من داخلها، بل وبركان فيزوف في ايطاليا يقذف منذ زمن غابر وحتى اليوم بصورة دائمة، وهو بداهة ليس الوحيد، ناهيكم عن طبقات الارض، والمقصود قشرتها التي يثبت علم الجيولوجيا ان بعض الطبقات عمره مئات ملايين السنين، وربما بعضكم سمع عن بيضتي الديناصور اللتين تم اكتشافهما في الصين في الايام السابقة، فعمرهما نحو ٥ مليون سنة، وهناك معرض للديناصورات، اي هياكل عظيمة كاملة يطوف في اوروبا واستراليا يشير الى ان عمر هذه الهياكل يناهز مئات الاف السنين بينما اثار اخرى تشير الى ان عمر الديناصور ٢٠٠مليون ، وهذا ينطبق على حيوان الماموث جد الفيل الذي عثروا على واحد لم يتحلل وبكامل هيئته في ثلوج سيبيريا حيثما صانته الطبيعة، بل وأذكر ان العلم كان يعتقد كما كنا ندرس في الستينات ان عمر الانسان هو مليون سنة، أما اليوم فهو يعتقد ان عمره ملايين قد تصل الى خمسة، هذا ما اكتشفه علم المتحجرات في افريقيا... وهناك بقايا حضارات في أكثر من قارة يتجاوز عمرها ١٠-١٢ الف سنة، وباختصار كلما ارتقى الانسان، والعمل كما هو معلوم هو رافعة الارتقاء كما يقول انجلز، كلما يتطور عقله ومهاراته ولياقة جسمه وبالتالي أدوات انتاجه ليدخل الانسان وأدوات الانتاج والظروف التي ينتجها برمتها في عملية تفاعل متبادلة التأثر والتأثير، حيثما تنتصب أمامه المزيد من الاسئلة التي تحتاج الاجابة، فكيف أجابت التوراة على مسألة الخلق وغاية الوجود، لتكون اجابتها هي أساس العقيدة في كل الديانات! طبعا ان العقل البشري لم يبدأ بالتوراة بل لقد سبقها، وهناك معتقدات فرعونية

عمرها نحو ستة الاف سنة ومعتقدات سومرية في العراق عمرها بالمثل او اغريقية في شمال سوريا عمرها أقل من خمسة الاف سنة كلها مكتوبة على الواح طينية وحجرية على شكل اشعار وفلكلور سبقت اليهودية وتتقاطع بقدر او باخر مع السيناريو العبري-اليهودي، ولكن الفارق ان اليهودية تعتبر اجاباتها حقائق تاريخية كما لو كان العالم قد حدث فعلا حسب التصور الذي تشترط من جهة ولكون التوراة تطرقت لميادين عديدة ولم تقتصر على الجزئيات من جهة اخرى، فيما الثقافات الاخرى هي مجرد اشعار ومعتقدات أرضية كابداع العقل الانساني وليس السماوي اذا جاز التعبير، فضلا عن الفوارق في السيناريين.

ومعروف لكم ان المادة هي الكون برمته، اي العالم، اي كل شيء موجود موضوعيا وينعكس في الاحاسيس أو يمكن اكتشافه بالاجهزة، اي سواء رغبنا أم لم نرغب فهو موجود والمادة توجد على شكل كتلة أو طاقة كما في حالة الصلابة أو السيولة أو الغازية أو الغروية كما حال الشمس. والطبيعة كما تعرفون ايضا لا تقبل الفراغ اي انها تملأ اي جزء فراغي قد ينشأ حتى ان المكان هو شكل وجود المادة. ومثال بسيط على ذلك، لو قمنا بسحب الهواء من هذه الخيمة لتسرب على الفور هواء اخر لملء الفراغ، ولو قمت انا شخصيا من مكاني وغادرت الخيمة لحل محلي هواء بنفس حجمي اي حجم المكان الذي اشغله. اذا كل مادة تشغل حيزا، اي فيما لو ملأ احدكم الحمام -البانيو- بالماء حتى حافته وانزلق فيه لطفح الماء وسال خارجه وهذه الكمية من الماء تعادل حجم الجسم بالضبط، أي فيما لو غادرت الحمام وجمعت الماء وسكبته ثانية في البانيو لملأه من جديد.

وبمعنى اخر فالكون لا متناهي. *وديكارت* يصف العالم ويشبهه بصندوق ضخم، ولكن ماذا بعد هذا الصندوق الضخم، تتمدد في الفراغ، بل ان الفراغ، اي المكان ملازم للمادة اي شكلها، شكل تجسدها وتجليها، وكرتنا الارضية هي مجرد نقطة صغيرة من حجرة درب التبانة التي فيها شموس عديدة وليس مجرد شمسنا التي تدور كرتنا الارضية حولها، ومجرة درب التبانة هي قطعة من مجرة أضخم منها بشموس وكواكب وغازات و... هي اندروميدا، وهذه مجرة من بين مجرات والعلم يكتشف بين الوقت والاخر المزيد منها وأخر ما اكتشفه هو مجرة /م- ١٠٠ التي تبعد عنا ملايين السنين، وعلى امتداد هذه المسافات الهائلة التي لا يتصورها العقل الا رياضيا توجد مجرات ومادة.. هذا ما يبرهن عليه علم الفلك بأدلة قاطعة. وللتدليل ربما انكم تعلمون ان الشعاع المنطلق من الشمس يصل الكرة الارضية بعد ٨ دقائق كما أذكر، بينما سرعته ٣٠٠ ألف كيلومتر في الثانية، فما أبعد الشمس، وهناك شموس اخرى أبعد ومجرات أبعد لا تحسب

المسافة بيننا وبينها بالدقائق أو بالساعات أو الايام أو السنين بل بملايين السنين الضوئية.. تصوروا! على كل حال سوف نفرد مداخلة خاصة لنقاط علمية احداها الكون.
فما أكبر هذا العالم... اسمعوا النكتة التالية رواها احد المدرسين لطلبة الثانوية.

في سنوات الثلاثينات اعتاد احد الفلاحين الاعتماد على أبيه في احضار لوازم البيت من سوق المدينة بينما كان الاعتماد الاول على محاصيلهم الزراعية، وذات يوم مات الاب ونفذ كاز الكيروسين وكان على الابن ان يترك الحقل المجاور للبيت الذي اعتاد قضاء سنوات فيه لاحضار احتياجات العائلة فصعد جبل وهبط الوادي واقترب من ضواحي المدينة فشاهد المسطح غاصا بالبيوت... فقال: *يما ماأكبر الدنيا* (بلهجة فلاحية).. فالعالم واسع جدا.

تقول التوراة في سفر التكوين، اي السفر الاول، ان هناك اله عظيم القدرة جليل الحكمة أزلي لا بداية ولا خالق له، وهي تضفي عليه صفات عديدة، وكتابات مسيحية تراه شفافا رقيقا وتعتبر خصائص الجبروت والرحمة والقوة والرأفة.. الخ هي صفات افتراضية لتقريب الفهم على العقل الانساني فيما الاسلام يعدد ٩٩ صفة يعتبرها ملازمة له فعلا، والديانات كلها تبني قناعاتها على ان الله غير مادي، وهذا حال *البراهما* اي الله لدى البوذيين، اي ليس كمثله شيء حسب التعبير الدارج في الثقافة الشعبية.

وهذا الإله كان وحده موجودا منذ البداية ولم يكن هناك مادة – عالم ولا حيز – مكان – فراغ ولا اي شيء على الاطلاق، اي كان العدم، اللاشيء بصرف النظر عن تقبل أو عدم تقبل المنطق لهذا الكلام، اذ ليس من مهمتي التبشير لا بالنظرة الايمانية ولا بنقيضها، لا المثالية ولا المادية، لا الغيبية ولا العلمية المتسقة المبنية على براهين التجربة الانسانية، وما أذهب اليه هو شرح الفكرة وضدها وحسب، أما الاختيار بالانحياز للمنظور "أ" أو المنظور "ب" فهذا لا يدخل في اختصاصي، وعموما ان الحقيقة تقدمية والمعرفة سلاح هائل في العصر الراهن ومن الضروري ان يعرف الانسان كل الطروحات والمواقف كيما يكون اختياره مقنعا له فلا يتبلبل ولا يتأرجح بين الوقت والاخر، بل ان التعليم المدرسي والجامعي من واجبه ان يعرف الرأيين معا. بحيث يترك للطالب حق الاختيار، وهذا واجب وسائط الاتصال الجماهيري عموما.

وعلى الأرجح انكم تذكرون عزل *شولاميت الوني* وزيرة الثقافة السابقة في الحكومة الاسرائيلية، طبعا ان الواحد فينا يلمس على جلده وجلد شعبنا سياسات الحكومة الاسرائيلية وسياسات الاحتلال، ولكن الوني هذه كانت جريئة في اداء وظيفتها، هذا ما لاحظناه في برامج التلفزيون الاسرائيلي ولكونها دعت الى حق الانسان في الحصول على معلومات تبين الرأي والرأي الاخر اهتاج رجال الدين الذين كان يتحفظ بعضهم عليها بوصفها امرأة وحسب، وفي النهاية نجحوا في اقصائها من وزارة الثقافة، والنص الديني اليهودي هو الذي أسس للنظرة الدونية للمرأة، وهذا آتي عليه في سياق المداخلة، حتى ان المرأة حينما تنجب ذكرا تكافأ باجازة مدتها شهرين بينما اذا كانت انثى تكون اجازتها شهرا واحدا فقط، علما ان التوراة تشير الى ان احد انبياء اليهود كان امرأة هي *خلدة* فيما عرف التاريخ اليهودي القديم أول قاضية ايضا.. طبعا الحياة في المجتمع الاسرائيلي كما في مجتمعنا الاسلامي العربي أو المجتمع المسيحي الفرنسي.او الامريكي على سبيل المثال لا تحكمها قوانين الدين واحكامه وانما صيرورة المجتمع أملت قوانينها التي استجابت لابداعات الانسان ومتطلباته.

ويشير سفر التكوين بأن الله الابدي قد خلق العالم ونظمه ونسقه، في ستة ايام ثم استوى على العرش، وفي سياق ذلك بداهة استحدث الجنة وهذه مستوية وخصبة التربة ومليئة بالثمار كما ذكر ابراهيم في حديثه مع النبي محمد اثناء صعوده الى السماء مثلما جاء في أحد أحاديث الاخير وقام الله بصنع ادم من الطين –الصلصال– وأمر كل الملائكة فسجدوا له، الا ابليس، الذي تمرد واستكبر بدعوى انه من نور وادم من طين. وفي سياق عميق ولد ادم حواء كامرأة كاملة من أحد اضلاعه اي ان الانثى أقل من الرجل وأجاز لهما الله تناول ثمار الاشجار باستثناء شجرة التفاح، وقد علم ادم كل اسماء الاشياء، وذات يوم صادفت حواء على شجرة التفاح أفعى فقامت الثانية بتغرير الاولى فالتهمت التفاح، هذه كانت شجرة الخلود والمعرفة الالهية مما أغضب الله فطرد ادم وحواء الى الارض لانتاج السلالة البشرية حيثما تزوج في بادية الامر الاخوة من الاخوات أما ابليس فطرده لنشر الشر والخطيئة بين البشر.

ويستمر السيناريو الديني التوراتي بالقول انه بعد موت الانسان ينبعث حيا لمحاسبته في يوم القيامة وبناء على أفعاله يتقرر مصيره فمن ثقلت موازين حسناته تخلد في الجنة، ومن خفت موازين حسناته وثقلت موازين سيئاته ذهب للجحيم مخلدا فيها ابدا، اي الثواب والعقاب، وثمة كتابات قديمة تنفي ان تكون

اليهودية نصت على القيامة بينما المسيحية تؤكد وتشرح، والجنة تغص بالحور وأنهار من عسل ولبن وخمر و ...والقران هنا يسهب في الشرح.
هذا هو الجانب العقيدي في التوراة اليهودية كأساس وفي الديانات الاخرى كامتداد بقطع الاعتبار عن التفاصيل والجزئيات.

وتأتي العبادات تجسيدا للايمان بهذه العقيدة كالصلاة والصيام والزكاة والحج بصرف النظر عن طريقة اداء هذه الشعائر وكثافتها. اي ان قاعدتها من ناحية الجوهر واحدة اما من ناحية اشكال تجليها فهي مختلفة، والاية القرانية تقول "وما خلقت الانس والجن الا ليعبدون" اي ان غاية وجود الانسان هي عبادة الله وحسب، وهذا بداهة له صلة بالتكفير عن خطيئة أبي البشر آدم شأن حواء التي اغرت وغررت بآدم فعاقبها الله بقوله في التوراة "ستلدين في الالم"، وبعض رهبان الدين المسيحي لا يتزوجون ناظرين للعلاقة الجنسية مع المرأة على انها دنس وخطيئة.

ناهيكم ان الله قد عاقب البشرية في وقت سابق حسبما جاء في التوراة والمقصود هنا ان الفساد قد عم بعد عشرة أجيال ما بين ادم ونوح، وانه أغرق الكرة الارضية بالماء على ارتفاع ١٥ ذراعا ولم ينج الا نوحا وابنائه وزوجاتهم بعد ان حجبوا أنفسهم داخل قارب ومعهم من كل نوع زوجا، وتفاصيل هذه القصة مشروحة في التوراة، ليأتي من نسل سام ابن نوح العبرانيون ومن نسل هام شقيقه الكنعانيون العرب..الخ وبالتالي تكاثرت البشرية ثانية.

وماذا عن الرأي الاخر؟ لا شك انكم تعلمون بان الانقسام الفلسفي حول الوجود وأيهما أسبق الوعي- الروح - أم المادة هو قديم ويسبق الديانات المعروفة، وهو قد استمر بعدئذ ويتواصل لليوم. وربما يفيد استعراض الامور على شكل نقاط:-

١- ان الموقف الايماني الغيبي قديم وأقدم من الديانات الرسمية المعروفة، فمثلا ان الفراعنة منذ خمس أو ست الاف سنة كانوا يؤمنون بآلهة متعددة، اي ان لكل ماهية اله، للقمر اله وللحجر اله وللنهر اله وللانسان اله وهكذا دواليك، وفي مرحلة لاحقة، اي قبل نحو ثلاثة الاف سنة اي قبل موسى ودعوته بنحو ٥٠٠ سنة كان الفرعون اخناتون يصلي لاله الشمس الذي يرسل الاخيار الى الجنة والاشرار الى جهنم، وهذا كله جاء في التوراة بعدئذ ، وكانوا يؤمنون بانبعاث الميت الشيء الذي دفعهم لتحنيط الفراعنة والقادة كيما يعودون ثانية.

وفي تراثهم المكتوب يتحدثون عن عدة أساطير فلكلورية منها ان اله دولاب الطين قد صنع الانسان وان اسرار الحياة والزمان محفوظة داخل تابوت الرب (الكتاب المحفوظ) كشيء مقرر ومرسوم سلفا غير ان وعيهم وخيالاتهم لم تصل درجة السيناريو العقيدي الذي تعرضه التوراة بعد قرابة ثلاثة الاف سنة، ومعلوم ان موسى قد نشأ وعاش لمدة ٤٠ عاما في قصور الفراعنة وانه تلقى تعليما عاليا قياسا بزمانه ومن البديهي انه يلم بأساطير وعادات الفراعنة.

أما الحضارة السومرية العراقية التي تعود الى ستة الاف سنة فقد تم اكتشاف مخطوطات أو أشعار مكتوبة، ومنها اسطورة أو مسرحية *جلجامش* التي تدرس في الجامعات وفيها نواة التفكير بشأن عدة عناصر في العقيدة التوراتية، منها قصة الشقيقين المزارع والراعي اللذين تزاحما على ارضاء والدها بتقديم محصول الحياة الزراعية أو محصول الحياة الرعوية واختلفا وتصارعا غير ان احدهم لم يقتل الاخر. وهذه الاشعار بداهة تحمل جوهر قصة الصراع بين هابيل وقابيل وقتل احدهما للاخر كما صورتها التوراة بعد الفي أو ثلاثة الاف سنة وترددت على لسان ابراهيم الذي حضر الى فلسطين من المشرق حاملا معه ثقافة شعوب المشرق.

والشيء نفسه يقال عن قصة نوح وسفينته وهبوطه بعد الطوفان فهي ايضا معتقد سومري قديم ومثبتة في مسرحية جلجامش كقصة خيالية وحسب، أي ليست حقيقة تاريخية وبطلها يختلف اسمه عن اسم نوح، وهذه القصة مستوحاة من واقع الحياة ما بين النهرين اذ كانت العائلات الفلاحية تصعد للتلال مجتنبة اثار الفيضان في المواسم التي تهطل فيها الامطار بغزارة، بل وفي القصة إشارة الى ان جلجامش قد ارسل الحمامة وبعدها السنونو ليليهما الغراب لفحص فيما اذا خفت المياة من اليابسة ام لا، بما يشبه كثيرا ما جاء في التوراة بعد الاف السنين.

فيما الشعوب الاغريقية في شمال سوريا ما قبل ثلاثة الاف عام ونيف كانت تتداول قصة رجل وامرأة نزلا من الجبال الى السهول السورية كمنشأ للقبائل الاغريقية بما يشبه المنظور الديني حول ادم وحواء، ولكن كقصة وبدون ربطها بالسيناريو الديني الذي اتى لاحقا.

وموضوع الله كخالق للكون وأسبق منه امنت به الشعوب الصينية والهندية القديمة هذا ما قبل اليهودية ولكن بضبابية وعدم وضوح فلسفي. اذ كلما عجز العقل الانساني عن تفسير ظاهرة أو حدث كان يعزو السبب لقوة غير مرئية، الى ان جاء كونفوشيوس وبوذا منذ أكثر من ٢٢٠٠ سنة وتوصلا لمعتقد الربوبية بناء على تفكير تأملي وحسب، اي انهما ليسا نبيين ولا ينتميان لأي دين وهذا حال مليارات الناس الذين اعتنقوا فلسفتيهما على امتداد مئات السنين ولهذا اليوم، وهما فلسفتان ارضيتان تتعرضان لمسائل السياسة والاخلاق والاقتصاد... الخ بما يشبه الاديان.

وما قيل عن البوذية أو الكونفوشية يقال عن الفلسفة الاغريقية وأبرز ممثليها أفلاطون وأرسطو وسواهما في نفس الحقبة التاريخية، اي حيثما كانت نهضه وتطور كان يقدح العقل الانساني زناد قدراته محاولا الاجابة على تساؤلات كانت تشغل بال الناس أو يمكن ان تخدم سادة القوم وسيطرتهم، فكونفوشيوس وافلاطون و.. كانوا يشددون على طاعة الحاكم وقدرية وضع الشعوب كمحكومين وان الارزاق متفاوتة بين الناس بارادة الهية، حتى ان أفلاطون ذهب حد القول في كتابه (*المدينة الفاضلة*) بأن الناس معادن ومعدن الاسياد والحكام من الذهب حيث يسيطر العقل على الجسد أما الضباط والفرسان والتجار فمن الفضة بينما العبيد والعمال فمعدنهم من النحاس ومنتصفهم الاسفل يسيطر على منتصهم الاعلى.

٢- ان الموقف المادي الناقض للموقف الغيبي قديم وأقدم من الفكر اليساري الاشتراكي الذي تأسست بداياته في اواسط القرن الماضي ١٩ ولم يبرح يتبلور ويترسخ في بنائه ومنهجه حتى اليوم، وسوف يستمر في التجدد والتطور تمشيا مع تجدد وتطور الحياة بالنظر الى ارتباط الفكر اليساري بواقع الممارسة البشرية، فهو لا يكتمل ابدا وانما تنضاف اليه كل الانجازات الثقافية والعلمية، وديالكتيك النظرية مستقى من ديالكتيك الواقع وهذا موضوع قائم بذاته ليس هنا مكانه.

وعلى امتداد التاريخ، وحتى في عصر انتصار الفلسفات الدينية وقبلئذ وبعدئذ كان على الدوام فلسفات وفلاسفة ومعتقدات مجتمعية منتشرة بهذا القدر او ذاك لا تقبل أطروحة بدء العالم وثبات كيفياته، فالفلاسفة الاغريق ابيقور وديموقليطس وهيراقليط منذ أكثر من الفي عام رفضوا فكرة

الربوبية والاخير آمن بالحركة والتطور وقال بأن الأشياء تتحول وهم جميعا اعتبروا مكونات العالم مادية ولا روح غيبية فيها.
وفي كل عصر كان امثالهم واضافوا فكرة هناك.

ولكن فلاسفة عصر التنوير في أواخر القرن ١٨ وعدد من مفكري الثورة البرجوازية، حيث انتشرت العلوم وقفزت المكتشفات قفزات هائلة هم الذين قاموا بتشريح الديانات والمعتقدات الدينية، وتوصلوا الى استنتاجات مادية ترفض السيناريو الديني ومكوناته وخلصوا الى نتيجة سياسية صنفت الدين كأداة فكرية رجعية في ايدي الاقطاع والملوك. ومثل هذه الاراء نجدها في كتابات ونظريات لابلاس وديدرو وفولتير وسبينوزة وجان جاك روسو وهولباخ وفورباخ وسواهم.

ومع اكتشاف القانون الفيزيائي في أواسط القرن التاسع عشر القاضي بأن المادة لا تفنى ولا تخلق من العدم وانما تتحول من شكل الى اخر، تصاعد الهجوم المادي على الفكرة الربوبية متسائلا: كيف يمكن خلق العالم المترامي الاطراف من العدم؟ فهذا متعذر علميا كما متعذر منطقيا تقبل فكرة العدم، اي لقد تم مزج علم الفيزياء بالفلسفة بل وظفر هذا الاكتشاف العلمي بما يخدم الرؤية الفلسفية المادية.

وبعض اتباع هذه الرؤية يدفعون. النقاش الى طريق مسدود حينما يردون على المنطق الفلسفي المثالي الايماني الذي يقول: بأن لكل موجود خالق، وخالق العالم هو الله، فيردون: فمن اين جاء الله ومن خالقه؟ اي انهم يتعاملون بنفس الميزان والقاعدة المنطقية ولكن ليصلوا الى نتيجة مفادها ان الله ذاته هو العالم أو ان العالم لا خالق ولا بداية له، وهذا سواء.

وهم لا يكتفون بذلك بل يقدمون ادلتهم العلمية التي تكشف التناقض بين معطيات العلم المتعارف عليها والمثبتة في التجربة وبين مقاطع هامة في السيناريو الديني.

فيقولون ان العلم لا يتقبل ويرفض ما جاء في التوراة وبعدئذ في الانجيل والقرآن عن ولادة آدم لحواء لأن الرجل لا يلد بل ولا يلد امرأة كاملة دفعة واحدة ومن ضلعه ايضا ولا يتقبل تحول عصاة موسى الى أفعى تسعى او انه شق البحر وأقام جدارين من ماء وبعد مرور بني اسرائيل

انطبق ثانية على فرعون وجنده، فالعصا لا تتحول لافعى وهي لا تشق بحرا والماء لا يتماسك على شكل جدار فجأة ويذوب فجأة.. فهذا كله مخالف للتجربة العلمية. وهذا ينطبق على ميلاد المسيح التي حملت أمه به بدون علاقة برجل أو احيائه للموتى، فلم يحدث ان عاد ميت من الموت وهذا ينطبق على سير المسيح على الماء واشفائه للبرص والكساح فجاة واحداث كثيرة من معجزات الانجيل. ناهيكم عن عودة أهل الكهف أحياء بعد موتهم بمئات السنين أو مكوث يونس حيا أسابيع في بطن الحوت بدون طعام أو هواء... أو النار التي لم تحرق ابراهيم أو صعود النبي محمد الى السماء مخترقا قوة الجاذبية بينما لم يكن في ذلك الزمان صواريخ ومنشآت ميكانيكية، طبعا بعض الناس يؤمنون بانجازات العلوم وبعضهم يأخذون بالنظرة الايمانية واعادة كل شيء الى ارادة السماء، ولله في خلقه شؤون كما يقال وهذا ينطبق على منجزات علم النفس الذي يؤكد بأن العقل، اي المعرفة الحسية التي تتكون من خلال انعكاس اسقاطات الواقع على الحواس الخمس لينقل الجهاز العصبي هذه الاشارات للدماغ فيقوم بتخزينها تحت القشرة الدماغية مكونا المفاهيم والمقولات والتحليلات كمعرفة منطقية مجردة، هذا هو العقل الذي يتراكم قطرة قطرة كأحاسيس اولية لدى الجنين في اخر شهوره في رحم امه يلي ذلك ولادته وبداية تعرفه على الحياة، دفء امه، صدر امه، الضوء، الصوت...الخ.

وبتدرج يتكون عقله وعواطفه المتمايزان بين انسان واخر تبعا لتجاربه وظروفه.

بينما تقول النظريات الدينية ان الله صنع العقل والنفس بصرف النظر فيما اذا كانت هذه النظريات تنسجم أو لا تنسجم مع النص الديني، والأمر ذاته يقال عن التطور، فعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد وعلم التاريخ تقدم تحليلاتها وتبين عوامل النهوض وعوامل التخلف والانحطاط وهي كلها تتصل بالارادة الجمعية الانسانية والعلم الانساني وقوى الانتاج والقاعدة الاقتصادية والثروة والتكنولوجيا والعامل السكاني والموقع الجغرافي والفكر الايديولوجي..الخ. متبعة سياق تطور اوروبا على سبيل المثال وتخلف افريقيا... ولكن بدون الادعاء ان ارادة سماوية وراء تطور اوروبا واستعمارها للشعوب طيلة أربعة قرون، وتخلف افريقيا أو المنطقة العربية وتفتتها ونهبها من قبل الاستعمار...الخ.

وعلى سبيل المثال ان متوسط اعمار الافارقة يتراوح بين ٣٧-٣٨ سنة بينما في امريكا بين ٧٣-٧٤ واليابان ٧٢ والشيء نفسه تقريبا يقال عن اوروبا بينما كان الاتحاد السوفييتي قبل انهياره ٦٩ سنة فيما المنطقة العربية أكثر من ٥٠ بقليل.. وهذا بداهة يرتبط بالمستوى الغذائي والصحي ومستوى الحياة والحالة المعنوية والروحية..الخ وانه كلما تحسنت هذه الشروط كلما ارتفع متوسط العمر فعلى هذا النحو تفسر تقارير الامم الامتحدة الامر بينما الديانات تعزو ذلك الى عزرائيل وان لكل اجل كتاب لا يمكن تبديله أو تغييره.

وانني شخصيا لا استطيع تصور الله مسؤولا من خلال عزرائيل عن اماتة ملايين الاطفال سنويا أو موت عشرات الاف الامهات بينما اطفالهن بحاجة ماسة لهن أو موت اباء معيلين فيتيتم أبناؤهم.

هذا ناهيكم عن نظرية الخلية وأصل تكونها ونظرية داروين التي تدرس في معظم جامعات العالم عن أصل الانسان وتطوره ووجود شواهد داعمة لها ليس في مؤلفة الضخم بل وفي احدى مراحل تطور الجنين كما يبين العالم *سلامة موسى* حيثما يكسو جسم الطفل بين الشهر الرابع والخامس الشعر الناعم كما هو حال القرود لينحسر بعد ذلك على فروة الرأس وذات الشيء يقال عن الذنب الذي يضمر وتنضغط فقراته على شكل عصعص كما يتبين في علم التشريح، أو نوع من القرود التي تحيض اناثه كما المرأة وتحمل جنينها تسعة شهور كما يبين عالم الحيوان *سيمويل* في كتابة القرد العاري أو المجتمعات البدائية الأموية التي ما زال الطفل فيها يعود للأم حتى هذه الايام، ذلك ان العلاقات الجنسية غير منظمة فلا يعرف الاب في بعض القبائل الهندية أو في غينيا الجديدة الاسترالية كما رأت العالمة الاجتماعية الدكتورة ميد والدكتورة *نوال السعداوي*. وعلم الفلك يقول ان الفرق بين عمر الارض والشمس حوالي ٢ مليار سنة فيما الحياة على الارض عمرها مئة أو مئات ملايين السنين، بينما تقول التوراة ان الله خلق العالم في ستة ايام، وحتى لو كانت هذه الايام من طابع خاص يثار سؤال منطقي: طالما ان الله قدير ملم بكل شيء لماذا استغرق كل هذه المليارات ولماذا كانت الارض مرتعا للحيوانات مئات ملايين السنين بينما الانسان جاء بعد ذلك وعمره ملايين فقط؟؟

وعلم الاقتصاد الذي كشف قانون فائض القيمة الناتج عن استغلال الرأسمالي للشغيلة حيثما يصادر الانتاج الذي هو من نتاج قوة عملهم فيزداد رأسماله واملاكه من دماء الكادحين وعلى حسابهم، وذات الشيء قانون التبادل اللامتكافىء بين المركز الامبريالي الصناعي والعالم النامي حيثما يبيع الاول للثاني موادا مصنعة بأسعار غالية ويشتري منه موادا خاما بأسعار زهيدة فيتعاظم غنى الاول ويزداد فقر الثاني وتتسع الفجوة بينهما وهذين القانونين يحتاجان الى وقفة خاصة بينما الديانات كلها لا تعترف بهما، ولا تملك نظريات اقتصادية بديلة لهما. والنظرة العلمية تحلل أسباب الحروب والمجاعات والسرقات والقتل والكذب...الخ. وارتباط كل ذلك بالظروف الاقتصادية والسياسية والاخلاقية... اي ان مصدرها ليس ابليسا. وعلى ذلك يمكن القياس والاسهاب في ايراد الامثلة.

٣- ان الحركات السياسية اليسارية في برامجها السياسية الرسمية وانظمتها الداخلية لا تتطرق لا من قريب ولا من بعيد للموقف الايماني أو نقيضه، فهذه الحركات هي حركات ثورية تسعى للقضاء على كافة الاضطهادات والمظالم وانهاء استغلال الانسان لاخيه الانسان وتحقيق الحرية والعدالة والديمقراطية والكرامة والتطور... الخ وقد أوجز لينين بالقول (نحن ضد كل اضطهاد قومي أو استغلال طبقي أو اضطهاد جنسي أو ديني) وبرنامجها السياسي يعكس اهدافها فيما نظامها الداخلي يحدد قوانين بنائها وعلاقاتها بالجماهير والبرنامج السياسي والنظام الداخلي هما الوثيقتان الاساسيتان لكل حركة يسارية وعلى اساسهما تقبل العضوية وبوحيهما يتم العمل وهما خاليتان تماما من المسألة التي نتعرض لها بل ومثلما تجدون غير المؤمن في صفوف اليسار تجدون المؤمن ايضا، فميا تجدون أغلبية لا تكترث بالدين، وهذا كله ليس بندا برنامجيا بل ثقافة عامة يكتسبها المرء من الحياة وموقف فلسفي ينحاز له بمعزل عن الوثائق الرسمية للاحزاب اليسارية، وهذا الامر ينطبق على الاحزاب البرجوازية في العالم ايضا. وفيما عدا الاحزاب الدينية سواء كانت اسلامية أو مسيحية أو يهودية أو روحانية كالبوذية وتجمعات مشابهة هنا وهناك تقوم في عقيدتها وفكرها وتعبئتها على الايمان بل وتعتبر ذلك حجر الاساس ومبرر وجودها، فان كافة الاحزاب الاخرى التي تضم مئات الملايين وتشكل أغلبية في المجتمعات البشرية لا تبني برامجها وفكرها السياسي على الايمان، فهي في برامجها حركات سياسية وحسب فيما عقلها الجماعي وتجربتها يوجهان نشاطها.

والفكر اليساري لا ينظر نظرة عدمية للفكر الديني، اي يرفضه ويمضي، بل انه يدرسه كجزء من الموروث الفكري للبشرية وهذا حال موقفه من الفكر الرأسمالي والاقطاعي وكل الفلسفات القديمة، ويعتقد ان الفكر هو نتاج ظروفه المادية، فالفكر الوطني ينشأ في غمرة الصراع ضد الاستعمار، والفكر الرأسمالي نشأ في غمرة انتقال المجتمع الى المرحلة الرأسمالية، وعلى هذا النحو نشأ الفكر الاشتراكي في أرحام المجتمع الرأسمالي وتوطد في معمعان النضال في سبيل الاشتراكية...الخ، ولما كان التاريخ البشري بحركته المادية مترابطا والجديد يولد في أرحام القديم متجاوزا اياه ايضا. وعليه فمن المستحيل ادارة الظهر للموروث الفكري الذي يعيش في أجزاء منه في الحاضر، بل وان بعض الحاضر موجود في شروش الماضي. والكثير من التشريعات والأخلاقيات اليسارية مستقاة من التشريعات والأخلاقيات البرجوازية والدينية، فكما ان الاشتراكية تستند الى العلم البرجوازي والصناعة البرجوازية مزيلة علاقات الانتاج الاستغلالية، ومثلما تستوعب العناصر الايجابية في الديمقراطية الليبرالية فانها من البديهي تستوعب كل ما هو ايجابي وصالح للعصر من الموروث الديني، بل ان الديانات نفسها تتقاطع في العديد من النواحي بل وكانت امتدادا لمنجزات الشعوب ما قبل مجيء الديانات الرسمية وعلى سبيل المثال كان الصينيون والفراعنة يعاقبون على القتل ويحرمون الزواج من الاخوات، فيما جاء الدين اليهودي ليعاقب بالموت على الزنا او شتم الاب والام والذات الالهية وكانت الوصايا العشر تقول لا تكذب لا تسرق فيما الزكاة كانت ١٠٪ على المحاصيل الزراعية مع فرض جزية على الشعوب التي تعيش تحت النفوذ اليهودي وهذا حال اليونانيين بينما يوجد نظام أشد تعقيدا في الدين الاسلامي.

وانتم تعلمون ان النظرة اليسارية تختلف عن النظرة الدينية، فالفكر اليساري متجدد دوما ويرتبط بنتائج الممارسة وكل ما يتجاوزه الزمن ويشيخ يصبح من مخلفات الماضي وكل ما تبرهن عليه الحياة ويواكب المتغيرات يضاف للنظرية. اي لا يوجد شيء مقدس الا ما يفيد الانسان ويثبته العلم. ومنظومة الافكار اليسارية لا يجري تطبيقها بل يصار للاسترشاد بها لانتاج فكر يساري يعالج مشكلات الواقع الخاص لكل شعب. اي ان الفكر اليساري ليس نصوصا ثابتة وجامدة كما الحال في الديانات، اي لا يوجد نص ابدي بل منهاج علمي ينتج افكارا متجددة دوما.

٤-ان الاحزاب اليسارية تتسع للمؤمنين، بل وثمة بند صريح في وثائق الحزب الشيوعي الايطالي ينص على ذلك، وهذا تكرر مؤخرا في وثائق الحزب

الشيوعي الكوبي، وذات الشيء يقال عن الحزب الشيوعي الفلبيني وسواها من الاحزاب، أما من الناحية الواقعية فالحركات اليسارية مليئة بالمؤمنين مثلما انها مليئة بغير المؤمنين، فهذه القضية ليست مركزية، وانما المركزي هو الوثائق الرسمية سيما البرنامج السياسي والنظام الداخلي وخطط العمل المنبثقة عنهما. وطالما ان الموقف الايماني منفصل ولا يعكس نفسه على شكل ذهنية غيبية ومعتقدات مغايرة لبرامج وتاكتيكات الحركة اليسارية، فالأمر يبقى ضميريا ومن حق الانسان ان يكون أمينا مع ضميره وقناعاته.

واليسار في سجالاته يتناول برامج الاخرين السياسية والاقتصادية والثقافية..الخ. ويتفارق على هذا الأساس ويتلاقى على هذا الأساس ، أي ليس على قاعدة الايمان او الالحاد، لهذا ليس غريبا ان يتحالف احيانا مع قوى برجوازية او قوى دينية بينما هو نفسه لا يكون موحدا، فاليسار الفلسطيني يتقاطع اليوم مع اتجاهات سياسية اسلامية فيما يتناقض مع قوى برجوازية كان متحالفا معها لزمن طويل، ومعها أطراف نصف يسارية أو يسارية كما تنظر لنفسها.. والسوفييت كانوا على خلاف حاد مع الصينيين بينما كان كل طرف على علاقة أقل حدة مع فرنسا الرأسمالية أو مع اليابان.

٥- لا شك انكم تتوقعون مني الاجابة على السؤال المركزي في الفلسفة، اي المتعلق بالروح والوجود، وهذا التساؤل تلمسته لدى أكثر من مناضل وفي أكثر من معتقل وهنا لن اجيب بغير ما أجبت عليه من قبل:

ا- اعترف انني وان كنت اهتم بالثقافة والسياسة.. الخ غير انني لم أكن في يوم من الايام فيلسوفا، وهذا السؤال الكبير والمعقد هو من اختصاص الفلاسفة اولا، فأهل مكة أدرى بشعابها، وأهل الاختصاص هم الاكفأ وقد عرضت عليكم ملخصا للرأيين المتناقضين، ولا اجد من واجبي تلقين احد بأحد الرأيين، وانما اطلاعه عليهما بما يتيح له فرصة المعرفة أو المعرفة والاختيار ان اراد.

ب- لا تتوقعوا اعطاء اجابات قاطعة سهلة على اسئلة معقدة هي مثار جدال منذ الاف السنين، فمرض السرطان لا تعالجه نصيحة أو حبة اسبرين، والتحرر من الاستعمار والتخلف لا يتم في ليلة وضحاها وبيسر..الخ. وكل واحد فينا بحاجة ان يناقش وان يقرأ ويقرأ وان يفكر ويمعن التفكير أكثر مما هو بحاجة لاجابة من بضعة كلمات قد

تثبت لزمن قصير. والتفكير الجماعي للبشرية هو الذي يقارب الحقيقة والمعرفة الصحيحة.

ج- اعترف ان اهتماماتي لا تشمل اطلاعا معمقا حول هذه المسألة اذ تشدني وتشغل بالي قضايا كثيرة ومتشعبة أكثر الحاحية، أو دعوني اقول ان وقعها على عقلي وعواطفي أكثر وطأة وقوة، اذ من الطبيعي ان يفكر وان يتأثر المرء حينما يرى صور الاطفال الافارقة منفوخي البطون واطرافهم كما العصي النحيلة، وحينما يشاهد أحياء السود والبورتريكيين في بروكلين تنهشهم المخدرات والبطالة وتكويهم العنصرية الرأسمالية، وحينما يرى مستقبل شعبنا غامضا وقد صودر ٨٦٪ من اراضيه ليشتت في بقاع العالم تقصف الطائرات الاسرائيلية مخيماته في لبنان وتحاصره وتذبحه الطائفية المذهبية مرة والقوى الفاشية مرة اخرى، فينتشر القلق والاحباطات بين شبابنا وتحتبس الدمعة في عيون امهاتنا... وينهار النموذج الاشتراكي البيروقراطي في الاتحاد السوفيتي السابق الذي كان يكفل على الاقل فرص العمل والعلاج والتعليم للجميع بدون ان يستأثر احد بالثروات، أما اليوم فالمافيا تسيطر ونسبة البطالة ناهزت ٢٥٪ والتضخم الفين في المائة والعلاج والتعليم بنفقات لا يقوى على دفعها الا القوى الاجتماعية المسيطرة!

وعلاوة على ما أسلفت فان موقفي الفلسفي هو قضية شخصية تخصني ويحق لي حجبها أو التحدث بها، وهذا ينطبق على كل واحد فيكم. واميل الى مناقشة مسائل اخرى تتعلق بالخطاب السياسي أو الاقتصادي أو حول الديمقراطية أو الاخلاق... الخ فهذا أكثر جدوى ويعالج هموم شعبنا والبشرية أكثر.

وانني كشخص احترم عقائد الناس المؤمنين وغير المؤمنين، شيوعيين كانوا ام اسلاميين ام مسيحيين ام يهود او.. ولا يوجد لي موقف سلبي نتيجة انتماء المرء للعقيدة الدينية او عدم انتمائه لها. فما يهمني هو سلوك الانسان، فعله، دوره في الحياة، فالاحتلال اقاومه لأنه احتلال وليس لأنه يهودي، فاليهودي الذي لا يدعم الاحتلال والاستعمار والظلم والاستغلال أنظر له كانسان مثلي بالضبط وهذا المنظور ينسحب على الامريكي، والرأسمالي اقاومه لأنه يستغل جهد الشغيلة وليس لأنه زيد أو عمرو وهذا المنظور ينسحب على

الامريكي أو الصيني، الابيض او الاسود...اذ انني اؤمن بالمساواة بين البشر وبين المرأة والرجل، اذ ينبغي احترام راي فولتير احد قادة الثورة الفرنسية (انني مخالف لرأيك ولكنني مستعد للتضحية دفاعا عن حقك في التعبير عن رايك) وأعرف ان الايمان وحده لا يصنع اي شيء مثلما ان الالحاد وحده لا يصنع اي شيء، فالبرامج الصحيحة على كل الصعد هي التي تعطي القوة وهي ذاتها دافعة التطور. ويتوجب الاقتناع التام بأن مبدأ الحياة قائم على التنوع والتعدد فالتناقض موضوعي ودائم بصرف النظر عن تجلياته، ولا يمكن ان يسود معتقد واحد لدى كل الناس، فعلى هذا النحو كانت البشرية وسوف تستمر على نفس المنوال، اناس مؤمنون واناس غير مؤمنين، بصرف النظر عن النسب، وتقديري ان غالبية البشرية لا تعبأ بالدين بل تحركها دوافعها الحياتية والقوانين الوضعية التي صاغها العقل الانساني، فيما اقلية متحزبة للديانات وتعمل بمنطوقها وأقلية لا تؤمن بالغيبيات والارواح ومنسجمة مع منطوقها.

وتأسيسا عليه، فاليسار يتعرض للدين من زوايا اخرى، فهو يدرك المعضلات الرئيسية التي تواجهها البشرية، ويدرك ان حلها يقود الانسان والمجتمع الى المستقبل الوضاء السعيد الانساني حقا. ويمكن ايرادهما على النحو التالي، ورأي التفكير اليساري حياله افرد له مداخلات منفصلة ومعللة، وهنا اسردها كرؤوس أقلام وعناوين وحسب:

١) المعضلة القومية وهي تشمل نحو ٦٠٪ من البشرية أو يزيد والمقصود بها حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها وامتلاكها مقدراتها وتحررها من النهب الامبريالي والتبعية الاقتصادية والسياسية والثقافية للمركز الرأسمالي التكنولوجي الاحتكاري، وبالتالي بناء مجتمعات نهضوية تلحق بقطار التطور والحداثة في شتى الميادين وفق رؤية تنموية سليمة وتقيم علاقاتها مع الدول الاخرى على أساس التكافؤ وعدم التدخل في شؤونها أو غزوها وقهرها.

٢) المعضلة الطبقية الناجمة عن امتلاك الاقلية للثروات واستغلالها للاغلبية التي تنتجها، ويكفي القول ان ٣٠ شركة عالمية تسيطر على ٧٠٪ من ثروة البشرية وان أغلبية الجماهير لا تملك سوى قوة علمها التي تبيعها لقاء حياة الكفاف بينما يصادر جزء من هذه القوة الذي ينتج الارباح لصالح ارباب

العمل الاستغلاليين، فالاغلبية تزداد فقرا والاقلية تزداد ترفا وبشاعة، بينما الضريبة -الزكاة لا تلغي الاستغلال ولا احتكار الثروة، بينما الطبقة التي تسيطر على الاقتصاد تسيطر على السلطة السياسية كما على انتاج الفكر والاعلام ومراكز النفوذ، وتهيمن على المجتمع.

والمعضلة الطبقية تخص أكثر من ثلثي البشرية اي ما يربو على ٣،٥ مليار نسمة.

٣) المعضلة الديمقراطية حيثما تطالب الشعوب بالديمقراطية القائمة على المساواة وحرية الاختيار ضمن قانون ناظم يسنه العقل البشري من خلال السلطة التشريعية البرلمانية المنتخبة ديمقراطيا مع حق الاقلية في التعبير والتعددية وعدم التمييز على أساس ديني نو جنسي واعتماد مبدأ الكفاءة والتأهيل كقاعدة للتوظيف في الحياة العامة.

٤) معضلة المرأة كانسان كامل الارادة من حقها المشاركة التامة في شؤون الحياة الاقتصادية والسياسية والثقافية والفنية وتحريرها من النظرة الدونية التي تضطهدها وتعاملها كدرجة ثانية وعنصر تابع نو حجزها في البيت كماكينة تفريخ وغسل وطبخ وحتى مصادرة اطفالها حين الطلاق.

فللمرأة كما للرجل حق الاختيار في الزواج والتعلم والعمل والاضطلاع بالمهمات التي تستطيع تنفيذها، ومن الرجال من يتفوق على سواه وعلى نساء، ومن النساء من يتفوقن على سواهن وعلى رجال في كافة الميادين والحقول، فالمرأة اليوم تساهم بشكل رئيسي في بناء الحضارة وتقرير مصيرها ومن هذا المنطلق ينبغي النظر لها.

٥) المعضلة الابداعية، اي حق العقل في الانتاج وعدم تكبيله وفرض القيود الخانقة عليه، فبفضل العقل وانتاجه العلمي والفني والادبي بلغت البشرية ما بلغت.

وحقول الابداع لا تشمل الابداع التكنولوجي فقط بل وحقل النظريات العلمية والموسيقى والسينما والمسرح والرسم والغناء والتصوير والادب نثره وشعره والصحافة والتلفزيون والمنطق..الخ، وبدون هذه الحقول تفقد الحضارة والانسان الغذاء الروحي وتعود به للوراء قرونا وقرون، وهذا

مستحيل، ذلك ان هذه الفنون والابداعات جاءت استجابة لحاجة البشرية وانعكاسا لتطورها، وما يصلح منها يمكث في الارض واما الزبد فيذهب جفاء.

هذه بايجاز أهم المعضلات وليس كلها فكيف يجيب الدين عليها؟ او بصورة أدق أين هو البرنامج الديني الذي يشمل اجابات محددة على هذه المعضلات؟ فلئن تمت صياغة برنامج فسوف يتم التعاطي على أساس قانون الاتفاق والخلاف، ومثل هذه الدعوة يتقبلها الغنوشي في تونس والخميني، وبقدر ما البابا مثلما يتقدم بعض رجال الدين اليهودي بتصوراتهم حيال بعض القضايا، أما القول بأن الدين هو الحل كما يدعو سيد قطب او بابوات سابقون فهذا لا يقدم أرضية للنقاش ويبقى كل شيء ضبابيا بلا معالم في زمن يتقدم العقل البشري بعشرات النظريات حول كل قضية من القضايا العديدة التي لا تحصى من قضايا الانسان المعاصر. اي ان التهرب لا يفيد في شيء وبصدق ان المرء يتمنى ان يدلو الدين بدلوه فيعرض اجاباته فذلك من شأنه ان يشكل اضافة للتفكير الانساني، والجدل مع اية جوانب من هذه الاضافة يغني التفكير ايضا سيما في العالم النامي حيث التخلف في غنى عن الشرح، والحاجة ماسة لكل اسهام جديد.

وهذا يقودنا الى التشريعات والاخلاقيات في الرسالات الدينية، وهذا القسم في المداخلة شائك وكثيف التفرعات ويصعب تغطيته في حديث ارتجالي شفوي، اذ انه يستحق دراسة نقدية شاملة، تتعقب التمفصلات والتفارقات بين الديانات مثلما تشمل التمفصلات والتفارقات بين المفاهيم والرؤى الدينية من جهة والفكر المعاصر رأسمالي او يساري من جهة اخرى. ولكن حسبنا هنا ان نتطرق ولعدة نقاط ومفيد ان نستبقها بالقول ان كل من يقرأ التاريخ في مراحله السابقة يقف بسهولة على الدور الثوري الذي اضطلعت به الفلسفات القديمة والديانات **(الكونفوشية + البوذية + الفلسفة الاغريقية + اليهودية + المسيحية + الاسلام)** بل وكذلك الثقافات الأشد قدما التي يمكن الوقوف على شذرات منها كالثقافة السومرية والفرعونية وشعوب امريكا الجنوبية .. وهذا يتطرق له بهذا القدر او ذاك المؤرخ "أرنولد توينبي" في كتابه تاريخ البشرية.

ولكن كما هو معلوم ان حركة الحياة لا تتوقف، والعصر الراهن له همومه، ومشكلاته، مثلما ان الغد حافل بالمتغيرات والمستجدات النوعية تحتاج لرصد وتحليل ومعالجة. واي منظور سواء كان وضعيا او دينيا يواجه تحدي الاجابة على هذه الاشكاليات والتساؤلات.

طبعا كلكم يعلم ان تفسيرات الدين متفاوتة، اذ ثمة اجتهادات وتأويلات، ولو ذهبا ابعد لقلنا ما قاله علي ابن ابي طالب (ان الدين حمال اوجه)، واحيانا هذه التفسيرات تكون متناقضة بين جيل واخر اي بين السلف والخلف.

١- لو تقدم الدين - اي دين- ببرنامج يقوم على حرية المعتقد وحقوق الانسان وحق الاختيار والتعددية وحق الجميع في الانتظام والعمل والتعبير وحل المنازعات سلميا بواسطة المحاكم والقوانين التي صاغها برلمان منتخب ديمقراطيا وفصل للسلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية والمساواة بين المواطنين بدون تمييز او اضطهاد ديني او جنسي واعطاء فرص متكافئة للجميع على أساس التأهيل واستقلالية المؤسسات ضمن مجتمع مدني..الخ، حنيذاك يكون التقاطع والتلاقي محتوما.

اما ان جرى تكميم الافواه واغتيلت الحريات السياسية وجرى التمييز بين الناس في الحقوق العامة على أساس سياسي او ديني او جنسي وفرض فريق ارادته على المجتمع بالقهر والبطش واملى معتقداته على الناس بالاكراه..الخ فهذا لايمكن الا التفارق معه.

تصوروا لو ان اتجاها سياسيا - ايديولوجيا فلسطينيا يحاول منفردا منح نفسه حق الوجود ومصادرة حقوق الاخرين، وفرض مزاج معين او ذوق معين في اللباس او الطعام او العبادة او الفن..الا يؤدي ذلك لاقتتال فلسطيني- فلسطيني واغتيالات وسجون وتعذيب وقتل للابداع والروح ويفتت شعبنا الصغير اصلا.

المنهج الديمقراطي السليم يقوم على اقناع الناس واحترام الرأي والرأي الاخر والذي يثبت صوابية يعيش وينمو والفاشل يبتعد عنه الناس، بل والذي ينجح اليوم قد يفشل في الغد.. اي ينبغي فعلا تبادل السلطة سلميا سواء كانت في مجلس طلبة او نادي او نقابة او حكومة حينما يكون لدينا دولة مستقلة.

دعونا نستفيد من التجربة الديمقراطية في العالم، حتى لدى العدو، لقد سقط حزب العمل في انتخابات ٧٧ فحل محله الليكود ومنذ عام فاز ثانية فعاد للسلطة بدون مذابح وانقلابات، والمؤسسة العسكرية او الاكاديمية او الوحدات الانتاجية.. الخ يقودها الاكفأ والاكثر تأهيلا بدون فئوية سياسية ضيقة او نبذ للمراة بدعوى انها نصف عقل او...

٢- لقد تقدم الدين - اي دين - ببرنامج سياسي فلسطيني يؤكد على الهدف الوطني الاستقلالي بالعودة والدولة وتقرير المصير التي تكفلها قرارات الشرعية الدولية ويتبنى تاكتيكات تقود فعليا الى تجميع أوسع القوى والفئات الشعبية كما يحتل أوسع قاعدة عربية ودولية ويحدد فعلا معسكر الاصدقاء ومعسكر الاعداء تحديدا صائبا ويؤسس لتحالفات ديمقراطية يراعى فيها التمثيل النسبي والتاريخ النضالي بما يشكل عنوانا وأملا للجماهير واحترام رغبات وخيارات وميول الجماهير...الخ.

فحينذاك سيكون التقاطع والتلاقي محتوما.

٣- فيما لو تقدم الدين - اي دين - برؤية تنموية اقتصادية فلسطينية تكفل تركيز الموارد والاستثمارات في القطاع الانتاجي الصناعي والزراعي بالاعتماد على الذات اولا وقبل اي شيء اخر، وتأخذ في الاعتبار حقوق الشغيلة والعاملين في العملية الاقتصادية والخدماتية برمتها باتجاه تقليص الاستغلال وصولا الى الغائه بالكامل في مرحلة لاحقة، وازالة الظلم الطبقي واحتكار الثورة ووسائل الانتاج فضلا عن تامين علاج وتعليم للجميع وفك الارتباط والتبعية الاقتصادية للمركز الامبريالي والاقتصاد الاسرائيلي وتركيز العلاقات مع المحيط العربي والنامي والاشتراكي القائمة على التبادل المتكافيء والمنفعي المتبادلة التي تعود على شعبنا وليس على الفئات الطفيلية والكومبرادورية والانشداد اكثر ما يكون لتحرير الارض...الخ.

حينذاك من المحتم ان يتم التلاقي والتمفصل.

٤- فيما لو تقدم الدين - اي دين - بموقف تحريري وتثويري للمرأة يخرجها من اسار البيت والهامشية والاضطهاد ويؤمن لها فرص التعليم والعمل والحركة والمشاركة الكاملة بالحياة السياسية والثقافية والاقتصادية، ومساواتها مع الرجل في الاجر المتساوي للعمل المتساوي وحق القيادة بناء على تأهيلها في كل الميادين وبدون تمييز جنسي وذات الشيء في الشؤون الاجتماعية، اي عدم تكبيلها والحد من تطورها.

والمرأة لا تشكو فقط مما جرى التطرق له بل أكثر وما يؤلمها هو ضربها وحرمانها من ابنائها في حالة الطلاق وتعدد الزوجات وتكبيل فكرها بحيث تجبر على اللحاق بزوجها حسب تفكيره ونزواته كما لو كانت جارية له. بل ويذهب بعض الكتاب الدينيين الى حد السماح لاعداد قليلة من المرأة بالعمل فقط في قطاع التعليم والتمريض وحق الغناء فقط أمام النسوة و... وليس لها حق الولاية، اي القيادة، وهذا من شأنه ان يعطل طاقة نصف المجتمع.

اي فميا لو جاء الرأي الديني متفقا مع الرأي العصري لما كان صعبا الاتفاق والسير معا.

٥- فيما لو شجع الدين - اي دين - العقل على الابداع في شتى ميادين الابداع التي تنغمس فيها البشرية اليوم كحاجة موضوعية لها سوف يزول التناقض بين المثقفين والمبدعين وبين الدين- اما ان يقال من قبل بعض المجتهدين بان الرسم والنحت والسينما والغناء والفرق الفنية المختلطة والنظريات العلمية التي لا تتفق مع التفسير الديني...الخ بأنها كلها محرمة، بل وتكفير معظم الناس ومعظم تفكيرهم فهذا غريب حقا... اذ لا احد يحتكر الحقيقة، بل الحقيقة هي التي تثبت في التطبيق والعقل من حقه ان يفكر وهو يفكر شئنا او ابينا وهو قادر كمسيرة انسانية على الوصول للقمح وطرح الزوان، وفي نهاية المطاف ينبغي العمل بقاعدة "لا اكراه في الدين" وليس الاستتابة ثلاثا او قطع الرأس، لأن لا احد يعرف ما تخفيه القلوب، اذ لا يكفي الاخذ بما تلهج به الالسن حسب المنظور الديني ذاته.

والآن كيف ننظر للحركات السياسية الاسلامية؟

مرة أخرى حول الدين

كان علي أن اضيف بضعة صفحات ، اتمم بها حديثي الشفاهي الذي عرضته منذ وقت حول نفس العنوان .

في مؤلف "*تاريخ البشرية* " للمؤرخ الشهير *أرنولد توينبي* وردت عبارة اذكرها علي النحو التالي " *ان الدين أو التدين فطره بشريه* " وهذا صحيح بمعنى معين ، اي سعي الانسان لتفسير ما يدور حوله واحالة ما يعجز عن تفسيره الى قوة ما ، مثلما حاجته لهذه القوه لمساعدته في الشدائد والمرض .... الخ بصرف النظر عن الجدل الذي يدور حول المسألة المركزية في الفلسفة .

وفي البدايات عبد الانسان اشياء حسيه كالشمس والرعد والافعى وحيوان معين .... الخ من ألوان الفيتشية والطوطمية ، غير أن تطور خبراته في غمرة صراعه مع الطبيعه لتأمين سبل عيشه أدت لتطور وعيه وبات قادرا على التجريد ، فآمن بقوة غير مرئية تدرجت من تعددية الآلهه كما حال الفراعنة القدماء والاغريق وهذا واضح في الالياذة ، حيث إله الحرب وإله الموت والهة الحكمة .... الخ وصولا الى التوحيدية والايمان باله واحد في الالآف الثلاثة الاخيرة كما في الصين والهند والاغريق والقبائل العبرية والعربية .... وبغية استرضاء الآلهة كان ينبغي تقديم القرابين والشعائر والاضاحي . وبداهة ان الدين، شأن اي شيء

آخر، له زمان ومكان ، فهو قد نشأ في ظروف معينة ومراحل معينة وسار مع حركة الحياة والمجتمعات ، ففي المجتمع البدائي حيث كان الانسان خشنا و معارفه بسيطة انعكاسا لادوات انتاجه البسيطة التي كان يستخدمها في الصيد وجمع الثمار ، انتشرت الفيتشية والطوطمية ، اي عبادة اشياء مادية محددة ، ولكن مع اتساع وتشعب الحياة البدوية وظهور البدايات الزراعية، وما صاحبها من نمو في المعارف والخبرة ، انتقل الانسان لعبادة الاوثان التي كان ينحتها كتجسيد مادي لرمز يؤمن به، ومع تواصل الحياة الاجتماعية وتطور قوى الانتاج من آلة وانسان ومعالجة المعادن ، وما استوجبه ذلك من انهاء حياة الترحال وتكوين سلطة سياسية لتنظيم شؤون الناس ، تضاعفت المقدرة الذهنية لدى الانسان سيما وان دماغه ككتلة مادية قد ارتقى بفعل تناوله اللحوم وطهيها ، فغدا قادرا على التجريد بصورة واضحة وبالتالي آمن بالتعددية التي كانت مقدمة للايمان بالالوهية الوحدانية ، وهذا السيناريو مر فيه الانسان بصرف النظر عن علمية أو عدم علمية هذا السيناريو ، فما يقرر حقائق الحياة هو حقائق الحياة ذاتها وليس رغبة ووعي الانسان ، ذلك ان الكرة الارضية قديمة وتتراوح بين ٣-٤ مليارات سنة ، فيما عمر الشمس حوالي ٥ مليارات ، وشمسنا هذه حقيرة قياسا بشموس أخرى عملاقة في مجرتنا ومجرات اخرى .... أي ان العالم موجود وسبق الانسان ومعتقداته بزمن طويل ولا يتأثر بالتالي بصوابية أو خطأ هذه المعتقدات ، وهذا ينطبق ايضا على العالم الروحي ، اي ليس التصور الذي يؤمن به الانسان هو الذي يحدد حقائق الكون ، بل أن وعيه يكون صائبا بقدر تمثله واستيعابه لحقائق الكون ، ولهذا وجدنا تبدلات في التصورات والمعتقدات ، لا ترقى بداهة الى صنع حقائق الكون بل تحاول اكتشافها وحسب .

وهذه العمليه استمرت بعد التوحيدية ، وسوف تستمر الى الأبد ايضا ، اذ لن يكف عقل البشرية عن التفكير والاجتهاد وفحص مسلماته. ان الواقع الاجتماعي المتحرك ، أي الوضع الاقتصادي والسياسي والثقافي و و .. و .. يخلق حركة في الفكر والوعي الاجتماعي عن هذا الواقع وبالتالي فعلا فيه ، مثلما ان اتساع الكون وصيرورته وقوانينه هي من التشعب والمدى بحيث لا يلم الانسان منها سوى بالنذر اليسير .

والدين الذي بدأت أجنته كمعتقد تأملي وتصوري وظني تحول لايديولوجية بعد زوال الجماعات الاولى ونشوء الملكية الخاصة وبالتالي الطبقات ، اذ أخذ يتبلور كمنظومة آراء استخدمته طبقة الآسياد بطريقة معينة ، فمن تعددية الممالك والقبائل الاثينية وبالتالي تعددية الآلهه (منيرفا – فينوس – مارس .... الخ) اقتضى التوحيد السياسي لهذه الممالك والقبائل توحيدا الهيا من خلال جوبيتر آله الآلهه ، وهذا حال الكعبة بحجرها الاسود في الجزيرة حيث كانت فيها أصنام القبائل تحج بالطواف حولها منذ مئات السنين قبل الدعوة الاسلامية ، وفي الصين دعت الكونفوشيه للايمان بالله والخضوع له ولورثته من الحكام من العرق الآلهي .

والفلسفة الاغريقية يليها زمنيا اليهودية فالبوذية والكونفوشية والفرعونية ، ما قبل ٢٢٠٠ – ٣٠٠٠ سنه كلها تقاطعت في مسائل التوحيد وقضايا اخلاقية عديدة ، وهذا وجد اصدائه القوية في المسيحية منذ ألفي عام مع نزعة اخلاقية أعمق وأكثر تسامحا ، وبعدئذ في الاسلام بتفرعاته منذ ألف واربعمائة عام. وسفر التكوين في التوراة هو أساس كل الديانات في الجانب العقيدي ، هذا الجانب الذي تبلور بصورة جلية في عهد *يهوشع ابن نون* خليفة موسى وقائده العسكري الذي اجتاحت قواته فلسطين بعد خروج القبائل العبرية من مصر .

ومع مرور الزمن وتوالي الملوك اليهود كما تشرحها اسفار التوراة بما في ذلك السبي الاول على يد *نبوخذ نصر* القادم من بلاد النهرين ، والسبي الثاني على يد الرومان وسيطرة رجال الدين على الحكم والثروات وفرض الزكاة على اليهود والجزية على غير اليهود والغزوات المتواصلة ، واستشراء الربا .... وفي النهاية تعرضت فلسطين لغزو الرومان بما صاحب الغزو من عنف وبطش وكان لا بد من ظهور فلسفة اصلاحية تدعو للمحبة والسلام والخير والابتعاد عن العنف والجشع ، اي ما هو نقيض القائم .

وقد ولد *عيسى ابن مريم* من عائلة يهودية كامتداد نوعي للمعارضه السلميه التي كان يتزعمها *يوحنا المعمدان* ابن زكريا المعمدان ، وبشر عيسى بالجنة كل الأخيار وبالنار كل الأشرار ، وقال بالالوهية وانحاز للفقراء حتى اشتهرت كلمته (***أسهل على جمل ان يدخل ثقب ابره على ان يدخل غني***

ملكوت السموات) غير ان الرومان بمساعدة رجال الكهنوت اليهود المتعاونين معهم وأحد مريديه *يهوذا الاسخريوطي* نجحوا في اعتقاله وقتله بعد أن حمل الصليب في درب الآلام بأزقة القدس .... والآناجيل تشرح أهم تعاليم المسيح ومصيره المأساوي وان كانت توري اختفاء جثته وظهوره حيا لوداع اتباعه .

والمسيحيه لم تدعو لثورة مما سهل قبول الدولة الرومانية لها ، ومقولة المسيح معروفة هنا (*دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله*) الامر الذي ابقى فلسطين تحت الحكم الروماني الى ان جاء الفتح العربي الاسلامي .

وهذا يقودني للاشارة السريعة للمقدمات التي سبقت ظهور الدعوة الاسلامية . كان مجتمع الجزيرة قبليا تجاريا تطحنه الحروب الداخلية وتحيط به الدولة البيزنطية التي كانت تشمل تركيا وبلاد الشام والدولة الفارسية ، وأهم المراكز كانت المدينة ومكة والطائف التي كانت تغص بالعبيد الذين تم استرقاقهم من أسرى الحرب وأسواق النخاسة من السود والافارق، كما نشأت الحرف الصغيرة بما ارتبط بها من أجراء وزراعة محدودة في الواحات، وتجارة نشطة، سيما رحلة الصيف، الى بلاد الشام التي كانت عقدة مواصلات يتلاقي فيها التجار من كل الحضارات التي كانت زراعية ومتأثرة بالدين المسيحي من الحبشة، الامر الذي جعل المعتقدات الجزيرية مزيجا من كل ذلك ، فضلا عن تأثيرات الاصناف التوحيديين من اتباع ابراهيم والقبائل اليهودية المنتشره هنا وهناك .

وكانت قبيلة قريش هي الأقوي سيما في مكة، النشيطة تجاريا، والتي كان سادتها سادة الجزيرة ومقر الكعبة فيها بما تحويه من اصنام لكافة القبائل ، كما دار الندوة التي كانت بمثابة ادارة سياسية واقتصادية يتنفذ فيها زعماء العوائل والقبائل من الاسياد .

وارهاصات القومية العربية كانت تتمخض بتدرج وجاءت معركة *ذي قار* قبل مجيء الاسلام بعشرات السنوات حيث توحدت القبائل والعشائر ضد الفرس لتؤسس لذلك ، غير أن تبلور القومية العربية بتوحيد القبائل والمجموعات والمدن في دولة واحدة لها جيشها القوي كان في العهد الاسلامي سيما في زمن الحاكم

العادل عمر بن الخطاب ، حيث امتدت الفتوحات شمالا وغربا فجرى أسلمة وتعريب مصر وبلاد الشام والعراق .... أما اللغة العربية فكانت متطورة بما حملته من معاني ورموز ودلالات عكست حضارة العرب ، وما يسمى بالشعر الجاهلي المنحوت وفق قواعد صارمة ودقة تعبيرية انما هو معيار لهذا التراكم الحضاري المجهول في معظمه وهناك اكتشافات جيولوجية حديثة تشير الى جفاف مجرى نهر ضخم شرقي الجزيرة منذ آلاف السنين بما ينبئ باندثار حضارة متقدمة في تلكم المنطقة .

والدعوة الاسلامية احتوت كل ما هو ايجابي فيما سبقها وانطلقت للامام ، وهي بطبيعة الحال قد واجهت مصاعب في البدايات، حيث أجبر صاحب الدعوة على العمل السري مدة ١٢ سنه لم يتبعه خلالها سوى ١٢٠ شخصا وبالتالي الهجرة للمدينة حيث احتضنته الآوس والخزرج المتنافستين لزعامة مكة ، وببناء أول مسجد في المدينة هو المسجد النبوي ارتفعت قيمتها، وعلى امتداد ٢٣ سنه تكاملت آيات القرآن حيث هيمن المنظور الايماني على آيات مكة والتشريعات الاقتصادية والسياسية على آيات المدينة تمهيدا لتحول الدين الى دولة ، وجاءت الآيات والأحاديث استجابة لأحداث ومشكلات محلية بما يؤكد على تاريخيتها ، وتدوين القرآن تم في عهد عثمان ، فيما الأحاديث جرى جمعها بعدئذ بفتره مما أثار عدم يقينية بعضها .

ولا حاجة للتطرق للمسيرة السياسية للثورة الجديدة ، ولكن حسبنا القول ان الدين ، وكل الديانات ، قد أدت دورا تقدميا في زمانها كما حال القوى الاجتماعية التي مثلتها قياسا بما سبقها ، بل وتجري محاولات دائبة من أهل الاجتهاد لاعادة انتاج هذه العملية في الظروف المشابهة، غير ان الاشكالية ظهرت أكثر ما ظهرت في عصر الثورة الصناعية باطوارها الثلاثة واخرها الطور الالكتروني ، وبصورة أدق في مرحلة التحول الرأسمالي منذ ثلاثة قرون، حيث أخفقت كل الديانات وقواها الاجتماعية في انتاج هذه المرحلة بثورتها الصناعية وما ارتبط بها من انتاج علمي عاصف وثقافة وفن ، بل وديمقراطية ليبرالية وحريات انسان وقوى اجتماعية جديدة اهمها رأس المال والبروليتاريا حيث اصطدمت هذه التحولات بالسلطان الديني وتصوراته ، وطوحت به في العالم المتطور وهي ترسي اقدامها بتدرج في العالم النامي المتخلف ذلك ان هذا

العالم يتحول رأسماليا ايضا ولكن ضمن خصائص البطء والتبعية ، .... ناهيكم انه انبثق في ومن ارحام الرأسمالية نظريات جديدة هي النظريات الاشتراكية التي استحالت نظاما ظافرا في عدد من البلدان رغم الزلزال الذي أصاب عدد منها مجبرا اياها على التجدد، فمن لا يتجدد يشيخ ويموت لا محالة .

وغدت المنظومات الفكرية والمنهجية الرأسمالية من الاشتراكيه ديانات العصر ، اي الرسالات التي تحاول استكمال دور الرسالات الدينية القديمة مستلهمة مضامينها العقلانية ذلك أن الدين من ناحية استراتيجية هو محاوله لتغيير ظروف الانسان نحو الأفضل وهذا ما أداه في زمن ماضي وهذا ما يؤديه الدين الجديد في الزمن الراهن ، بل ومنجزات الرأسمالية والاشتراكية في غنى عن الشرح سواء على الصعيد المادي أو الروحي بصرف النظر عن النواقص المتفاوتة ، بل وجاءت الاشتراكية لتستلهم الايجاب في كل ما سبقها وردم السلب والوثوب النوعي للأمام كثورة شمولية على كل الصعد ، والعملية مستمرة والتاريخ لا يتوقف قط وهو يفتح بواباته كتحصيل حاصل ، أمام الجميع من نظريات وديانات قديمة وجديدة للاسهام بقسطها واثبات ما لديها من قدرة لحل مشكلات العصر في المراحل الجديدة التي تمر بها البشرية اليوم سيما مشكلات الثورة التقنية في العالم الصناعي بشقيه الرأسمالي والاشتراكي ومشكلات العالم ما قبل الرأسمالية الذي يتحول موضوعيا وبدأب نحو الرأسمالية .

وكوننا ننتمي في الوطن العربي للعالم النامي ، يحدوني اعتقاد بأن البرنامج الوطني الديمقراطي الوحدوي هو فرصتنا الوحيدة للنهوض بالأمة العربية وتوحيدها وتحرير ثرواتها وتحقيق استقلالها ومساواتها باللأمم ، وهذا شرحته في مداخلتين سابقتين هما (الثورة العربية والمسألة القومية) بل وكل القوى والتيارات التي تساهم بهذه العملية التاريخية هي قوى وطنية وقومية بصرف النظر عن معتقداتها الفلسفية ، فالاستقلال الفلسطيني والقومي والوحدة والتنمية والحريات والتقدم ، هي مرحلة تاريخية ، أكثر منها فكرا سياسيا خاصا بهذا الاتجاه أو ذاك ، بل وان مشاركة أو عدم مشاركة هذه الاتجاهات في هذه المرحلة التي يعتبر العمل السياسي حلقة من حلقاتها ، هو الذي يقرر فيما اذا كان دورها تقدميا أو رجعيا وعليه ، فالبرنامج هو المنقذ النظري والممارسة المنظمة التي تلف حولها كتل بشريه هائلة هي المنقذ العملي .

الحركة السياسية الاسلامية

صباح الخير.....

في نقاش سابق تطرقنا لموضوع الدين بشكل عام.. واليوم نتعرض للحركة السياسية الاسلامية، وهذا بداهة ليس صدفة، اذ اننا نعيش في اقليم الشرق الاوسط الذي يشمل غالبية اسلامية، فمثلا في مصر ان نسبة الاقباط لا تتعدى ١٢٪، اي حوالي ٦ مليون نسمة، بينما نسبة المسيحيين في فلسطين حوالي ١٠٪ ونسبة قريبة من ذلك في سوريا، وأقل بكثير في ايران والباكستان..الخ.. وانتم تعلمون ان الشخصية العروبية أو القومية قد تمازجت مع الشخصية الاسلامية في التاريخ العربي منذ الفتح الاسلامي منذ ما يزيد على ١٣٠٠ سنة. بل وتم تعريب وأسلمة شعوب هي في الأساس ليست عربية كما الحال في مصر الفرعونية أو البرابرة في المغرب.. وبينما حافظت الشعوب الايرانية والتركية والـ.. الخ على هويتها القومية، غير ان الفتح الاسلامي نجح في أسلمتها، بينما سبعة قرون من الحكم العربي الاسلامي للاندلس، اي اسبانيا والبرتغال وجنوبي فرنسا لم تفلح في أسلمة أو تعريب هذه الشعوب.. وذات الشيء يقال عن الفتح العثماني لبلغاريا في التاريخ الحديث... وكلنا يعلم ان الدعوة الاسلامية في بداية عهدها قد وحدت القبائل الرعوية والمعاقل التجارية الجزيرية في دولة مركزية امتدت وتوسعت في أرجاء بعيدة حتى انها وصلت الى أقاليم هندية وصينية ومغولية، وايضا فيما يسمى الجمهوريات الجنوبية في الاتحاد السوفييتي السابق، اي أذربيجان وكازخستان..الخ. وليس غرضنا هنا تعقب التاريخ السياسي الاسلامي، وانما الاشارة لقوة الحركة السياسية للاسلام عهدئذ وحسب.

أما في الوقت الحاضر فالمقصود بالحركة السياسية الاسلامية "*هي مجموع المنظمات والمؤسسات العاملة على أرضية اسلامية وتستهدف نصرة الاسلام بالانطلاق من الدستور القرآني والسنة المحمدية بصرف النظر عن الاجتهادات والخلافات فيما بينها*". وربما بعضكم يستغرب اذا علم ان القرآن المكون من حوالي (٦٣٠٠) آية، انه هناك فقط أقل من ٤٠٠ آية تتعلق بعلاقات البشر بعضهم ببعض، وما دون ذلك يتعلق بالايمان بالربوبية وموجباته لدى المؤمن..

وما ينبغي تمييزه هنا نقطتين – **الاولى:** ان الايمان بالربوبية ليس حكرا أو وقفا

على الاسلام، والحركة الاسلامية بل هو أشمل وأوسع كما جرى التوضيح في حديث سابق حول الدين.. **والثانية:** ان ثمة فارق بين الحركة السياسية الاسلامية والمجتمع المسلم.. فاقليم الشرق الأوسط بغالبيته الساحقة مسلمين، غير ان أقلية فقط منخرطة أو ملتفة حول الحركة السياسية الاسلامية... وبالتالي ليس صحيحا ادعاء أحد انه الممثل الوحيد للاسلام، حتى انني أذكر حديثا محمديا يقول بما معناه انه سيأتي زمن تكون فيه امتي ٧٢ طائفة، احداها فقط غير باغية وتمثل جوهر الدين... وان التزمت من قبل اي فصيل اسلامي باحتكار الصفة الاسلامية يقود الى مهالك مدمرة كما الحال في أفغانستان اليوم.

والحركة الاسلامية تفهم الدين على أنه دين شمولي، جامع مانع، لديه اجابات على كل الاسئلة وتفسيرات لكل الظواهر.. فهو صالح لكل زمان ومكان كما تعتقد، وحق مشروع ان يعتقد المرء ما يشاء، ولكن بالنسبة لنا كيسار -كما يخيل لي- نفهم الدين على نحو مغاير، فهو بلا شك قد كان قفزة هائلة على صعيد فكري، عالج الكثير من قضايا الانسان والمجتمع في زمن سابق، اي تلكم القضايا والهموم التي عرفها مجتمع الجزيرة الذي انتقل من القرية الرعوية المشاعية المدعومة بنشاط تجاري الى مجتمع تجاري- ضريبي يتخلله نشاط رعوي وفلاحي وحرفي محاط بسياج من الفتح العسكري والتجييش، وحينما دخل الاسلام مجتمعات مشابهة وقريبة من مستوى التطور كنتاج للفتوحات العسكرية عاش واستقر عبر الأجيال.. أما حينما غزا بلدان ذات خصائص مغايرة كما حال المجتمع الاوروبي فقد اندحر ولو بعد حين أو بقي منحسرا ومقوقعا في نطاق ضيق كما حال الهند والصين، ولم تنفع هنا لا القوة ولا الدعوات الأخلاقية من أن الدين هو ارادة سماوية.

وما يهمنا ليس الاشارة الى الحركات الانفصالية التي بدأها مسيلمة في اليمن، كما القبائل في شرقي الجزيرة فور وفاة نبي الاسلام، والصراعات التي اندلعت في طول البلاد وعرضها بين الحكم في مكة والفروع في دمشق وبغداد، وبعدئذ في كل الاقاليم حتى في صدر الاسلام والقرنين الاولين اللذين شهدا صعودا مذهلا للدعوة الاسلامية.. ولكن الأهم من ذلك هو المتغيرات النوعية الجذرية التي طرأت على المجتمع البشري في القرون الأربعة الاخيرة التي أنتجت الثورة الصناعية بما تعنيه من علوم وثقافة وتحولات طبقية وعلاقات انتاج وقيم أخلاقية وأنظمة سياسية..الخ، فالشعوب في اوروبا التي كانت ذات يوم تسير وراءنا وتتعلم منا ما قبل الف عام تقريبا، نهضت واصطدمت بالمجتمع الاقطاعي

الزراعي والفكر الديني الكنسي اللاهوتي.. ولم يكن اختيارها وموجهها المنظور الديني الاسلامي وتشريعاته ونماذجه التطبيقية ولا أية ديانات أو فلسفات روحانية شرقية اخرى.. اذ لم تجد في كل النظريات/ الديانات السابقة ضالتها ولا مبتغاها، وانما وجدت في العقل الانساني سلاحها، هذا العقل الذي تناقض في أهم المحاور مع الدين بل وأفلح في تثمير مجتمع صناعي رأسمالي وحد السوق الداخلية وأقام دولا مركزية ونظاما سياسيا ديمقراطيا مبنيا على البرلمانية الانتخابية والحريات والمساواة... بل وهذا التفوق الصارخ على المراحل السابقة للمرحلة الرأسمالية الصناعية مكن اوروبا من اجتياح العالم واستعماره، وهذا بداهة شمل المنطقة العربية والاسلامية عموما.

ان مبدأ العلمنة، *اي فصل الدين عن الدولة*، باحتكام البشر الى ما تصل اليه الموهبة الانسانية والعبقرية الانسانية من أفكار ونظريات بالافادة من الموروث الفكري السابق، قد كان الرافعة التطويرية التي مكنت اوروبا وبعدها أمريكا واليابان وفي القرن العشرين كل العالم المتقدم من احراز ما أحرزته من انجازات وعوامل قوة بما في ذلك التكنولوجيا العسكرية والسيطرة الاعلامية الفنية.. بينما اصيب مجتمعنا العربي والاسلامي منذ ألف عام أو يزيد بجمود وقصور رهيب في الديناميكية.. وبينما كنا في المرتبة الاولى على صعيد الفلسفة والاجتهاد وشتى العلوم، ونفوذنا امتد الى أصقاع واسعة من العالم، ساد التحجر وكففنا عن التطور، وأصبحت مصالح السلطة الطبقية من أهل الترف والاقطاعات وكبار التجار هي سقف الامة وثقافتها. وهذا التاريخ بما فيه من ايجاب وسلب هو تاريخنا وليس تاريخ الاخرين فقط.

والمجتمع العربي والاسلامي عموما بما في ذلك الفلسطيني، رغم خصوصيته المكثفة، يواجه مرحلة التحولات البرجوازية في الاقتصاد والسياسة والفكر والفن والاخلاق، ويغادر بتدرج المرحلة ما قبل الرأسمالية وايديولوجياتها، بل وبينما نحن نحبو في الاطوار الاولى للتحول انتقل العالم الصناعي الى الثورة التقنية حيثما قفزت سيطرة العقل الانساني على الطبيعة وأسرارها، فانتج تصميمات واختراعات جديدة دفعت الرأسمالية خطوات كبيرة للأمام على صعيد اقتصادي وعسكري، كما على كافة الصعد ، فأمريكا اليوم تكاد تهيمن على العالم.. فالسلعة أمريكية، والمصنع أمريكي، والتعليم الجامعي أمريكي، والسلاح أمريكي، والخبز أمريكي، والفن أمريكي.. الخ.

فالثورة التقنية التي أنتجت الكمبيوتر والروبوت والثورة الكيمائية، وأتاحت على نطاق أوسع استخدام الاشعة والطاقة النووية، كدليل على طاقة الانسان كخالق للحضارة ومنجزاتها، وما واكب ذلك من تعميق للديمقراطية وحقوق الانسان وحق الاختيار ومساهمة رئيسية للمرأة في كافة ميادين الحياة.. الخ أدخلت البشرية في منعطف جديد لا يؤدي عدم مواكبته الا لمزيد من التخلف.. فمرة انهالت على رؤوسنا عصا الثورة الصناعية، فنهبنا الاستعمار وفتتنا، والمرة الثانية ستنهال، بل انهالت على رؤوسنا فعلا ، هراوة الثورة التقنية.. فماذا سيكون حالنا بعد عقدين أو ثلاثة؟!

ودعوني ادلل في بعض الشواهد على ما اقصده بالثورة الصناعية ومرحلتها الحالية الثورة التقنية: فمثلا ان دخول عصر الصناعة أفضى، فيما أفضى، الى تمركز الثروة الاقتصادية والنفوذ السياسي ليس على صعيد قومي بل على صعيد كوني ايضا في ايدي أقلية ضئيلة من الاحتكاريين الذين يستغلون الشغيلة في بلدانهم وينهبون مقدرات الشعوب، وعصر التكنولوجيا أنتج الروبوت الذي ينتج بطاقة عدة أشخاص بدون أجرة فيعود على الرأسمالية بأرباح هائلة سيما وان هناك مصانع بأكملها لا يوجد فيها سوى روبوتات، وهذا ينطبق على الكمبيوتر الذي يقوم بملايين العلميات في ثانية واحدة بديلا لالآف الناس، أو منتوج الارض الذي تضاعف عشرات المرات، فهل تعلمون ان ١٪ فقط من قوة العمل الامريكية تعمل في الزراعة لا تؤمن لها اكتفاء ذاتيا فقط بل وتصدر الى أرجاء العالم... بينما العالم النامي يعمل أكثر من ٧٠٪ من قواه العاملة في الزراعة ويستورد رغيف الخبز والذرة من الخارج.. ونتائج الثورة التقنية لاحظناها في تدمير أمريكا للعراق حيث جرت الحرب بالأزرار، وهذا كله يزيد الرأسمالية قوة وغطرسة، فما العمل- آخذين بالحسبان ان الضرائب والزكاة لا تعالجان هذا المستجد، وعصر التكنولوجيا أملى قفزة في المؤسسة الصناعية التي تنتج عقول وتتحكم فيها عقول، فسيطر العقل وبات الموجه للانسان بمنأى عن المعتقدات الفلسفية والدينية السابقة، فمثلا هل نتوقع من مجتمع عصري كفرنسا أو الاوساط العصرية في بلادنا العربية على سبيل المثال ان يتقبلوا اللباس الشرعي الاسلامي للمرأة ونبذ اللباس العصري الدارج، أو ان يمتنعوا عن شرب الجعة (البيرة) أو النبيذ ولو مجرد كوب صغير لأن *ما أسكر كثيره فقليله حرام*.
انتم تعلمون انني كشخص لا ادخن ولم يحصل ان عاقرت اي مشروب روحي، ولكنني أتحدث عن الانسانية وميولها ورغباتها، بل انني لا اشجع المشروب كونه مكلف ومضر للصحة في حالة كثرته، كما انه يصطدم بالقالب الاجتماعي لمعظم شعبنا الذي يجب ان لا نصطدم به وجها لوجه كيلا يساء فهمنا ونصاب بعزلة.

وهل نتوقع من الانسان المعاصر سواء كان رجلا أو امرأة ان يتقبل دعوات الفصل على أساس جنسي بينما تختلط المرأة بالرجل في الجامعة والنقابة والنادي ومكان العمل والمسرح.. الخ،.. وهل نتوقع منه ان يتقبل ما يناقض طبيعته وقناعته بأن له الحق في الزواج على أساس الحب والمعرفة والعلاقة المسبقة التي تتم سرا أو علانية سواء رضيت القيم القديمة أم لم ترضى، وهل نتوقع من الانسان المعاصر ان يتقبل تحريم الفرق الغنائية والمسرحية المختلطة أو تحريم الرسم والنحت، أو تحريم أدوات الموسيقى فيما عدا الدف والطبل كما كتب سعيد حوا، وهل نتوقع من الانسان المعاصر الذي تترسخ في وعيه، بتدرج، القيم الديمقراطية ان يتقبل نظرية النظام السياسي الاسلامي القائم على الخليفة الذي يستشير حفنة من رجال الدين حوله بصرف النظر فيما اذا كانت الشورى ملزمة أو غير ملزمة له، بديلا للتعددية السياسية والبرلمانية وتداول السلطة سلميا.. الخ، وهل تتوقعون ان يتقبل الانسان المعاصر نظرية حرمان المسيحي أو المرأة من حق الولاية، اي القيادة، كونه مسيحيا أو امرأة، بل وفرض الجزية على الاول بينما المجتمع المعاصر يقوم على المساواة في الحقوق العامة ومبدأ الكفاءة والمواطنة بدون تمييز ديني أو جنسي، بل ان المجتمع لا يمكن ان ينهض بدون تفعيل طاقة الجميع ، وهل تتوقعون ان يتقبل العقل المعاصر بأن كل شيء يحدث في العالم بدءا بالمرض والموت أو النصر والهزيمة أو التطور والتخلف، حتى المصائب والمطر وخراب المحاصيل الزراعية أو كثرتها في احد المواسم، والغنى والفقر، وسقوط السلطة اليسارية في أفغانستان، أو انتصار أمريكا في حرب الخليج و.. اي لا يتحرك ساكن ولا يسكن متحرك الا بالاحتكام لمنطق قاله اجدادنا منذ الآف السنين ، وكلما اصابتنا بلوى قلنا "*ان المؤمنين اشد بلوى*" و "*لا يصيبكم الا ما كتب الله عليكم*"، وان الانسان مسير لا مخير..الخ، ويمكن الاستمرار في ذكر الامثلة، فالقائمة لا تنتهي، وباختصار ان منطق الحياة يسير أبعد فأبعد عن الدين أو على الاقل عن التفسير التقليدي للدين من الناحية التاريخية والعالمية بصرف النظر عن اللحظة السياسية الحالية في الشرق الاوسط كما ان العالم يتعقد أكثر فأكثر ويلد المستجدات باستمرار التي تحتاج لمعالجات متجددة بعيدا عن النمطية والقوالب الجامدة، وهذا هو امتحان الحركة السياسية الاسلامية الذي يوجب عليها الاجتهاد وتقديم مساهماتها وتفسيراتها العصرية للدين مثلما هو امتحان الاتجاهات الفكرية- السياسية الاخرى.. فالجمود العقائدي بالعودة الى الكتب التي جرى تأليفها قبل قرن أو حتى عقدين بدون استيعاب المتغيرات السريعة الجديدة أدى للقصور في اعادة انتاج النظرية، فكان ذلك احد عوامل انهيار التجربة الاشتراكية البيروقراطية في الاتحاد السوفييتي وسواه.. وهذا نتطرق له كعنوان مستقل فيما بعد.

وبكلمة واحدة، ان الشعوب التي لا تواكب عصر الثورة التقنية بما تعنيه من تجليات اقتصادية وثقافية وقيمية بالحفاظ على هويتها وخصائصها الاصلية لن يكون مصيرها الا متحف التاريخ.

أما ان تبقى الحركات السياسية الاسلامية مشدودة للجانب العقيدي في الدين كمركز لتفكيرها وعباداتها وسلوكها، فهذا من حقها ولكن من واجبها ايضا ان تتقدم ببرنامجها الذي يتضمن علاجات ومواقف لقضايا العصر، مذكرا اياكم بما جرى التعريج عليه سواء على صعيد العقيدة في الدين أو القضايا الرئيسية والأهم في العصر.. وواقعنا الفلسطيني والعربي تدق بابه العديد من القضايا السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية وهي الأشد الحاحية.. واي فصيل سياسي اسلامي، مثلما هو حال اي فصيل سياسي برجوازي قومي أو يساري قومي، هو ملزم بعرض رؤاه وأفكاره من خلال وثائقه الرسمية أو مؤلفاته الملزمة التي تفصح عن تصوراته البرنامجية كأرضية لاستقطاب الجماهير وقاعدة للتحالف مع القوى الاخرى.

فمثلا ان *الغنوشي* زعيم الحركة الاسلامية في تونس تحدث عن عدة نقاط كالاحتكام للانتخابات البرلمانية وحقوق العاملين والتحالف مع القوى الوطنية والتقدمية، ومرشد الاخوان المسلمين في سوريا اعتبر الديمقراطية الليبرالية انجازا حضاريا، وحركة حماس في فلسطين حددت جملة مواقف سياسية حيال القضية الفلسطينية من موقع المعاداة للامبريالية والاحتلال، و*الترابي* في السودان أعلن عن مناهضته للسياسات الامريكية وتوجهه للتنمية الزراعية، وهناك *المودودي* في الباكستان أرسى تقليد الاحتكام للعمل السياسي الديمقراطي السلمي، وهذه كلها مواقف بل انها مواقف ايجابية، وهي بكل تأكيد تتجاوز النظرة التقليدية القديمة سواء تلك التي كانت تحصر النشاط الاسلامي في الدعوة والعبادة أو في أحسن الاحوال الاكتفاء بنصح الحاكم أو تلك التي كان يمثلها سيد *قطب* بالتحفظ من فكرة تقديم برنامج.

وبصراحة ثمة قلق من بعض الممارسات والطروحات، وهذه ملموسة لدى الاتجاهات الاسلامية الحاكمة أو ذات الفعل السياسي القوي، هي في التحليل الاخير تعبر عن مواقف وبنود برنامجية وان كان يجري تغطيتها أو تغطية وتمويه جزء منها، وعلى سبيل المثال ما يلي:-

١- الموقف الاعتراضي الذي تتبناه غالبية الحركة السياسية الاسلامية من الديمقراطية، ففي افغانستان لا يحتكمون لصناديق الاقتراع بل للبندقية والقتال حتى لحل التناقضات فيما بين الفصائل الاسلامية، وفي غضون اسبوع تعرض مئات الافغان للموت والاصابة، بينما الشعب منقسم على نفسه وموزع بين الفصائل المختلفة، بما في ذلك الحزب اليساري الحاكم سابقا والموجود والفاعل في أرجاء البلاد، ولا مخرج لأفغانستان النازفة والفقيرة والبائسة الا بتوحيد كل الطاقات ودمقرطة المجتمع بما يكفل توظيف كل الجهود لانتشال الشعب من التخلف والجوع والمرض والأمية وحياة القرون الوسطى.. وتجربة اليمن كانت درسا، رغم عدم استقرارها بعد، فاليمن تعيش في ذات الاوضاع المتخلفة والقبلية غير ان قادة الحزب الاشتراكي وحزب المؤتمر اتفقوا على الخيار الديمقراطي، وجرت انتخابات وطنية عامة حصل فيها حزب المؤتمر على أقل من نصف المقاعد بقليل، وهذا حال الحزب الاشتراكي الذي حصل على أقل من ربع المقاعد بقليل بينما كتلة الاصلاح الاسلامية أتت في الدرجة الثالثة بفارق بسيط ، وما تبقى توزع بين البعثيين والناصريين.. أما الشخصيات المستقلة الفائزة فقد التحقت بالأحزاب الكبرى، والجميع شارك في الانتخابات رجالا ونساء.. فيما حرية الصحافة مكفولة للجميع، أليس هذا مخرجا رائعا يدلل على صوابية الخيار الديمقراطي الذي تحاول ان تعبث فيه ايدي ظلامية متطرفة تتصدى بالاغتيال للقيادات اليسارية فيما رئيس البلاد لا يستخدم صلاحياته الواسعة للضرب على أيديها؟

وفي الجزائر ألغى المجلس الانتقالي العسكري نتائج الدورة الاولى للانتخابات البرلمانية متذرعا بتصريحات قيادات جبهة الانقاذ الاسلامية من انها تستخدم البدعة الغربية للوصول للسلطة بينما ستلغيها لاحقا، ومتذرعا باغلاق المسارح والتعدي على حريات الناس من قبل المجالس البلدية التي فاز فيها الاسلاميون، مما أدخل الجزائر في دائرة العنف بما يشبه حربا أهلية، بينما ترزح الجزائر تحت عبىء مديونية تناهز ٢٥ مليار دولار وبطالة تفوق ٢٧٪ وأزمة سكن وتضخم مالي و... اي ان "اللي فيها بكفيها" وهي بحاجة لسواعد الجميع لتحديثها وانهاضها على قدميها للسير بعيدا في التصنيع وفك التبعية للغرب وتطوير الزراعة والقضاء على الفساد المستشري... الخ. وهذا لا يكون الا باعتماد الديمقراطية وتعزيزها كمنهج حياة بما يضمن حل المنازعات سلميا عبر المحاكم وعبر صناديق الاقتراع، وتوظيف طاقات الجميع من مختلف القوى نساء ورجالا، عربا وبربرا. أما الاقتتال الداخلي فهو لن يحسم الصراع لأن موازين القوى لا

تسمح بذلك مثلما ان الدم ليس حلا للمشكلات الجزائرية، وقد شاهدنا ذلك في أفغانستان، وأكثر ما يثير الحفيظة هو توجيه بعض اتجاهات جبهة الانقاذ نيران سلاحها ضد المثقفين الجزائريين دعاة الديمقراطية وضد الاجانب سياحا وعاملين، الامر الذي يعود باضرار فقط.

وفي السودان يتبنى *الترابي* منظورا مماثلا، فهو باستثناء الاتجاه الاسلامي الذي يمثله قام بتحظير الاحزاب كلها وأغلق صحافتها ويفرض هيمنة كاملة على مؤسسات الدولة، بل وقام بطرد المسيحيين من جهاز الدولة كما لو كانوا غير سودانيين، فيما لم يستوعب حرية الابداع والاختيار الا في حدود الاطر التي تحددها السلطة السياسية الاسلامية!!

وبداهة ان استمرار هذا التفكير لن يلجم ويقيد المجتمع السوداني فقط، بل سيفاقم التناقضات الداخلية بما يمهد لمصادمات وصراعات دامية في قادم السنين.

والسعودية في غنى عن الشرح، ولا يكفي القول هنا انها دولة رجعية ولا تمثل نموذجا اسلاميا، بل على العكس ان لون معين من القوى الاسلامية هو المتنفذ في كافة مؤسسات النظام ويفرض تشريعات اسلامية، وهذا حال دويلات الخليج... اذ لا شك ان النماذج التطبيقية للاسلام متعددة وليست نموذجا واحدا، ولكنها جميعا تدعي انتماءها للاسلام والحركة الاسلامية بصرف النظر عن تقييمنا لها أو تقييم فصائل اسلامية اخرى لها.

وفي ايران معضلات اخرى أكثر تعقيدا، اذ رغم الثورة الخمينية العظيمة التي أطاحت بالنظام الشاهنشاهي غير انها لم تستجب لصوت السلام الذي اقترحه العراق بعد ثلاثة أعوام من الحرب العبثية التي أطلقها نظام بغداد في البداية، ولم تمد يدها للسلام الا بعد ٨ أعوام، فيما قامت سلطة الآيات بقتل شرس للحريات وتنفيذ حكم الاعدام بأكثر من ٧٠ ألف من اعضاء *فدائيي الشعب* و *مجاهدي خلق* الذين عرفوا بصلابة نضالهم ضد نظام الشاه والسافاك، واليوم محظورة كل الاحزاب فيما حزب السلطة الثيوقراطية، باتجاهيه البرغماتي الحاكم والعقائدي الذي يتزعمه *أحمد خميني* ، يعارض الانفتاح على أمريكا، مثلما كممت أفواه الصحافة بل وتتدخل لجان النظام في ألبسة الناس وما يأكلون أو لا يأكلون، والتلفزيون والراديو لا يبثان الا معزوفات من طراز واحد، وبعد منع طويل للفيديو

اكتشفوا ان ثلاثة ملايين جرى تهريبها سرا فأجازوا الفيديو ثانية وسمحوا بتداول ٤٠٠ فيلم تتماشى مع أذواق الشيوخ ليشاهدها الناس ... انظروا الى أية درجة يتدخلون بأمزجة الناس.

وفي فلسطين أيضا رغم التقاطع السياسي بين اتجاهات فكرية متعددة لمجابهة المؤامرة التصفوية الامريكية- الاسرائيلية، ورغم نمو تيار ديمقراطي داخل صفوف الحركة الاسلامية، وهنا يمكن ذكر اسم *منير شفيق* وسواه، فضلا عن المرونة التي يبديها الدكتور *الشقاقي* ورفاقه، بيد انه حتى اللحظة لا يوجد موقف رسمي برنامجي لدى مختلف الفصائل الاسلامية يعلن انحيازه للديمقراطية ولو في حدود مبادئها الاساسية، ناهيكم عن أراء متطرفة تسمع في بعض الاروقة تقول انه في حالة الحكم الاسلامي ستفرض الجزية على غير المسلمين وتقيم الحد بقتل كل مسلم ارتد عن الاسلام علما ان هذه قضية قلبية يصعب حسمها، وربما تخالف حرية المعتقد "*ولا اكراه في الدين*" وتنسف مبدأ الكفاءة والمساواة بين المواطنين.

بينما في الاردن وبعد رضوخ الملك للمطلب الشعبي بالديمقراطية، بعد هبة نيسان عام ٨٩، حيثما أجاز التعددية الحزبية وصياغة دستور يكفل حرية الأحزاب اعترض الاسلاميون على حق الأحزاب اليسارية بالتشكل حابسة نفسها في ملزمة الدعاية البريطانية في العشرينات والثلاثينات بأن الشيوعية تعادل الالحاد، وكفى الله المؤمنين شر القتال، علما انه لا يوجد اي بند برنامجي في الأحزاب العلمانية برجوازية كانت أو يسارية ينص على الالحاد أو الايمان، ذلك انها أحزاب وحسب، مشاغلها أرضية وانسانية، غير ان الحركات الاسلامية تحاول فرض نموذجها الحزبي على الاخرين، وهذا غريب حقا.

طبعا يمكن الاطناب في تبيان نتائج وتمظهرات ومحاذير معاداة الديمقراطية في المجتمع العربي الذي تعتبر الديمقراطية في عداد حلقته المركزية، اي الحلقة الأهم في سلسلة مهامه ورافعة مشروعه النهضوي... والديمقراطية ليست مطلوبة للشعوب فقط بل للحركات السياسية ذاتها، فهي تنمو في اجواء الديمقراطية وتتفادى العنف في حل خلافاتها مع الاخرين، ناهيكم انها بحاجة لها على صعيد داخلي في سبيل التجديد التنظيمي والفكري..الخ، اذ لاحظت تململا داخليا في بعض أقاليم حركة الاخوان المسلمين في السودان وتونس وسوريا، حتى ان *الترابي* لا يوافق الا على

علاقة تنسيقية مع مركز الاخوان المسلمين في القاهرة المكون بمجلسه الاعلى من ١٤ عضوا ، منهم ٩ مصريين، بما في ذلك المرشد العام + ٥ من الأقاليم العربية والاجنبية، وهناك سواه ينتقد الصلاحيات الواسعة للمرشد العام وللأغلبية المصرية في المجلس الاعلى وبهتان النقاش الداخلي.

٢) الموقف الضبابي أو الانتقائي (موقف اللاموقف) من المسألة القومية.. اذ رغم الحرب الضروس على التخريب والغزو الثقافي الغربي ودعوات الاستقلال عن الغرب وحماية الهوية والتراث، وهنا يمكن ايجاد قواسم مشتركة في هذا الجانب او ذاك مع الحركة الاسلامية ، ولكن يجب ان تكون المعركة جدية مع الامبريالية ونفوذها وقطع الحبال التي تكفل للامبريالية الحاق العالم النامي بفلكها.

فالمديونية من المركز الرأسمالي الغربي وصندوق النقد الدولي والبنك الدولي تفضي الى التبعية والاستحذاء لشروط الغرب، وتوسيع العلاقات التجارية بالغرب يفضي لنفس المآل، وهذا حال شراء التكنولوجيا المسيسة التي يجب البحث عن بدائل لها من الاسواق الصينية واليابانية وبعض البلدان الأكثر تطورا في العالم النامي، واللجوء لاوروبا وأمريكا في حالات الاضطرار فقط، عوضا عن السير في طريق انتاج التكنولوجيا بتدرج كيلا نستمر في ذيل حركة التاريخ.

والموقف من الامة العربية وضرورة توحيدها كهدف تاريخي وعملية طويلة ينبغي ان يكون جليا، اذ أننا في عصر القوميات والأمم، وتاريخنا العربي يؤكد على توافر عناصر القومية (اللغة + الجغرافيا + التاريخ + العادات والسيكولوجيا المتميزة) بل وتوافرت في مراحل معينة عناصر الحياة الاقتصادية المشتركة والسلطة المركزية والجيش الموحد كعناصر تتكون في عصر الامة رغم نجاح الاستعمار في تجزئة الأمة العربية واحتلال اجزاء من الارض العربية (فلسطين + الاسكندرونة السوري + عربستان العراقي + سبتة ومليلة المغربيتان + جنوب لبنان والجولان + جزر الطنب الكبرى والصغرى وابو موسى الخليجية).

والتصور البرنامجي لتسوية القضية الفلسطينية يجب ان يكون واضحا لا لبس فيه، فمن قبل كان خافتا صوت الحركة الاسلامية حيال القضية الفلسطينية والثورة المعاصرة، بل ولم يشارك الاتجاه الاسلامي

الرسمي في العملية النضالية الا في زمن الانتفاضة كخطوة كبيرة للأمام، بما يشكل موقفا نقديا لمسيرة الاخوان المسلمين في ذات الوقت، وهذه جرأة وظاهرة ايجابية، ولمعلومكم ان الجرأة النقدية الذاتية في صفوف الحركة الاسلامية اليوم هي جرأة كبيرة الى درجة اصدار كتاب شارك فيه أكثر من ١٥ شخصية اسلامية عربية كبيرة، كل واحد في مبحث أو ورقة، تعرضوا فيه لمسائل عديدة في التفكير السياسي الديني، وهذه بداية طيبة يا حبذا لو تستمر.

والتفكير السياسي الاسلامي يركز على عدة مقولات (فلسطين أرض وقف اسلامي + محرما شرعا الاعتراف باسرائيل + التحرير من النهر للبحر + الكفاح المسلح هو طريق التحرير) وهذه المقولات رائجة في أوساط الحركة الاسلامية المناضلة والمجددة، أما التيار التقليدي المرتبط بالأنظمة الرجعية فمقولاته مغايرة.

ولكن في كل الاحوال هذا لا يكفي، اذ ان اسرائيل دولة نووية واحدى الولايات الامريكية، وبالتالي فالتحرير من النهر للبحر سواء بالسلاح أو غير السلاح أمر متعذر في ظل موازين القوى الراهنة، وبالتالي فمن الصائب تبني البرنامج الوطني الذي تجيزه الشرعية الدولية، اي حق العودة والدولة وتقرير المصير.. أما صيغة الحل الجذري الاستراتيجي للصراع في عقود مقبلة فهو من مسؤولية الأجيال المقبلة، بما يوجب على أية حال تقديم حل ديمقراطي للصراع، اي لا يكفي تحرير فلسطين دون الاجابة عن سؤال: ماذا عن اربعة ملايين يهودي؟ ، هل سيجري طردهم أو... فهذا حل عنصري، فالاداء الصهيوني برمته في فلسطين عنصري حيال شعبنا، ولا يكون الرد على العنصرية بعنصرية مناظرة ومضادة.

ونقطة اخرى، فالمسألة القومية تعني فيما تعني حق الشعوب في تقرير مصيرها وتحديد طريق تطورها، وانتهاك الامبريالية لهذا الحق أدى للاستعمار والغزو الذي نكتوي بسياطه في المنطقة العربية والبلدان النامية وولد بدوره نضالات حركة التحرير الوطني.

وفي كتاب "*معالم في الطريق*" لسيد قطب الذي انشأه بينما كان في زنازين المعتقل يعلن الحرب ويدعو لمقاتلة كل نظام يعرقل انتشار الاسلام، وهذا بداهة غير ممكن ليس لان العالم الاسلامي ضعيفا وتابعا فقط بل لأن

العالم المتطور يمتلك ترسانة عسكرية نووية قادرة على افناء العالم الاسلامي بل تدمير الكرة الارضية برمتها، اي لا يمكن احتلال ارضه بقوة الحراب.

وفيما لو كان نشر الفكر، اي فكر، من خلال الدعاية والاعلام، وبالتالي الفوز في الانتخابات، فهذا شيء مفهوم، أما تجريد السيوف وغزو الحدود القومية للغير فهذا شيء لا يتقبله العقل المعاصر ويعتبر غزوا.

وفي نفس الاتجاه نلاحظ عجزا غير مستوعب في تعاطي سلطة آيات الله مع المشكلة الكردية في ايران، فالاكراد في تركيا والعراق وايران يناهزون ٢٠ مليونا يتوزعون بالتساوي تقريبا، بل وكانت لهم دولتهم الواحدة ذات يوم، ولهم بالتالي خصوصيتهم القومية المتفجرة اليوم في العراق وتركيا وقريبا في ايران، وبدون حكم ذاتي يراعي حقوقهم الاقتصادية والثقافية ومميزاتهم السياسية، في اطار ايران ديمقراطية لا يمكن استئصال شأفة الصراع القومي، والشيء نفسه ينطبق على مشكلة الجنوب السوداني، وهذه الشعوب مستحيل ابادتها مثلما مستحيل تجاهل وطمس خصوصيتها القومية.

٣) القضية الطبقية، فأينما حكمت الاتجاهات الاسلامية سواء كانت ضمن التيار المجدد كما في ايران والسودان أو أفغانستان أو حينما كانت تدعم *ضياء الحق* في باكستان أو ضمن الاوساط التقليدية التي تعتبر نفسها ملتزمة بالدين كما الحال في السعودية والخليج أو في برامج القوى الاسلامية الفاعلة في الجزائر ومصر والاردن و... فهي كلها لم تتطرق بكلمة واحدة لأصل الاستغلال وتركيز الثروة في ايدي الطبقات البرجوازية.

ففي ايران والسودان لم يفتأ نظام الملكية الاقتصادية على حاله كما كان من قبل... فالمصانع والتجارة والمزارع والفنادق يملكها رأس المال والارباح التي ينتجها الشغيلة من جهودهم وعرق عملهم يحوز عليها الرأسمالي... وفيما عدا *الغنوشي* في تونس الذي أشار لحقوق العاملين بتعويم كبير، لم يبادر أحد لتبيان أصل الاستغلال الطبقي وقانون القيمة الفائضة، وهذا القانون نتعرض له بمعزل عن هذا السياق... بل وعلى صعيد التثقيف الداخلي الذي تسمع همساته في غير مكان يتم التصريح بمعاداة التأميم للملكيات الرأسمالية الاستغلالية علما ان *باقر الصدر* في كتاب "اقتصادنا" يتحدث عن ملكية الدولة لبعض القطاعات كتأميم لا مناص

منه، مثلما يمكن سماع همسات تسوغ الملكية الرأسمالية الاستغلالية تحت عنوان ثمن المجازفة، وان الرأسمالي يدفع أجورا للعاملين بما يتماثل مع النظريات الاقتصادية الرأسمالية، ولكن المتطورة والمتسقة ، بينما الهمسات سطحية ومجزوءة من وجهة نظر علم الاقتصاد المعقد.

طبعا لا احد يطالب بتحقيق فوري للاشتراكية أو للتعاونيات والملكيات الجماعية والخطة المركزية وأطر المبادرة والمنافسة، ولكن على الاقل يتوجب الاشارة برنامجيا من قبل الحكومات الاسلامية والاحزاب الاسلامية الى جذر الاستغلال الطبقي في المجتمع المعاصر الصناعي، والى موجبات تأميم بعض القطاعا ت والى ضرورة رفع أجور العاملين وحماية حقوقهم النقابية بما يخفف من وطأة استغلالهم والى امكانية اقامة شركات ووحدات انتاجية مساهمة بين رأس المال والشغيلة وتوزيع الملكيات الزراعية الكبيرة الرأسمالية أو شبه الاقطاعية على الفلاحين والمزارعين كاصلاح زراعي أنجزته ثورات اخرى منذ قرنين ويزيد، فضلا عن تأمين تعليم مجاني وعلاج مجاني للمواطنين... الخ وفي كل الاحوال لا احد يطالب بالغاء الملكية الخاصة الحرة غير الاستغلالية ولا حتى الملكيات المتوسطة والصغيرة الاستغلالية في مرحلة متخلفة كالتي يمر بها المجتمع العربي والنامي عموما، ولا احد يطالب باشتراكية حرق المراحل، اذ لم تنفك قوى الانتاج متخلفة ومن السابق لأوانه الحديث عن برنامج اشتراكي، ولكن هناك ملكيات كبيرة ومصالح اقتصادية امبريالية يتوجب تأميمها، كما فك التبعية للغرب الرأسمالي، وهذا كله يستدعي قول كلمة قاطعة وصريحة بشأنه، اي تقديم برنامج اقتصادي من قبل القوى الاسلامية في مصر أو الاردن أو الجزائر أو...

ولا حاجة بي للاستمرار في عرض بقية النقاط وتجلياتها الملموسة في السلوك العملي للفصائل الاسلامية، اذ يمكنكم الاستدلال عليها من خلال ما أسلفنا وتداولنا معا.

والان لا مناص من الاجابة عن سؤال: ***كيف نفسر عوامل الصحوة الاسلامية وتناميها في اقليم الشرق الاوسط في العقد والنصف الاخيرين؟؟***
وقبيل السرد والتعداد مفيد تذكيركم بأن استراتيجية التغيير لدى الحركة الاسلامية تقوم على ثلاثة أشكال:

١- الدعوة والعبادة القائمة على اصلاح وتربية الفرد من خلال اجتذاب الناس للصلاة والعبادة والسلوك الديني، وهذا الشكل مستمر في بعض البلدان عقودا من الزمن، وهنا جرى الابتعاد عن السياسة.
٢- العمل السياسي سواء بتقديم الارشاد لجهاز الحكم من موقع الناصح الذي لا يطمع في السلطة، أو من خلال المشاركة الفعلية في النشاط السياسي اليومي والقضايا الهامة كما في الانتخابات السياسية والنقابية والاعلامية.

٣- العنف المسلح: وهذا الخط مستجد ونلاحظه في مصر والجزائر ولبنان وفلسطين وقبلئذ في سوريا، وعلى نفس الدرب يمكن الحديث عن الانتفاضة الشعبية العارمة التي قادها الخميني في ايران بخصائصها المميزة.

ولا ريب ان ظاهرة صعود المد السياسي الاسلامي ملحوظ، وهنا لا نستطيع الخوض التفصيلي في العناصر التي حفزت هذا الصعود في كل بلد من بلدان الشرق الاوسط، اذ ثمة تفاصيل هنا، وانما نكتفي بالاشارة للعناصر المشتركة في مجمل البلدان والتي نراها أكثر جوهرية سواء على الصعيد الموضوعي او الذاتي:-

أ- عجز وفشل برامج البرجوازية التابعة سواء في ايران الشاه أو جزائر جبهة التحرير أو مصر السادات - مبارك..الخ، فهذه البلدان تحت قيادة البرجوازيات التابعة للمركز الامبريالي دخلت في العقدين الاخيرين أزمة متفاقمة ارتفعت وتائرها بتدرج فأذابت كل مساحيق الأنظمة وعرتها تماما سواء بتبديد ثروات البلاد أو بتعاظم المديونية أو بتضخم نسبة البطالة وازمة السكن أو بتفشي الفساد البيروقراطي أو بتشديد القبضة القمعية...الخ.

فأنظمة البرجوازية التابعة تعدت تبعيتها للغرب الرأسمالي على كل المستويات الى اذكاء التناقضات الاجتماعية والفقر والحرمان من أبسط الحقوق الانسانية، وبعضها الذي كان له تاريخ وطني طرأت تحولات طبقية داخلية عليه فانتقل من مواقع البرجوازية الوطنية الى مواقع البرجوازية الكبيرة الطفيلية التابعة... وحسبنا على سبيل المثل ذكر الارقام التالية الخاصة بالجزائر.. لقد بلغت المديونية الخارجية أكثر من ٢٧ مليار دولار، فيما *الابراهيمي* رئيس الوزراء السابق اعترف بتبديد

٢٥ مليار دولار، بينما البطالة ناهزت ٢٥٪ والأسعار ارتفعت بدرجات متواترة، والجزائر على امتداد عقود الاستقلال عرفت نظام الحزب الواحد حارمة القوى الاجتماعية الاخرى من حق الانتظام والعمل.. فماذا نتوقع ان تكون النتيجة؟ ونظام الشاه في ايران أو *سوهارتو* في اندونيسيا شيء مشابه، بل ان كليهما بدون تاريخ نضالي متصادم مع الامبريالية والرجعية المحلية، "اي بما يزيد الطين بلة".

وفي ضوء العجز عن اتمام مهام الثورة الوطنية- الديمقراطية استشرت التناقضات ونشأ موقف شعبي نقدي للأنظمة وكان لا بد من التعبير عن هذا المزاج وملء الفراغ.

ب- تزامن العامل الاول مع ضعف البديل الجذري اليساري القادر على انجاز الثورة الوطنية- الديمقرايطة وفتح السبيل للتحولات الاجتماعية الثورية.. بالنظر الى نمطية هذا البديل فهو امتدادا للجمود الذي عشش في قيادة الاتحاد السوفييتي وبالتالي فقر اليسار في انتاج فكر نظري ملموس يعالج واقعه الملموس، اي يعالج خصوصياته، ناهيكم عن عدم امساكه بالمبادرة التاريخية حينما توافرت شروطها الموضوعية، والانكى من ذلك هو مراوحة النموذج الاشتراكي الأهم في أواخر السبعينات وعدم مواكبته لمقتضيات الثورة التقنية، بل وانحراف القيادة السوفييتية في عهد *غورباتشوف* وتفكك الاتحاد السوفيتي وانهيار الاشتراكية فيه، بينما كانت الرأسمالية الاحتكارية في العالم الغربي تحرز انتصارات واسعة، الامر الذي بدا معه الحال كما لو فشلت قوة المثال التي عبر عنها الاتحاد السوفييتي في عقود سابقة حيث انجازاته البارزة على كل الصعد... ومثل هذا الانهيار خلق انطباعا لدى شعوب عديدة بما في ذلك شعوب الشرق الاوسط كما لو ان الاشتراكية قد فشلت ومضى زمانها وانه لا بد من خيار بديل، ولما كان البديل الرأسمالي التابع في منطقة الشرق الاوسط مأزوما، فقد تضافرت الاجواء لبديل اخر فكان المد الديني الاسلامي.

ج- التربة الشعبية الخصبة: حيث امتزج تاريخ المنطقة بالدين وقيمه، وبالتالي فأية حركة دينية سياسية حتى لو كانت فضفاضة وغير واضحة المعالم فان أوساطا واسعة من الشارع الجماهيري سوف تتعاطف معها، وفي العالم الصناعي المنطلق والمتحرر من قيود كثيرة يلتحق الناس

بالأحزاب على أساس برامجها الواضحة والمحددة حيال قضايا محددة، مثل التأميم والضرائب والأجور والديمقراطية...الخ، ذلك ان تلكم الجماهير عقلانية وأنتجت فكرها المنطقي الذي يحاول نقد الواقع وتقديم حلول لمشكلاته.. أما في العالم النامي حيث تراكم القهر والتخلف والضعف الشديد للمنطق والعلوم الانسانية التي أنتجها العقل البشري فالامر يختلف، وأمام مصاعب الحياة يتم اللجوء لهذه الثقافة القديمة والسلفية لعلها تجترع علاجات للأمراض المتفاقمة.

د- التطورات التي حدثت على فصائل الحركة السياسية الاسلامية وقدرة بعضها على الامساك بالمبادرة التاريخية، وكانت البداية في ايران، حيثما نجحت القيادة الخمينية الصلبة في تزعم الشارع المنتفض واسقاط النظام المتأمرك، فأثبتت بالملموس القدرة على تحويل الايديولوجيا الى سياسة تغييرية أطاحت بحكم البرجوازية التابعة، وهي تعيش منذ تلكم اللحظة الامتحان الذي يقرر فيما اذا كانت قادرة على بناء نظام وعلاقات انتاج ومجتمع من طراز مختلف عن طراز النظم التابعة في العالم النامي، أو طراز مختلف نوعيا عن النموذج الرأسمالي أو الاشتراكي، وهذا لم يحدث حتى اللحظة ولو مجرد بدايات وطريق تطور.

غير ان انتصار الانتفاضة الخمينية تولد عنه ديناميكية كبيرة أنعشت الدعوة الاسلامية، والحركات الاسلامية في اقليم الشرق الاوسط بأسره بما مثلته لها من حافز ونموذج ومصدر دعم ، ناهيكم ان معظم الفصائل الاسلامية أحدثت تغييرات على سياستها، فظهرت للوجود حركة *حماس* المناضلة بأدائها القتالي المميز في الأونة الاخيرة، وحزب *الله* الجسور بامكاناته الواسعة وعلاقاته غير المتوترة مع القوى العلمانية، وانخراط الاخوان المسلمين في الانتخابات البرلمانية الاردنية ودعمهم لانقلاب *البشير* في السودان ..الخ.

ولو افترضنا ان الحركة السياسية الاسلامية قد ظفرت بالسلطة في كل المجتمعات الشرق أوسطية التي كانت تنتمي للامبراطورية الاسلامية تاريخيا، وهذا مجرد افتراض منطقي أما تحقيقه واقعيا فمسألة اخرى، أو دعونا نقول ان أية فصائل سياسية اسلامية تمسك بدفة السلطة هي مجبرة على التصدي لمعضلات المجتمع الرئيسية والفرعية كما حال اي نظام

اخر، وحينها لن نستطيع التهرب من الاسئلة المهمة التي عرجنا عليها في متن المداخلة السابقة..

وعلى سبيل المثال ان غياب المنهج الديمقراطي في افغانستان قد قاد المجموعات السياسية الاسلامية الى الولوج في احتراب مؤلم ومأساوي واستنزاف لمقدرات المجتمع الفقير والمتخلف أصلا...وان عدم استيعاب المسألة القومية والمسألة الديمقراطية في السودان قد عطل امكانية تسوية مسألة الجنوب رغم تحفظات على تاكتيكات *جون غارانغ* الذي يمكن ان يتحول لبوابة تعبث من خلالها أصابع الامبريالية بشؤون السودان ان لم يتوقف الصراع ويتمقرط.

وأمامنا درس الاكراد في العراق، ومشكلات ايران التحديثية والتنموية هي في غنى عن الشرح..الخ.

وان لم تفلح الحركات السياسية الاسلامية الحاكمة في الاستجابة لتطلعات الجماهير وتأمين حياة أفضل وحريات أكبر وتطور أسرع..الخ تفاقمت التناقضات لا محالة واهتزت عروش الحكم كأمر لا مناص منه، والمثال الحاضر والطازج هو اخفاقات جبهة التحرير الجزائرية والاحزاب الشيوعية في اوروبا الشرقية، بل ها هي قيادات الاحزاب الرأسمالية التي تحكم ايطاليا منذ الحرب العالمية الثانية تغطس في فضائح مالية وسياسية نتج عنها على الفور صعود دراماتيكي لليسار الذي فاز في انتخابات البلديات، فيما تتوقع له التقارير الصحفية الفوز بما لا يقل عن ٤٠٪ في الانتخابات التشريعية المقبلة والقريبة.

واسمحوا لي أخيرا اتمام حديثي بتعليل العبارة النظرية التي أسميتها المبادرة التاريخية، وفي الحقيقة لقد مرت علي هذه العبارة في أكثر من مرجع منها "الاشتراكية في فرنسا" *لجارودي* وصفحات كتبها *انجلز* وسواهما.

والمقصود بالمبادرة التاريخية هو الاستجابة العملية لاستحقاقات لحظة تستشري فيها التناقضات وتستوجب حسما أو اعتماد المهام التي تفضي للحسم، بما يشبه الطبيب- النطاسي الكفؤ الذي يشخص مرضا متفاقما ويجترع العقار الشافي له، والقوى السياسية التي تمسك بالمبادرة انما تقود الشعب.

فالبرجوازية القومية العربية هي التي أمسكت بالمبادرة التاريخية في معظم الاقطار العربية في مرحلة النضال الوطني-الديمقراطي.. اذ حينما تفاقمت الاوضاع في زمن الملك فاروق ونخر السوس النظام الاقطاعي المرتبط بالاستعمار تقدمت حركة الضباط الاحرار بقيادة *عبد الناصر* فأسقطت الملكية وقامت بالاصلاح الزراعي، حيثما وزعت غالبية أراضي الاقطاعيين على الفلاحين وشرعت في بناء قاعدة انتاجية صناعية ورفعت شعارات معادية للامبريالية وتدعو للوحدة العربية ومحاربة اسرائيل... الخ فالتف الشعب حول عبد الناصر.

وجبهة التحرير الجزائرية استندت الى التحركات الشعبية والتظاهرات العارمة ضد الفرنسيين واجراءاتهم الدموية ضد الشعب واطلقت شرارة الكفاح المسلح الذي تنامى، وغدا حربا شعبية عارمة وانتزعت النصر فعلا من الاستعمار الفرنسي وأرست مقدمات واضحة في عملية بناء الجزائر الحديثة، بما حملته هذه العملية من بناء صناعة وطنية واصلاح زراعي وتنمية علمية واجتماعية...الخ.

وهذا حال البرجوازية الفلسطينية بزعامة *ياسر عرفات*، حيثما بادرت حركة فتح الى مقاتلة العدو بالسلاح ليلتحق بالثورة طوفان من العناصر الشبابية الشجاعة، وبالتالي ادخال تعديلات على قيادة م.ت.ف فحل أبو عمار محل الشقيري وحمودة، وأصبح رسميا وفعليا زعيما للشعب والثورة، ولا تسألوني عن سياسات أبو عمار الان، فهذا موضوع اخر والمرء لا يتذكره الا ومرارة الفجيعة تملأ قلبه وجوارحه، فرفاق الخندق الواحد البطولي أصبحوا اليوم شتاتا...
وفي اليمن الجنوبي تنامى النضال ضد المستعمر البريطاني، وكان على رأس النضال الجبهة القومية- *اي فرع حركة القوميين العرب في اليمن*- التي تحولت لاحقا في غمرة القتال الى مواقع يسارية فتفوقت على مختلف القوى وقادت الشعب نحو الانتصار والاستقلال والشروع بالتحويلات الجذرية الوطنية الديمقراطية، والحزب الاشتراكي الذي في غالبيته الساحقة امتداد للجبهة القومية، لم ينفك قائدا في الشطر الجنوبي لليمن رغم الوحدة الفوقية مع الشطر الشمالي. والامر ذاته ينطبق على القذافي في الجماهيرية الليبية أو البعث في سوريا والعراق...الخ.

لكن ما ينبغي استيعابه وابصاره هو التحولات الطبقية التي طرأت على البرجوازية الوطنية العربية، حيثما تولدت من أرحامها فئات تجارية

كومبرادورية تحالفت مع نظيراتها ممن لم يتخذ مواقف مناهضة للامبريالية والرجعية لتقود مجتمعة مرحلة الارتباط والتبعية للغرب الرأسمالي بين عقدين أو أكثر أو أقل من مسيرتها السياسية.. فالمد القومي البرجوازي استنفذ طاقته عموما، وان تبقت شرائح برجوازية قومية هنا وهناك، مثلما ان برامج هذه البرجوازية أثبتت فشلها في حرب عام ٦٧ فغدت عاجزة عن الاستمرار في قيادة المعركة.

كما ينبغي ابصار واستيعاب النزعة الاقتصادية التي أورثتنا اياها أنظمة البرجوازية سواء كانت قومية او انبثقت من أرحام مجتمع القرون الوسطى في الاقطار العربية الاخرى التي لم يعرف تاريخها المعاصر ثورات ونضالات ضد الاستعمار.. والمقصود بالنزعة الاقتصادية ادخال تطويرات اقتصادية وتحتية في المجتمعات العربية للانتقال من مجتمع ما قبل الرأسمالية الى الدرجات الاولى من المجتمع الرأسمالي بدون مواكبة ذلك تطويرات مماثلة في البنية الفوقية الفلسفية والفكرية والاخلاقية.. اي لقد استمر الموروث الفكري الغيبي السابق معششا في أذهان الناس وعاداتهم، خلافا لم حدث في اوروبا التي اجتاحتها في أواخر القرن ١٨ ثورات برجوازية حطمت علاقات الانتاج الاقطاعية وفكرها الكنسي الغيبي ليحل محلها مجتمع رأسمالي صناعي ونظام سياسي ديمقراطي وسيطرة للعلم وعقل الانسان...الخ.

وبالتالي حينما نشأ الفراغ في المنطقة العربية واقليم الشرق الاوسط عموما نتيجة فشل البرجوازيات التابعة تقدمت الحركة الاسلامية الصفوف بسرعة سيما وانها تتماثل مع البنية الفكرية المتفشية في المجتمع سيما في الاوساط الشعبية والأقل تعليما... اذ ليس خافيا على أحد محدودية انتشار قواعد هذه الحركة في الاوساط المثقفة والمستنيرة كما في أوساط الشغيلة ذات التقليد النقابي، ناهيكم عن أوساط البرجوازية التي تحمل عادة فكرا حديثا رأسماليا أو يساريا ديمقراطيا.

والحركة الاسلامية رغم امتدادها العاصف غير انه من غير المؤكد استمرار زخمها الحالي، وهذا نلمسه في خفوت وهج الثورة الايرانية وتململ مشكلاتها الداخلية، وانفضاض قطاعات جماهيرية واسعة عن الفصائل الاسلامية المتقاتلة في افغانستان، وفي التراجع الجزئي في نسبة المصوتين للحركة الاسلامية في الاردن، وتنامي الاستياء الشعبي من حوار العنف في الجزائر سواء من قبل النظام أو جبهة الانقاذ، والاحتجاجات المتزايدة من السياسة غير

الديمقراطية لنظام *الترابي* في السودان، وفوز الاتجاه البرجوازي العلماني في باكستان، وسقوط سلطة *الشيبي* المتحالف مع الاسلاميين في أذربيجان و...الخ. وفي التحليل الاخير ان مستقبل الحركات الاسلامية مرهون بقدرتها على اجتراح برنامج نظري وتطبيقي يلبي حاجات وآمال الجماهير... أما الفوران السريع فهو ليس ضمانة للبقاء في الصدارة.. وهذا ملحوظ في تجربة العديد من الحركات السياسية في العالم.

وعلى الهامش مفيد تذكيركم ان البشرية في العصر الراهن لم تعرف في العالم الصناعي المتطور سوى نظامين، رأسمالي أو اشتراكي، أما في العالم النامي فهي لن تعرف سوى تحولات وطنية - ديمقراطية جذرية تسير نحو الاشتراكية كما الحال في فيتنام أو كوبا أو الصين في مطلع انتصار الثورة أو خطوات متعثرة ومجزوءة في اطار التحول الوطني الديمقراطي تمهيدا للردة والدوران في فلك الرأسمالية الاحتكارية في المركز الامبريالي، وسوى ذلك لم تعرف البشرية.. والأفكار الأخيرة من الضروري استعراضها في مداخلة منفصلة.. أما ان يدعي اي اتجاه سياسي سواء كان قوميا برجوازيا أو يساريا أو دينيا ان لديه طريقا ثالثا فهذا لم يثبت في الممارسة بعد، وان كان يمكن الاعتراف ان الاحزاب الاشتراكية-الديمقراطية في الدول الاسكندنافية وسواها تحاول المزج بين عناصر رأسمالية وعناصر اشتراكية ولكنها في النهاية لتلد رأسمالية من نموذج خاص.. والذي لديه طريق اخرى، برنامج اخر فليتفضل، فالتاريخ يرحب به ان كانت لديه الفرصة لكيما يملك امكانية بناء البديل التاريخي، ذلك انه الوحيد القادر على صياغة برنامج التحول الوطني- الديمقراطي الجذري، وانتاج الفكر الملائم لهذه المرحلة، الأمر الذي ستلتف حوله الجماهير لا محالة سواء طال الوقت أو قصر.

واليسار ليس مجرد ممارسة سياسية وموهبة في امساك المبادرة التاريخية كما حصل في الشطر الجنوبي لليمن في الستينات أو روسيا عام ١٩١٧ أو الثورة الصينية التي انتصرت عام ٤٩...الخ بل انه ثورة ثقافية ايضا تشجع استخدام العقل والوثوق به بما في ذلك الانحياز للعلم ونظرياته ومنجزاته، وهذا يتغلغل في صفوف الناس، كل الناس، بقدر أو بآخر حتى ولو كانت مواقفهم السياسية أو منطلقاتهم الفسلفية مغايرة مثلما ان اليسار مدافع قوي عن الديمقراطية والحداثة والعصرنة، وهذا بمثابة قاطرات في قطار الحضارة الذي لا تستطيع أية تقاليد أو أفكار أو معطيات ان تبقى بمعزل عنه مهما كان عنادها وطول نفسها. والموقف الانتقادي لليسار يجعله قادرا على استيعاب كل النويات الفكرية الصائبة والعقلانية

في الموروث الفكري للبشرية بما في ذلك الموروث السياسي الديني، فضلا عن نظرته للديانات وحركاتها السياسية في التحليل الاخير من منطلق عقلها العملي للشعور الاخلاقي كما قال *كانت* وليس من منطلق عقلها النظري، اي تحاكمها من زاوية قيمتها الاخلاقية بمدى خدمتها للانسان وليس محاكمة قيم الانسان وعلومه من مدى مطابقتها للطروحات السياسية الدينية، فاليسار لا يتقبل طروحات الحركات السياسية الدينية ان نتج عنها تجزئة للشعب باسم الدين، أو اضطهاد العقل باسم الايمان، أو تكميم الديمقراطية تحت اي سبب، أو رفض نظريات علمية بدعوى مخالفتها المنظور الديني، أو خدمة أنظمة رجعية لاي سبب، وحينما يكون الموقف السياسي الديني غير ذلك فهم مقبول ويرحب به.

واليسار يعاني منذ وقت أزمة، وهذه حقيقة تستحق وقفة متبصرة، وربما يتعين علينا تناول اليسار الفلسطيني أو اليسار الفلسطيني والعربي معا، سيما بعد الزلزال الذي أصاب القلعة السوفيتية.

اشكركم على اصغائكم والى الغد.

اليسار والتاكتيك التحالفي

من الجيد انكم ملتم لعقد اللقاء الثقافي صباحا، فهذا أنسب سيما واننا بعد الظهيرة نتبعثر بين رياضة ومشورة ونوم، وبعد التجربة بات جليا ان الصباح هو الموعد الملائم أكثر من سواه.

أهلا بالجميع، وحديثي اليوم هو قطفات أو مقتطفات معتمدا الايجاز أكثر من أيام اخرى، تاركا لكم اغناء المداخلة كما يمكن ان أضيف لاحقا.

التاكتيك:

كما هو معروف هو الدربة، أو الخطوات التي تتبعها الحركة الثورية لبلوغ أهدافها البرنامجية... وانجاز تاكتيكات متلاحقة يعين التقدم مسافات على طريق الانتصار.. فمثلا ان الملحمة الانتفاضية تاكتيك، والعمل الفدائي تاكتيك.. وبداهة ان اقامة تحالفات بين قوتين أو مجموعة قوى هو تاكتيك ايضا..الخ.
واستخلاص التاكتيك ليس مسألة سهلة، بل وثمة اخطاء تاكتيكية تكون قاتلة، تصوروا مثلا لو ان اليسار الفلسطيني انخرط في تاكتيك مسار مدريد- واشنطن أو لو انه شرع ينتقد عيوب الانفجار الانتفاضي ولم يشارك فيه، أو ان يتخذ قرارا بالانخراط في انتخابات الحكم الذاتي.

فما هي مبادىء التاكتيك الثوري؟

١ ارتباط التاكتيك بالبرنامج السياسي وعدم انتهاكه له... فالبرنامج هو الناظم والمرجعية.. *ولي نوان* القائد الفيتنامي الفذ يؤكد على ربط التاكتيك بالاستراتيجية... والحكيم الرفيق جورج حبش يلخص المسألة على النحو التالي: "*لا يجب ان تنتهك السياسة الايديولوجيا، ولا ان ينتهك التاكتيك الاستراتيجية*".. غير ان البراغماتية السياسية تتجاهل هذا المبدأ بما ينجم عن ذلك من نتائج.. فمثلا لقد انغمست القيادة اليمينية في حل سياسي خرق تماما برنامج الاجماع الوطني، فيما سوريا أرسلت كتيبه تحت العلم الامريكي في حرب الخليج انتهاكا لشعاراتها القومية... وغورباتشوف هرول نحو الامبريالية

الامريكية العدو التاريخي للاشتراكية ظنا منه انها بابا نويل الذي يوزع التكنولوجيا في رأس السنة..

والأمريكان يشجعون النزعة البراغماتية في أرجاء العالم، فيما يصبون غضبهم على الايديولوجيين.. العقائديين كما ينعتونهم.. وهم بصريح العبارة يقولون: انسوا شعاراتكم، أهدافكم، مبادئكم، وتعالوا ساجدين على عتبات البيت الابيض فسوف نضمن لكم المساعدات والقروض من صندوق النقد الدولي و... والويل لمن يرفع شعارات فك التبعية ومعاداة الامبريالية أو يتوشح بشعارات التقدم الاجتماعي والاشتراكية..

ومفيد التذكير بموقف *لينين* في سنوات الحرب الكونية الاولى، ذلك انه وعدد من رفاقه تشبثوا بشعار الحرب على الحرب، اي لقد دعوا للقيام بثورات عمالية ضد أنظمة الاحتكار الرأسمالية التي شنت حربا لاعادة اقتسام العالم وقودها الجماهير الشعبية.. وقد غطست الاغلبية الساحقة من الاحزاب الاشتراكية حينذاك في البراغماتية، فاختارت الامتيازات والتسهيلات الحكومية فأيدت الحرب الامبريالية.

وحاليا في الساحة الفلسطينية، لو التحقت الجبهة الشعبية على سبيل المثال بالتسوية الجارية فهذا يعني فك الحصار المالي عنها كما فتح العواصم العربية لها وتأمين حرية الحركة لها في عديد من البلدان، ناهيكم عن اقتسام سلطة الحكم الذاتي ومناصب ومنافع عديدة في مؤسسات المجتمع الفلسطيني... انه شيء مغري.. أما التمسك بالهدف الوطني فثمنه ما نلاحظه اليوم يضاف اليه قمع وملاحقة وتجويع في السنوات المقبلة.

٢ مراعاة موازين القوى: بعد الانطلاق من البرنامج ان الحركة الثورية ملزمة في اختيار تاكتيك يراعي موازين القوى، وإلا يكون مغامرة محكوم عليها بالفشل.. فمثلا فيما لو دعا البعض لانتفاضة مسلحة في الأراضي الفلسطينية المحتلة من البديهي ان تفشل هذه المحاولة سواء بالنظر الى افتقار شعبنا لمقومات العصيان المسلح أو بالنظر الى ما يملكه العدو من تفوق عسكري سوف يستخدمه لا محال لتدمير هذه المدينة المنتفضة أو تلك، ذلك ان منسوب الحرب يقرر مستوى السلاح المستخدم، اي في الوقت الذي لا يمكن ان تغير طائرات مقاتلة على تظاهرة أو اعتصام، فهي تغير على مجموعة مسلحة أو حشد مقاتل.

وشعار تحرير فلسطين دفعة واحدة من النهر الى البحر، هو شعار رومانسي في ظل ميزان القوى المحلي والاقليمي والدولي، اذ اين هي القوى القادرة على تحقيق هذا الشعار؟ فشعار أقرب منه كالدولة والعودة وتقرير المصير يجابه المصاعب، فما بالكم بالشعار القصوي الذي يحرض اسرائيل على استخدام سلاحها النووي ويدفع أمريكا حليفها الاستراتيجي لرمي ثقلها بالكامل وراء ولايتها الـ ٥١؟

وتاكتيك طبقي من نوع هجوم العمال والشغيلة على مصنع أو فندق أو مزرعة للاستيلاء عليها لا يفضي الا الى ذبحهم طالما ان علاقات الانتاج السائدة في مجتمعنا هي علاقات رأسمالية، بينما تاكتيك اضرابي لتحسين الاجور قابل للف العمال حوله، وتحقيق نجاح معين.. بل ان الاضراب مشروط بمستوى تنظيمي معين للعمال واستعداد معين من قبلهم، وتوازن القوى بين رأس المال والشغيلة يسمح بالاضراب وانتزاع حقوق نقابية.

وباختصار ينبغي عدم اغفال ميزان القوى.

٣ مراعاة المزاج الجماهيري، اي حال الناس واستعداداتهم، والطليعة الثورية تندمج في القطاعات الجماهيرية وتتحسس نبضها وميولها، وفقط الأقلية المغامرة والمعزولة عن الجماهير هي التي تنصب نفسها بديلا للجماهير وبالتالي تسقط على رأسها وتفشل.

للجماهير أمزجة متنوعة ومختلفة، ولكن هناك مزاج رئيسي أقوى من سواه في كل مرحلة ولحظة، وقد يكون هذا المزاج متأججا، مثلما قد يكون خاملا، في حالة جيشان وجموح أو في حالة ترقب أو نكوص...الخ.

وبطبيعة الحال وكيلا يثار التباس في الأذهان، فالطليعة الثورية لا يمكن ان تكون ذيلا للعفوية الجماهيرية، انها طليعة ليس لها ذنب، اي لا يمكن ان تستسلم حينما تستسلم العفوية، ان تضعف حينما تضعف العفوية، فالطليعة تتحسس حالة العفوية للارتقاء بها ودفعها للامام.

فمثلا من الخطأ ان تدعو الحركة الثورية لاضراب جماهيري عام ان لم يكن لدى الجماهير استعداد للاضراب.. ولو أردت الاقتراب أكثر من الملموس لقلت انكم تلاحظون قلة الطعام في هذا المعتقل على الصعيدين الكمي والنوعي قياسا بالسجون وبالمعتقلات الاخرى.. وهذا سهل التدليل عليه.. فهنا لا نتلقى حبة فاكهة كل يوم، بينما حبة الفاكهة في غالبية المرات مجرد حبة برتقال صغير

من النوع الرديء الذي يستخدم للعصير، فيما في الفارعة أو رام الله أو عسقلان حبة الفاكهة يوميا واحيانا حبتين، وهذا حال اصبع النكنيك (السوسيج) أو قرص الكفتة، فهنا نتلقى نصف ما يتلقاه المناضل الفلسطيني في السجون الاخرى، حيث هناك اصبعين أو قرص كامل، وهذا حال قطعة السمك المتضائلة هنا، والأمر نفسه ينطبق على وجبة الافطار أو العشاء حيث يأتينا عموما صنف واحد كالفول والحمص أو بيضة بدون قطعة جبنة أو بندورة أو مرجرينا..الخ.

وفي هذا المعتقل لا يوجد تلفزيون فهو مكسب انتزعته الحركة الاسيرة منذ عقد تقريبا، أو البلاطة الكهربائية التي أحدثت انقلابا في تصنيع الطعام كتسخين الخبز أو قلي البيض.. وهذه الامور على تفاهتها هي ذات قيمة للأسير سيما الذي يعيش سنوات في المعتقل، ناهيكم عن العلاج ومتاعب الزيارة وازدحام الخيام والحمام الحقير برائحته الكريهة كما لو كنا في قرية لم تصلها الحضارة.. وبصراحة كلما اشعلتم "الجيزر" لتسخين الماء وما ينتج عن ذلك من دخان وسخام، وكلما حان موعد الذهاب للحمام وما يتسرب اليه من روائح المرحاض شعرت ان هذه أفضل وصفة لتكدير المزاج ومرض الجسم.

المهم رغم ما أتيت عليه ولم آتي عليه، ورغم التذمر المسموع في القاعدة الاعتقالية هنا وهناك، غير ان الأغلبية غير جاهزة لتعليق الجرس من خلال خطوة اضرابية عن الطعام.. وعليه يكون التاكتيك الملائم عرض حالنا ومطالبنا الحياتية على المدير مرة ومرات واشراك القاعدة في مناقشة جماعية مرة ومرات، فربما هذا يمهد لتحريك الامور.

٤ الانطلاق من جاهزية الحركة الثورية، فلئن كان التاكتيك محوره الأساسي الحركة الثورية أو انها المحرك الأساسي، فمن الطبيعي ان تعاين امكاناتها وجاهزيتها ومستوى استعداديتها، وبالتالي استخلاص التاكتيك الملائم.
فمثلا لقد حاصرت القوات الاسرائيلية بيروت، وما كان ممكنا رفع شعار الصمود والقتال بدون توافر قوة مقاتلة، وهذا حال *كاسترو* حينما حدد استراتيجيته العصابية لاسقاط نظام *باتيستا* الديكتاتوري، فلولا توافر نواة ثورية استأثرت بتعاطف الشعب سيما في الارياف لما أمكن انتهاج التاكتيك الغواري.

وحينما يقال ينبغي تعبئة الجماهير بالموقف الثوري، فهذا انما يقتضي وجود أداة منظمة قادرة على تعبئة الجماهير.. الخ.

وهنا اريد دحض الاصوات المتحمسة للاغتيال السياسي كوسيلة لدحر نهج سياسي معين، فالاغتيال لا يجدي نفعا، فهو لا يسقط نهجا ولا طبقة منتجة لهذا النهج، مثلما أنه سلاح ذو حدين من شأنه اشعال فتيل حرب أهلية مدمرة لاحظناها بين اليسار واليمين في تركيا قبل انقلاب *ايفرين*، ولاحظنا خطورة الاغتيال السياسي في تاكتيك *آيات الله* في ايران ضد المعارضين في الداخل والخارج.. والذي يلعب هذه اللعبة في مجتمعنا الصغير انما يتجاوز الخط الاحمر ولا يخدم الا اعداء شعبنا.

واحيانا يسمع المرء آراء حماسية من نوع لماذا لا نعمل كيت وكيت من طراز تحريك الجماهير الفلسطينية في الاردن وسوريا ولبنان وتنشيط العملية الكفاحية في الداخل.. وبالتالي اسقاط المشروع التصفوي.. اي المطالبة بتاكتيك هجومي، كما لو كان ذلك ملك اليد وطوع اليمين.. فهل تتوقعون في لحظة من هذا القبيل تنفيذ كل هذه المطلوبات.. ان قدرة الحركة الثورية محدودة وهي أقل في زمن التراجع، وبالتالي فهي عاجزة عن تحقيق المطلوب.. وتاكتيكها لا يمكن ان يتعدى جاهزيتها وقدرتها التحريكية للجماهير.

٥ الافادة من تناقضات العدو الداخلية وتجنيد قوى وسطية متذبذبة. طبعا لا يخفى عليكم اننا لا ننظر لحركة فتح كعدو لنا، اذ اننا ضد خطها السياسي وحسب، وهذا يدفعنا بالتالي للافادة من تناقضاتها الداخلية، ذلك ان تيارا في صفوفها ضد *اتفاق اوسلو – القاهرة*، طبعا لا يمكن المراهنة على هذا التيار، وانما الافادة منه وحسب، ويا حبذا لو يلتحق في وقت من الاوقات بالتحالف المناهض.. وفي داخل كيان العدو الاسرائيلي نلاحظ وجود قوى تؤيد هدف الدولة الفلسطينية، وتيارات تعارض ممارسات الاحتلال، أو تدعو لحلول أقرب الى المواقف الفلسطينية.. وهذا كله يمكن استثماره بنسج علاقات ميدانية مع هذه القوى شريطة ان لا يصار لتكييف أنفسنا مع سياساتها.. فنحن أصحاب القضية العادلة ونرحب بأي تأييد لنا أو اعتراض على سياسة عدونا، مثلما نرحب بأية تقاطعات مع قوى يهودية ديمقراطية على أرضية الحل الوطني والحل الاستراتيجي.

وانتم تلاحظون ان العقبة السورية لم تذلل بالكامل بعد، فما فتئت سوريا تطالب بالجولان وتحجم عن المشاركة في المتعددة، وتنتقد اتفاق اوسلو، رغم انخراطها في التسوية ولهاثها لاسترضاء امريكا، وهذا تناقض جزئي يمكن

الافادة منه ولكن بدون المراهنة عليه، وهذا الاستثمار مشروع تماما وصحيح تماما.

بل وأحيانا يمكن التحالف أو التعاون مع قوى متذبذبة حتى ولو لفترة قصيرة، أو في موقف واحد، مثلا يمكن اقامة تعاون مع كل القوى والشخصيات المؤيدة للديمقراطية في الوطن المحتل، ومع كل القوى والشخصيات التي تؤيد تحسين أوضاع الشغيلة وتخفيف الاستغلال، أو لطرد المستوطنين أو لتحرير القدس العربية أو.. مع الحرص لقيادة هذه التحالفات والتقاطعات من قبل الاتجاهات الأكثر جذرية.

٦ توسيع معسكر الاصدقاء وتضييق معسكر الاعداء. وكانت الانتفاضة نموذجا رائعا لكسب تأييد عربي عارم وتأييد عالمي واسع النطاق، مثلما ان تبني قرارات الشرعية الدولية أدى الى استمالة أوساط رسمية وشعبية كانت تاريخيا ضد نضالنا الفلسطيني أو لم تكن معنا.. وفي لحظات معينة حينما جرت الدعوة لعقد مؤتمر دولي حظيت هذه الدعوة بتأييد فرنسا علاوة على الاتحاد السوفييتي السابق والصين الشعبية.. وفي أواخر السبعينات حينما تم تبني البرنامج المرحلي بعدما ثبت بالملموس استحالة احراز الهدف الاستراتيجي دفعة واحدة، حاز هذا التطور على تفهم وتعاطف عربي ودولي أوسع من الشعار السابق.

ولنأخذ مثلا حيا قريبا، هو شعار حق العودة، فمثل هذا الشعار يدعمه شعبنا بأسره في الخارج ويلقى تفهما هنا وهناك.. وينطبق الأمر نفسه على مطلب اطلاق سراح الاسرى، وهذا لاحظناه في الاردن قبل سنوات حينما تزايدت الدعوات للديمقراطية.. الخ.

وأهم شيء ان لا يهبط برنامج القوى الثورية، اي في الوقت الذي عليها توسيع دائرة الحلفاء والاصدقاء هي ملزمة ايضا بعدم تهبيط سقفها السياسي والبرنامجي.

٧ **المساومة:** اي الاضطرار لقبول جزء من الحقوق والاهداف، فالعمال حينما يعلنون الاضراب، وهذا حال العاملين في الجامعة على سبيل المثال، أو المستشفى ، يطالبون برفع الأجور بنسبة معينة، ولكنهم بعدئذ يقبلون بنسبة أقل، وهذه مساومة.. والحركة الأسيرة حينما تعلن الاضراب تتقدم بعدة

مطالب ولكنها تفك الاضراب بعد تحقيق بعض هذه المطالب وحسب.. والمهم ان تخوض النضال في سعي منها لانتزاع أقصى قدر من الحقوق.

والمجلس الوطني الفلسطيني حينما قرر في أواخر السبعينات المرحلية، فهذه كانت مساومة، وهي مشروعة طالما لا تشرع الغزو لفلسطين وتفتح المجال لحل جذري ديمقراطي مستقبلي يقوم على المساواة الحقة بين الناس بدون تمييز.

والفيتناميون حينما حرروا الشمال وعلقوا النضال المسلح بضعة سنوات في الخمسينات انما كان ذلك مساومة تفرضها موازين القوى ولكن بدون التنازل عن الجنوب أو التسليم به كمنطقة نفوذ للامريكان وسواهم.. والقيد الذي لا مهرب منه للمساومة هو ان لا تشارك الحركة الثورية في اقتسام أهداف الشعب وحقوقه بينها وبين عدوها وان لا تفرط بهذه الحقوق والاهداف، اي القبول بالتدرج وحسب.. فالشغيلة يحسنون شروط عملهم ولكن بدون الاستسلام للعلاقات الرأسمالية، ويواصلون النضال لالغاء الاستغلال من جذوره، والشعب الجزائري نال استقلاله المنقوص عام ٦٣ ولكن ليطرد بقايا الاستعمار بعدئذ.

مثلما ان مبدأ المساومة محكوم بالبرنامج فهو لا يتخلى عنه ولا يقبل بأقل من الحد الادنى المتفق عليه من قبل التحالف القائم سواء كان شغيلة او فصائل وطنية..الخ، وفي حالتنا الفلسطينية مساومة اوسلو- القاهرة لم تكن مساومة مشروعة ذلك انها نسفت برنامج الاجماع وانتهكت الحق الوطني بل اقتسمت هذا الحق بين فريق فلسطيني والاحتلال، هذا ناهيكم عن التفريط بالحقوق التاريخية.. ومثل هذه المساومة هي من أخطر المساومات غير المشروعة، مثلما انها من أخطر تجليات البراجماتية الطبقية الضيقة، أو على الاقل هذا ما يمكن الاعتقاد به، والتاريخ سوف يقول كلمته في المستقبل.

هذا عن مبادىء التاكتيك، فماذا عن التحالف؟

التحالف:

هو اقامة تعاون وتوحيد جهد قوتين أو أكثر لبلوغ هدف مشترك ، والعلاقة التعاونية قد تصل حد التحالف الجبهوي الذي يبلور نفسه من خلال صيغة تنظيمية وتحرك مشترك ومساعدة متبادلة، سواء في الميدان السياسي أو النقابي أو كليهما

معا، أو قد تقتصر على التنسيق في مسائل دون غيرها، في لحظة دون غيرها، وبالطبع ان التنسيق أقل مستوى من التحالف.

والتحالف أرضية سياسية وليس ايديولوجية، اي لا يضيره ان يقوم بين قوى متباينة ايديولوجيا، وهذا حال التحالف الفلسطيني العشري .. بل قد تتباعد قوى ايديولوجيتها مشتركة بينما تكون سياساتها متباعدة، كما حال الجبهتين الشعبية والديمقراطية، في فترة مؤتمر جنيف عام ٧٤، أو الاتحاد السوفييتي والصين في الستينات والسبعينات.. أو كما حال فدا وحزب الشعب الأقرب ايديولوجيا للجبهتين، بينما هما أقرب سياسيا للبرجوازية اليمينية.

وعموما ان القوى اليسارية في عموم العالم تقيم تحالفاتها على أساس سياسي، وهي لا تتحرج من ذلك ولا تضع عقبات، ولهذا كان سهلا على الجبهتين وفي البدء الشعبية مد الجسور مع حركة حماس حينما قالت "لا لمدريد"، وهذا حال الاتحاد السوفييتي حينما تحالف مع أمريكا وبريطانيا ضد النازية الهتلرية.. وأهم اسس التحالف:-

أ- الاتفاق على برنامج الحد الادنى، والحد الادنى هذا هو جزء من برامج قوى التحالف، اي ليس على حساب احد، فلا يمس أيا من برامج القوى المتحالفة، ولا يشترط بالتالي الغاء برامج الاخرين.

ب- الاستقلالية التنظيمية والايديولوجية والسياسية، فغير مطلوب من أحد التنازل عن هويته الفكرية أو حل نفسه والاندماج في الاخرين، بل له الحق ايضا بالتعبير عن مواقفه الخاصة حينما يتناقض مع سواه في أمور تقع خارج برنامج الحد الادنى، وكيلا يتفسخ التحالف ويعمر لزمن أطول يتعين على جميع الشركاء التقيد بالأرضية المشتركة للتحالف، هذا وقد لاحظنا نتائج المساس ببرنامج الاجماع الوطني في الساحة الفلسطينية، بل لعل الامور تتوقف عند هذا الحد.

ج- الديمقراطية الجبهوية كناظم للعلاقة بين فرقاء التحالف، والديمقراطية تكفل احترام الجميع والاعتراف بالجميع والتمثيل النسبي والقيادة الجماعية وتنفيذ الاتفاقات وحل الخلافات سلميا..الخ.

وما استعرضناه حتى اللحظة هو تمهيد للاجابة عن سؤال يتعلق بالتحالف العشري، مسوغاته، المصاعب التي تعترض طريقه، مآله.. وهذا حال الاتحاد بين الجبهتين الشعبية والديمقراطية.

بالنسبة للتحالف العشري الذي أعربت الجبهة العربية عن رغبتها بالانضمام اليه، والذي يستقطب تيارات وشخصيات وطنية لا يستهان بها، هو في حقيقة الامر لم يصل بعد حد التحالف -كما يبدو لي- فهو لم يتعد اللقاء الدوري وتصدير نداءات أو بيانات تدعو لاضراب جماهيري أو تعلن موقفا سياسيا، وثمة جدال لتشكيل صيغة تنظيمية قيادية لم تسحب نفسها على الأراضي المحتلة وساحات الركيزة الثانية.. أما مسوغات التحالف كما تراها هذه القوى فهي:-

١- ضد المؤامرة السياسية الامريكية- الاسرائيلية التي غطس فيها فريق فلسطيني، وتتوجت في اتفاق ١٣ أيلول وترجماته اللاحقة، والتي تستهدف فيما تستهدف النضال الفلسطيني والوعي الثوري والقيم الصمودية.. وبالتالي مناهضة التحالف للحكم الذاتي وخيار غزة - أريحا.
٢- الاتفاق على الهدف الاستقلالي، فالجميع يدعو للحرية والاستقلال وطرد المستوطنين، واحيانا يتحدد ذلك برفع شعار الدولة والعودة وتقرير المصير.
٣- الاتفاق على اعادة بناء م.ت.ف على أسس جديدة من خلال مؤتمرات شعبية في الداخل والخارج، و دعوني أقول ان ثمة ضبابية هنا.

ولو اردت الاختصار لقلت ان جوهر الاشياء سالفة الذكر متفق عليها ... غير انه لا يجوز تجاهل التباينات والخلافات المضمرة حتى داخل نقاط الاتفاق، والتي لا اعرف فيما اذا كانت الشهور المقبلة قادرة على اذابتها أم لا.. واقصد بذلك ما يلي:-

سياسيا:

أ- صحيح ان الجميع ضد اوسلو- القاهرة، وبالتالي ضد مشروع الحكم الذاتي، ولكن من الصحيح القول ايضا ان تصريحات البعض عن استعداده للمشاركة في انتخابات تشريعية علما ان الجميع يعلم ان الانتخابات

المتوقعة مستوحاة من اتفاق اوسلو كانتخابات ادارية لتمرير هذا الاتفاق وحسب.. ان مثل هذه التصريحات مقلقة جدا.

ب- صحيح ان الجميع اتفق على مبادىء سياسية من بينها الهدف الوطني بالعودة والدولة وتقرير المصير ولكن من الصحيح ايضا ان هذا جاء كمحصلة وليس قناعة ذاتية للبعض، بينما قناعة هذا البعض لا تتحدث عن دولة وانما عن انسحاب الاحتلال وحسب، بل انهم حينما ألغى الملك حسين قانون الارتباط الاداري بالضفة انتقدوا ذلك، الأمر الذي يثير التباسا ما يحتاج الى توضيح.

ج- صحيح انه جرى الاتفاق على اعادة صياغة م.ت.ف ، ولكن الصحيح ايضا ان البعض ينظر لنفسه ويعبىء داخليا كما لو كان بديلا للمنظمة ومجمل الحركة الوطنية، ناهيكم انه كشف عن رغبة للهيمنة على التحالف، علما ان حجمه لا يبيح له النسبة التي طلبها، كما ان تمايزه النضالي الحالي لا يجوز ان يصل حد تجاهل غيابه سنوات طويلة عن الكفاح الذي اطلقته فصائل الثورة المعاصرة وقدمت تحت راياته عشرات الآف الشهداء، بل وبدون ان يكون البديل التحالفي أرقى من فئوية القيادة اليمينية من المتعذر تصور نجاحه.. ففي العادة ان الايجاب يحل محل السلب، والأكثر ايجابية يحل محل الأقل ايجابية.

ورغم الاتفاق على عقد مؤتمرات شعبية ينبثق عنها قيادة مؤتمنة منتخبة ديمقراطيا، رغم الاتفاق على اعادة تشكيل القيادة الموحدة في الداخل، غير ان هذه وتلك لم تتحققا كشاهد على ان هذا البعض، وهو طرف رئيسي في التحالف، قد التزم بالاتفاقات من باب المجاملة والتخلص من الحرج أكثر من قناعة بهذه الاتفاقات.

ولا تفوتني الاشارة الى ان أصدقاءنا هؤلاء يكاد يكون لهم موقف عقائدي مناوىء للديمقراطية السياسية التي تكفل التعددية الايديولوجية والسياسية واحترام الرأي والرأي الأخر.. الخ، اي انهم على مضض يتقبلون أو يعايشون أو يتعاونون مع الاخرين في الوقت الحالي، بينما لا يخفون رفضهم للديمقراطية في حالة سيطرتهم على الامور حتى ما قبل استلام السلطة.. علما اننا يمكن ان نلاحظ نمو تيار متنور في صفوفهم أقل تزمتا مما أتينا على ذكره أو يتقبل اجزاء من الديمقراطية.

ولا يجوز ان أنسى ايضا الاشارة الى الحواجز المعنوية والشكوك المبثوثة في أوساط التحالف بالنظر الى التجارب المنفصلة للاتجاهات الأساسية وغياب

حياة نضالية مشتركة، بل وغياب علاقات اجتماعية، ومثل هذه الحواجز تشكل عقبة ما.

وعليه، ان مستقبل نجاح التحالف بقاعدته الحالية مرهون بحسم الامور بحيث يترسخ ما تم الاتفاق عليه وترجمته عمليا، وبالتالي عدم المساس به.. اذ يكفي ان يلتحق طرف بانتخابات الحكم الذاتي حتى يغادر صفوف التحالف... ولا يفيدها الهروب للأمام بالحديث عن اسلامية فلسطين وانها أرض وقف منذ عمر بن الخطاب، فعرفات ايضا في أحاديث يعلن تمسكه بعروبة فلسطين، غير انه تاكتيكيا سار في نفق مدريد – واشنطن– اوسلو– القاهرة.. الخ.

ولا يكفي القول ان م.ت.ف هي احد أصنام الجاهلية وانها انتهت، وان العنوان الجديد هو المد الاسلامي، فمثل هذا الكلام وبصرف النظر عن صوابيته أو عدم صوابيته لا يشكل أرضية مشتركة للتحالف، وبالتالي فمن شأن هذا المنظور شق التحالف أو ولادته ميتا.

ولئن لم يتحرك الموقف النظري للاتجاه الاسلامي نحو تقبل الديمقراطية، *فكيف يمكن ضمان ان لا يكون احتياطا لسلطة الحكم الذاتي فيما لو أرادت ضرب الاتجاه الديمقراطي اليساري؟*

طبعا لا يمكن العمل بقاعدة "لا تقربوا الصلاة" كما لو كان اليسار بريئا أو انه خالي المسؤولية، اذ ان عليه البرهنة ايضا على مقدرته لتسوية التناقضات داخل صفوف التحالف، وان حضوره ووزنه وفعله هي رصيده الاول، مثلما ان مصداقيته الثورية والاخلاقية لا بد وان تترك آثارا طيبة على الاخرين وان التزاور الاجتماعي والعمل الميداني والمعاناة المشتركة في المعتقلات واللقاءات القيادية الدورية وسواها من شأنها ان تساعد في وضع النقاط على الحروف.

والموقف المسؤول يقضي بعمل كل ما يلزم للحفاظ على قاعدة التحالف واسعة، بل والعمل لتوسيعها أكثر... ولكن في أسوأ الحالات ثمة قوى مواقفها صريحة ولا خوف عليها.. وربما هنا ملائم الدعوة لتعزيز التحالف الديمقراطي الرباعي باستيعاب تيارات اخرى، بل وفرصة بناء محور وطني ديمقراطي في الأراضي المحتلة هي فرصة كبيرة بحيث تضم كل القوى والشخصيات المناهضة لاتفاق اوسلو– القاهرة، وتتشبث بالهدف الاستقلالي بالعودة والدولة وتقرير المصير وتؤمن بدمقرطة المجتمع الفلسطيني وتنميته على كل الصعد بدون تبعية وربط باسرائيل والامبريالية، كما تحسين شروط العمل وأجور العاملين ومنح

أراضي وبيوت لمن لا يملكون.. ويمكن الاسهاب وضبط الافكار فيما لو تحولت هذه الدعوة لمبادرة سياسية.

وختاما اعترف انني لا أملك رأيا مكتملا حول مستقبل التحالف الفلسطيني، فالمرحلة جديدة ومفرداتها غير مألوفة، وقد تتبدل ألوان وخطوط سير وتحالفات، مثلما قد تذوي وتندثر قوى وتتأسس وتنبثق قوى اخرى، وكل حدث يشكل امتحانا لمجموع القوى، وغير مؤكد كيف يمكن ان يتصرف كل اتجاه.

اننا نعيش فترة انتقالية، وربما بعد مرور عام أو أقل تتبلور سياسات الجميع وتتضح ملامح الجميع، ولكن في غمرة السير في هذه الرمال المتحركة يتعين بناء ذات وطيدة ملائمة واقامة أوسع تعاون وتحالف ممكن لحماية الشخصية الوطنية وحقوق ومستقبل شعبنا، نساء ورجالا، عاملين وأرباب عمل، وأجيالا جديدة.

وأخيرا يمكن ان يستفزكم التحالف النقابي الانتقائي للتيار السلفي، ففي بير زيت نعم وفي جامعة غزة أو النجاح لا.. وغير مؤكد ان في جعبة أحدنا حلا لهذه المشكلة، لكن ربما ان الحوار والمزيد من الحوار هو الخطوة الصحيحة، بل ينبغي الحرص ليس على اقامة تحالفات نقابية على أساس سياسي ، بل وينبغي الحرص ايضا على وحدة المنظمات الجماهيرية والنقابية عموما بحيث تتمثل كل القوى، بصرف النظر عن الانقسام السياسي وعلى أساس التمثيل النسبي في الهيئات الادارية، اذ لا يفيد شعبنا شرذمة مؤسساته وتفتيت صفوفه أكثر.

والان انتقل الى العلاقة بين الجبهتين:

قبل البحث في ملف الموضوع أرى ان أتعرض لقضية التحول، اي تحول أحزاب برجوازية صغيرة- ديمقراطية ثورية لمواقع اليسار.

وباختصار يمكن القول ان التجربة التاريخية في غير بلد قد برهنت على امكانية تحول شرائح ديمقراطية ثورية، اي الشرائح الاكثر ثورية وانسجاما في البرجوازية الصغيرة الى تنظيمات يسارية عمالية حالما يتوافر الشرط الذاتي المتمثل بقيادة يسارية لقيادة عملية التحول.

وبداهة ان عدة عوامل تمارس تأثيرها وتقرر هذه العملية، اضافة للشرط القيادي، أهمها ادارة الصراع داخل صفوف التنظيم الثوري الديمقراطي بين اليسار واليمين، اي يسار التنظيم ويمين التنظيم، بحيث يدور الجدل حتى نهاياته على كل الصعد الفكرية والسياسية والتنظيمية والاخلاقية، ودفع الامور بتدرج لترجيح كفة اليسار ورؤاه.

وعامل الالتحام بالجماهير وتبني قضاياها، فمثل هذا الالتحام يجعل مقاييس وارتباط وعواطف التنظيم أقرب للمضمون الطبقي الثوري، اذ ان الدفاع عن قضايا العمال والشغيلة يزرع الوعي الطبقي في التنظيم بل ويساعده على اكتشاف قانون الصراع الطبقي كتجلي لواقع اقتصادي- اجتماعي وبالتالي اسقاطاته الايديولوجية، وتبني قضايا المثقفين والمبدعين وحقهم باستخدام عقولهم وفتح المجال أمامهم يبعد التنظيم الثوري عن الغيبيات والتسلط ويجلعه منحازا للديمقراطية.. وان انحيازه للمرأة المضطهدة يدفعه لوضع يده على أسباب اضطهادها واستحالة تحررها بالكامل الا في ظل مجتمع اشتراكي متقدم.. الخ.

مثلما ان العامل الخارجي يمارس تأثيره ايضا، اذ ان الصراع بين الاشتراكية والرأسمالية على نطاق عالمي بما تمثله الثانية من سياسات استعمارية والاولى من حاضنة لحركات التحرر الوطني قد دل التنظيمات الديمقراطية الثورية على المعسكر الثوري وبين لها المعسكر المعادي، مثلما بين لها مزايا الفكر الاشتراكي ورسالته الثورية في التاريخ.

وعملية التحول هذه وصلت نهاياتها في عدة بلدان كما حركة ٢٦ تموز في كوبا التي قادها *فيدل كاسترو*، والنويات الثورية التي شكلت فيما بعد حزب العمل الكوري *كيم ايل سونغ*، وكذلك الحال بالنسبة للجبهة القومية في اليمن الجنوبي والجبهتين الشعبية والديمقراطية في فلسطين، ومنظمة العمل الشيوعي في لبنان، وحركات يسارية في السلفادور، والجبهة الشعبية في أنغولا، واتحاد المزارعين في بلغاريا وسواها...

اي لقد قال التاريخ كلمته.. أما الجدل في الساحة الفلسطينية في أواخر الستينات واوائل السبعينات بين الرأي الذي قاده الدكتور جورج حبش وبين الرأي الاخر، حيث قال الاول بنظرية التحول، فقد انتهى في أواسط السبعينات أو في أواخرها لصالح رأي الحكيم.. الذي برهن على نفسه من خلال ما بلغته الجبهة

الشعبية، فهي التنظيم اليساري الاقوى في الساحة، بل وقد خابت كل الدعايات المغرضة التي راهنت على انشقاق الجبهة في السنوات الاخيرة، اذ ان الكثيرين قالوا بأن كافة الفصائل الفلسطينية قد انشقت (**فتح – الديمقراطية– الشيوعي– العامة– العربية– النضال– الفلسطينية– الجهاد**) والان المؤشر يتجه نحو الجبهة الشعبية، غير ان مؤتمرها قد انعقد وخرجت موحدة الصفوف ووثائقها أقرت كحصيلة لورشة ديمقراطية استغرقت شهورا.

ولكيما انتقل لفكرة اخرى، فان الهوية الفكرية للجبهتين واحدة، هي الهوية اليسارية بمنهاجها المادي الجدلي التاريخي، بصرف النظر عن درجة الاتساق في استخدام المنهاج والاسترشاد بالهوية، سيما في ميدان اعادة انتاج النظرية بمقتضى أوضاع شعبنا.. مثلما ان الرؤية السياسية سيما في العامين الاخيرين قد تقاربت بشكل كبير وتقاطعت في مسائل كثيرة.. ناهيكم ان البنية التنظيمية للجبهتين وأنظمة عملها على قدر كبير من التشابه، وهذا حال تجربتهما الكفاحية المديدة.

وأريد ان استدرك هنا. فمقولة لينين التي تفيد "بأن حزبان احدهم انتهازي" قد فهمت بشكل جامد وغيبي.. فاستخلاص لينين هذا كان صحيحا في زمانه وضمن تجربته الروسية، وهي لا تشكل قانونا عاما للبشرية، بل ولينين لم يدع ذلك، ناهيكم ان اللينينية برمتها مرشد للعمل وليست عقيدة جامدة تسحب ميكانيكيا على كل زمان ومكان.

وها هي خمسة أحزاب يسارية مكسيكية بعضها انشق عن الاخر في وقت سابق او نشأ بمعزل عن الاخر قد توحدت مؤخرا في حزب واحد، وها هي خمسة أحزاب أو أكثر قد توحدت في السلفادور، ومن قبل وبعد عملية حوارية استمرت أعوام في السبعينات تشكل الحزب الاشتراكي اليمني، بينما في الستينات توحدت ثلاثة اتجاهات يسارية في اطار الحزب الشيوعي الكوبي... اي ليس غريبا، على التاريخ توحيد حزبين أو أكثر..
غير ان ثمة موضوعات خلافية لم تنفك قائمة بين الجبهتين أهمها:-

١- المرحلي والاستراتيجي.. في الوقت الذي يتمسك كليهما بالهدف الوطني القاضي بالعودة والدولة وتقرير المصير، وبالهدف الاستراتيجي الذي يضع حلا للصراع من جذوره، اي حلا للمسألة الفلسطينية والمسالة اليهودية معا في اطار دولة ديمقراطية، فان

برنامج الشعبية يتحدث عن المساواة بين المواطنين بدون تمييز ديني أو جنسي أو عرقي، بينما الديمقراطية تقول بالحقوق القومية للاسرائيليين، وغير معروف فيما اذا كان هذا الموقف الداعي للحقوق القومية يصل حد الاعتراف بدولة منفصلة أم لا.

وهذه نقطة برنامجية جدير مناقشتها وتوحيد الرأي حولها، علما انها مسألة نظرية، اي غير قابلة للتحقيق في الزمن المنظور، وهي بداهة تتصل بالنظرة للمشروع الصهيوني في فلسطين والمنطقة وفيما اذا كانت حركة تحرر أم غزوا استعماريا .. على أية حال هذا العنوان نعرج عليه لاحقا حينما نتناول السياسات الاسرائيلية.

٢- القانون الناظم للعلاقة مع اليمين البرجوازي الفلسطيني، فالشعبية تعتمد قانون وحدة - صراع - وحدة، بينما تعتمد الديمقراطية قانون وحدة- نقد.. الامر الذي جعل وتيرة صراع الشعبية مع قيادة عرفات عالية أحيانا ووصلت درجة الانسحاب غير مرة من اللجنة التنفيذية، بينما التاكتيك الثاني كان أقرب الى تخفيف وتيرة الصراع، وأحيانا التقاطع في لحظات طغيان التناقض بين الشعبية وسياسات القيادة الرسمية كما حال الانقسام أيام مؤتمر جنيف عام ٧٤، وكما هو عام ٨٥ حينما وقع اتفاق شباط بين الملك وعرفات وعشية انعقاد المؤتمر التوحيدي للمجلس الوطني عام ٨٧ حيث لوحظ ان المسافة بين الشعبية وفتح هي أكبر من المسافة بين الديمقراطية وفتح.. وان ترجمات هذين القانونين جعلت للجبهتين تاكتيكين وليس تاكتيكا واحدا.. طبعا بعد مدريد اقترب تحليل الجبهتين وتاكتيكهما وهذا هو الحال بعد توقيع اتفاق اوسلو، اي ان سياسات القيادة المتنفذة قد وحدت الفهم حيالها، وربما هذا يقود بالتالي الى تعديل القانون باتجاه معين طالما ان الجبهتين تقولان بالسقوط السياسي للقيادة الرسمية لـ م.ت.ف.

ومفيد الاشارة الى ان حماس قد نشأت خارج المنظمة وعملت ضمن علاقة صراعية وحسب.. وهي بذلك لم تخسر ، وهنا درس يستحق التأمل.

٣- هناك امور أقل جوهرية، ولكن من المفيد وضعها على طاولة البحث، مثل المركزية الديمقراطية، اذكيف تفهم كلا الجبهتين هذا القانون

التنظيمي، وشعار التجديد سواء على صعيد حزبي أو فكري.. كيف تفهمه الجبهتان، وهذا حال البعد القومي للصراع، وما جاء من فارق صياغي في برنامج الجبهتين بشأن اشكال النضال، فالشعبية اعتبرت الكفاح المسلح الشكل الرئيسي بمنظورها تفرضه الطبيعة التناحرية للصراع بصرف النظر عن الجاهزية وعدمها أو الطرف الملموس الذي يوجب أولويات اخرى احيانا، بينما الديمقراطية تعتبر الكفاح المسلح شكل أو شكل هام، لا اذكر بالضبط ما قرأته في مشروع برنامجها منذ وقت، اي بدون استخدام تعبير رئيسي.. فهل لذلك قيمة مستقبلية؟ مثلما ان الانتفاضة المجيدة وأشكالها ومفاعيلها أثارت تساؤلات واستخلاصات نظرية متعددة جدير بالجبهتين مناقشتها لتوحيد التفكير حيالها خشية ان يترك الغناء المنفرد بصمات متباينة على التفكير البرنامجي.

وقصارى القول... يفيد الجبهتين حصر مواضيع الاتفاق، ومواضيع الخلاف، والاستفاضة في مناقشة المواضيع الخلافية بروحية الباحث عن الحقيقة، اذ بدون تذليل هذه الموضوعات تكون أشبه بقنابل موقوتة من شأنها تفجير أية خطوات وحدوية.

ولا اتفق مع الاجتهاد القائل بأن توجهات الجبهتين الوحدوية ناتجة عن الأزمة المالية بغية تقليص الصرف من خلال الدمج على غرار عائلتين منفصلتين تتحدان في بيت واحد، فهذا الاعتبار لا يملك قوة توحيدية للجبهتين.. مثلما لا اتفق مع الاجتهاد القائل بان تراجع وزن الجبهتين سيما بعد انقسام الديمقراطية وتقدم المشروع السلفي كانا وراء قرارهما التوحيدي... اذ لا خلاف بأن توحيد صفوفهما يقوي المشروع الوطني – الديمقراطي .. غير ان اقامة محور يساري يكفي لهذا الغرض.. أما الدوافع الرئيسية فهي سوى ذلك وتتعلق بالتقارب الحاصل بين الجبهتين، اي بالعامل الذاتي، أما العامل الموضوعي فهو قد يعيق أو يسرع ولكنه ليس مصدر القرار والقناعة.

وهنا يجدر الانتباه الى أن قرار الجبهتين قد نص على بناء صيغة أعلى من تحالف وأقل من وحدة اي اتحاد وحسب، بل اتحاد يتحقق تدريجيا كتشكيل قيادة مشتركة، وتوحيد الدوائر العسكرية والمالية والأطر الديمقراطية، وفي حالة الخلاف لكل طرف حق التعبير..

واستطيع ان أستنتج ان الخطوات الاتحادية قد لامست أكثر النقاط حساسية، وانه في حالة النجاح تكون عربة الوحدة قد انطلقت فعلا، أقصد القرار السياسي والمالي كما القرار التنظيمي الديمقراطي.. فالاتفاق على الامور السياسية هو أشد الاختبارات صعوبة، كما ان التوحيد التنظيمي للأطر الديمقراطية التي لم تتوحد بعد حسب مسموعاتي، وان ما أنجزته لا يتعدى تأليف قيادات مشتركة، هو دليل ايجابي، وهذا حال الوحدة المالية في حالة تكوين صندوق مالي مشترك وتوحيد أنظمة الصرف.

وتحضرني هنا عبارة قالها ماركس، وهي على وجه التقريب : ان الشيوعيين الحقيقيين ينطلقون من مصلحة وأهداف كل الطبقة العاملة والشغيلة، بينما الاتجاهات الاصلاحية تنطلق من مصالح وأهداف فئات عمالية وحسب.. الجيد ان يرى المرء قوتين يساريتين تعملان بأفق طبقي ووطني عام متحررتين من الفئوية والمصالح الضيقة.

ويجدر الملاحظة ان الخطوات الاتحادية القائمة تنص على التمثيل المتكافىء، وهي تستوعب بداهة الخلاف والتعبير المنفصل، وكونها ليست وحدة اندماجية في حزب واحد فانه لا بأس من وجود خلافات وتباينات، على ان تتذلل هذه الخلافات والتباينات مع مرور الزمن، بل ويقتضى الاحتراس من حرق المراحل، اي السير بخطوات أكثر كلما توافرت شروط اللقاء أكثر..

فالمحتوى هو الذي يحدد الشكل فيما اذا كان اتحاديا أم اندماجيا أوافتراقيا، والمحتوى هو الخط الفكري- السياسي- التنظيمي- الكفاحي- الاخلاقي- المعنوي، اي كلما تشكلت أرضية أوسع كلما سارت عربة الوحدة أسرع.

وعليه فمن السابق لأوانه الحديث عن وحدة اندماجية في حزب واحد، وبالتالي عقد مؤتمر توحيدي ينبثق عنه مثل هذا الحزب الطليعي.

وشكرا على اصغائكم

رأي يساري في المسألة القومية

أراكم نشطاء هذا الصباح وتجسدون نموذجا لحب التعلم والمعرفة وانتم محقون، فموضوعنا اليوم يحظى بأولوية خاصة. أهلا بالجميع من أنصار الجبهتين وصباح الخير.

لا اجد تعريفا متفقا عليه بين المنظرين للمسألة القومية، شأن اية مسألة اخرى، حينما تتباين وتتفاوت التعريفات، ولكن من ناحية الجوهر يمكن قول ما يلي بشأن القومية العربية:

انها الرابطة او الروابط التاريخية التي توحد الناطقين بالعربية في هذه المنطقة الجغرافية بما نتج عن هذه الروابط من سمات نفسية وتقاليد ومصالح مشتركة، اي ان عناصر القومية هي *اللغة والارض والتاريخ والعادات المتقاربة والمصالح المشتركة* وحينما يتأمن لها حياة اقتصادية مشتركة تنتقل القومية الى مرحلة الأمة.

وانها اليوم التيار التحرري التغييري الذي يهدف الى تحرير الامة العربية سياسيا واقتصاديا وثقافيا وتوحيدها على أسس ديمقراطية راسخة تراعي الجمع بين القطري والقومي بما يتطلبه ذلك من تدرج وانطلاق من متطلبات التوحيد الاقتصادي المتدرج الذي يصاحبه توحيد تشريعي وسياسي متدرج يتمخض عنه كمحصلة عامة كعملية تاريخية الوحدة السياسية والوحدة الاقتصادية وبناء الجيش الواحد..الخ، أي مجمل ما تطرقنا اليه في مداخلة الثورة الوطنية الديمقراطية.

وانها الدفاع عن حقوق الامة ومساواتها بالأمم الأخرى، على قاعدة المساواة والإخاء بين المواطنين والأمم بدون تمييز داخلي او شوفينية خارجية، وفي سياق ذلك بداهة تسوية مشكلة الاقليات القومية في العراق والجزائر والسودان...الخ.

ويجدر الانتباه الى ان اي تجاهل او غبن يلحق بالأقليات القومية كما الاكراد في شمالي العراق او الأقليات في جنوبي السودان او بدير الجزائر، من شأنه ان يتوالد عنه صراعات دموية، مثلما ان أية توجهات وحدوية لا تجد حلا

للتناقض بين القومي والقطري وتفاوت التطور والثراء، تقود الى الفشل المحتوم كما لاحظنا في التجارب الوحدوية العديدة منذ أواخر الخمسينات، مثلما ان اي تمييز ديني بين المواطنين خلافا لقوميتهم المشتركة يحمل بذور الاحتراب الديني ويهدد وحدة الشعوب العربية ويفتح البوابات للامبريالية واسرائيل للعبث في الساحة الداخلية، فكيسنجر منذ السبعينات يراهن على الصراع الطائفي الذي راينا تأثيره في الازمة اللبنانية منذ عقدين ويزيد.

وان القومية العربية قد تمازجت مع الدين الاسلامي منذ أكثر من الف عام فالفتح الاسلامي الذي انطلق من الجزيرة قبل حوالي ١٤٠٠ عام شمل سوريا والعراق ومصر وشمالي افريقيا.. حيثما انتشرت اللغة العربية التي هي لغة القرآن وبالتالي اللغة الرسمية التي سادت في أرجاء المنطقة العربية، فتركت بصماتها على التكوين النفسي والاخلاقي للناس، وقد استمرت عملية الصهر هذه على امتداد القرون، ولكن في القرنين الاخيرين شعر العرب بنتائج الحكم العثماني واخذت تتشكل ارهاصات استقلالية لديهم لم تستكمل مسارها للنهاية الظافرة ذلك أن الغرب الرأسمالي توارث ممتلكات ومناطق الامبراطورية العثمانية الاقطاعية التي نهشها الوهن في القرنين ١٨+١٩ وانهارت تماما في اوائل القرن ٢٠.

وحركة القومية العربية، بداهة، هي حركة عصرية نهضوية تستند الى ما هو بناء في التراث والذاكرة الشعبية ولكنها تمضي للأمام بغية عصرنة المجتمع العربي ، فهي لا تتوقف ولا تسعى للعودة للوراء، ليس لأن العودة مستحيلة فقط، بل لان الماضي لا يحمل الايجاب فقط وانما بجانبه السلب ايضا، علاوة على ان الماضي لم يعد كافيا لمتطلبات الحياة المعاصرة كذلك... فأجمل وأفضل ما في مجتمع البداوة الرعوي في الجزيرة وما تلاه من تطور تجاري وزراعي وحرفي واقطاعي على صعيد الانتاج المادي والثقافي والفني والقيمي، منذ الف وخمسمائة سنة وحتى اليوم، لا يكفي حاجات المجتمع المعاصر اذ ثمة ثورة رأسمالية عظيمة اجتاحت التاريخ، وثمة ثورة اشتراكية عظيمة اجتاحت التاريخ وهذه وتلك لها منجزات هائلة مادية ومعنوية وعلمية وفنية و...و... وهذا عرجنا عليه ذات مرة.

ولكن من الطبيعي ان نصون هويتنا التراثية وشخصيتنا القومية بالارتكاز على ما هو ايجابي في تاريخنا، ولكن بدون حصر أنفسنا ضمن سقف الماضي فقط، فقومية من هذا القبيل لا تصمد في وجه أطماع الامبريالية ولا تستطيع تأمين حياة حرة وكريمة للمواطنين، فما كان يصلح بالأمس لم يعد كافيا وبعضه لم يعد صالحا اليوم.

والقومية العربية تقدمية قطعا تمثل اهداف الجماهير ويحمل لواءها الجماهير، وان انتكاساتها والانكفاء على الشأن القطري اليوم، أو نمو التيار الديني لا يعنيان أفول مبرراتها الاصلية، فهي حلم الجماهير العربية وجسر عبورها للعصر والتطور وبدونها يبقى العرب مئة شظية وشظية تلهبهم سياط الاستعمار وتنهبهم شركاته، بل ان الدين الاسلامي الذي وحد الامة العربية وأمم اخرى تحت لوائه في زمن ماضي لا يستطيع ان يقفز عن حقائق القومية اليوم، بل والقومية تحدي نظري متشعب مطالب الدين بأن يقدم اجابته السديدة عليها، وان دخول الحركات الدينية في تناقض جبهي مع الاتجاه القومي البرجوازي والاتجاه القومي اليساري لا يفيد الامة العربية في شيء.. اذ ان المشروع الوطني- الديمقراطي الوحدوي النهضوي الذي يضم كل التيارات المتقاطعة على أرضيته بصرف النظر عن عقائدها الفكرية هو قارب نجاة الامة العربية.

وليكن جليا ان الرابطة الدينية ليست بديلا عن القومية، فالقومية التقدمية تنطوي على الثورة الاجتماعية الطبقية ضد الاستغلاليين مثلما انها تنطوي على الحرية الدينية وما هو أصيل في التراث ولا نلغي العاطفة الدينية بتاتا.

وعلى التيارات والقوى الاجتماعية والاحزاب السياسية التي تؤمن بالقومية العربية، بمضمونها التقدمي الذي اتينا عليه، ان تبقى مخلصة ووفية لهذا الهدف البرنامجي الكبير وان تشرحه بمزيد من العمق والدأب ناقدة كل ما هو سلبي وشائخ في التجارب القومية السابقة، فلا استقلال ولا تنمية حقيقية ولا أمن الا في اطار الاستقلال القومي والتنمية والأمن القومي، أما الانكفاء القطري فلم ينشأ عنه الا المزيد من التجزئة والصراعات وتفاوت الثراء والتبعية للغرب الرأسمالي، بل وليست صدفة ان تقاوم الامبريالية أية توجهات قومية وحدوية ذات مضامين شعبية وقواعد ديمقراطية حقيقية.

والان أستميحكم عذرا لمواصلة العرض من زوايا أخري وأعم. أن القضية القومية تشمل العالم الثالث، أى نحو ٢،٥ مليار نسمة وتزيد، وبصورة أدق العالم المتخلف المنهوب سواء كان عالما ثالثا أم رابعا أم ... ذلك أنه داخل السلسلة الرأسمالية المتطورة التي تضم أمريكا وأوروبا وأستراليا وكندا توجد حلقات أقل تطورا كما أسبانيا والبرتغال واليونان فيما العالم الثاني الاشتراكي انهارت أهم حلقاته ؛ الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية وهي تعيش حالة مخاض بين العودة للرأسمالية أو الحفاظ على الاشتراكية ناهيكم عن الدمار الاقتصادي وغير الاقتصادي الذي لحق بهذه البلدان نتيجة الثورة المضادة الى درجة ان بعض

الحلقات غدت اقرب الى العالم الثالث اما سلسلة البلدان في امريكيا اللاتينية وافريقيا وآسيا التي كانت تصنف كعالم ثالث فقد كسرت عدة بلدان دائرة التخلف وقطعت شوطا لا بأس به في ميدان التصنيع والتكنولوجيا كما كوريا الجنوبية وتايوان والهند والبرازيل وبعض البلدان العربية النفطية...
وبالتالي تأخرت بقية حلقات السلسلة وغدت عالما رابعا او خامسا.
وعليه فالمسألة القومية تعني أولا دول المحيط اكثر مما تعني دول المركز والبلدان الاشتراكية.

تعلمون ان *ماركس* قد تنبأ في زمانه بامكانية قيام الثورة السياسية الاشتراكية في البلدان الأكثر تطورا غير انه مع تنامي قوة رأس المال والدواوينية والجيش بات من المتعذر حدوث الثورات الاجتماعية في هذه البلدان اولا، وانتقل مركز ثقل الثورة الى الحلقات الأضعف في السلسلة الرأسمالية، وهذا كان احد الاسهامات النظرية *للينين* الذي حلل زمانه تحليلا صائبا بل وقاد ثورة اكتوبر كصدقية لتحليلاته، وهو الذي أفرد حيزا للمسألة القومية سيما للعلاقة بين الاستعمار والشعوب المضطهدة التي دعاها للثورة ودعمها عمليا.

وكانت الرأسمالية في النصف الثاني من القرن ١٩ سيما في أواخره، قد انتقلت الى الطور الامبريالي الذي تميز بسمات أساسية أهمها:-

١- نشوء الاحتكارات باتحاد الرأسماليين في اتحادات متنوعة سواء من ذات القطاع الاقتصادي او عدة قطاعات كما السنديكات والتروستات والكارتيلات والكونسورتيومات.. طبعا حاليا توجد الشركات متعددة القومية بل والرأسمال العالمي يوحد مراكز نفوذه للسيطرة على البشرية والتحكم بالتاريخ.

ب- تكون الرأسمال المالي اي اتحاد الرأسمال الصناعي مع الرأسمال البنكي ويكفي القول اليوم ان ٣٠ شركة عالمية تسيطر على ٧٠٪ من ثروة البشرية.

ج- تصدير السلع ورأس المال وتقسيم العالم الى مناطق نفوذ، أي تصدير الدول المتطورة سلعها الى العالم المتخلف كما أنشاء المشاريع فيه لتأمين ربحية أعلى بالنظر الى رخص الأيدي العاملة والمواد الخام... وبالتالي اقتسام هذا العالم بين الشركات والدول الرأسمالية.. فجنوب شرقي آسيا

منطقة نفوذ ياباني، والأرجنتين والبرازيل منطقة نفوذ اسباني والخليج والجزيرة والعراق منطقة نفوذ بريطاني والجزائر وتونس والمغرب منطقة نفوذ فرنسي.. وهكذا دواليك.

وفي ظل ما تعرضت له المستعمرات من غزو ونهب نظر *لينين* لحركات التحرر الوطني كجزء من الحركة الثورية الاشتراكية ضد الرأسمال العالمي وكتب العديد من المقالات والكراسات التي دعا فيها لحق الشعوب في تقرير المصير، بل وهو أول من أكسب هذا المصطلح معاني الحق بالاستقلال التام واختيار طريق التطور متجاوزا طروحات اصلاحية من نوع الحكم الذاتي او الاستقلال الثقافي او الديني، ومنذئذ انتشر المفهوم اللينيني وغدا مبدأ في عصبة الامم، وفيما بعد الامم المتحدة، بل وحينما انتصرت ثورة اكتوبر الاشتراكية التي امتدت على رقعة واسعة، منح حق تقرير المصير للشعوب الاسكندنافية التي اختارت الانفصال بخلاف الجمهوريات الجنوبية كأذربيجان واوزبكستان وقرغيزيا.. الخ التي اندلعت فيها ثورات ظافرة وانضمت للاتحاد السوفييتي الذي تكون على مراحل بدأت عام ١٧ وانتهت عام ٢٤ بل ان جمهوريات البلطيق التحقت بالاتحاد السوفييتي (لاتفيا- ليتوانيا- استونيا) عام ١٩٤٤. والقيصر الروسي لم يعترف بحق الشعوب في تقرير المصير بل لقد استعمرت القيصرية نصف الاقطاعية - نصف البرجوازية العديد من الشعوب، ناهيكم ان النظام القيصري قد قمع الشعب الروسي والاوكراني اي لم يعترف بحقوق الشعب الذي ينتمي اليه، فما بالكم الشعوب الاخرى.

أما بعد انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية التي اطاحت بالنظام القيصري، فقد أسست لسياسة جديدة في معالجتها للمسألة القومية سواء للقوميات التي انتمت للاتحاد السوفييتي ام للقوميات المستعمرة منذ العهد القيصري، وكان جوهر هذه السياسية يقوم على حق الامم في تقرير المصير والاتحاد الطوعي على أسس ديمقراطية، والتضامن الاممي بدعم الثورات والشعوب كما المساواة بين القوميات، ومنذئذ شرع الاتحاد السوفييتي بتقديم المساعدات العسكرية والاقتصادية لحركات التحرر.

وهزيمة النازية الهتلرية والفاشية في ايطاليا واليابان في الحرب الكونية الثانية حينما كان للاتحاد السوفييتي نصيب الاسد في التصدي لجحافل دول المحور بل وكانت فاتورته نحو ٢٠ مليون قتيل و٤٠ مليون

جريح وتدمير ٢٠ الف مدينة وقرية، خلفت هذه الهزيمة مناخات دولية ساعدت العديد من شعوب المستعمرات على الثورة وانتزاع النصر حيثما استقلت سياسيا عشرات البلدان منذ عام ٤٥ الى عام ٥٥، بل وتواصل التيار الثوري مكتسحا مواقع اخرى كانت تحت السيطرة الاستعمارية.
وبداهة يمكن النظر لاستقلال العديد من البلدان العربية ضمن هذا السياق.

ولكن ثمة استقلال واستقلال، تحرر وتحرر، اي هناك فارق بين علم ودولة في الأمم المتحدة وبين استقلال حقيقي سياسي واقتصادي وثقافي. وكان المنظور اليساري يقضي بالمنظور الأعمق والأكثر تجذرا علي غرار الثورة الصينية والفيتنامية والكوبية. أما عشرات البلدان الأخري التي نالت الاستقلال بدءا من الهند والباكستان مرورا بالأرجنتين ومصر والعراق وصولا الي نيجيريا والكونغو وسوريا ... الخ فقد سارت خطوات كثيرة علي طريق بناء دولا فتية علي الصعد الاقتصادية والثقافية والعلمية والمؤسساتية ...الخ. ولكنها في نهاية المطاف وبعد عقود من الزمن، وبتفاوت، صعدت الي سدة الحكم شرائح طبقية ونخب سياسية تبعت الامبريالية بهذا القدر أو ذاك ودارت في فلكها.

ومع مرور الزمن اتضحت هذه التبعية اكثر فأكثر وارتدت القيادات والفئات التي قادت النضال الوطني وذلك اتصالا بالتحولات الطبقية التي جرت عليها بانتقالها من مواقع البرجوازية الصغيرة المناضلة الى مواقع البرجوازية الكبيرة والمتوسطة والخدماتية والكومبرادورية والبيروقراطية المرتشية.

وعليه فقد خرج الاستعمار من الباب ليعود من النافذة حسب تعبير *"فرانز فانون". **فكيف تتجلى اذن التبعية والعلاقة الاستعمارية بالغرب الرأسمالي؟***

١ من خلال النهب، ولئن كان قد مضى تاريخيا زمن النظام الاستعماري اي الغزو العسكري من قبل الدول الرأسمالية وما قبل الرأسمالية كما حال أمريكا وأوروبا واليابان وروسيا القيصيرية لقارات أمريكا اللاتينية وآسيا وافريقيا، ولئن كانت هذه القارات قد طردت الوجود العسكري الامبريالي عموما فيما عدا قواعد هنا وهناك وبالتالي طرد النظام الاجنبي الذي كان يحكم هذه القارات، فقد حل قانون التبادل اللامتكافيء بين دول المركز الامبريالي، المتمثل حاليا بأوروبا الرأسمالية وأمريكا واليابان التي تنهب ثروات شعوب العالم المتخلف، والمركز ينهب المحيط من خلال علاقات تجارية غير متكافئة، وربما

سمير أمين الاقتصادي المصري كما *فيدل كاسترو* هما أفضل من حلل وشرح هذه العلاقة النهبية.

والعملية تتم من خلال بيع دول المركز لبلدان المحيط سلعا مصنعة بأسعار عالية، فيما تبتاع منها مواد خام بأسعار زهيدة، فأرباح أمريكا على سبيل المثال من التجارة الخارجية سنويا تصل لـ ٢٥٠ مليار دولار، وعلى ذلك يمكن القياس، بل وبشاعة هذا التبادل اللامتكافيء يمكن تلمسها حينما نتذكر ان الفارق في معدل الاستهلاك بين الفرد في دول المركز ودول المحيط يصل الى ٣٠ ضعف، و *رابين* صرح على سبيل المثال ان دخل الفرد الفلسطيني يصل لـ ٨٠٠ دولار سنويا بينما متوسط دخل الفرد الاسرائيلي ١٣،٥ الف دولار أي اكثر من ١٥ ضعفا.

و *كاسترو* تحدث عام ٨٥ بأن القوة الشرائية للمواد الخام تراجعت منذ عام ٦٥ الى عام ٨٥ بنسب اضطرادية وصلت الى ٢٥٪ اي ان برميل النفط او طن الفوسفات او الاخشاب غدا يشتري بعد عقدين ب ٢٥٪ مما كان يشتريه من قبل. وفي النتيجة اتسعت الفجوة بين عالم المركز وعالم المحيط.

٢ من خلال احتكار التكنولوجيا أجيال عديدة منذ استخدام الآلة البسيطة فالكهرباء، فالانتاج الثقيل وأخيرا استخدام الالكترون. ودول المركز تنتج باستمرار مكائن افضل فأفضل، وأخر ما ابدعته هو الكمبيوتر والرجل الآلي، وهي تبيع لبلدان المحيط سلع كالسيارة والطائرة والثلاجة والباخرة، ولكنها بداهة لا تبيعها المصانع التي تنتج هذه السلع، ونادرا تبيعها مصانع، ولكنها مصانع لا تسمح لها بالاستغناء عن سلعها، وغالبا ما تكون هذه المصانع من أجيال مضى أوانها وباتت متخلفة وأحيانا يجري انشاء مشاريع برأسمال مشترك حكومي او خاص في البلدان النامية مع شركات رأسمالية من دول المركز، ولكنها كمحصلة تكرس التقسيم العالمي للعمل (مركز منتج ومحيط مستهلك) بينما الافلات من هذا التقسيم يبقى محدودا... وأحيانا يجري تجميع بضاعة معينة في بلد نامي، بينما أجزاء هذه البضاعة تستورد من الخارج كنوع معين من السيارات في مصر او ثلاجة او تلفزيون في الاردن؛ أما كعملية متكاملة الحلقات فهذا متعذر كقانون عام.

اما أخر تصاميم التكنولوجيا فهذا غير متاح تداوله خارج دول المركز، بل ورهان غورباتشوف على التكنولوجيا الغربية حاز على فشل بامتياز.

وليكن جليا ان العالم الرأسمالي قد استغرق في بناء صناعته نحو ثلاثة قرون، وأخر طور عاصف كانت الثورة التقنية التي تقوم باعادة تشكيل المجتمع البشري وكتابة التاريخ لانها تمارس عن وعي ودراسة احتكار التكنولوجيا بحيث يضمن العالم الرأسمالي لنفسه التفوق والتحكم وفي ذات الوقت حرمان شعوب العالم النامي من هذا الانجاز العلمي الباهر، بل ويستخدمه لأغراض سياسية تركيعية تكفل له الهيمنة والنهب.

٣ من خلال المديونية، وهذا سلاح اخر يتسع نطاق استعماله سيما في العقدين الاخيرين، فصندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومؤسسات اقراضية اخرى عديدة ناهيكم عن الحكومات الرأسمالية ذاتها هي مصادر الاقراض وهذه كلها، مثل تشكيلات مختلفة لاتحاد الرأسماليين، تجري بين ايديها مبالغ فلكية بالتريليونات من الدولارات، وهي لا تقرض بفائدة فقط على نفس مبدأ البنوك الصغيرة المحلية، بل وتضع القيود على القروض فتمنح هذا وتحجب عن ذاك، وتتدخل في مجال الانفاق والاستثمار بل وفي التخطيط الاقتصادي بمجمله، كأن تطلب من مصر مثلا الغاء المساعدات الحكومية للمواد الأساسية فينتج عن ذلك زيادة في أسعار الخبز والزيت والسكر بما هو أكثر من طاقة الجماهير الشعبية، أو رفع الضرائب، أو السماح بالاستثمار في القطاع السياحي أو تخصيص قرض لبناء شبكة هواتف أو مجاري بينما حظر الاستثمار في قطاع صناعي معين..الخ.

وكثيرا من هذه المشروعات هي ذات طابع خدماتي تنجزها شركات رأسمالية غربية، بل وكثيرا منها هو في عداد الفاشل ضمن معايير الجدوى الاقتصادية، وهي بداهة لا تؤسس لبناء قاعدة انتاجية صناعية وزراعية استقلالية، بل تعزز التبعية للعالم الرأسمالى سواء من خلال القروض والفوائد أو من خلال تغليب الطابع الاستهلاكى علي الاقتصاد المحلي.

وبداهة ان الشرائح العليا الكمبرادورية والبيروقراطية فى العالم النامى مستفيدة من هذه القروض سواء بتسخير أجزاء منها كرواتب لهم، أو من خلال العمولة التى يحصلون عليها نتيجة تسويقهم للمنتجات الغربية أو التعاقدات مع العالم الغربي، وأحيانا تكون الشركات صريحة، بأن يستأثر الحكام وأوساط معينة بنسب محددة من هذه القروض.

والدليل القاطع علي أن المديونية خط فاشل في التنمية هو الفجوة المتسعة بين المركز الامبريالي وبلدان المحيط، بينما ترتفع المديونية سنة بعد سنة، وأخر الارقام تتحدث عن ١،٣ تريليون، اي ١٣٠٠ مليار دولار، فائدتها السنوية تربو على مئة مليار -- والأنكى من هذا ان غالبية المبلغ هو تراكم للفائدة حينما تعجز البلدان النامية من التسديد فتعاد جدولة الديون فيما تتواصل الفائدة ولهذا بالضبط فان ربحية المؤسسات البنكية الدولية هي ربحية عالية وتفوق كمعدل وسطي ربحية المؤسسة الصناعية.

ولو أخذنا المنطقة العربية كمثال لأمكن ان نلاحظ بيسر بأن مديونية العرب تناهز ٣٠٠ مليار بينما للبلدان النفطية العربية ودائع في البنوك الغربية تتعدى ٧٥٠ مليار، بل وها هم العرب رغم الثروة النفطية التي يبلغ عائدها السنوي نحو ١٧٠ مليار دولار ورغم ما تملكه المنطقة من ثروات طبيعية وحيوانية يستوردون نحو ٧٠٪ من غذائهم، هذا ناهيكم عن استيراد السلع الصناعية مدنية كانت أم عسكرية، بدون أن ننسى أن كل ذلك خرب الصناعة الوليدة سيما في المشرق العربي.

ودعونا نعود للوراء قليلا الى التاريخ العربي -- لقد اصطلح على تسمية المرحلة ما قبل الثورة الاسلامية بالعصر الجاهلي، وانني شخصيا لا أعرف لماذا هذه التسمية، فتلكم المرحلة هي مرحلة تاريخية مر فيها المجتمع الجزيري وكانت تطغى فيها المشاعية القروية، حسب توصيف الدكتور *الطيب تيزيني*، اي بدو رحل وقرى شبه ثابتة حيثما يتوافر الأكل والكلأ، بما يرتبط بذلك من اقتصاديات بدائية تعتمد على الرعي والزراعة المحدودة فضلا عن التجارة، كما تشيع الطقوس الدينية ... الخ. طبعا لا يجوز ان ننسى الاحناف التوحيديين من أتباع ابراهيم الذين كانوا يؤمنون بالله، كما اليهود الذين كانوا يحملون نفس المعتقد، وبالتالى ممارسة العبادات، بما في ذلك الطواف حول الكعبة، فضلا عن عبادة الأصنام ومعتقدات قبلية عديدة هي أشبه بمعتقدات آمنت بها شعوب وقبائل اخرى في أزمان غابرة، كالأيمان بالفيتشية او الطوطمية، أو بقوة غير مرئية معروفة في التاريخ.

لما قامت الثورة الاسلامية، وهي من الثورات العظيمة في التاريخ بزعامة *النبي* محمد، وكلمة نبي كما يبدو تعني تخمين واستنباء المستقبل، أي أنه يعمل مشروعا مستقبليا لتحرير الناس وتأمين سعادة لهم، وقد نجح بالفعل بعد عقد من العمل السري تقريبا في مكة وبالتالي اكثر من عقد من العمل العلني في المدينة،

حيث أقام حكما أشبه ما يكون بحكومة ثورية، وبعدئذ اجتاح مكة وحررها من أسياد قريش ووحد الجزيرة وأسس جيشا مركزيا واحدا، وفي زمن عمر الذي حكم كما اعتقد اكثر من عقدين، فيما *ابو بكر* كان طاعنا في السن وعمره يتجاوز ٨٠ سنة لم يحكم سوى عامين ونصف كما أذكر، اي ان الفاروق عمر وهو شخصية محترمة جدا في تاريخنا حيث بلغت الفتوحات الاسلامية في زمانه فلسطين وسوريا ومصر..الخ بل وشرع باقامة نظام للدولة الفتية المتوقعة، وعلى امتداد قرنين حافظت هذه الدولة على وحدتها رغم الصراعات الداخلية الدامية، وامتدت الى شمال افريقيا وبعدئذ الى الاندلس، كما الى بلاد فارس والمغول ونحو اجزاء محدودة في الهند والصين.. ولكن بعدئذ تصدعت وفقدت مركزيتها، اي اننا نحن العرب أقمنا دولة مركزية شملتنا وشملت شعوب اخرى قبل ان تعرف أوروبا الدول المركزية، بل ولم يكن ذلك بالتحول الرأسمالي كما كان حال التاريخ الاوروبي الحديث، اي أن لنا خصوصية لا يجب ان ننساها.

والسؤال: ***ما هو نمط الانتاج الذي ساد في العهد العربي الاسلامي على امتداد القرون؟ وهو عهد عربي – اسلامي بعدما تمازجت عناصر القومية بعناصر الدين.***

أولا: لقد اعتبر سمير *امين* في احد مؤلفاته أن نمط الانتاج الضريبي – **التجاري** هو النمط الذي ساد طويلا ، ولو أردت الاضافة عليه لقلت ان المظهر الرئيسي كان نمطا ضريبيا–تجاريا، ذلك ان أنماط اخرى عاشت وتعايشت مع النمط الرئيسي الذي يمكن تعليله على النحو التالي:

لكيما تتوافر مداخيل للدولة المركزية ذات الجيش القومي والجهاز الاداري واسع الانتشار ومساعدة الفئات الأشد عوزا كان لا بد من ضرائب (زكاة المسلمين+ جزية أهل الذمة+ خراج الاراضي المفتوحة) فضلا عن ريع ممتلكات الدولة والاراضي المستقطعة..الخ. هذا على صعيد الشق الضريبي.

وبالنسبة للشق التجاري فقد كان هناك علاقات تجارية نشطة ما بين الجزيرة وفيما بعد بين أقاليم الدولة الاسلامية وبين أفريقيا والهند والصين وأوروبا ساهم في ذلك ما تمثله المنطقة العربية من عقدة مواصلات بين القارات الثلاثة، ذلك ان قارتي أمريكا واستراليا لم تكونا "مكتشفتين" بعد وتقطنهما قبائل محدودة العدد، مثلما ان قارة انتركتيكا، التي اكتشفت في العقود الاخيرة، هي خالية من السكان، أي أن المنطقة العربية كانت سوقا نشطة للعالم القديم بما يتولد

عن ذلك من أرباح هي في معظمها ليست انتاجا محليا بل انتاجا من هذه القارة لتلك عبر الجسر العربي الاسلامي.

وفضلا عن النمط الضريبي – التجاري هناك أنماط اخرى:

أ – **الاستثمار الفلاحي**، حيث الزراعةالمحلية لتلبية الاحتياجات المحلية والبيتية.

ب – **نمط الانتاج الاقطاعي** الذي كان أكثر انتشارا ودام فترات أطول فى الأقطار المائية، سيما العراق وسوريا ومصر واليمن، وهذا استمر عبر السنين الي أن امتت التحولات البرجوازية فى النصف الثانى من هذا القرن أراضى الاقطاعيين ووزعتها علي الفلاحين، وتحديدا علي يد نظام عبد الناصر والبعث ...

ج – **الانتاج الحرفى** سيما معالجة المعادن والخشب ونسج السجاد ... كصناعة يدوية بدائية كان يمكن أن تتطور لولا العوامل الكابحة. ومما يجدر ذكره أننا قد سبقنا أوروبا بمئات السنين في هذا المضمار، غير ان هذه العملية توقفت ولم تواصل ديناميكيتها.

د – **الأرض المشاع** التي كانت تستخدم للرعى أو بدون استخدام علي الاطلاق، سيما الصحارى الواسعة.

ثانيا: رأي اخر يقول بأن ما كان قائما هو نمط انتاج آسيوي، اي تداخل تشكيلتين اقتصاديتين– اجتماعيتين في مرحلة تاريخية واحدة، اي تشكيلة الاقطاع وتشكيلة الرق. اي تواجد في نفس المرحلة الآسياد الذين يملكون الانتاج من أراضي وتجارة وسواها جنبا الى جنب مع امتلاكهم للعبيد، وفي ذات الوقت نمط الانتاج الاقطاعي حيث الارستقراطية تملك الاراضي الزراعية وتشغل فيها الاقنان فيما الريع العقاري الذي ينتجه الاقنان يعود للاقطاعيين، ولكن في داخل نفس المرحلة يتواجد ايضا الاستثمار الفلاحي الخاص والحرفي والممتلكات المشاعية التي تعود للحكم وللوطن، بل وكان أهل الحكم يملكون حق الاستقطاع من ممتلكات الناس، وحق قطع أراض وثروات للقادة والموظفين والولاة، وفي ذات السياق يمكن الحديث عن الضريبة بمختلف تسمياتها فضلا عن الاشراف على نظام الري من قنوات وسدود، بدون أن ننسى الحركة النشطة للتجارة الداخلية والخارجية.

وفي الوقت الذي يركز أصحاب الرأي الاول على النمط الضريبي – التجاري، يركز أصحاب الرأي الثاني على تداخل النمطين، الرقي والاقطاعي، بل ويمكن ان نجد في كتابات *ماركس ولينين* مختصرات في توصيف نمط الانتاج الآسيوي من (تداخل التشكيليتين+ سلطة مركزية+ احتكار التجارة الخارجية من قبل أهل السلطة+ عمومية العبيد، اي ان الحكام يملكون ما يكفي من سلطة للتحكم بالناس وممتلكاتهم..+ قصور الديناميكية الداخلية اي تباطىء التطور وكبح الياته بالنظر الى الاستهلاك العالي للسلطة سواء للجيش او لجهازها البيروقراطي، وللترف حيث يورد *العفيف الاخضر* على سبيل المثال قصة زواج هارون الرشيد من زبيدة التي لم تستطع الوقوف على قدميها نتيجة ما حمله جسمها من مصاغ وألبسة حريرية.. فضلا عن حياة القصور، بصرف النظر عن سياساته وقتاله للاعداء. وكتب التاريخ زاخرة بترف الامراء وتبديدهم لثروات هائلة كما وحال حكام العرب اليوم الذين بددوا عائدات النفط، وبقطع النظر عن توصيفات *ماركس ولينين* التي يستنتج منها رؤيتهم لخصوصية العالم الشرقي في تعاقبه التاريخي، المختلف عن التعاقب التاريخي لاوروبا، فان علينا الافادة من هذه التوصيفات العامة لتمحيص ما ينطبق منها على تاريخنا العربي، بل والأهم من ذلك أن ندرس تاريخنا بأنفسنا، *فاهل مكة ادرى بشعابها*، بل وعلم الاجتماع اليوم وعلم الاقتصاد وعلم السياسية هي أغنى بما لا يقاس عن الفترة التي حلل فيها *ماركس* ومن بعده *لينين* نمط الانتاج الآسيوي، بل وهما أنفسهما يدعوان للاسترشاد بنظريتهما بدون اقتباسها او فصلها عن ظروفها.

وليس غرضي مما اسلفت الانحياز لاحد المنظورين وأنما تبيان الخصائص التاريخية التي مهدت لما عانيناه لاحقا من غزو اجنبي. وقد سبق الغزو الاوروبي الاستعماري، الذي جزأ الامة العربية واستوطن فلسطين، العهد العثماني الذي استمر نحو أربعة قرون تحت عنوان "الخلافة الاسلامية"، وهنا لا نبتغي تقويم هذه الفترة الطويلة، ولكن حسبنا القول ان جمودا أصاب المجتمع العربي بيما كانت تتأهب اوروبا لاقتحام المرحلة الرأسمالية وما نتج عنها من تحولات عميقة أتاحت لها قصب السبق وبالتالي استعمار المنطقة.

وقد تميز العهد العثماني، حينما سيطرت الشرائح العليا من النبلاء والعوائل الاقطاعية، بفرض الكثير من الضرائب على العرب، الشيء الذي أنهك قواهم الاقتصادية، فضلا عن حكم الاتراك لهم بدون مراعاة لخصائصهم القومية، اذ لم يتم استيعاب عصر القوميات كأحدى الحقائق التاريخية في القرنين الاخيرين، ظانين ان الدين، وبصرف النظر عن فهم الاتراك له، بديلا للقومية بل وتجييرا

للاقاليم العربية وسواها لخدمة مصالح الفئات الاستقراطية المترفة في استانبول وامتداداتها الطبقية.

وفي الزمن العثماني احتل الفرنسيون الجزائر واحتل البريطانيون عدن وقام نابليون بمغامرته في مصر، وبعدئذ احتلت بريطانيا مصر كما انتشرت الامتيازات الغربية وسواها بما مهد للسيطرة سيما بعد اكتشاف النفط في القرن اللاحق، فضلا عن ارساء جذور المشروع الصهيوني ببناء أول مستوطنة في فلسطين عام ١٨٨٢م.

وكان من البديهي ان لا يقوى "الرجل المريض" كما اطلق على تركيا في أواخر القرن ١٩ على التصدي للمشاريع الاستعمارية الاوروبية، وبشكل أخص اتفاقية **سايكس – بيكو**.

ولا حاجة بنا للتتبع التاريخي منذ بداية القرن الحالي وحتى اللحظة، بل ان المداخلة لا تستهدف ذلك، ولكن ما يجب الاشارة له ان انهيار الاتحاد السوفيتي وعودة الرأسمالية الى غالبية جمهورياته قد أفقد العالم النامي بما في ذلك الامة العربية نموذجا ملهما، بقطع النظر عن أية ملاحظات ومآخذ، مثلما غاب الحليف المساند لنضالات الشعوب الثائرة ضد الامبريالية.

وبعدما اصبحت امكانية بناء رأسمالية قوية في العالم النامي متعذرة ذلك ان الامبريالية تعيق مثل هذه العملية خشية بروز منافسين لها من جهة وتحرر هذه البلدان من التبعية من جهة اخرى، ناهيكم عن عدم جراءة البرجوازية في العالم النامي حيثما هي في أغلبيتها قطاعات مجهضة وتعيش على هامش الامبريالية فلا تمضي بعيدا في صراعها ضد الرجعيات المحلية، بل لقد انتقلت هي ذاتها الى معسكر الرجعية والبرجوازية المرتدة كما نلاحظ علي صعيد عربى، ويندر أن نلاحظ نزعات تقدمية تصنيعية أو استقلالية ولو ضمن حدود ضيقة كما الحال فى التجربة الهندية والبرازيلية وبقدر أقل العراق وليبيا ... الخ. أى لقد مضي الزمن الذى كانت فيه البرجوازية رائدة للتاريخ، وحل زمن القوي الشعبية واتجاهاتها الأكثر جذرية كمعبرة عن المشروع القومي النهضوي في العالم النامي، والذى تطرقت له سابقا فى مداخلة الوطنية الديمقراطية.

وبكلمات قليلة ليس أمام العالم النامي سوى:

١- النضال الدؤوب لفك التبعية واحراز استقلال كامل على مختلف الجبهات.
٢- الاعتماد على الذات في الصراع والبناء وبشكل اخص التصنيع.
٣- اقامة جبهات على نطاق عالمي ضد الامبريالية والعنصرية والرجعية، والافادة من الحلقات الاكثر تطورا في العالم النامي ومن التناقضات داخل المعسكر الامبريالي، وتحديدا بين اضلاع المثلث الياباني-الاوروبي-الامريكي.
٤- توحيد الجهد الداخلي بين مختلف التيارات المناضلة والتقدمية التي تتبنى اهداف الجماهير وتوظيف طاقات الشعوب بالكامل بما يقتضيه ذلك من مناخات ديمقراطية.
٥- الحذر من هدر الثروات في مشاريع ليس لها الاولوية كما الحذر من هدر الثروات البشرية في صراعات غير ضرورية، وتعكس خلطا بين الثانوي والرئيسي.
٦- توثيق العلاقة مع الصين وما تبقى من اشتراكية
٧- التمرد على المديونية وعدم تسديدها.

وأخيرا ان طرق تطور وتنمية العالم النامي غير مغلقة، رغم سوداوية الاوضاع، فالصين قبل الثورة الاشتراكية كانت أكثر تخلفا من العالم النامي اليوم، ولكنها ها هي تعد الخطى بقفزات سريعة.

وشكرا

رأي يساري في المسألة الطبقية

أرى عيونكم تضحك هذا الصباح، أهلا بكم، أهلا بالعمال والمثقفين والطلبة، اذ ان غالبيتكم عناصر عمالية كما الحظ، ولولاكم أيها العمال لما عرف التاريخ الفكر الاشتراكي، ولما كان حاجة موضوعية لليسار العالمي والمحلي.. طبعا ان الفكر الاشتراكي والحركات اليسارية يعبران عن مصالح وأهداف الشغيلة والشعوب المظلومة وكل المضطهدين والمضطهدات عموما.

ولا اريد العودة للقرامطة العرب الذين هم أول من دعا للملكية العامة كجنين للفكرة الاشتراكية، مما هو أشبه بالبوليساريو في اقليم الصحراء هذه الايام، حيث رسوم العضوية في حركتهم تقتضي التبرع بالملكية الخاصة، مع تشابه الحركتين في اشراك المرأة في النضال، ذلك ان الحركتين انبثقتا من أرحام المجتمع البدوي، بينما الاشتراكية العلمية بل والخيالية التي سبقتها كانتا وليدتي المجتمع الصناعي الرأسمالي، وشتان بين البداوة والرأسمالية، استناد الى ما بلغته العلوم البيولوجية والاجتماعية والاقتصادية المعاصرة.

كنت من قبل قد رويت لكم او لبعضكم فيلما عن *جون ريد*، وقد شاهدته باخراج أمريكي مرة وباخراج مشترك ايطالي سوفييتي مرة اخرى، ويا حبذا لو أنكم شاهدتم هذا الفيلم، وما يهمني هنا هو المشاهد التي تتعلق بالثورة الفلاحية المكسيكية ضد الاقطاع في اوائل القرن، والمشاهد التي تتعلق بثورة العمال الروس ضد القيصرية ورأس المال من جهة اخرى عام ١٩١٧، و*جون ريد* كصحفي أمريكي كان في المرتين في قلب الحدث وسجل العديد من التقارير عنهما، بل ومشاهداته عن الثورة الروسية سجلها في كتاب بعنوان "عشرة ايام هزت العالم ".

وأظن ان بعضكم شاهد فيلم *سبارتاكوس* لكيرك دوغلاس عن ثورة العبيد ضد الأسياد في روما منذ الفين ومئتي عام تقريبا، فهو رائع حتما ويبين قوانين الصراع وأشكال ودور الطبقات و... أو فيلم *كوخ العم توم* بل ولربما بعضكم قد شاهد الفيلم الروسي عن الثورة الديمقراطية الفلاحية في أواسط القرن الماضي وكيف حضرت القيصرة الى السجن لترى بأم عينها قائد الثورة، ومن المؤكد انكم شاهدتم المسلسل الألماني عن نضالات العناصر الديمقراطية ضد السلطة

الاقطاعية – الكنسية في القرن الثامن عشر.. أو مسلسل الاتحاد عن نضالات الحركة النقابية ضد الاحتكار الامريكي...

وما اريد قوله أن هذه الافلام وسواها ليست مجرد فن ترفيهي بل انها تحمل اضافة للأداء العالي والتقنية المتطورة، ... تحمل أيضا المضمون العميق، وهي قادرة على تأمين الفائدة والمتعة معا، بل انها أقوى تأثيرا من الكلمات الصماء في الكتب والمجلات، اذ ان الفيلم الذي يجمع الكلمة والصوت والصورة والانفعال أعمق أثرا من الكلمة المكتوبة فقط.

وسوف أروي لكم ذات ليلة فيلما صينيا عن حياة الاقنان والقيم التقليدية الكونفوشية، ولعله يعجبكم كما الفيلم الروسي الذي ناقش فيه المخرج مواقف الممثلين... أقصد فيلم البعثة العلمية.. وبخلاف ممازحة احدكم الذي يقول انني استقطع بعض المشاهد، فمثل هذه الافلام لا صور فاضحة فيها، فهي أكثر التزاما وعمقا من الفن الاستهلاكي السطحي القائم على الاثارة والتعري.. وعموما ان الفنانين الأكثر شهرة والمخرجين الأكثر جدية والافلام التي تحوز على جوائز، او يشاهدها عدد اكبر من الناس هي أبعد ما تكون عن الاسفاف، وربما أكون قد شاهدت كل افلام تشارلز برونسون مثلا او كلينت ايستود او انطوني كوين او فاتن حمامة او صوفيا لورين، سيما بعد ان غدت ممثلة واسعة الانتشار، ولم تقع عيني على منظر خليع... مع الانتباه الى ان حبكة الفيلم غدت اليوم تفترض الصدق، اذ لا يعقل ان يسبح المرء بثوب شرعي او ان يتعانق رجل وامرأة بطريقة حك الانف الخليجية، وعموما الذي لا يعجبه هذا الفن ليتفضل وينتج للشعوب فنا أفضل منه!!

وبعد ....

ان المجتمعات البشرية بعد ان غادرت مرحلة الجماعيات الاولى، حيث كانت حصيلة الصيد او ما يجمع من ثمار طبيعية توزع علي كل أفراد القبيلة، وبعد نشوء الملكية الخاصة، حيث استأثر القادة والأقوياء بالفائض، بدأت تتشكل الطبقات، الآسياد والعبيد، الاقطاعيون والأقنان، الرأسماليون والعمال، فضلا عن الفلاحين الذين كان لهم وجودهم علي نطاق ضيق أو واسع في مختلف المراحل، كما فئات عديدة سيما البرجوازية الصغيرة والمتوسطة والانتلجنسيا وأنصاف العمال فى مرحلتى الاقطاع والرأسمالية، ولا أريد الاطناب هنا أو تدقيق هذه العبارات وانما غرضي القول:

أن أوضاع الناس الاقتصادية لم تكن متساوية في المراحل التي تلت الجماعيات الأولي التي لم تنفك بقاياها موجودة لهذا اليوم، وهذا أسفر تلقائيا عن نشوء تكوينات اجتماعية، غير متساوية، وبالتالي فرض واقعا سياسيا وحقوقيا معينا، اي ظهور الدولة كجهاز طبقي قمعي في أيدي المهيمنين اقتصاديا الذين كانت تشريعاتهم قوانين وضوابط تكفل لهم السيطرة ولغيرهم موقع المحكوم.

ولكيما نتحدث عن الصراع الطبقي وحركة التاريخ علينا في البدء تعريف الطبقة..

الطبقة:

مجموعة كبيرة من الناس لها موقع من وسائل الانتاج، أي ان تكون مالكة او غير مالكة، بينما وسائل الانتاج هي المصانع والاراضي والفنادق والبنوك.. وهذه المجموعة لها دور معين في العملية الانتاجية، اي فيما اذا كانت تكدح او لا تكدح، كما حصة معينة في المنتوج على شكل أجرة للشغيلة أو ربح تحوز عليه الطبقة المالكة لوسائل الانتاج، وهذا يمهد بداهة لمكانة في النظام الاجتماعي، فالمهيمن اقتصاديا يهيمن سياسيا وثقافيا واعلاميا، اي يحكم.
والطبقات الكبيرة في التاريخ كانت *الأسياد – العبيد – الاقطاع – الاقنان – الفلاحون – البرجوازية – العمال.*

أما **الفئة الاجتماعية**، فينطبق عليها اجمالا ما ينطبق على الطبقة غير انها أقل اتساعا، واحيانا تتوسط أو تقع بين الطبقات الرئيسية بصرف النظر عن حجم دورها في التاريخ، أو فيما اذا كانت تجسر الطبقات وتخلق تماسكا اجتماعيا أم لا.. وأفضل نماذج للفئة الاجتماعية هي الفئات المتوسطة كالبرجوازية الصغيرة سواء كانت انتاجية كالحرفيين والتجار الصغار أو الانتلجنسيا من مهنيين كالأطباء والمهندسين.. او موظفين.. والشيء نفسه يقال عن البرجوازية المتوسطة الأعلى مرتبة وثراء وملكية من البرجوازية الصغيرة.
وبالنسبة للشريحة الاجتماعية فهي احدى مستويات الطبقة او الفئة وهي بداهة أضيق في قاعدتها الاجتماعية...

وبقطع النظر عن دقة هذه التعريفات فهي في جوهرها صحيحة ولا بد منها كأدوات تحليلية تمهد لفهم الصراع الذي يدور بين القوى الاجتماعية المتناقضة، فما يفترض الاحتراس من محاولات الايديولوجية الرأسمالية وعلم الاجتماع البرجوازي اللذين يتهربا من مثل هذه التعريفات، بل وحينما يعترفان بها يعترفان

بها بصورة مجزوءة، كأن يقر بطبيعة العلاقة التناحرية والاستغلالية بين الطبقات المالكة الاستغلالية والطبقات الكادحة المستغلة... ولو أردنا التفصيل المقتضب لقلنا ان الرأسمالية هي الطبقة التي تملك وسائل الانتاج وتستغل الشغيلة سواء كانوا عمالا صناعيين أو عمالا زراعيين أو موظفين أو شغيلة ذهنيين رغم الفارق في الواقع المهني لكل فئة وما ينتج عنه... ولا حاجة هنا لاعادة ما نوهت له ذات مرة من تطورات أصابت هيكلية الطبقة العاملة في زمن الثورة التقنية، ويضاف لذلك الرأسمالية التجارية الكبيرة وأصحاب الفنادق والجامعات والمستشفيات.

اما الرأسمالية الاحتكارية فهي الفئة التي تملك وتسيطر على الرأسمال المالي والشركات الفوق قومية والاتحادات بمختلف مسمياتها، ومركزها في العالم الرأسمالي المتطور.

والعمال هم الذي يبيعون قوة عملهم لقاء أجرة، سواء باعوا قوة عملهم بالمياومة او شهريا، على القطعة او حسب راتب.. الخ وهم لا يملكون وسائل انتاج.

والفلاحون هم الذين يملكون استمثارات فلاحية، يكدحون فيها ويعود لهم انتاجهم بدون تشغيل أيدي عاملة لديهم، أما في حالة تشغيل أيدي عاملة لديهم فهم يغدون برجوازية فلاحية صغيرة أو متوسطة حسب مساحة أطيانهم وطاقة تشغيلهم.

أما البرجوازية الصغيرة الحرفية هي من أصحاب المشاغل والورش الذين يكدحون ويستأثرون بالناتج والربح. أما في حالة تشغيل اخرين ويحوزون على فائض عملهم فحينها يتحولون لبرجوازية صغيرة او متوسطة استغلالية، بما هو أقل وأصغر من الرأسمال الكبير الذي في حالة اتحاده يغدو رأسمالا احتكاريا.
وثمة برجوازية صغيرة ومهنية كالمدرسين والمهندسين والاطباء.. او وظيفية.. ولهؤلاء خصوصيتهم حسب ملكيتهم، اي طبيب في مستشفى أم في عيادة خاصة.. الخ ومراتب وظيفية دنيا تضعهم في خانة قريبة من العمال أو في خانة قريبة من مداخيل ونفسية وتطلعات البرجوازية الصغيرة التي تحلم بالارتقاء الطبقي... وشيء مشابه يقال عن التجار الصغار.

اما الاقطاع والاقنان فقد تجاوزهما التاريخ فيما عدا بقايا هامشية في عدد من بلدان العالم النامي.

والاقطاعيون هم مالكو الاراضي والأقنان هم عبيد الارض، الذين يشتغلون في الارض ويباعون معها، ويقيمون فيها أبا عن جد، وقد سادت المرحلة الاقطاعية الآف السنين.. وقانون الريع العقاري هو القانون الرئيسي الذي يحكم علاقة الاقطاع بالاقنان، حيث لا حقوق للاقنان سوى الحد الادنى من سبل العيش من خلال ما يستحصلونه من غلة أو نقود، فيما غالبية المحصول أو غالبية أيام السنة تعود الى الاقطاعي.

وقد سادت الأمية بين الاقنان كما لم يكن لهم حقوق نقابية ولم يكونوا ليغادروا أراضي النبلاء، فما يمنحهم اياه الاقطاعي يأخذونه بدون ان يكون لهم حول أو قوة لرفع الأجر أو استحصال نسبة أكبر من المحصول، وبداهة ان هذا أقل وحشية من العصر الرقي. اذ أن الاسياد هم الذين يملكون وسيلة الانتاج أى العبد الذي يحق لهم بيعه وابقاء بعض أفراد عائلته، كما لهم حق تعذيبه وقتله، انه لا يملك حقوقا أكثر من حقوق الحيوانات مثلما لا يعامل بأفضل منها ... ولو نتذكر عدد العبيد الذين قتلوا أثناء بناء الاهرامات أو سور الصين العظيم أو في غمرة "اصطياد" أو ابتياع سود أفريقيا لنقلهم لأمريكا ... أو عدد الجوارى في العصر العباسي علي سبيل المثال ... أو ...

وفي الجملة، *ان ما يحدد طبقات المجتمع هو مستوي تطور قوي الانتاج*، وتحديدا الآلة، اذ أن المحراث والأقنية والمجرفة فرضت علاقات الانتاج الاقطاعية، بينما الماكينة واستخدام الكهرباء وبعدئذ التكنولوجيا المتطورة فرضت علاقات الانتاج الرأسمالية، والرعي والطاحونة والغزو والسبي كلها فرضت العلاقات الرقية.. ومن يريد تفاصيل واستزادة عليه العودة للكتب التاريخية-الاقتصادية.

وحسبنا هنا التعرض للمجتمع المعاصر الذي يمكن توزيعه على ثلاث وحدات مع اضافات اشرت لها في محاضرتي حول القومية.

أ- **المجتمع الاشتراكي..**

حيث لا وجود للملكية الخاصة الاستغلالية، اي أن المصانع والمزارع والشركات والورش وكل وسائل الانتاج اما ان تملكها الدولة التي يتقاضى

موظفوها، بما في ذلك أعلى المناصب، رواتب محدودة قريبة من رواتب العمال والجنود، أو أكثر أو أقل قليلا، والذين في مناصب قيادية يثبتون في مواقعهم بقدر استجابتهم لمهامهم، اي أنهم في التحليل الأخير لا يملكون شيئا سوى رواتبهم.. أما ارباح القطاع العام فتوظف في توسيع القاعدة الاقتصادية والانفاق على الجيش والمرافق العامة سيما ان التعليم مجاني والعلاج مجاني، مثلما يتم بناء مدن جديدة ووحدات سكنية جديدة... الخ.

واما ان تكون ملكية وسائل الانتاج تعاونية، اي خاصة بالعاملين في الوحدات الاقتصادية، مشغل لمن يعمل فيه، ومزرعة لمن يعمل فيها، والارباح تعود لهم والأجور تقررها ادارتهم المنتخبة بناء على قانون "كل حسب طاقته ولكل حسب عمله".

وفضلا عن ذلك هناك ملكيات خاصة غير استغلالية كمطعم تملكه عائلة معينة او مزرعة لعائلة اخرى وبقالة وسيارة اجرة.. الخ كل ذلك بدون تشغيل أجراء، والملكيات الخاصة هذه منتشرة في الصين وفيتنام... كما كانت واسعة الانتشار في الاتحاد السوفييتي في الاربعينات والخمسينات غير انها اندثرت في اوائل السبعينات حيثما تبقى فقط الملكية للدولة، والملكية التعاونية للمنتجين فقط. بل وفي أوروبا الشرقية او فيتنام يوجد اضافة للأشكال الثلاثة المذكورة أعلاه ملكيات خاصة استغلالية صغيرة، اي يعمل فيها أجراء ايضا، فيما الارباح تعود للبرجوازيين الصغار، أما الملكيات المتوسطة والكبيرة فقد جرى تأميمها منذ زمن فيما عدا أطيان بعض الكنائس.

وهذا كله قبل الردة الرأسمالية، الزلزال الذي أطاح بالاشتراكية حيثما اطلقت الايدي لامتلاك اي شيء واستغلال من يستطيع استغلاله والخصخصة حيث توزيع الشركات والمصانع والمزارع على العاملين بغية تحطيم الملكية الاجتماعية والجماعية.

والاشتراكية في كل الاحوال لا تنفي الملكية الفردية، اي ملكية البيت والسيارة وأجرة العمل والاستثمارات المحيطة في البيت... الخ، الملكية للاستهلاك الشخصي حتى ولو كانت متبوعة بمزرعة عائلية.. فهذه ملكية فردية مكفولة في كل الاطوار.

بل وبات مكفولا الملكية الخاصة غير الاستغلالية، اي انتاج وتبادل في السوق ولكن بدون تشغيل أجراء، أما الملكية الخاصة الاستغلالية فتزول بتدرج

ويحل محلها بتدرج أيضا الشكل التعاوني، مع التشديد على ان التعاونيات الانتاجية الصناعية والزراعية التي يملكها العاملون فيها تتشكل طواعية وباختيار الناس أنفسهم بعدما يقتنعون ان ذلك من شأنه ان يتيح لهم استخدام تكنولوجيا ووسائل حديثة، وبالتالي يعود عليهم بمداخيل أعلى...

وبناء عليه، فالتركيب الطبقي في البلدان الاشتراكية يتكون من العمال الاحرار+ الفلاحون التعاونيون+ المثقفون الذين يكدحون بأذهانهم.. غير ان عدم اكتمال العملية الاشتراكية تبقى على الملاك الصغار من مخلفات المجتمع السابق مثلما نشأت، نتيجة للبيروقراطية، شريحة من الموظفين الذين تمسمروا في مناصبهم، بل واستحوذوا على امتيازات بسيطة من طراز تأمين رحلات نقاهة ومحال تبيعهم بأسعار خاصة، ولكن بدون امتلاك ثروات او أرباح.
ومع تقدم العملية الاشتراكية يندثر الملاك الصغار الذين يستخدمون أجراء لديهم، مثلما ان الزلزال السوفييتي أسفر عن دروس هامة ستؤدي لا محالة الى استئصال آفة البيروقراطية وامتيازاتها.

ب- **المجتمعات الرأسمالية المتطورة...**
حيث الاحتكار الرأسمالي هو القوة الاقتصادية القائدة والمسيطرة على وسائل الانتاج الأساسية، ويملك أوسع الثروات من انتاج ثقيل والكتروني، كما المناجم والبنوك والشركات التجارية وو... وآحاد في المائة يملكون بين ٧٠-٩٠٪ من الثروة ووسائل الانتاج كدليل على تمركز الانتاج.

وبطبيعة الحال هناك القطاع العام الحكومي من مرافق وقطاعات تستوعب نسبة متنامية من الشغيلة، وأرباح هذه المرافق والقطاعات تعود لموازنة الدولة حيثما يحظى ذوي المناصب العليا برواتب كبيرة فضلا عن ملكياتهم الخاصة وأسهمهم في الشركات، بل وعملهم كمستشارين في مجالس ادارة الاحتكارات بأجور سنوية خيالية.

وعوضا عن ذلك هناك الرأسمالي البغيض كما يسمونه، اي المشروعات الرأسمالية التي يملكها رأسمال خاص منفصل عن الاتحادات الإحتكارية، رغم ما يواجهه من مضايقات الاحتكارات في مجال القروض والتسويق والتشغيل... كما هناك الملكيات الخاصة الصغيرة واسعة الانتشار من ناحية كمية رغم دورها المحدود جدا في الانتاج القومي.

وترتيبا عليه، فالطبقتين الأساسيتين في المجتمع الرأسمالي المتطور كما حال أمريكا وأوروبا واليابان، هما الرأسمالية+العمال... فمثلا ثمة ٦٣ مليون عامل أمريكي يشتغلون في الصناعة اليوم، ونحو ١٦ مليونا في قطاع الخدمات بما ينطوي عليه هذا القطاع من شغيلة هم أقرب الى العمال او عمال فعلا، وذوي ياقات بيضاء من مهندسين واداريين يتشارك معظمهم مع العمال في تعرضهم للاستغلال، بينما يستأثرون بأجور أعلى وامتيازات لا يتمتع بها العمال... ولا يجوز ان ننسى هنا جيش العاطلين عن العمل الذي يصل الى ١٠٪ كمتوسط حسابي تقريبا.

وبطبيعة الحال ان نسبة الرأسمال الاحتكاري لا تصل الى أكثر من ١٪، وآحاد ٪ للرأسمال المستقل، وما عدا ذلك من ملايين هم من ذوي الملكيات الصغيرة، ذلك ان قطاع الزراعة لا يعمل فيه سوى ١٪ في أمريكا ونحو ٤٪ في بريطانيا وفرنسا.

وباختصار فالرأسمال الاحتكاري هو المهيمن على الاقتصاد، وبطبيعة الحال على السلطة السياسية ووسائل الثقافة والاعلام... بينما العمال والشغيلة عموما يعانون من الاستغلال والحرمان والاغتراب والتلقي في مسائل الثقافة والاعلام، وهم بداهة **الجمهرة المحكومة.**

ج- **المجتمعات المتخلفة التي تعيش مرحلة ما قبل الرأسمالية**

فضلا عن تحولات رأسمالية دائبة في اطار تقسيم عالمي للعمل تحرص قوانينه لاستبقائها متخلفة وتابعة واستهلاكية أولا رغم محاولات اختراق هذه الدائرة الجهنمية.

والتطور هنا لم يستكمل كما الحال في العالم الاشتراكي والعالم الرأسمالي ... وعليه فالتركيبة هنا متشابكة ومعقدة بما يجعل فعل قوانين الاقتصاد والصراع الطبقي مرتبكة، أو على الاقل لها خصوصية ينبغي تشخيصها بعمق وبتفاوت يراعي تفاوت التطور في كل بلد وبلد، مثلما يراعي الخصائص القومية لكل أمة وأمة.

وليس غريبا ان تتكون وتتعايش طبقات وفئات ومجموعات عديدة في هذه المجتمعات بدءا بالبرجوازية الانتاجية الصناعية والزراعية مرورا بالبرجوازية الكومبرادورية كوسيط تجاري لتسويق المنتجات الخارجية في الاسواق الملحية بما يرتبط بها من مراتب بيروقراطية حيثما يتداخل النظام السياسي بهذه المهمة

الاقتصادية المربحة فضلا عن العمولات والرشوات في حالة التعاقدات الكبيرة لاستخراج النفط او ثروات جوفية اخرى او صفقات عسكرية..الخ، وهذه الفئة من أخطر ما يكون، فهي تفتقر للقيم الوطنية ومصالحها ترتبط مباشرة بالشركات الاجنبية، ومنظورها يقضي باللهاث وراء الربح السريع وغير المشروع، وتتهرب تماما من الاستثمار في القطاع الانتاجي، وهي الأكثر قوة في غالبية العالم النامي، وبالتالي فهي التي تتنفذ في السلطة وملحقاتها.

والعنصر الفلاحي واسع الانتشار، بل ويشكل غالبية سكانية تناهز أحيانا ٦٠-٧٠٪ يعيش حياة الكفاف بالنظر الى استخدامه لأدوات انتاج أكل عليها الدهر وشرب منذ ألف عام ويزيد كالمحراث الروماني والثور والحمار، كما انتظار رحمة السماء بهطول الامطار... الخ، وبطبيعة الحال ان الطاقة الانتاجية لمزارع او فدان في العالم المتطور هي أضعاف أضعاف الطاقة الانتاجية لفلاح او فدان في العالم النامي، وقد تصل احيانا الى ٢٥ ضعف... لهذا ليس مفاجئا الجوع والتصحر والترحال والأمية والبطالة المقنعة والموسمية في هذه البلدان، الى درجة استيراد غالبية غذائها من الخارج!! بل ان هذا الاتجاه يتزايد عقدا بعد أخر، الامر الذي ينطبق على المنطقة العربية ايضا كما تشير تقارير الجامعة العربية.

ويضاف للفئات الفلاحية، الحياة القبائلية الرعوية والعشائرية البائدة كمظاهر وأنماط تجاوزتها الحضارة منذ زمن بعيد، فضلا عن الفئات الرثة ممن لا عمل اقتصادي ثابت أو واضح لهم، بل ولا يملكون اي مؤهل مهني يمكن ان يصنفهم في اطار اجتماعي محدد، ناهيكم عن البطالة المطلقة وحجز طاقات المرأة في البيت حيث نسبة اللواتي يعملن تتراوح بين ٥-٢٠٪ فقط.

وهنا تنتشر الأعمال اليدوية الحرفية الصغيرة كمحال النجارة والحدادة والخياطة والنسيج..الخ كما البقالات الصغيرة والمحال التجارية الصغيرة، وكل ما من شأنه ان يعكس حياة ما قبل الثورة الصناعية التي أرست جذورها منذ قرنين ويزيد.

مثلما تتسع بتواتر القاعدة الاجتماعية العمالية ممن يبيعون قوة عملهم، ولكن بالنظر الى عدم تطور وتمركز الصناعة والزراعة، فالطبقة العاملة مبعثرة وضعيفة التقاليد النقابية ومحدودة الوعي النظري الاشتراكي، وحتى انتاج وتكرير النفط كسلعة هامة نلاحظ غالبية أجنبية تعمل فيه.

وهناك فئة الموظفين الصغار في الأجهزة الادارية والخدماتية الذين يقتربون في حياتهم من حياة العمال، علما أنهم أقل تنظيما منهم وتغلب عليهم التطلعات الفردية.

ناهيكم عن الانتلجنسيا من حملة الشهادات الجامعية والمعاهد العليا، كفئة لا يستهان بوزنها ودورها في الشؤون العامة، بل ومن أوساطها يبرز ليس أصحاب فكر فقط بل وقادة المجتمع في الحقل السياسي وسواه... فهم أصحاب نفوذ وتأثير كبيرين في العالم النامي يفوق كثيرا تأثيرهم ونفوذهم في العالم المتطور.

(هنا نتوقف وفي الغد نكمل علما انني الحظ النشاط باديا عليكم..تفضلوا).

في الامس استعرضنا القسم الاول من المداخلة، واليوم نكمل، ومن فضلكم اصغوا جيدا كيما يكون تفاعلكم أغنى والفائدة أعم، وان كنت أعلم آثار الفول والبصل علينا جميعا.

صباح الخير ....

لا شك ان التحليل الطبقي، اي المبدأ الطبقي، وهو مبدأ أساسي في الفكر اليساري، اي انه يقرأ السياسات والفلسفات والأفكار والاخلاق ضمن ارتباطها الطبقي، وكلما اكتمل نضوج الطبقات أكثر كلما تجلى هذا المبدأ أكثر، اذ من غير المعقول استلهام مقطع بدائي جدا كالحياة البدوية على سبيل المثال او القروية البسيطة حيث الملكيات بسيطة والعمل المأجور لا يكاد يظهر، وبعدئذ نطلب تجليات قانون الصراع الطبقي... اذ ان هذا المبدأ يقوم على معطيات توجيه وظروف تولده، وهو ليس فكرا منفصلا عن أساسه المادي.

والتاريخ البشري بمجمله هو حركة الطبقات والصراع فيما بينهما، حتى ان نضال الشعوب في سبيل انتزاع حرياتها وحقوقها من الاستعمار يحمل مضامين طبقية، ذلك ان الاستعمار يمثل الطبقات الاستغلالية التي تسعى لنهب شعوب المستعمرات، وهذه بدورها تثور ذودا عن كرامتها واستقلالها وثرواتها، اي ان نضالها وطني وطبقي معا، وان يغلب الطابع الوطني التحرري في مراحل ما قبل الاستقلال السياسي، غير ان النضال الوطني – الديمقراطي ضد الامبريالية والطبقات المحلية المرتبطة معها يتواصل، مما يؤدي الى تداخل المهام الوطنية بالمهام الطبقية.

ولو اردنا التدليل بمثال حسي قريب، لقلنا ها هي برجوازيتنا الفلسطينية تلقي جانبا راية الكفاح ضد العدو القومي الاسرائيلي والامبريالي، فيما القوى الاجتماعية التي تمثل الجماهير الشعبية تواصل حمل الرايات.

والقوى السياسية في العادة هي لسان حال الطبقات الاجتماعية، فللاحتكارات أحزابها، وللبرجوازية القومية أحزابها وللبرجوازية الصغيرة أحزابها، وللعمال والمثقفين والفلاحين أحزابهم...

وهذا حال الافراد اذ لا يوجد انسان قط خارج التكوين الطبقي، وبالتالي فاما ان يحمل فكرا ويمارس سياسة يخدمان وجوده الاجتماعي، واما ان ينسلخ عن انتمائه الطبقي وينحاز لفكر وطبقات اخرى.

والعلاقات التي تنشأ بين الناس في غمرة العملية الاقتصادية تدعى العلاقات الانتاجية، بينما قوى الانتاج تتكون من الانسان بمهاراته والالة معا، وهذين الشقين، اي علاقات الانتاج وقوى الانتاج يشكلان معا أسلوب الانتاج.. وهنا لا أعتزم الاستفاضة اذ ان الامر يستحق ان نكرس له مداخلة منفصلة.

وعلاقات الانتاج، اما ان تكون علاقات استغلالية أو انسانية غير استغلالية، وتكون علاقات استغلالية حينما تمتلك طبقة وسائل الانتاج بينما الشغيلة الذين يعملون لديها لا يملكون سوى قوة عملهم التي يبيعونها لقاء أجر، بينما الذي ينتجونه يعود للطبقة المالكة... وبطبيعة الحال ان المنتوج يحقق ربحية، أو فائض تستأثر به الطبقة المالكة هو من انتاج الشغيلة ذاتهم، وهذا هو الاستغلال، لذا يطلق على علاقات الانتاج في المجتمع الرقي والاقطاعي والرأسمالي علاقات انتاج استغلالية بأشكال مختلفة، مرة عبودية ومرة ريع عقاري ومرة فائض قيمة او قيمة زائدة ...وسوف **يخصص الحديث هنا لقانون فائض القيمة بوصفه القانون الاساسي في الرأسمالية**، سيما وان المجتمع الرقي كما المجتمع الاقطاعي قد تجاوزهما التاريخ عموما..

وهذا القانون اكتشفه *ماركس* وعلله علميا وبنى عليه استخلاصاته النظرية عن الصراع الطبقي، وأرقى اشكاله الثورة السياسية الاجتماعية التي تطيح بالرأسمالية، بل ولقد تحقق كل ذلك عمليا في غير بلد.. اي ان المسألة ليست مجرد ثرثرة أو افتعالا أو لعبة عبقرية.

والسؤال، **كيف نبرهن على هذا القانون؟؟**

انتم في غالبيتكم عمال، وربما بعضكم خاض نضالا نقابيا لتحسين الأجور وشروط العمل كالاجازات وسواها، وكلنا يسمع بين الوقت والاخر عن نضالات الطبقة العاملة والشغيلة عموما، في هذا القطاع الاقتصادي أو ذلك، في هذا البلد أو ذلك... فمن فترة قصيرة أضرب عمال المواصلات في ايطاليا، وقبلهم عمال المناجم في أمريكا، بل وعمال وموظفي جامعة بيرزيت اضربوا ايضا... والمطلب الاول لدى كل هؤلاء هو رفع الأجور، ورفع الأجور يعني انهم يطالبون باستقطاع جزء من الارباح، اي يطالبون بأجر أعلى يعادل ما بذلوه من جهد أو يعادل نسبة أعلى من جهدهم، فالشغيلة بغريزتهم أو عن وعي يدركون انهم لا يتقاضون أجرة تساوي كل ما باعوه من قوة عمل، ذلك انهم يبصرون بأم عيونهم ان الارباح التي ينتجونها تذهب لجيوب الرأسماليين... فما الذي يحدث، اي كيف نحل هذا اللغز علما ان العامل والشغيل يتلقيان أجرة بموجب عقد العمل، بل وبين الوقت والاخر يحصلون على زيادة في اجورهم، ناهيكم ان الأجرة في العالم المتطور هي أضعاف الأجرة في العالم المتخلف... ومع ذلك يحصل الاستغلال، اي القيمة الزائدة ، فكيف؟

ثمة فارق بين المال ورأس المال.. فالمال نقد أو ثروة وحسب، اما رأس المال فهو نقد ينتج ربحا، اي لو كان لديكم اموال طائلة مكتنزة في البيوت، فهي مجرد اموال ولا تغدو رأسمالا الا حينما تدخل الدورة الاقتصادية اي نقد – بضاعة – نقد، اي يستثمر المبلغ في مشروع ينتج ربحا.

ورأس المال قسمين، ثابت ومتغير.. والثابت هو ما يتم شراء الارض والمكائن والمواد الخام وكل ما يتصل بذلك، اما رأس المال المتغير فهو المخصص لشراء قوة العمل، اي لتغطية نفقات الشغيلة وتسديد اجورهم.

اي ان رأس المال الثابت هو ما يخصص لشراء منجم بكل ما يتصل به من الآت حفر وشق طرقات وتمديد كهرباء ولوازم معيشية ... الخ او لشراء مزرعة وتراكتورات وأدوات وري وو... او لتأسيس جامعة بما يعنيه ذلك من استئجار مقر او بناء مقر ومكاتب ومقاعد وملاعب وقاعات وباحات و و... بحيث تكون جاهزة تماما لاستقبال العاملين وتسجيل الطلبة، وهذا ينطبق على المستشفى بأجهزته الطبية ولوازمه، أو الفندق بغرفه وأسرته واماكن الترويح فيه... الخ.

ودعونا نأخذ مثالا قريبا من مدينة الخليل، اي مصنع احذية.. ماذا يحتاج رأسمالي أو أكثر لانشاء مصنع احذية؟ ولمعلوماتكم، ففي مدينة الخليل يعمل نحو ٨-٩ الاف عامل في مشاغل الاحذية، بل وطاقتهم الانتاجية قادرة على تأمين اكتفاء ذاتي للسوق الفلسطينية في الاراضي المحلتة عام ٦٧، فضلا عن تلبية جزء من حاجات السوق الاردنية والسوق الاسرائيلية..اي ان الاستثمار في هذا الميدان مربح، بل ولكونه مربحا لقد توسع الاستثمار فيه... ومن طبيعة رأس المال ان يستثمر امواله في المشاريع ذات الربحية الأعلى والمضمونة أكثر بناء على دراسات جدوى ومعلومات اقتصادية يعدها أهل الاختصاص.. فرأس المال ليس أعمى، بل ان كل خطواته مدروسة بدقة وذكاء..

انه بحاجة لشراء قطعة ارض مثلا+ بناء عقار عليها ملائم للمشروع وتجهيز العقار من كل النواحي+ ابتياع مكائن وكل ما يستخدمه العمال والموظفون + مواد خام من جلود وخيطان وو..

دعونا نفترض ان سعر الارض ١٠٠ الف دينار، وتكاليف العقار وما يتصل به ٢٠٠ الف دينار، والمكائن وخلافه ١٥٠ الف دينار، والمواد الخام وخلافه لمدة سنة ٢٥٠ الف دينار، يكون المجموع= ٧٠٠ الف دينار.

فهل هذه المكونات تربح من تلقاء ذاتها؟ اي فيما لو بقيت على حالها شهر فهل تنتج أحذية أو تربح شيئا؟ الجواب كلا، انها لا تنتج، بل قد تنخفض قيمة المكائن والمواد الخام، مثلما قد يرتفع قليلا سعر الارض.. ودعونا نفترض ان الرأسمال يحافظ على مبلغه مع الاشارة الى ان الرأسمالي لا يقوم بمثل هذه العملية المعقدة من أجل تركها على الارض، بل لغرض استكمال الدورة الاقتصادية، اي لكي يتمم العمل بـ..

استئجار شغيلة من عمال ومهندسين واداريين، وقد يشرف بنفسه على المشروع، او قد يعمل فيه مباشرة، علما ان الرأسماليين كلما كبرت مشاريعهم وثرواتهم انفصلوا تماما عن العملية الانتاجية حيثما يقوم الاداريون والمحاسبون والمستشارون القانونيون بكل شيء، وما يعرفه الرأسمالي هو فقط النتائج وحجم الارباح، فيما يقرر انشاء مشروع جديد هنا او هناك بناء على دراسات الخبراء.. وفي بلادنا الامور لم تصل بعد هذه الدرجة، اذ لم ينفك الرأسمالي يشرف او ينتدب ابنه للاشراف او المساهمة كأداري أو مهندس.

دعونا نفترض انه تعاقد مع ٩٠ عاملا+ ١٠ مهندسين واداريين بمتوسط أجر للعامل ٢٠٠ دينار شهريا، والمهندس او الاداري ٥٠٠ دينار، فيكون المجموع = ٢٣ الف دينار شهريا، يضاف لها ٢٠٠٠ دينار كتأمين صحي وعلاوات وو..= ٢٥ الف دينار وسنويا ٣٠٠ الف دينار، وبالنسبة للسلعة المنتجة فلها قيمتين، قيمة استعمالية، اي تفيد الانسان في حقل معين كالسيارة والملابس،..الخ وقيمة تبادلية، اي تباع في السوق، ولولا انها تباع لما تم انتاجها وصرف مبالغ عليها.

والرأسمالي حينما يتسأجر شغيلة فهو يضع في حسابه ان يؤمنوا له ربحا، ولولا ذلك لما أسس مشروعه ولما استوعب شغيلة.. فالربح هو الهدف الاول للرأسمالي، فهو قدس الاقداس، بل هو يختار مشروعا ينتج سلعا مطلوبة أكثر من سواها كيلا تكسد في المخازن، ويحرص في تعاقده مع الشغيلة ان يدفع لهم أجورا أقل بما يحفظ له ربحية أكبر.

وبطبيعة الحال ان العلاقة بين الرأسمالي والعامل والشغيل عموما هي علاقة ضرورية لا مهرب منها، فالعامل بحاجة لفرصة العمل والرأسمالي بحاجة للعامل لكيما يعالج المادة الخام ويحولها لسلعة تؤمن له ربحية.

ويوم العمل قسمين، يوم عمل ضروري ويوم عمل اضافي، اي ان العامل يتقاضى أجره على يوم العمل الضروري، أما يوم العمل الاضافي فهو الذي ينتج الربحية التي تصب في جيب الرأسمالي.

أما الذي يحدد الأجرة، اي ساعات العمل الضروري، فهو الخدمات والحاجات الاجتماعية التي لا مناص منها لحياة العامل وعائلته بحيث يبقى حيا لكيما يعيد بيع قوة عمله في اليوم التالي، اي لا يمكن ان تكون الأجرة أقل من الحاجات الضرورية اجتماعيا للحياة، لأن العامل والحال هذه يموت.. طبعا ان نضال العمال والشغيلة يرفع الأجور، مثلما ان تأهيل المهني او شهادته تعودان عليه بمزيد من الأجر، ولهذا قلنا الحاجات الاجتماعية، أي لكي تؤمن الاجرة للعامل حدا أدنى من تعليم أبنائه او دراسته المهنية او وسائل الترفيه العامة.. اي لا يمكن ان لا تؤمن الأجرة للشغيلة في أمريكا تلفزيون وثلاجة ورحلة بين الوقت والاخر وتعليم أحد ابنائه جامعيا.. مثلما لا يمكن ان لا تؤمن الأجرة للشغيل في الاراضي المحتلة رغيف الخبز وبعض الملابس ومعالجة زوجته في حالة

المرض الشديد... حدا ادنى من متطلبات الحياة الاجتماعية ضمن ظروف الشعوب المتفاوتة في ظروفها ومستوى معيشتها... الخ.

ولو افترضنا ان الرأسماليين لن يدفعوا أجرة تلبي الحد الادنى من المتطلبات الضرورية اجتماعيا، فهذا معناه تحريض العمال والشغيلة للاضراب، بل وللثورة، وهذا ما تسعى الرأسمالية لتفاديه ما أمكن، لهذا نراها مضطرة لتحسين الاجور بين الوقت والاخر.

والأجرة نوعين، أجرة فعلية، اي ما تبتاعه النقود من قوة شرائية، فالدولار في لبنان يشتري أكثر بكثير مما يشتري في الاردن أو أمريكا، مثلما ان ارتفاع الاسعار الذيي ينتج عن التضخم المالي يجعل السلعة أغلى، وبالتالي يشتري الدولار بضائع أقل..

كما هناك الأجرة الرسمية، اي المبلغ المالي الذي يتقاضاه العامل والشغيل.. والمهم هو الأجرة الفعلية، اي ان تشتري بضائع أكثر.

وانتم تذكرون على سبيل المثال ان نسبة التضخم المالي في اسرائيل قد بلغ معدلها السنوي في العقد الاخير حوالي ١٢٪ اي ان الأجرة اذا لم ترتفع ١٢٪ سنويا وبقيت على حالها انخفضت قدرتها الشرائية بنسبة ١٢٪ وهذا معناه انخفاض مستوى المعيشة بنسبة ١٢٪.

وبناء عليه، فالأجرة تأتي لقاء يوم العمل الضروري، اي ساعات العمل الضرورية، التي تلبي الاحتياجات الضرورية اجتماعيا، اي ان العامل أو الشغيل يبيعان قوة عملهما يوميا او أسبوعيا او شهريا لقاء تلبية احتياجاتهما الضرورية اجتماعيا.

والعمال والشغيلة يبحثون، عن فرصة عمل وقد يستبدلون مكان عملهم والرأسمالي الذي يعملون لديه بغية استحصال أجورأفضل، غير ان هذا يبقى ضمن المنظور سالف الذكر، سواء كانت الأجرة أقل أو أكثر قليلا.

فمن اين يأتي الربح – الاستغلال – القيمة الزائدة؟

لقد قلنا ان ثمن المواد الخام ٢٥٠ الف دينار يضاف له ٢٠٠٠ دينار اهتراء أدبي للمكائن والمنشأة والطرقات والماء والكهرباء.. والمقصود باهتراء أدبي، ان لكل ماكنة عمر افتراضي، مثلا ٢٠ سنة وبعدئذ تغدو غير صالحة،

وهذا حال البناء او الممرات التي يتوجب تصليحها.. وهذا يدفع الرأسمالي لاحتساب هذه الخسارة بحيث تضاف الى سعر السلعة.
وبالتالي ٢٠٠٠×١٢=٢٤ الف في السنة، او قولوا ٢٥ الف تضاف للمادة الخام ٢٥٠ الف= ٢٧٥ الف.

ومصنع الاحذية يشتغل شهرا فسنة وينتج كمية من أزواج الاحذية، اي ان العمال والشغيلة بأسرهم يعملون هذه الفترة، فيعالجون بواسطة الادوات ومهاراتهم وطاقتهم المواد الخام فينتج لدنيا على سبيل المثال ٢٠٠ ألف زوج من الاحذية، تدخل في حوزة وملكية صاحب المصنع الذي يبيعها في الاسواق بمعدل وسطي لكل زوج ٤ دينار مثلا، اي يبيعها كلها بـ ٨٠٠ الف دينار.
وعليه، فهو يسدد من هذا المبلغ سعر المادة الخام والاهتراء الأدبي ٢٧٥ الف+ اجور العاملين ٣٠٠ الف = ٥٧٥ الف دينار.
فيتبقى لديه ٨٠٠ – ٥٧٥=٢٢٥ ألف كربح.

طبعا لا يخفى عليكم انه لو باع الاحذية بمبلغ ٥٧٥ ألف دينار لما أمكن ان يربح مليما واحدا، وبالتالي فما الحاجة لتأسيس المصنع أصلا.. فصاحب المصنع يكون قد أعد دراسة مسبقة وتأكد من امكانية الربح، بل ربحا أعلى مما لو يودع المبلغ في بنك مقابل فائدة ١٠٪، اذ عليه ان يربح نسبة أكبر والا لماذا التعب؟!
وتكون نسبة الربح قياسا بالمبلغ المتغير ٢٢٥×١٠٠/٥٧٥=٣٧٪ تقريبا.
ولو افترضنا تكرار نفس العملية في العام التالي تتكرر نفس الربحية ونفس النسبة او شيء قريب من ذلك، لنكتشف انه بعد بضعة أعوام قد استرد المبلغ الذي استثمره في المصنع واصبح المصنع ربحا صافيا.

طبعا يمكن توسيع المصنع بانشاء خط انتاج جديد لكي يتضاعف الانتاج، كما يمكن تأسيس مشروع اقتصادي أخر لتحقيق ربحية جديدة.. وهكذا دواليك.
ومصدر الربح هو يوم العمل الاضافي، اي الساعات التي يعملها يوميا الشغيلة بدون ان يتلقوا أجرة عليها، اي ان الرأسمالي يستقطع هذا الوقت كأرباح له، ذلك ان طاقة الشغيلة حينما استخدمت المكائن وعالجت المواد الخام انتجت كمية من الانتاج، ولكن الرأسمالي استقطع قسما من هذا الانتاج فسدد من أرباحه أجور العاملين فيما القسم المتبقى احتفظ به لنفسه.
اي يكفي نصف الكمية المنتجة لتسديد الأجور والتعويض عن سعر المواد الخام والاهتراء..

وبمعنى اخر اذا كان الشغيل يعمل ٧ ساعات يوميا، فهو يتلقى أجرة عن ٤ ساعات مثلا، فيما الـ ٣ ساعات الاخرى لا يتلقى عليها أجرا، وهي ذاتها التي تنتج الارباح التي يستأثر بها الرأسمالي... وهذه هي القيمة الفائضة كدليل على العلاقة الاستغلالية.

وربما البعض يقول، ولكن الرأسمالي اقترض المبلغ من البنك، وان عليه تسديد الفائدة، وهذا ممكن ، ولكن بعد التسديد يتبقى لديه ربحا هو من انتاج الشغيلة.

اي يجب ان يكون جليا جلاء الشمس ان القيمة الوحيدة المتغيرة التي تنتج قيمة اضافية هي قوة العمل التي ينفقها الشغيلة عمالا ومهندسين واداريين، أما المكائن في ذاتها والمنشأة في ذاتها والمواد الخام في ذاتها لا تنتج قيمة اضافية. وأحيانا نسمع عبارات ساذجة تتناسب مع عقلية عجائز الطوابين تقول، لقد جازف الرأسمالي بأمواله، وبذل جهودا كبيرة ودفع أجورا مجزية للعاملين ولم يستغلهم، وبالتالي فالأرباح من حقه!

طبعا تعلمون ان الرأسماليين كمحصلة عامة تتعاظم ثرواتهم وأرباحهم وترفهم، اي ان لا مجازفة حقيقية الا اذا كان المقصود على صعيد أفراد، أما كطبقة مالكة لوسائل الانتاج فهي تزداد ثراء وترفا.. أما ان يكون قد بذل جهودا، فمعروف ان الرأسماليين لا يعملون بل سواهم هو الذي يعمل، ولكن لو افترضنا انهم يعملون سيما في البلدان النامية فليأخذ الواحد أجرة دزينة مهندسين، اما ان يستغل الاخرين فهنا يكمن جذر المشكلة.. ولا حاجة للقول ان الأجور مهما ارتفعت لا يمكن ان تلغي الاستغلال الناتج عن الاستئثار بالقيمة الزائدة التي بدون توافرها لا ينشىء الرأسمالي مشروعه.

فالاستغلال الطبقي الرأسمالي متصل بنيويا بالملكية الخاصة الرأسمالية، اي لا وجود لملكية خاصة رأسمالية الا واقترنت باستغلال الشغيلة. فالعمال هم رقيق العصر حسب تعبير ماركس، وهم بداهة حفارو قبر الرأسمالية، اذ ان ثمة تناقض بين الطابع الخاص للتملك حيث حفنة من الرأسماليين الاحتكاريين والبرجوازيين يملكون وسائل الانتاج وبين الطابع الاجتماعي للانتاج، حيث انتاج راديو أو ملابس على سبيل المثال يمر في عشرات الحلقات بدءا من المناجم أو..أو مرورا بتصنيع أجزاء الراديو او خيطان القماش، و... الى ان يكون الراديو أو قطعة الملابس جاهزة للاستعمال، ناهيكم ان المصانع التي انتجت هذه السلعة او تلك قد

انتجتها مصانع اخرى ضخمة، اي انتاج وسائل الانتاج، بما يعنيه ذلك من سلسلة طويلة من الحلقات الانتاجية، وهذا كله يساهم فيه الآف مؤلفة بل الملايين من الناس.. والشيء نفسه يقال عن السيارة والثلاجة وغرفة النوم وحديد الجسر وو.. وختاما ان الدولة المعاصرة تفرض ضرائب على الرأسماليين والناس عموما.. وهذه الضريبة تناهز أحيانا ٥٠٪ مما هو أكثر بكثير من الزكاة في العصور الماضية، ولكن هذا لا يزيل الاستغلال ولا تمركز الثروات كقانون يسري مفعوله بدأب الى درجة ان ٣٠ احتكارا تضع يدها اليوم على ٧٠٪ من ثروة البشرية.. والمسألة بداهة لا تعالج أخلاقيا، بمعنى ان يتصدق الاغنياء على الفقراء، فالفقراء ليسوا متسولين ولا يريدون ان يكونوا كذلك، بل هم القوة التي تنتج الخيرات، وهم يناضلون لاجتثاث الاستغلال من جذوره، وهذا لا يكون الا حينما تصبح الوحدات الانتاجية ملكا لهم، سواء على شكل تعاونيات او ملكية عامة تجير وتعود بالفائدة على مجموع الشعب.

وعليه، لا حل الا بتأميم الملكيات الكبيرة وارساء الشكل التعاوني لوسائل الانتاج بحيث يكون الأجر تجسيدا لقانون "*من كل حسب طاقته ولكل حسب عمله*" اي ما ينتجه له بدون ان يستغله صاحب عمل، ولكن لما كانت طاقة الناس ودأبهم وذكائهم..الخ متفاوتة، فمن الطبيعي ان تتفاوت الأجور، ولكن هذا لا يسمح باستغلال أحد للآخرين.

وفي البلدان النامية، وبتفاوت، من السابق لأوانه تأميم الملكيات المتوسطة والصغيرة، اذ انها لم تستنفذ دورها التقدمي بعد، والأهم توجيه الاستثمارات باتجاه انتاجي واستقلالي وبعيدا عن التبعية للغرب الرأسمالي.

والطبقة العاملة بعدما تنتقل من طبقة في ذاتها، اي طبقة تبيع قوة عملها، الى طبقة لذاتها اي طبقة منظمة وتحمل فكرا ثوريا اشتراكيا، وتعي أهدافها واصدقاءها واعداءها وسبل النضال.. من الطبيعي ان تكون الطبقة الاكثر ثورية صانعة المستقبل ضمن تحالفها مع الفلاحين والمثقفين الثوريين والشغيلة عموما.. والطبقة العاملة تتميز ايضا باتساع قاعدتها الاجتماعية، فهي الأكثر عددا في المجتمع المعاصر وهي تملك فضلا عن ذلك علم التكنيك والادارة.. وأسلوب انتاج اشتراكي قائم على المبدأ التعاوني بديلا لمبدأ الملكية الخاصة الاستغلالية، بل وأيديولوجية اشتراكية وفنا اشتراكيا وأخلاق اشتراكية..

طبعا انني لا أتحدث عن الطبقة العاملة الفلسطينية أو في معظم العالم النامي حيث لم تبرح تخطو خطواتها الاولى في بلدان تتحول رأسماليا ببطء، وأنما أتحدث عن الطبقة العاملة في العصر الراهن سيما في المجتمع الاشتراكي والمجتمع الرأسمالي المتطور...

ولكن هل الصراع الطبقي ينحصر في عمال الصناعة والزراعة فقط والطبقة الرأسمالية؟؟

الجواب، كلا بل ان الصراع الطبقي يشمل كل الشغيلة ايضا من موظفين وذوي ياقات بيضاء ومثقفين في الجامعات والمستشفيات والشركات، اي كل الشغيلة الذين يتعرضون لاستغلال/أرباب العمل.. وكنت قد أشرت سابقا الى البرجوازية الصغيرة والفلاحين والانتلجنسيا والبرجوازية المتوسطة، فهذه ايضا مستغلة من قبل الرأسمالية الكبيرة... وكيلا أسترسل أكثر من اللازم يتوجب القيام بتحليل ملموس للواقع الملموس للكشف عن أشكال الاستغلال، وبالتالي اشكال تجلي الصراع الطبقي المنبثق عنها.

والصراع الطبقي بداهة يتمظهر بأشكال نقابية ونظرية وسياسية وعنفية، وهذا أفرد له حديثا مستقلا، وربما بعد غد ذلك ان موعد الزيارة غدا.
وفي الساحة الفلسطينية الصراع الطبقي يأخذ صورة نقابية في الورشات والجامعات والمستشفيات والمصانع.. كما يتجلى في الصراع بين النهج السياسي البرجوازي والنهج اليساري الديمقراطي، وفي الصراع الفكري... الخ و ..و..و..

وشكرا لاصغائكم.

الفكر النظري اليساري وأشكال النضال

على الأغلب أن يشدكم هذا الموضوع بحيث تكون خلاصته مرجعية نظرية مفيدة لكم، على أية حال أسعدتم صباحا وأهلا بكم:

أضحى مألوفا القول ان الماركسية هي علم دراسة التناقضات والتحولات المادية في الحياة ... والتناقض كما هو معروف هو العلاقة بين الأضداد، بين طرفي الشيء أو طرفي المعادلة، فشعبنا والاحتلال أضداد/ أعداء، والعمال ورأس المال أضداد/أعداء، وشعوب العالم النامي والامبريالية أضداد/ أعداء، فكيف السبيل لحسم التناقض بين هذه الأضداد؟ الجواب انه سبيل النضال اي العملية الصراعية بين هذه الأضداد.

والماركسية بدورها قدمت تصورها لآليات حسم الصراع بناء على قاعدة التحليل الملموس للواقع وبالتالي إستخلاص القوانين من خبرة التاريخ، من ممارسة الشعوب فهي ليست نظرية متكبرة أو منفصلة عن الممارسة البشرية، بل بالعكس انها العمل المستقصى من الحياة وتشعباتها وحركتها.

وهذا بداهة ينسحب على أشكال النضال. وباتت معروفة مقولة لينين ان "*السياسة علم وفن*" أي برنامج وتاكتيك، والبرنامج يشمل الواقعي والتاريخي، اي الذي يمكن تحقيقه في زمن منظور والذي تفجره بطون المستقبل، أما ان يقال بأن "*السياسة فن الممكن*"، فهذا غير دقيق، ففن الممكن جزء من السياسة وحسب، فالممكن واقعيا هو القريب أو الذي هو قيد الولادة أما السياسة فتشمل علاوة على ذلك الاهداف البعيدة، والماركسية علاوة على ذلك تؤكد بأن طبيعة التناقضات بين الأضداد هي التي تحدد اشكال النضال/الصراع والتناقضات مستويات، منها التناحري الذي يحسم بالعنف والقتال كما حال التناقض بين الشعب الفيتنامي من جهة والاستعمار الامريكي ومن قبله الفرنسي والياباني من جهة أخرى، بحيث ينسحق طرف وينتصر الطرف الآخر، ومنها التناقضات الخلافية والتعارضية والتباينية المتفاوتة في مستواها ايضا والتي تسوى بوسائل غير عنفية، فالنضال النظري في أوساط الناس أو التقاربي أو الحوار وتبادل الرأي .. مع الأخذ بالحسبان جدلية هذه التناقضات اي احتمالية انتقالها من مستوى الى آخر الأمر

الذي يقتضي تحريك آلية الحسم، كما الانتباه الى جاهزية الطرف الثوري فهي تمر عبر خط تركيمي الي ان تغدو جاهزة لحسم التناقض التناحري.

وكي لا يتحول حديثنا الى حديث فلسفي حسبنا الاشارة الى ان التناقضات مستويات بدءا بالتعارض البسيط وصولا الى الصراع التناحري العنيف وان أي خطأ نظري في تشخيص التناقض ينشأ عن خطأ في الممارسة السياسية اي في ادارة الصراع. فتناقض تناحري معروفة وسائل حسمه، وتناقضات أقل أهمية لا ينبغي حسمها بالعنف بتاتا، وهذا يقودنا بداهة الى التذكير بالتناقض الأساسي الذي يطبع المرحلة -الكيفية ويزول بزوالها، كالتناقض بين العمل المأجور ورأس المال في المجتمعات الرأسمالية، أو التناقض بين حركة التحرر الوطني- الديمقراطي والامبريالية، كما التناقض الرئيسي السياسي المباشر الذي ينفجر في لحظة معينة كتناقض شعبنا مع الاحتلال في سبيل أهدافه بالحرية والاستقلال، وفضلا عن ذلك التناقض الثانوي بين قوى الثورة أو بين قوى الثورة وطرف رجعي غير معنية الثورة بالصراع معه، كما النظام الاردني ما قبل مذابح أيلول عام ١٩٧٠ غير ان هذا التناقض الثانوي ارتقى الى مستوى التناقض الرئيسي الدامي حينما شن النظام حرب ابادة ضد الثورة، والأمر نفسه ينطبق على القوى الكتائبية في لبنان ما قبل اندلاع الحرب الأهلية عام ١٩٧٥.

إن لوحة التناقضات غنية ومتحركة على نحو ملفت للنظر في حالة النضال الفلسطيني، وهي أكثر تعقيدا من لوحة التناقضات في ثورات أخرى كالثورة الجزائرية والكوبية أو الروسية على سبيل المثال.

لو أردت الأيجاز بجملة واحدة لقلت:

أن طبيعة التناقض ومستوى نضجه يحددان اشكال النضال. والفكر الرأسمالي بعد انتصار الثورات السياسية والرأسمالية في أوروبا، بل وفي امريكا ايضا في أواخر القرن ١٨ التي أطاحت بالاقطاع الرجعي ومؤسسته الايديولوجية ونظامها السياسي واتجهت لبناء مجتمع رأسمالي ديمقراطي، ادعت ان عصر الثورات قد أفل وان عصرا من السلم الاجتماعي والحريات قد حل. أي ان الرأسمالية التي عمدت الى وسائل عنيفة لحل تناقضاتها مع الطبقات الرجعية أرادت حرمان القوى الاكثر ثورية منها بعدما تحولت هي ذاتها الى طبقات استغلالية ورجعية بل واستعمارية ايضا، من اللجوء للوسائل العنيفة بل وان

الرأسمالية والاستعمار او من يلجأ الى وضع الحرب على رأس الأجندة لإحتواء التناقضات وفرض السيطرة والنهب.

وعليه فما هي أشكال الثورة التي عرفها التاريخ؟

في البداية هناك أمم وشعوب اشتهرت بالثورات كفرنسا البلد الذي خيض فيها الصراع "الطبقي" حسب كلمات ماركس، وهناك شعوب اتسمت بالخمول في الغليانات الثورية كما حال الشعوب الاسكندنافية او الشعوب العربية او الهندية على المثال ولنبدأ بـ :

١ الشكل الانتفاضي، أي اندلاع الانتفاضة الشعبية العارمة كنتاج لاحتدام الصراع بين الأضداد، وماركس خير من حلل وكتب عن انتفاضات فرنسا والمانيا وبلجيكا ... في أوآسط القرن الماضي كما عن كومونة باريس عام ١٨٧١، أما لينين فاستند الى خلاصات ماركس وأغناها في ظل مشاركته بالانتفاضة الروسية عام ١٩٠٥ وبعدئذ انتفاضة شباط ١٧ وأكتوبر المجيدة في العام نفسه. وفي العلم النظري اليساري حدد ماركس ولينين قانون الانتفاضة على النحو التالي:

أ- حينما تعجز الطبقات الحاكمة عن الحفاظ على السيطرة كالسابق، فتعمد الى أقذر أساليب القمع والسياسات الوحشية لاحكام قبضتها على الاوضاع.

ب-حينما ترفض الطبقات المحكومة استمرار الرضوخ للظروف القائمة بل وتعرب عن استعدادها للتضحية واحتكار الموت في سبيل التغيير الثوري. وقد لاحظنا هذا مؤخرا في انتفاضة الشعب الايراني ضد النظام الشاهنشاهي. ولكن ما مدى تكون واكتمال القانون في الظرف المحدد فى البند(أ).

إذ ليس دائما تكون السلطة الحاكمة متفسخة وتنهشها التناقضات، وليس دائما تكون الجماهير هائجة وفوارة وانما شقي القانون يتكونان بتدرج، ولكن حينما ينفجر الصراع على أشده ويعلن عن نفسه بدون ثورية او تمييع تكون الظروف في وضع من اثنين:

أزمة ثورية: أي يحصل الصراع الجبهي وتتصادم على نطاق شامل قوي النظام مع قوى الشعب ولكن بدون حسم للصراع، ومثال حي على ذلك الحرب الاهلية في لبنان عامي ١٩٥٨ و ١٩٧٦ كما حرب ايلول في الاردن عام ١٩٧٠ علما ان الكفة رجحت في التحليل الأخير لصالح النظام، او المجابهة الواسعة في السلفادور عام ١٩٩١ او بوليفيا عام ١٩٦٦ او جنوبي افريقيا عام ١٩٨٥.

وبكلمة واحدة يندلع الصراع على أشده غير ان ميزان القوى لا يسمح بحسم الصراع.

وضع ثوري: وهنا يتم الحسم بانسحاق أحد الطرفين وانتصار الطرف الآخر والانتصار يكون بأحد اتجاهين، اي لجبهة قوى الثورة او القوى المضادة للثورة. أي ليس بالضرورة ان تنتصر الثورة. فالقيصر الروسي انتصر عام ١٩٠٥ فيما انتصرت الجماهير عام ١٩١٧، والنظام البلغاري الفاشي انتصر عامي ١٩٢٣ و ١٩٢٦ بينما انتصرت الجماهير عام ١٩٤٤ وهذا حال كوبا عام ١٩٦٠.

ورغم ان انتصار الثورة مسألة يصعب التنبوء بها مسبقا، ذلك انها لو كانت مضمونة، لأمكن ان يسير التاريخ بيسر أكثر، ولما اندلعت ثورات اللهم الا الثورات الظافرة، ولكن مع ذلك يتعين الدراسة المتعمقة والذكية للظرف المحدد اذ حينما لا يكون قانون الثورة مكتملا أو قريب من الاكتمال، لا ينبغي المبادرة لاشعال حريق ثوري من قبل الطليعة السياسية، والحديث هنا عن المبادرة، اي حين يكون بوسع الطليعة تأجيل لحظة الصفر (*أي أمس لم يحن بعد، وغدا يكون قد فات الأوان*) حسب تعبير *لينين*. والمقصود عدم المبادرة، اي حين لا تكون اللحظة قد أزفت خشية المغامرة المدمرة، وبالتالي زج القوى الثورية في معركة سابقة لأوانها.

ولكن حينما تحين لحظة الحسم ويكتمل القانون يتعين زج كل القوى والامكانات في اتون الحرب الثورية واحراز نجاحات يومية مهما بدت صغيرة حسب كلمات *أنجلز* لشحن الجماهير الثائرة روح الانتصار ومراكز عوامل الفوز بتواتر.

.. فما هي علامات أو شروط الانتفاضة علاوة على قانونها العام المذكور أيضا؟

١- الأداة الثورية القائدة سواء كانت حزب واحد او تحالف ثوري ممتد عميقا في أوساط الجماهير.

٢- برنامج ثوري لعقلنة وتوجيه حركة الجماهير نحو اهدافها بما في ذلك رسم التاكتيكات الصائبة والشعارات الضرورية.

٣- خطة شاملة توحد طاقات الشعب في المدينة والريف ومختلف الطبقات الثائرة، وتحدد الاهداف التي ينبغي مهاجمتها قبل سواها وتوزيع القوى وتجديد الحلقة المركزية وكل الخطوط الميدانية، وضمان قيادة الحركة الشعبية ضمن الخطة والأهداف المرسومة.
أي قيادة برنامج وتاكتيك صائبين - خطة انتفاضية تطبيقية.

٤- تحالف طبقي ثوري، سواء كان التحالف عمالي - فلاحي وما يسندهم من مثقفين في حالة الثورة الاشتراكية، او كتلة بشرية من القوى الاجتماعية الثورية من عمال وفلاحين وبرجوازية صغيرة وأوساط ثائرة في البرجوازية الوطنية ان كانت الثورة وطنية-ديمقراطية معادية للأستعمار وركائزه المحليين. والمهم هنا كسب الأغلبية واستمالة قطاعات متزايدة من الجماهير كي لا تحاصر الثورة في قوى الطليعة، فالثورة هي ثورة شعبية ولا أحد ينوب عن الشعب إلا الشعب ذاته.

٥- اعداد قتالي مسبق في الزمن الرمادي اي الزمن الرتيب ما قبل اشتعال الحريق الثوري، ا ذ في زمن الحريق يكون قد فات الآوان، سيما على صعيد الطليعة السياسية ومحيطها الاجتماعي، وهذا يتطلب إعداد المفارز القتالية ومجموعات المغاوير وتخزين لوازمها .. ويكون ضروريا تحرير بعض المناطق في البدايات ليسهل الانطلاق منها كأرض حمراء، والتحرك فيها، بما يشبه ازدواج سلطة الثورة والسلطة المضادة للثورة، ويكون السلاح فقد هو وسيلة الحسم بينهما.

٦- الإفادة من التناقضات داخل معسكر العدو، بحيث يراعي بأستمرار توسيع قاعدة الثورة وتضييق قاعدة الاعداء، ولكن على اساس بلوغ السلطة، فالسلطة هي المسألة المركزية في كل ثورة كما أنشأ لينين وبرهن التاريخ اي ان الهدف هو تغيير جذري يبدأ بالانقضاض على السلطة، وليس مجرد إجراء اصلاحات ضمن إطار النظام السابق.

هذه تقريبا اشتراطات الانتفاضة في العلم اليساري. وحينما اندلعت ثورة العمال في باريس عام ١٨٧١ أيدها *ماركس* ووصف العمال بمقتحمي السماء، بينما انتقدها صديقه *كوجلمان*، بالنظر الى عدم توافر كامل اشتراطات الانتفاضة، فرد عليه *ماركس* بأن ثمة فارق بين الاكاديمي والثوري. فبينما الاول يبحث عن الشروط المكتملة، الثاني يقتنص اللحظة التي تؤمن الحد الأدنى من الشروط الكافية للإنطلاق، وفي غمرة الصراع الانتفاضي الذي يستمر في العادة زمنا قصيرا اسبوع أو أقل أو اكثر تتضح الشروط بصورة مذهلة وعموما فالأنتفاضة تقوم حالما يتوافر قانونها الاساسي، اي ان الرهان يتركز هنا على وجه التحديد بينما الانضاج في معمعان الصراع له دور محدود.

وبعض المفكرين يسقطون في خطأ الدكتور *كوجلمان*. فمثلا لقد كتب *بليخانوف* المنظر الروسي الكبير "*ما كان ينبغي حمل السلاح*" حينما فشلت ثورة ١٩٠٥، بينما رفع *لينين* شعار "*كان ينبغي حمل السلاح*" مستوحيا أفق *ماركس*، بل واعتبر فشل الانتفاضة العارمة تمرين أو "بروفة" الانتفاضة القادمة.

وربما تذكرون سخرية *اميل حبيبي* من نداءات قيادة الانتفاضة الفلسطينية حينما قال انها "بحجم نمرة حذائي" ردا على صدور النداء رقم ٤١، فهو واتجاهات فلسطينية كانوا يرفضون عقلية الانتفاضة من خلال النداءات ويعتبرونها تعاطي فوقي مع الجماهير....

طبعا ان للانتفاضة الشعبية الفلسطينية مزايا خاصة تحتاج الدراسة فهي ليست كالانتفاضات المسلحة التي عرفها التاريخ، ذلك انها عمل شعبي غير مسلح، والشيء نفسه يقال عن الانتفاضة الايرانية ... وهذا كله سنقف أمامه لاحقا.

اما الشكل الانتفاضي الذي تطرقنا له فهو الشكل العصياني، اي العصيان المسلح واشتراطاته، ولكن من الطبيعي ان تتسع نظرية الانتفاضة لاضافات التاريخ، مما يفتح المجال لاستخلاصات الانتفاضة الفلسطينية والانتفاضة الايرانية وسواهما بحيث تغتني بها نظرية الانتفاضة. فالتاريخ لا يعرف النمذجة ولا يحصر نفسه في نموذج واحد، بل ان محاولة حصر الوعي النظري بنموذج واحد هو دوغمائية مهلكة و أشبه بتفصيل التاريخ حسب مقاسات نظرية بينما الصحيح هو العكس ويجدر الاشارة هنا الى الفارق بين انتفاضة واعية وانتفاضة عفوية، بين انتفاضة جماهيرية عامة وانتفاضة محلية، بين انتفاضة شعبية عارمة وبين هبة شعبية.

فالانتفاضة الواعية يخطط لها ويطلق شرارتها قوى منظمة سياسة تحافظ على المبادرة بين ايديها وتقود الحركة الجماهيرية بثبات. وتجربة *لينين* عام ١٩١٧ مثال، كما تجربة *بيمتروف* عام ٤٤ والثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ...

أما الانتفاضة العفوية فهي اندماج الجماهير، العفوية والمتلاحق في صدام مع النظام الذي يعمد الى قمعها مما يؤجج روحها الكفاحية، فيما الحركة المنظمة للقوى السياسية تلحق بها او تنخرط فيها وهناك عشرات الانتفاضات الفلسطينية من هذا القبيل كالانتفاضة الايرانية فى البداية والانتفاضة الفلسطينية فى بداية الأمر أيضا. والانتفاضة الجماهيرية العامة تكون على النطاق الوطني ، اي تنخرط فيها كل الاقاليم والمناطق والفئات الاجتماعية ذات المصلحة في التغيير، أما الانتفاضة المحلية فهي تكون على نطاق ضيق كما كومونة باريس عام ١٨٧٠ أو شنغهاي عام ١٩٢٧، اي تبقى محصورة جغرافيا واجتماعيا.

وذات الشيء يقال عن الانتفاضة والهبة الشعبية، فالأولى عميقة الجذور الى درجة يكون هدفها السلطة، أو في أغلبية الاحيان تكون على هذا النحو، فيما الهبة تحرك جماهيري واسع او ضيق يحدد أهداف أقل من التغيير الشامل في النظام الاجتماعي-السياسي، كما هبة نيسان في الاردن عام ١٩٨٩ حينما اشتعلت في الجنوب وفرضت تبديل رئيس الوزراء وطالبت بالتعددية السياسية .. مع الإبقاء على نظام الملك والواقع الاقتصادي-الاجتماعي.

ذلك ان الانتفاضة بعد امساكها بالسلطة تواصل العملية الثورية لبناء المجتمع الجديد خلافا للهبة الشعبية محدودة الطموح.

٢ الحرب الشعبية، وهي شكل آخر للثورة تلجأ له الشعوب الضعيفة ضد عدو قوي ولئن ظهر في التاريخ بدايات سيما في البرازيل في أوآخر العشرينات من هذا القرن، غير ان *ماوتسي تونغ* هو مؤسس نظرية الحرب الشعبية. وهو لئن كان ماركسيا-لينينيا، بل لأنه كذلك، فلقد استند الى المنهاج المادي في قراءة الواقع الخاص واستخرج قوانين ومباديء الحرب الشعبية، بل لقد اختلف مع الحزب الشيوعي الصيني الذي قاد انتفاضة شنغهاي الفاشلة، وقال ان الصين بلد اقطاعي نصف مستعمر مترامي الاطراف يحتدم الصراع فيه بين امراء الحرب، وبالتالي لا يوجد عندنا مدن صناعية وطبقة عاملة لكي تنتفض، وحتى في حالة النجاح في مدينة فإن النظام الامبراطوري القوي قادر على خنقها ..

وعليه لقد كان رده على نصائح *ستالين* الداعية للاعداد للأنتفاضة في أهم المدن الصينية أن قال "*من اراد ان ينتحر فليقرأ هذا الكتاب*".

وخرج بالقانون الأساسي التالي للكفاح الشعبي المسلح:

توافر حركة ثورية قابلة للنمو في مسيرة النضال وقابلية شعبية للإلتحاق بالنضال اثناء المسيرة ونظام لديه قابلية للتفسخ تحت ضربات الثورة. أي ان لا يشترط توافر قانون الانتفاضة وشروطها، بل يرى ان ذلك من الممكن تكونه في رحم الكفاح المسلح الذي يعتبره "*ماو*" الطريق الوحيد للأنتصار بل وأكبر من الطاقات الثورية لدى الفلاحين في بلد زراعي .. ولمعلومكم كانت نسبة العمال في الصين حينما انتصرت الثورة عام ٤٩ مجرد ١٪ فقط.

وحدد *ماو* ثلاثة مراحل للحرب الشعبية:

١- مرحلة الهجوم الاستراتيجي من قبل النظام والدفاع الاستراتيجي من قبل الثورة.
٢- مرحلة التوازن الاستراتيجي.
٣- انتقال الثورة للهجوم الاستراتيجي.

وفي المرحلة الاولى تشن المجموعات العصابية صغيرة العدد والمنتشرة هنا وهناك سلسلة من الهجمات المتلاحقة والمتنامية مثل "البعوض الذي يهاجم الفيل" كما كتب ماوتسي تونغ، وتواصل لدغتها آلاف ومئات ألالاف من اللدغات حتى يتهاوى الفيل ويهلك.

والمجموعات الفدائية .. المغوارة التي انطلقت بالعشرات اصبحت كتائب ومن ثم جيش ثوري بلغ قوامه في أوآخر الاربعينات في الصين ٥ ملايين مقاتل. وفي المرحلة الاولى يكون عضد حركة العصابات طريا بينما تلاحقها قوات النظام بشراسة بغية القضاء عليها، ذلك ان النظام هو الأقوى وبالتالي فهو الذي يمتلك المبادرة الاستراتيجية حيثما يستطيع الوصول لأي مكان فيفتك بالقوى الثورية التي تتراجع منسحبة الى أماكن أكثر أمنا فهي في حالة دفاع عن النفس وكلما هاجمها العدو تراجعت حفاظا على القوى وبما يتيح لها امكانية المباغتة ثانية.

ولكنها تواصل كمائنها وتنمي امكاناتها وتجند المزيد من الطاقات وتتحول المجموعات الصغيرة الى قواعد فدائية متحركة تحظى بتعاطف شعبي متعاظم، وتشن هجمات باعداد أكبر وتسليح أعظم فيما يتكبد العدو خسائر اكثر فأكثر وتنتقل من الهجمات المفاجئة والاطلاقات والانسحاب السريع الى الاشتباك الذي يستمر وقتا واحيانا الى احتلال مؤقت لمواقع العدو... وتتكرر هذه العملية على طول البلاد وعرضها. وحينها تحل مرحلة التوازن الاستراتيجي، اي تتعادل كفتي الميزان، وتغدو قوات الثورة قادرة على الصمود في وجه قوات النظام بل وتذيقها مرارة الهزيمة في معارك عديدة وتغتنم منها وتأسر العديد من عناصرها، ويشتد القتال وتثبت القواعد الفدائية فترة أطول وتحتل مواقع فترة أطول ويتسع التفاف الشعب أكثر وتتضاعف قوات الثورة ومقدرتها وتغدو مالكة للأسلحة المتطورة متجاوزة السلاح الفردي الذي كان ملائما للمجموعات العصابية، بل وفي مرحلة متقدمة في الثورة الفيتنامية سيما في المرحلة الاخيرة استخدمت سلاح الدبابات والصواريخ اضافة للمدافع المضادة للطائرات.

ويتفكك جيش النظام كما تعصف التناقضات في صفوف أهل النظام الذي يفقد هيبته بتدرج الى ان تنتقل قوات الثورة للهجوم الاستراتيجي.

والهجوم الاستراتيجي في الثورة الكوبية كان قد حدد بدخول العاصمة وعدة مدن رئيسية، وهذا كله جرى على الارض في أيام قليلة، بينما في حالة الثورة الصينية استمر أعوام لتمشيط البلاد من الشمال الى الجنوب محررا الارياف والمدن الفرعية وبعدئذ المدن الرئيسية والعاصمة وقد انقلبت الآية هنا، فبينما شنت قوات الامبراطور حربا شرسة لإبادة الثورة عامي ٣٥-٣٦ وأجبرتها على القيام بمسيرتها الكبرى من الجنوب الى الشمال، أفلحت قوات الثورة بالهجوم الاستراتيجي بين ٤٦-٤٩ من الشمال الى الجنوب وفرار *تشانغ تشاي تشيك* الى تايوان.

والحرب الشعبية تستغرق وقتا طويلا في غالب الاحيان، اذ استمرت عقود في الثورتين الصينية والفيتنامية. اما بالنسبة للتجربة الفلسطينية فقد كان لها خصائصها التي نقف عليها ذات يوم. ولكن لكي لا يساء الفهم لا ينبغي حصر نظرية الثورة في الشكل الانتفاضي والحرب الشعبية فقط إذ انه هناك ايضا:

٣ العصيان المدني، ولئن جاز تسمية الانتفاضة المسلحة بالعصيان المسلح فإن العصيان المدني يتفادى استخدام السلاح او يتفاداه اجمالا كما حال

التجربة الهندية. ففي الهند استعمر مئة ألف جندي بريطاني الهند المكونة حينذاك من ٢٣٠ مليون نسمة، اي عدد محدد يحيط به بحر من العداء، وهذا *غاندي* زعيم الحركة الوطنية سعى الى اتباع نظرية "السياتجراها"، اي اللاعنف باعلان مقاطعة شاملة لمؤسسات الاستعمار البريطاني سواء كانت اقتصادية او ادارية ... الخ اذ توجه الشعب الهندي لحياة الفلاحة وتربية الماشية في محاولة لمقاطعة السلع البريطانية، حتى ان غاندي نفسه كان نموذجا حينما قام بتربية ماعز يكفل له الحليب واللبن كما خاط ملابسه بنفسه... الخ وفي لحظات متقدمة أتلفوا بطاقات الهوية وامتنعوا عن تسديد الضرائب وكلكم تذكرون عصيان بيت ساحور، فهو يتماشي مع نظرية العصيان المدنى، غير أن العصيان فى هذه الحالة كان موقعيا ولم يتعمم وقد صمد لفترة شهور متحدّيا ارادة الاحتلال وجنده.

ورغم أعمال المقاومة المسلحة فى الهند من قبل مجموعات ثورية غير أن المظهر الرئيسى والساحق للنضال الهندى كان العصيان المدنى الدى اضطرت معه بريطانيا للانسحاب فى أوآخر الاربعينات.

وفي جنوب افريقيا كان ثمة مظاهر عصيانية غير ان الشكل الرئيسى كان المقاومة المسلحة وربما مؤلف *جبرا الشوملى* عن العصيان المدنى يفيدكم، فيرجي قراءته حالما تعثرون عليه فهو غني ويغنيني عن الاسترسال.

٤ الانقلاب العسكري، والمقصود به تحرك قطاعات من الجيش للإمساك بزمام السلطة بديلا للنظام القائم او للحكم القائم، ومثل هذا التاكتيك يصعب تصور نجاحه في المجتمعات المتطورة حيث تشكلت دولة المؤسسات كالبرلمان والأحزاب ومراكز النفوذ الاقتصادي وتبلورت الطبقات، وحيث للقانون سلطته كما للإعلام والرأي العام الشعبي ... الخ، أي يصعب تصور حلول الجيش محل المؤسسات المدنية ومؤسسات الدولة سواء لقوة هذه المؤسسات او للمستوى الحضاري للشعب الذي لا يقبل لفريق عسكري ان يحل محل الدولة ومؤسساتها وقوانينها ونظمها.

ولم اسمع عن قيام انقلاب عسكري في دولة صناعية سواء كانت رأسمالية أو اشتراكية، أما ان تحدث انقلابات في مجتمعات أقل تطورا او متخلفة فهذا شائع ... ففي تركيا بادر العسكر في بداية الثمانينات بزعامة *ايفرين* للانقضاض على السلطة وأقاموا حكما فاشيا لعدة اعوام الى ان مهدوا لعودة الحياة البرلمانية، وفي البرتغال قام عدة جنرالات يساريين يدعمهم الجيش بالإطاحة بالنظام القمعي والاستعماري حيث منحوا أنغولا الاستقلال وأرسوا اسس حياة المجتمع المدني

الديمقراطي حيث خسروا هم أنفسهم الانتخابات وانصاعوا لنتائجها .. والبرتغال كما هو معلوم دولة اوروبية، فيما تركيا دولة اوروبية وآسيوية وأما في آسيا وافريقيا وامريكيا اللاتينية فهناك عشرات الانقلابات حيث يشكل الجيش المؤسسة الاقوى والاكثر تبلورا في المجتمع وبخلاف الدول المتطورة حيث يبتعد الجيش عن تأدية مهمة سياسية منحازة لهذا الحزب او ذاك، او يشتهر بكونه اداة للنظام القائم وليس بديلا له، فإنه في العالم النامي لا يتردد في أحيان كثيرة من وضع نفسه وصيا على المجتمع وبديلا لمؤسسات، وكثير من الانقلابات كانت عينية كما حال الانقلاب الفاشي في تشيلي بزعامة الجنرال *بينوشيت* الذي الغى العملية الديموقراطية واغتال رئيس البلاد *الليندي* وأعدم المئات وزج في السجن عشرات الالاف، واستمر على هذا النحو نحو عقد ونصف تقريبا الى ان تصاعدت الحركة الجماهيرية وفرضت مجددا الحياة الديمقراطية في السنوات الاخيرة.

وانقلاب *ضياء الحق* في الباكستان الذي كان قريبا من انقلاب *بينوشيت* ولقي مآله.

وهناك انقلاب *عبد الناصر* الذي أطاح بالملكية الفاروقية وانتهج سياسات تنموية برجوازية على صعيد داخلي وقومية معادية للامبريالية واسرائيل على صعيد خارجي، بصرف النظر عن أية ملاحظات هنا، وكان من نتيجة التحولات الطبقية في أهل النظام ان اتسع دور الفئات الطفيلية والكومبرادورية فسارت في طريق التبعية والاستسلام في زمن السادات نائب عبد الناصر.

وانقلاب محمد *تراكي* اليساري في افغانستان الذي طوح بالنظام التابع والعشائري ولكن ليدخل في صراعات داخلية من جهة وصراعات مع قوى القبائل الملفعة بالدين من جهة اخرى والمدعومة من أعداء الدين الاسلامي كما السعودية وأمريكا التي كانت تقدم منحة سنوية مقدارها نصف مليار دولار سنويا واسلحة صاروخية متطورة وفي النهاية سقط الحكم اليساري الذي لم ينفذ على صعيد انجازاته سوى خطوات ديمقراطية محدودة كالاصلاح الزراعي والتحسين الطفيف لأحوال المدن ذلك ان الحرب الاهلية استنزفته تماما فطار مثلما طارت قبله القوات السوفيتية التي جاءت لحمايته، علما ان حزب الشعب لم يفتأ قويا وبعشرات الألاف، وانتقلت السلطة الى أيدي الجماعات السياسية الاسلامية التي لم تتردد في ذبح بعضها بعض بطريقة مؤلمة للغاية. طبعا لم يكن ثمة خروج من الازمة الافغانية من قبل أو حاليا الا بإعتماد الديموقراطية البرلمانية وتوظيف طاقات الجميع، اما حكم اللون الواحد فهو الدمار بعينه واعادة انتاج التخلف.

وانقلابات السودان كثيرة من عبود في الخمسينات الى *النميري* فانقلاب *هاشم العطا* اليساري الذي تكاتفت مصر السادات والقذافي والقوى اليمينية في الداخل لوأده وأعدام أبرز القيادات السودانية كمحجوب *وقرنق* وسواهما علما انهم لم يكونوا طرفا في الانقلاب... وتكررت الانقلابات التي كان آخرها انقلاب *البشير* بدعم من *الترابي* حيث ألغى الاحزاب وحرية الصحافة والبرلمان... وتفرد اتجاه واحد بكل شيء ساعيا لتنمية الزراعة ومعلنا عداءه للسياسات الامريكية ... الخ. وهناك انقلاب *منغستو* في اثيوبيا حيث اطاح بالامبراطور *هيلا سيلاسي* وعربداته مع توجهات لتنمية زراعية وبناء حزب ثوري ومؤسسات مجتمعية، ولكنه اتبع سياسات دموية مع المعارضين كما لم يفهم المسألة القومية الآرتيرية فاستمر بنفس سياسة الامبراطور وهذا أدى مع مرور الوقت الى تصدع النظام وفرار *منغستو*.

وبقطع النظر عن التفاصيل وطابع الانقلاب، يمكن القول ان الحركة الثورية قد تضطر لاتباع طريق الانقلابي أحيانا غير ان الانقلاب، أي انقلاب، سواء كان يساريا او يمينيا ان لم يكن رأس حربة لحركة جماهيرية منظمة وحزب ثوري يسنده ويضبطه بحيث تنتقل دفة الامور للاتجاهات المدنية، فإن العسكرتاريا تتجه الى القمع والعنف والفاشية او اجراءات فاشية وغير ديموقراطية لا محالة. فهي لتكريس سلطاتها وصولجانها تعمد الى قمع وضرب الآخرين والشعب.

٥ الطريق البرلماني، اي فوز الحركة الثورية من خلال الانتخابات التشريعية بحيث تنجح بمفردها أو من خلال التحالفات تتحقيق أغلبية برلمانية بما يتيح لها تشكيل حكومة. وهي من خلال الاغلبية البرلمانية وسياسات الحكومة تقوم بتنفيذ قوانين واجراءات تغييرية على مختلف الصعد الاقتصادية والسياسية والثقافية و ... بل واعادة بناء الجيش وجهاز الامن بما يتماشى مع العهد الجديد، وقد فاز التحالف اليساري الشيوعي-الاشتراكي في السلفادور في بداية السبعينات غير ان العسكر والقوى البرجوازية اليمينية بدعم وتحريض من امريكا نجحوا في قبر أول تجربة من هذا القبيل. ومؤخرا تكرر النجاح في عدد من جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق وأوروبا الشرقية، فضلا عن الفوز في مجالس محلية وبلدية عديدة هنا وهناك بما في ذلك روسيا *يلتسين* والشط الشرقي في ألمانيا ... والسؤال:

هل سيتاح للسلطة اليسارية سواء كانت تشريعية ام بلدية واقليمية فرصة ترجمة برامجها بعدما فازت بالطريق الانتخابي أم ان القوى البرجوازية واليمينية سوف تبادر لدفع التناقض الاجتماعي الى درجة الصراع العنيف؟

ان الجواب برسم المستقبل ولكن على اليسار ان يتهيأ لحماية منجزات الجماهير وان يجذر الخيار الديموقراطي في الوعي السياسي، بحيث يبني حركة شعبية وكتلة بشرية حسب تعبير *غرامشي*، تلتحم بالبرنامج الثوري وتضمن ردع أية ميول مغامرة لدى القوى الاجتماعية المهزومة، وان كان المرء يتحسس رغبة الشعوب بالديموقراطية وعدائها المتعاظم للفاشية وحل التناقضات عنفيا وبطبيعة الحال ان الطريق البرلماني لا ينفصل عن النضال النظري والاعلامي والتحريضي والنقابي الذي يعبر عن مصالح ويستميل قطاعات متزايدة من الجماهير والطبقات المسحوقة. وحسب رؤية غرامشي، على الاتجاه الثوري ان ينتج فكره وفنه وقيمه التي تنطلق من خصائص الشعب لمواجهة فكر وبرامج وفن وقيم الطبقات الاخرى، اي برنامج شمولي على كل الجبهات في مواجهة برنامج الطبقات الاستغلالية، وبعد الهيمنة الفكرية تكون الهيمنة السياسية من خلال الانتخابات البرلمانية ومثل هذه الرؤية لها تجلياتها منذ الثلاثينات من هذا القرن في ايطاليا حيث للشيوعيين سيطرة على أهم البلديات بما يتبعها من مشروعات اقتصادية وتعليمية وخدماتية.. ولهم فنهم السينمائي والمسرحي والغنائي وانتاجهم الادبي والنظري ..الخ اي لقد تجاوزوا منذ زمن الخطاب السياسي الى الخطاب الفكري والابداعي.

وتجربة *لينين* كانت مغايرة وتتماشى مع ظروف روسيا القيصرية حيث أسس حزبا ثوريا متفولذا تمتع بنفوذ لا بأس به في أوساط العمال وأقام تحالف مع الاحزاب الفلاحية وحينما أتت اللحظة المناسبة انقض على السلطة، فكان صاحب نظرية الانتفاضة واختيار اللحظة المناسبة.

وختاما، لقد استعرضت أمامكم عدة نظريات، وهي كلها مستقاة من واقع الشعوب والأمم، أي من التاريخ الذي لا نعترف بشيء سواه، فما الذي يلائمنا كفلسطينيين.

جوابي: ان علينا الافادة من دروس وتجارب الشعوب الاخرى ومن كل العلم النظري الثوري، ولكن لا ينبغي التقليد الميكانيكي او النسخ الكربوني

وانما علينا استخراج نظرية الثورة من واقع ومفردات الصراع ذاته بما يتلائم مع ظروفنا وفي حياتنا و"على السريع" يمكن قول ما يلي:-

لقد خاض النضال الفلسطيني على امتداد عقدين ويزيد مرحلة العمل الفدائي حيث قاتلت طلائع شعبنا في الداخل والخارج ببسالة، بصرف النظر عن الاخطاء العديدة وبدائية الاعداد في حالات كثيرة وكثيرة جدا، وفي وقت امتدت القواعد الفدائية في المخيمات الفلسطينية في الاردن كما في الاغوار والزرقاء و.. الى أن نفذ نظام الملك مجازر أيلول عام ١٩٧٠، بل وفي اوائل السبعينات صرح ديان وزير حرب العدو الراحل ان الفدائيين يسيطروا على القطاع ليلا والجيش الاسرائيلي نهارا، حيث كان مئات المطاردين المسلحين.

وأول طور مرت فيه الثورة الفلسطينية المعاصرة كان تكريس الهوية الوطنية والكفاحية، وهذا طور لم تعرفة الثورات الاخرى، ذلك ان شعبا لم يعرف التشريد والتجزئة والاردنة والاسرلة التي عرفها شعبنا مثلما كان يجب التأكيد على كفاحية شعبنا وان شعب محارب يضحي في سبيل حقوقه ومثل هذا الطور استغرق عدة اعوام. صحيح ان الثورة ذبحت في الاردن ونزف دمها في الاراضي الفلسطينية المحتلة، ولكنها قاتلت ايضا وانخرط فيها الشباب الفلسطيني رجالا ونساء بعشرات الالاف، بل وخرجت من الاردن لتبني الركيزة العلنية ثانية في لبنان ولتواصل القتال رغم الحرب الاهلية وعملية الليطاني ولتصمد ثلاثة شهور في حرب ١٩٨٢ دفاعا عن بيروت والكرامة العربية وعاد الملف الفلسطيني الى أذهان العالم والأمم المتحدة بعد ان اغلق عام ١٩٥٤ وصدر عدة قرارات عن الشرعية الدولية.

وفي الطور الثاني كان ينبغي بناء جيش الثورة الذي يتشكل من جموع الفصائل الوطنية والميليشيات التي ناهزت في مجموعها حوالي ٢٥ الف مقاتل، ناهيكم عن عشرات الالاف من المؤطرين سياسيا وأضعافهم من المؤطرين نقابيا وديموقراطيا في الداخل والخارج. أي لقد بلغت العملية التنظيمية درجة متقدمة كان يعيقها ويعيدها للوراء خناجر الانظمة العربية التي لم تفلت منها ثورتنا كما جرائم واجراءات الاحتلال الوحشية.

ومخيمات لبنان كانت أشبه بقواعد ذاتية تدار من قبل الثورة بل وامتلك المقاتل الفلسطيني أسلحة ثقيلة من كل الطرز، وجاء الاجتياح الاسرائيلي للبنان

عام ١٩٨٢ بغية تدمير البنية التحتية للثورة وتحرير الحكم الذاتي في الداخل كما صرح شارون حينذاك.

وطيلة عقدين ويزيد والمجموعات العصابية تنشط في الداخل وعبر الحدود متبعة مباديء حرب العصابات كالسرية والعمل الليلي والهجوم السريع والمفاجيء .. مراكمة انجازات صغيرة ولكن متواترة، في المدن والارياف ومن محيط المخيمات، ومحدودية الجغرافيا سيما في الضفة الغربية والقطاع وافتقارها للادغال والغابات الكثيفة كما ابتعاد الضفة عن القطاع وحجزهما داخل حدود سياسية يسيطر عليها الاحتلال وفصلهما عن حدود منطقة ١٩٤٨ فضلا عن محدودية العامل الديموغرافي في الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ ، حيث كان شعبنا أقل من مليون وغدا مليونين اليوم وظروف صعبة في الاردن ولبنان حيث تعرضت الثورة للطعن والذبح العسكري مرة ومرات.

ولئن أردنا استخدام التوصيفات النظرية المادية لقلنا ان الثورة الفلسطينية لم تغادر مرحلة الدفاع الاستراتيجي وهي، في أحسن الاحوال، حاولت ان تغادر حوافها حينما بدأت هجومها الانتفاضي، غير أن المستجدات السياسية بعدئذ سواء على صعيد عربي او بانعقاد مؤتمر مدريد والتساوق مع الحل الامريكي- الاسرائيلي، قد أعاد نضالنا للوراء ووضع مسيرة الثورة على منعطف طريق خطير جدا.

والانتفاضة الفلسطينية المجيدة كما تعلمون كانت ذات طابع خاص، فهي غليان شعبي مديد صاحبه عنف ثوري متعدد الاشكال غير انها لم تكن ولم يكن بمقدورها ان تكون عصيانا مسلحا وكان أكثر ما يمكن ان تكونه، عصيان مدني متدرج شامل، غير ان هذا له اشتراطاته السياسيه والمالية التي لم تتوافر .. وبالتالي فمحاولة خلق توازن استراتيجي لم تنجح وما كان بوسعها ان تنجح طالما ان شعبنا في زمن الانتفاضة كان يضرب بقبضة واحدة هو الارض المحتلة بينما محاصر وملجوم في دول الطوق، ومفتقر للعمق العربي.

وكان يمكن ان تكون المسيرة الفلسطينية مغايرة فيما لو حسمت ازدواج السلطة في الاردن عام ١٩٧٠ وفيما لو أعطت اهتماما وجهدا وامكانات أكبر في الاراضي المحتلة.

طبعا لا يجوز ان ننسى ان مسيرة الثورة قد تخللها نضال نظري وسياسي واعلامي ضد الفكر الصهيوني والسياسات الاسرائيلية فضلا عن انتاجها الفني والفلكلوري والادبي الذي بعث وعزز الهوية الوطنية، ناهيكم عن نضال القوى الأكثر جذرية دفاعا عن حقوق العمال والشغيلة والمرأة وتعزيز الديموقراطية والعلاقات الجبهوية.

انها مسيرة عظيمة يطول فيها الحديث وهي حافلة بالانتصارات والاخفاقات، النجاحات والهزائم، علاقات التقدم واشارات التراجع، وهي تستحق ان تدرس بعمق لاغناء التراث الفكري الثوري بأهم سماتها العامة وما يمكن ان يفيد الشعوب الاخرى والعربية لم تتوقف بعد وقد تنطوي على انعطافات جديدة في السنوات المقبلة، بل لعلها انعطافات ايجابية ومفيدة لشعبنا.

ولكم جزيل الشكر، تفضلوا استريحوا وابقوا عيونكم مفتوحة على قضيتكم ومصيركم.

المحـــــــــــــــور

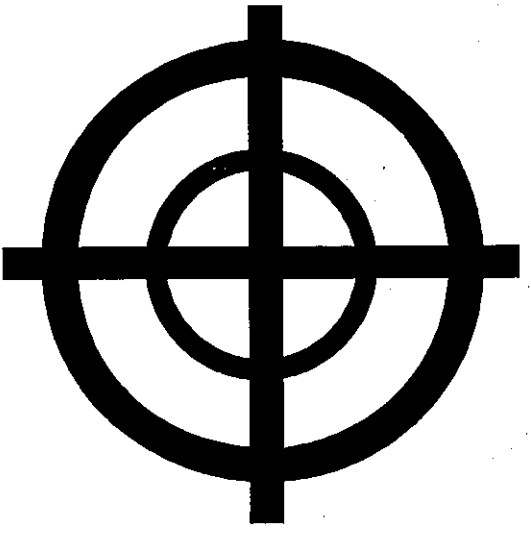

الثالث

السياسات المتوقعة في ظل الحكم الذاتي
وبرنامج المواجهة

صباح الخير ....

اريد ان أقص عليكم طرفة سريعة. قبل أن أحضر الى هنا مكثت لفترة في غرفة اعتقالية كان يقيم فيها ثلة من الشباب يناهزون دزينة: أحدهم" مسؤول سكافي" كما كانوا يطلقون عليه، وهو شاب طيب والحق يقال، كانت تأتيه "الجلسة" مكتوبة صفحة أو اثنتين:فيقرأها بعد أن يخطىء مرات عديدة، وبعدئذ يبدأ التعقيب أو الشرح ، فيبادر بتحية الجميع قائلا "الله يصبحكوا بالخير" وكلما تحدث أخر يكرر نفس "التحية" والمسئول عادة يضيف نقطة هنا أو يضبط فكرة هناك ولكن بعد أن يصبح عليهم ثانية!!! كنت أراقب ذلك من خارجهم محزونا فعلاً، ولكن لم يكن متاحا لي مساعدتهم. ما علينا.

ان أهمية تناول هذا الموضوع تأتي من كونه على تماس مباشر بالممارسة ، فهو سيكون جزءا من حياتنا اليومية وله اسقاطات مباشرة علينا كأفراد أو عائلات كما على القوى السياسية عموما. واليوم ستجري محاولة لرصد أو تخمين للسياسات المتوقعة من قبل الجناح البرجوازي الذي سيقود الحكم الذاتي، وبالتالي تقديم مقترحات وأراء تساعد على صياغة برنامج العمل الذي يستجيب للمرحلة المقبلة، وعلى وجه الحصر في الأراضي المحتلة عام ٦٧، اذ بصرف النظر عن مفاعيل اتفاق ١٣ أيلول على الصعيد العربي والترتيبات الاقتصادية والامنية والاجتماعية المتوائمة معه بما يخدم النظام الاقليمي والسوق الشرق أوسطية المرتبطة بالامبريالية وبصرف النظر عن وضع البندقية في لبنان وما يمكن أن يصيبها، فان الحديث سيقتصر على الاراضي المحتلة،استكمالا لحديث عرضته عليكم منذ اسبوعين.

جلي لنا جميعا أن الاتفاق لا يزيل الاحتلال، بل على العكس انه يكرسه، فهو يستبقي المستوطنات والجيش مثلما يفسح المجال لنشاط اقتصادي اسرائيلي أوسع في الاراضي الفلسطينية ولا يخفى عليكم الفارق في صلاحيات الحكم الذاتي فهى علي مستويين : ففى قطاع غزة تشير النصوص الي ان صلاحيات الحكم الذاتى هي أوسع بينما في الضفة هي أقل، فلئن كان ثمة انسحاب جزئي

للاحتلال في غزة فانه يعيد انتشاره وحسب في الضفة، *أي في الوقت الذي سيتركز جيش الاحتلال داخل المستوطنات وفي محيطها في القطاع، فهو سينتشر في الكثير من المواقع في الضفة بين المدن وفي محيطها، ناهيكم عن تهويد القدس ومسؤوليته الأساسية عن الامن في الضفة الغربية.* هذا مع تواجد عسكري اسرائيلي على حدود الضفة والقطاع معا بما يشبه السوار حول المعصم.

والوثيقة السرية التي وزعت صحيحة اجمالا فى هذا وسوف يثبت ذلك في قادم الشهور واستمرار الاحتلال يفضي تلقائيا الى تواصل التناقض الرئيسي معه. أما الجديد في الامر فهو سلطة الحكم الذاتي المكونة من مجلس منتخب وحكومة ذاتية حسبما جاء في الاتفاق بحيث تكون مهمتها الاساسية هي تنفيذ هذا الاتفاق، بل ان المرجعية القانونية والسياسية للمجلس هي الاتفاق: *فلا يسمح له بتشريع قوانين منافية له* ،وينبثق من هذا المجلس أداة وظيفية تتولى المسائل المدنية من خلال دوائر هي أشبه بالوزارات (التجارة والاقتصاد،الضرائب، التعليم،الصحة، الشؤون الاجتماعية، البلديات، الشرطة، السياحة، والقضاء)...وأي رهان على هذا المجلس وحكومته الذاتية باتجاه تطويره وصولا الى مستوى دولة مستقلة هو ضرب من الوهم، كما ان اي زعم عن النضال من داخله لافشاله هو اكذوبة، فالاتفاق جاء معبرا عن السياسة الاسرائيلية التي تعادي حقنا في تقرير المصير والدولة.

أما ثغرات ونقاط الاتفاق الفضفاضة فمن الطبيعي ان تخدم الطرف القوي وما المعابر ومساحة أريحا والمعتقلين الا مثال واضح على ذلك، فالتصريحات الفلسطينية أشارت الى اطلاق سراح فوري لكل الاسرى وهي قد فهمت أريحا كلواء من مئات الكيلومترات المربعة وان المعابر ستكون تحت الاشراف الفلسطيني لكنكم تلاحظون التفسيرات الاسرائيلية، أما حرد واستنكاف هذا المفاوض الفلسطيني أو ذاك -- كما تصريح ياسر عرفات عن تفجير المفاوضات -- هى مجرد فقاعات صابونية لن يأبه بها الاسرائيليون فالمفاوضات تدور بين أطراف غير متكافئة فجاء اتفاق أوسلو غير متوازن والأن "*لا يصلح العطار ما أفسده الدهر*" فلم تطرأ اي تغييرات على ميزان القوى بل على العكس فقد انقسمت الساحة الفلسطينية والعربية مثلما ضعفت الانتفاضة: الورقة الأهم في أيدي شعبنا. ويجدر الانتباه الى ان كل بند في الاتفاق له مضامينه ومعانيه، ولهذا كان يتمتع الوفد الاسرائيلي بكفاءات مهنية وقانونية واختصاصيين وكان يعرف ما يقول وما لا يقول، على عكس الوفد الفلسطيني الذي يغلب عليه الصبغة السياسية، المجهرة والضمنية، حتى ان الأغلبية لا تاريخ ثوري لها بينما فاوضت

قيادتهم في وقت تقهقرها واستسلامها، فعرفات اليوم الذي كنا نعاني ونقاتل معه ليس عرفات الأغوار ومعركة بيروت وهذا حال فريقه المحيط به. وكل الناس يتحولون ولكن ثمة تحول وحركة للامام وتحول وحركة للوراء، والقيادة اليمينية تحاول التمييز بين مجلس الحكم الذاتي وحكومة ذاتية مدعية ان الاول هو مجلس تشريعي سوف ينتخب ديمقراطيا فيما الثانية بمثابة حكومة، وبالتالي فهي تقول: *تعالوا يا معارضين شاركوا في المجلس كمعارضة من داخله واتركوا الحكومة لسواكم* ، كما لو كان ذلك يتم في دولة قومية مستقلة. هذا خلط فظيع للألوان "فلا دولة ولا يحزنون" والمشاركة في الانتخابات والمجلس ليست سوي انغماس في الاتفاق، ذلك ان المجلس والانتخابات هما أحد حلقات الاتفاق وغرضها السهر على تطبيقه، وأية تخريجات مائعة تبرر المشاركة في المجلس والانتخابات لا تتعدى مد الجسور نحو السياسة اليمينية والاتفاق التصفوي كمدخل للدوارن في الفلك الامريكي – الاسرائيلي، وبقطع النظر عن الاسماء فالمهم هو المسميات فأمامنا حكم ذاتي بهياكل قيادية وظيفية من طرازه وحسب، أما العملية الانتخابية المتوقعة فهي مجرد شكل لتمرير اتفاق سياسي تصفوي لحقوقنا الوطنية. فالأكثر أهمية هو المضمون السياسي وليس الشكل الانتخابي ناهيكم ان هذا الشكل الديمقراطي هو صوري ومناقض للديمقراطية ذلك ان الاتفاق تم توقيعه من وارء الشعب، وبدون استفتاء ولم توقع عليه معظم قياداته وعرفات لم يعد يملك شرعية ثورية مثلما كان عليه الحال في سنين ماضية بعدما انتهك البرنامج الثوري الفلسطيني، علما انه ما برح الاتجاه الأقوى في الساحة ولكيما نحلل السياسات المتوقعة للحكم الذاتي علينا تحديد <u>الطابع الطبقي لسلطته</u>.

وباختصار ستكون النواة الأساسية والعمود الفقري لسلطة الحكم الذاتي هي الأوساط البيروقراطية القيادية العليا المتمثلة بعرفات وصحبه، يضاف لهم قطاع اقتصادي اجتماعي نشط في الداخل من كبار التجار الكومبرادوربين وبذلك تتحد الأجهزة البيروقراطية في الخارج بالقاعدة البرجوازية الاقتصادية في الداخل، ويمكن التنبؤ بالتحاق مثقفين واكاديميين متأمركين ومبهورين بالديمقراطية الليبرالية وصيادي فرص لتبوأ أهم المناصب في الاجهزة المدنية،

أما البرجوازية الصناعية والزراعية المحدودة الوزن فسوف يتساوق بعضها مع أوكازيون التنازلات فيما البعض الاخر على الأغلب ان يتحسس خطورة المشروع التسووي برمته ومجافاته لطموحاتها ببناء اقتصادي انتاجي وتشريعات تحمي نموه في اطار سلطة سياسية تكون تحت قيادتها. وهذا هو الاصطفاف الطبقي الذي سيشكل المستويات القيادية لهياكل الحكم الذاتي، وفي ضوء صورة من هذا القبيل يمكننا استشفاف السياسات التالية للحكم الذاتي،

معترفين منذ البدء ان عرفات لن يكون لديه مشروع تنموي استقلالي شامل ولو أردنا التعليل لقلنا-:

١- اقتصاديا :

لن يكون أمام السلطة السياسية الا التبعية للمركز الامبريالي والدمج البنيوي التابع للاقتصاد الاسرائيلي، وهذا هو الاطار العام المتماثل مع حيثيات اتفاقية ١٣ أيلول من جهة وبالنظر للاعتماد الأساسي للحكم الذاتي في تمويل انفاقه على المبلغ الذي تلقاه عرفات كثمن سياسي لانخراطه في الحل الامريكي، اي مبلغ ٦٠٠ مليون دولار سنويا (والذى علي الأغلب انهم لن يدفعوه له بالكامل)، من الدول الامبريالية والنفطية الرجعية الذي ستتولى الاشراف على اتفاقية البنك الدولي، وهذا بدوره معروفة مخططاته في تكوين تبعية العالم الثالث للمركز الامبريالي ضمن معادلة: ***مركز منتج + محيط مستهلك***، أما الدمج البنيوي التابع للاقتصاد الاسرائيلي فهو في غنى عن الشرح. فقد تأسس على امتداد عقود الاحتلال، فيما اتفاقية ١٣ أيلول جاءت لتعزز ما تأسس، فهي لا تسعى لسلخ الاقتصاد الفلسطيني عن الاقتصاد الاسرائيلي بل على العكس فهي تجيز استمرار العمالة الفلسطينية في المشاريع الاسرائيلية كما جرى الاتفاق على حرية تبادل البضائع والاستثمار ضمن وحدة جمركية واحدة أو شيء قريب من ذلك الامر الذي يجعل اقتصادنا المتخلف الفقير الذي لا يتعدى انتاجه حتى اللحظة ٧٠٠ مليون دولار، يضاف اليه عائدات العمالة والتحويلات الخارجية في مواجهة اقتصاد اسرائيلي تكنولوجي متطور انتاجه السنوي ٦٧ مليار دولار، فضلا عن المساعدات الخارجية والصهيونية التي تتعدى ٦-٧مليار سنويا، اضافة لفوائد معاهدة التجارة الحرة بين أمريكا واسرائيل، بما يجعل اقتصادنا فريسة سهلة *وأضيع من الايتام على مائدة اللئام* بما يشبه العلاقة بين بورتريكو وأمريكا.

وعلاوة على مبلغ الثمن السياسي، فالحكم الذاتي أمامه مصدر أخر للدخل هو الضرائب التي تفرض على النشاط الاقتصادي والخدماتي والوظيفي وأية أرباح يمكن ان تعود من مرافق المؤسسات عامة (ميناء ومطار، جسور ..) وأية مشروعات اقتصادية رابحة تملكها السلطة السياسية. ومصدر اخر هو المديونية من صندوق النقد الدولي أو البنك الدولي أو الحكومات وهذا خطر للغاية ليس لأن على شعبنا ان يسدد فوائد هذه المديونية بنسبة تتراوح بين ٦-١٠٪فقط. بل وليس لأن المقرضين يفرضون شروطا سياسية ويتدخلوا في مجال الاستثمار بل يتدخلون في خطط الحكم سيما لالغاء المساعدات للمواد الأساسية كالحنطة والزيت والارز والسكر... بما يؤدي الى ارتفاع أسعارها في السوق.... بل لا ن

هذا الخط فشل فشلا ذريعا في العالم النامي، فعلى سبيل المثال مات عبد الناصر ومديونية مصر حوالي نصف مليار دولار بينما مات السادات ومديونتها حوالي ١٦ مليار دولار، أما مديونتها اليوم فتناهز ٣٦ مليار دولار. وللعلم أن مديونية العالم النامي تربو على ١،٢ تريليون. والمهم أن أموال الحكم الذاتي بمجملها سوف توظف لأغراض سياسية أولا، أي لشراء الذمم وحشد المؤيدين وتغطية مصاريف الجهاز الاداري والمدني والشرطي للحكم الذاتي الذى من المتوقع أن يشمل عشرات الالآف من الموظفين، فعلى سبيل المثال أن مجمل العاملين من الفلسطينيين في جهاز الادارة لا يتعدون ٢١ ألف، فضلا عن مئات الاسرائيليين، وهذا ينبغي أن نتوقع تضخمه مرات بغية توسيع القاعدة الاجتماعية الوظيفية التى ترتبط بمصدر رزقها بسلطة الحكم الذاتي ومن هذا الحقل سوف تستفحل البيروقراطية والبطالة المقنعة لسلطة الحكم الذاتي المقنعة.

وعرفات أيضا مجبر على التوظيف في البناء التحتي بالمفهوم الضيق، أي شق الطرقات والكهرباء والمياه والمجاري ووحدات سكنية لقسم من العائدين كما المؤيدين من أبناء المخيمات لتخفيف الاكتظاظ الخانق. ومن المستبعد استثمار أية مبالغ جدية لتنمية الزراعة والصناعة الا اذا لبت احتياجات برانية. أما تنمية القطاع الانتاجي الذي يفي بمتطلبات السوق المحلية ، أي المتطلبات الجوانية، فهي تنمية محظورة من وجهة نظر الأطراف الممولة للحكم الذاتي. فالمركز الامبريالي لن يتردد في ضبط الامور والتحكم بأنفاس اقتصادنا لكيما يغلق عليه في دائرة التبعية والتبادل اللامتكافيء: بحيث نبيعه بأسعار زهيدة ونستورد منه بأسعار مجدية، فاقتصادنا لن يكون في اطار الحل السياسي التصفوي الا سوقا خدماتية تستورد معظم احتياجاتها من الغرب الرأسمالية، بدءا بالسيارة والتلفزيون ،مرورا بالأقمشة والكثير من الاغذية، عرجا على المكائن والتكنولوجيا المتأخرة وصولا الى السلع الاستهلاكية، *وبمعنى اخر استعادة الغرب لأموال المساعدة بل وأية مداخيل أخرى.*

ولا يجب ان ننسى خطورة الوحدة الجمركية وحرية الاستثمار وما ينجم عنهما لا محالة من نهب الشركات الاسرائيلية لثرواتنا القليلة بالتعاون مع مستثمرين فلسطينيين من الداخل أو الخارج الذين سيركزون استثماراتهم في قطاع الخدمات الفندقيه والأنشائيه والتجارية والعقارات وما شابه. ومن الطبيعي أن تتفاقم القضية الطبقية النقابية فرأس المال يحرص من جانبه على تشديد وتائر الاستغلال فيما أمراض الاقتصاد الاسرائيلي سيما التضخم المالي حيثما تنخفض القوة الشرائية للنقد سنويا بمعدل ١٠٪ أو أكثر بما ينجم عنه ارتفاع في الاسعار

وهذا يدفع الشغيلة لتوسيع النضال النقابي في الوحدات الانتاجية والتعليمية والصحية لتجسيد أجور ونظام العمل....الخ.

٢ - ديمقراطيا :

من المنتظر ان يصاغ دستور التعددية السياسية بشكل ضبابي ومؤمن للحريات العامة والمساواة بين المواطنين وقد يعتمد الاسلام كدين رسمي -- كل ذلك في حدود من شأنها ان تخدم صورة ومصلحة السلطة السياسية واستبقاء ثغرات قانونية ليسهل النفاذ منها، فالديمقراطية كمحصلة عامة ستكون شكلية ومنقوصة، اذ ان الدستور ذاته سيأتي تعبيرا عن ارادة اتجاهات معينة، بما لا يعبر عن ارادة كافة الاتجاهات والكفاءات القانونية كما يصعب تصور ان تحتكم العقلية الفردية المتأصلة، وعلى الاقل لعدة سنين، للدستور العام أو أن تتقبل فصل السلطات بحيث تكون السلطة القضائية رقيب على السلطة السياسة، أما الفئوية المستفحلة فهي المهيمنة على كل شيء وأبعد ما تكون عن احترام مبدأ الكيان السياسي. وحتى حق الاضراب والتظاهر والتعبير والنشاط كتجليات للديمقراطية سوف تخضع للمعايير السياسية والطبقية وتدخلات الاسرائيليين، وحينما تتجاوز الحدود المرسومة لن تتردد زعامة الحكم الذاتي عن تحظيرها والغائها تحت يافطة المصلحة الوطنية والامن الوطني والحرص على اقتصاديات البلد....والخ من التخريجات التي تبدع الأنظمة غير الديمقراطية في استخدامها. وقصارى القول ان برجوازيتنا ليست برجوازية أصيلة ويا ليتها كذلك وهي لن تتورع عن توظيف الديمقراطية توظيفا تكتيكيا، مرة لاقناع القوى اليسارية والمستنيرة لتحديد موقعها حيال قضايا معينة ومرة باتجاه معاكس لاسترضاء التيارات المتزمتة سيما بسن تشريعات اجتماعية رجعية.

أما الديمقراطية كنهج حياة فهذا أمر مستبعد وأقصى ما نتوقعه هو شذرات ديمقراطية متأججة في لحظات ليصار الى تكتيم الافواه والقمع في لحظات اخرى سيما اذا تنامت الحركة الجماهيرية المعارضة وتعاظم الفعل الثوري.

٣ - تعليميا وثقافيا واخلاقيا :

يمكن ان نتوقع تنمية لقطاع التعليم بمختلف مستوياته، ولكن علينا ان نتوقع أيضا رفع رسوم ونفقات التعليم العالي بحيث يتكرس لابناء الفئات المقتدرة من جهة وللموالين سياسيا للحكم الذاتي الذين يمكن تغطية أقساطهم من جهة اخرى. وبداهه أنه تجري تعديلات على المنهاج التعليمي بحيث يستجيب لمتطلبات العملية

الاقتصادية في المرحلة المقبلة. والمؤسسة الجامعية في المجتمع المعاصر هي رافعة تطويرية هامة كمركز للبحث والتقييم...الخ، لكننا نفترض في بلادنا تقزيمها ضمن قزمية الحل السياسي فالسياسة تنعكس على كل شيء وما علينا الا التذكير بالفن المصري في الحقبة الساداتية كمثال للانحطاط والاسفاف، وذات الشئ يقال عن الحقل الثقافي ، اذ يمكن تصور انتعاش ثقافي نسبي وظهور وتزايد في شعراء وكتاب البلاط والامر نفسه ينطبق على الرسم أو الغناء والفلكلور....الخ، ولكن جنبا الى جنب مع التضييق على المبدعين الأكثر جذرية، وهذا نلاحظه في كل البلدان النامية التابعة...

وحول الاخلاقيات فهي ستكون مرآة ناصعة تتهدم فيها قيم النضال والصمود والتضحية والجماعية والتآزر ليحل محلها قيما استهلاكية تتماشي مع الاستهلاكية الاقتصادية والتبعية السياسية. فتزدهر النزعة الذاتية ومصلحة الأنا والمحسوبية والرشوة والنفاق *واللهم نفسي* حتى على حساب المبادىء والشرف والكرامة وتفسد ذائقة الناس ويجري تغطيسهم في السلع الاستهلاكية من كل الطرز وترتفع نغمة "*اللي معه قرش يساوي قرش*" هذا كله كعملية موضوعية تنتج عن المرحلة السياسية. في المقابل لا يجوز ان ننسى ان هناك ثقافة وأخلاقيات ثورية تمثلها وتنشرها القوى المناضلة، وهذا يفضي بنا الى برنامج المواجهة.

اسمحوا لي بداية ان اعرض البند الاقتصادي في مداخله منفصلة، أما بقية جوانب البرنامج التنموي فيمكن عرضها بايجاز على النحو التالي-:

الجانب السياسي و يمكن الاشارة الى المحاور التالية-:

١ – التسلح بخط ثوري مناهض للمؤامرة التصفوية بثبات ودأب، خط يتشبث بالأهداف الوطنية والحقوق التاريخية لتأتي أية تاكتيكات متماشية مع هذه الأهداف والحقوق.

وبرنامج العودة والدولة وتقرير المصير يشكل أرضية مناسبة في مواجهة برنامج الحكم الذاتي. ومأساة حقيقية خروج فرقاء فلسطينيين كانوا حتى الامس القريب شركاء نضال ومعاناة طويلة من خندق برنامج الاجماع الوطني وسقوطهم في خلاف معنا ولكل تاريخ وأهداف ثورتنا.

ولا مساومة هنا بين البرنامج الوطني والبرنامج التصفوي، ولا يجب ان تكون أبدا وهذا يستدعي شن حملة عالمية واسعة ومستمرة ضد المؤامرة السياسية الجارية.

٢ – خلق أوسع اصطفاف مناهض لاتفاق أيلول، اصطفاف يشمل التحالف العشري وسواه من قوى وتيارات وهيئات بما في ذلك تيار فتح المناوىء لسياسة القيادة اليمينية. وقد نشرت الصحافة نبأ عن رغبة الجبهة العربية المرتبطة بالعراق بالانضمام للتحالف، هذا له قيمة خاصة كونه يعكس الموقف الرسمي العراقي.كما هناك العديد من الكفاءات والشخصيات الكبيرة المستقلة، وكلنا سمع أيضا عن جناح عسكري فتحاوي في لبنان بقيادة منير مقدح تمرد على خط القيادة، ناهيكم عن أعضاء في اللجنة المركزية لفتح، حتى ان الأغلبية اما متحفظة أو معارضة للاتفاق وان كانت لم تذهب بعيدا. وبمعنى آخر ان قاعدة التحالف تضم اليسار الديمقراطي والوطني والقومي والسياسي والاسلامي وما بين هذه الاتجاهات . وعلى الاغلب ان تنجح هذه الاتجاهات في تذليل العقبات والتناقضات بالاتفاق على برنامج سياسي وصيغة تنظيمية لها بعض الفاعلين وهذا الموضوع يستحق مداخلة منفصلة.

والخطوات الوحدوية بين الجبهتين الشعبية والديمقراطية هي احدى آليات المواجهه. واجمالا على التحالف العريض ان يتفادى عدة شراك تنصبها لها القيادة البرجوازية هي-:

أ) *خطر الاحتواء السياسي* عن طريق استدارج واغراء بعض قوى التحالف للاشتراك في انتخابات وهياكل الحكم الذاتي ومثل هذه المشاركة لا تعني سوى تطبيق احدى حلقات اتفاق أيلول المستسلم، الشيء الذي من شأنه خروج أية قوة تقدم على هذه الخطوة من التحالف. فالانتخابات طابعها سياسي والفائز مهمته محدودة بالسهر على ترجمة بنود الاتفاق وثمة فارق نوعي بين الانتخاب السياسي والانتخابات المهنية: اذ من الطبيعي المشاركة في انتخابات المنظمات المهنية والشعبية (نقابات، جمعيات، مجالس طلابية، تجارية، ....الخ) وبالتالي التنفذ في هيئاتها الادارية، والشيء نفسه يقال عن الانتخابات البلدية الخدماتية.

ب) خطر *الاحتواء القانوني*، فالدستور المقبل للحكم الذاتي سيبقي الابواب مفتوحة وبعبارات ضبابية للتعددية السياسية وحرية التعبير والمعتقد، وهذا يجتذب المزاج الليبرالي شريطة اجتناب كل ما من شأنه المساس بالقانون المرعي، أي تحظير اى نشاط سري أو عنفي أو ما يمكن ان يفسر من قبل سلطة الحكم الذاتي مساسا بالتزاماتها الأمنية حيال الاسرائيليين: *اي اعملوا ولكن تحت سقف الاتفاق وقوانينه*.

كما سترمي سلطة الحكم الذاتي بين الوقت والاخر بقوانين اجتماعية وقوانين اخرى في الميدان التجاري لاستمالة أوساط تجارية محسوبة الان على الخط المناهض لتلبي أهواء الأوساط المتزمتة كي تجتذبها وتصطادها.

ج) السعي لتفسيخ التحالف العريض كتحصيل حاصل للبندين آنفي الذكر وسواهما من عوامل الاغراء والتضليل بالافادة من أية تعارضات وخلافات يمكن ان تنشأ بين أطراف التحالف على غرار بعض الأنظمة التي كانت مرة تشهر الهراوات في وجه اليسار والجزرة في وجه قوة دينية اخرى، ومرة تستخدم العكس. وليس مبالغة القول ان عدة قوى في التحالف ثابتة على مبدئها فيما برامجها صريحة في عدائها للامبريالية والاحتلال وهي ترفض تاريخيا أية مشروعات لا تلبي حق العودة والدولة وتقرير المصير وعلى مذبح الأهداف الوطنية قدمت الالآف من الشهداء على امتداد ربع قرن أو يزيد كما يمكن الاطمئنان لبقية القوى، ولكن ما يتوجب ضبطه هو زعامات هنا أو هناك لها مؤيدين بهذا الاتساع ان ذاك لا يخفون تلجلجهم وارتباكهم. فالانتخابات المقبلة لن تكون الا وظيفة لتنفيذ الحكم الذاتي، ولا مجال لانتخابات تشريعية الا في دولة مستقلة، لذا ينبغي استئصال الضباب المربك.

ولا يسعنى ختاما الا القول ان حملة لواء الحرية والاستقلال لن يرهنوا انفسهم ومواقفهم بحلفائهم، وسواء كانوا أقلية أو قوة رئيسية أو أغلبية فليس أمامهم سوى خيار التمسك بالحقوق الوطنية للنهايات الظافرة، فاتفاق ايلول جاء كمحصلة لمعطيات لحظة محددة على صعيد عالمي واقليمي ومحلي بينما هذه

المعطيات متحركة واللحظة غير ثابتة وهذا قانون التاريخ، فهو في صيرورة دائمة، وأملنا ورهاننا على المستقبل.

الجانب النضالي:

فالنضال، اي الممارسة الثورية، هي قارب تحويل البرامج الى حقائق وأفعال وربما مطلوب في المرحلة الجديدة تدارس البديهات وفحصها لاستخلاص نظرية الثورة الملائمة للظروف الجديدة، فبعض ما كان صالحا في الامس لم يعد صالحا اليوم، فيما ثمة مستجدات تستدعي استجابات تطويرية. والمهم هو الانطلاق من الواقع لتغييره وهذا لا يتحقق الا بقراءة تناقضات المرحلة الجديدة وتحديد طابعها واستخراج أشكال النضال الملائمة القادرة على حسمها والجمع بين كافة أساليب العمل التي تكفل حماية الوجود الثوري واستمرارية النضال. والتجربة الفلسطينية غنية كما تجارب الشعوب الاخرى وهي منهل خصب فضلا عن "*التحليل الملموس للواقع الملموس*" الذي يغني هذا المنهل. وعلى الأرجح ان يتسع نطاق النضال النقابي جنبا الى جنب مع النضال السياسي بمستوياته المختلفة ولقطع الطريق على أية شطحات، فالنضال الثوري ضد سلطة الحكم الذاتي سيتخذ الأشكال الديمقراطية والجماهيرية.

الجانب الاجتماعي/ الطبقي – الحياتي:

من الطبيعي ان تحرص البرجوازية اليمينية على تشكيل واقع اقتصادي يخدم مصالحها الطبقية الضيقة علىحساب مصالح وحقوق الشغيلة من عمال ومثقفين وموظفين وأوساط شعبية وفلاحين فهؤلاء هم الفئات الأكثر انسجاما وفي ذات الوقت الأشد ثباتا وحفاظا على الحقوق الوطنية وهم لا يجدون أية مصلحة حقيقية في الحل التصفوي. وعليه، فان التوجهات المطلوبة علي هذا الصعيد يجب أن لا تكتفي بشرح أضرار وأبعاد المؤامرة الساسية التى تغتال أهدافنا وأحلامنا بل عليها ان تقود نضالات الجماهير النقابية والحياتية من خلال رفع شعارات صريحة تطالب بمجانية التعليم ومجانية العلاج وتقليص أسعار المواد الاستهلاكية الأساسية بحيث تنفق أموال الهبات التي يتلقاها الحكم الذاتي في هذا الميدان ، كما المطالبة بأن يكون لكل عائلة قطعة أرض ولأبناء المخيمات بيوت انسانية وتقديم قروض وارشادات للعلاج وتأمين تسويق محصوله بأسعار مجزية، ورد الاجور للشغيل عاملا كان أم موظفا أم مثقفا واشراكه فى ملكية وأنشطة المؤسسة التي يعمل فيها. وينبغي افساح المجال للمرأة للخروج

من أسوار البيت للمشاركة في شوؤن الحياة كافة بـدون تمييز جنسي. فما يحدد موقف الانسان هو تأهيله وكفاءته، والمسألة النسوية تستحق وقفة خاصة ومداخلة منفصلة. ومن الضروري العمل بمبدأ التمثيل النسبي نحو المنظمات الشعبية ومبدأ الكفاءة في العمل والتوظيف.

الجانب الثقافي والابداعي والاعلامي:

واضح ان اليسار يشجع الثقافة والابداع سواء على صعيد الأدب نثرا أو شعرا أو على صعيد الفن الغنائي الفلكلوري والرسم والموسيقى والنحت والتصوير والسينما والمسرح.... فهو يستحث العقل على الانتاج وعلى تفجير الطاقات ولكن ضمن أطر تقدمية ثورية تخدم مسيرة شعبنا التحررية والبنائية والانهاضية. فالابداع بشتى تمظهراته انما يخدم الثورة والحداثة والانسان ويجابه الغزو الثقافي الغربي الرأسمالي والاسفاف وكل ما هو مبتذل واستهلاكي سطحي مثلما يزرع قيم النضال والصمود والأمل في المستقبل كما الشجاعة والغيرية والتضحية والاخلاص والصدق ...الخ ومطلوب حقا مواجهة القيم الانانية والجشع واليأسية والربح السريع على حساب الآخرين المتوقع انتشارها كما تنتشر النار في الهشيم، وعلى اليسار أن يثبت مقدرة في انتاج ثقافة وطنية ديمقراطية مستوحاة من خصائص شعبنا وتسليح الجماهير بها لقطع الطريق على الثقافة التابعة والرأسمالية المستسلمة والرجعية. ان اليسار يعيش امتحانا انعطافيا بدون أن تعوزه عوامل القوة فهو يناضل منذ ربع قرن تقريبا حصد فيها خبرات متراكمة وقيادات متفولذة وصلابة أمنية مشهود بها ووزن جماهيري ومهارات متعددة ورؤيا برنامجية سديدة ومرشد نظري علمي تجعله أكثر قدرة على الابداع والتحليل ومواكبة التطور، مثلما أن له امتدادات رئيسية في الداخل والخارج فهو يسار وطني يتغلغل في كافة أماكن تواجد شعبنا، بل أن فكره الديمقراطي العلمي والتنويري ينتشر بسرعة في الوعي الاجتماعي الفلسطيني بصرف النظر عن التقسيمات السياسية،وأية مصاعب يواجهها في اللحظة الراهنة انما هي مصاعب النمو وهي أبعد ما تكون عن أزمات الشيخوخة والتحلل، ولنا وقفة بهذا الصدد.

في هذا المنام الحار أراكم نعاسى وقد أخذ الكسل منكم كل مأخذ... في هذا المنام الحار يعطيكم العافية وشكرا.

في السياسة مرة أخرى . دردشة

منذ أسابيع كانت لنا وقفة تحليلية، ومثلما نلحظ جميعا ثمة جديد هنا، اذ مذ ذاك جرت مياه كثيرة في نهر السياسة الأمر الذي يوجب أن نتفاعل سويا حوله. وعليه أقترح أن نخصص اليوم للموضوع السياسي، تاركا لكم ان تقترحوا أي عنوان اخر له الأفضلية لديكم....

طيب. طالما أنكم زكيتم الاقتراح، ماذا في جعبتنا اليوم؟

لا شك أن الرفاق جميعا من جبله واحدة، ولعل الجميع يعانق الحرية في زمن غير بعيد. كما أتمنى أن لا يكسر الزمن أي واحد فينا، لان هذه المرحلة هي مرحلة تكسير العظام. القابض على المبدأ فيها كالقابض على الجمر. البعض من اليسار سوف يتقهقر وينكفىء على شأنه الخاص، أما الأغلبية فسوف تصمد ويلتحق بها أعداد متزايدة من الناس. وأنتم تعلمون أن أي ثورة تنهزم ينهزم معها جيلها، بينما الجيل الشبابي المشبع بأحلام الحرية يحمل الرايات ويمضي للأمام. وهذا الجيل الشبابي يكون هو المادة الأساسية مطعما بنويات من الجيل السابق من ذوي الارادات المتفولذة والروح المتوقدة الذين يتجرعون نار الهزيمة ويطردونها من روحهم فلا تطوح بهم ولا تبث اليأسية فيهم. وثورتنا المعاصرة لم تنهزم بعد... ولكنها لم تنتصر أيضا. وأقسام كبيرة فيها تحمل أفق ونفسية عدم الانتصار بعد أن فقدت أمل وطموح الانتصار. وعليه فالرهان الأول يقع على القسم الذي لم يجهض، والجيل الجديد الذي يحتاج لعدة أعوام ريثما يمسك ويستجيب لاستحقاقات النضال.

قبل أن أحضر قرأت في المعتقل الآخر استطلاعا أعده مركز بحثي يتولاه مجموعة من الأكاديمين الذين يصنفون أنفسهم كموضوعيين ومستقلين أو محايدين سياسيا . وأنتم تعلمون أن لا أحد يعيش في الفراغ ، وبالتالي لا أحد دماغه فارغا، فقط الحمار دماغه فارغا ، وبالتالي لا أحد مستقل، وانما الجميع منحازون لوجهة نظر معينه ،أما العضويه التنظيميه فهي مسأله أخرى. المهم ، أن هذا المركز نظم عدة استطلاعات ومن الواضح أنه يبلور نفسه كمركز استطلاع بما يملأ فجوة معينه في مجتمعنا . وللمركز وحدة بحث ميدانيه شارك ٥٠ منها في الاستطلاع الاخير . وهنا يجدر الأنتباه الى أن ميول هذا الفريق

تنعكس تلقائيا على نتائج عمله، فالباحث لا يدفعه موقفه للالتقاء بأناس يعرفهم فقط، بل وهو يستسهل الاجواء التي يعرفها وترحب به ايضا، ولئن ربطنا هذه الحقيقة بتقلب المزاج الشعبي بين لحظة وأخرى وحدث وأخر فمن حقنا حينذاك ان نتحفظ بقدر أو بأخر على نتائج الاستطلاع، وانني أميل للتحفظ الجزئي وليس المطلق، كما اشجع متابعة مثل هذه الاستطلاعات كأحد معايير قراءة أمزجة الناس وحجوم القوي... علما ان أهم مقياس، المقياس الذي ينطوي على نسبة أعلى من الصدقية أو الانتخابات العامة الديمقراطية والحلقة الوسيطة بين الانتخاب والاستطلاع هو الاستفتاء الذي يشارك فيه الناس أو غالبيتهم العظمى ومثل هذه الأدوات هي أدوات ديمقراطية غير مألوفة في مجتمعنا غير أنها ضرورية بكل تأكيد.

الاستطلاع تم في أواسط ٩٣/١٢ وقد شمل عينة مكونة من ١٥٠٠ من الضفة والقطاع. وسياق التقرير يشير الى أن اللقاءات بالناس كانت عشوائية في الشارع والمخيم والجامع... علما انه يمكن استشفاف جانب اخر يحمل على الاعتقاد بان التقرير كان معنيا بالتركيز على فتح، ووزنها بشكل مميز. وأهم النتائج تبين تراجع نسبة المؤيدين لاتفاق اوسلوا ١٣ أيلول من ٥١٪ الى ٤١٪ وقد أيد ٤٧٪ الجهود الساعية لبلورة التحالف العشري، تحالف القوى الفلسطينية، بينما يعتقد ٣٦٪ بقدرة هذا التحالف على افشال الاتفاق. وقد لفت نظري سؤال خبيث مفاده: لو جرت انتخابات عامة للحكومة الذاتية فمن تؤيد؟ متجاهلين أهل الاستطلاع أن ثمة قوى مناهضة للحكم الذاتي وبالتالي الانتخابات المرتبطة به، أما السؤال في صيغته الواردة تثير التباسا لدى الكثيرين من الناس -- على العموم كانت نتائج الاجابة حسبما أتذكرها ٣٥٪ فتح + ٢،٥٪ حزب الشعب + ٢٪ فدا + أقل من ١٥٪ حماس + أقل من ٩٪ الجبهة الشعبية + أقل من ٢٪ ديمقراطية + أكثر من ٣،٥٪ جهاد + ٥٪ مسلمين مستقلين + ١٢٪ شخصيات وطنية مستقلة + ١٠٪ لم يدلوا برأيهم.

وأظنكم توافقوني الرأي بأنه من الصعب تصور ان حركة الجهاد أقوى من الديمقراطية علما ان الواحد يلاحظ تنامي هذه الحركة التي يمكن ملاحظة انفتاحها ايضا، أو أن الجبهة الشعبية مجرد ٩٪ علما انني أوافق على أن وزن الجبهتين قد تقلص في العامين الأخيرين.

ولو افترضنا ان وزن حماس ٢٠٪ أو حتى ٢٥٪ فهو لا يعطيها الحق للمطالبة بـ ٤٠ ٪ من الصيغة التنظيمية للتحالف الفلسطيني سيما وأن وزنها في

سوريا ولبنان جنيني خلافا للفصائل الاخرى، وسيكون لنا استعراض لمعطيات ومعلومات تساعد على فهم القوة ذات يوم. وشدني انقسام قطاع غزة المتعادل حيثما ٤٨٪ يؤيدون الحل مقابل ٤٧٪ يعارضونه، مثلما شدني تزايد الفئات التي تقف خارج الخريطة السياسية فقد كان هؤلاء حوالي ٢٠٪ منذ شهر وغدوا ٣١٪ حسب الاستطلاع. وهذا يسمح لي بأن استنبيء امكانية نشوء تنظيمات سياسية جديدة خاصة في أوساط المثقفين الاكاديميين والبرجوازية التجارية.

ولان موضوع دمقرطة المجتمع الفلسطيني مهم ومفصلي أظن انه يمكن تجنيد اليسار الجذري واليسار الاصلاحي حتى الذين غرقوا في وحل التسوية وأوساط واسعة من الفئات التي تقف خارج الخريطة المنظمة، وفضلا عن تيارات ليبرالية داخل البرجوازية اليمينية التابعة وباختصار يمكن القول ان الكفة ترجح بصورة كبيرة لجهة الديمقراطية ويمكن تصور اصطفاف قوي يدعم الحقوق النقابية للشغيلة من قوى اليسار وأنصاف اليسار وأوساط شعبية تنتمي للشغيلة ذاتهم.

ولا اتفق مع التخوف الذي يفترض أن حزب الشعب وفدا سيدعمان أية سياسات لا ديمقراطية من قبل سلطة الحكم الذاتي ، فهذان الحزبان وعناصر أكاديمية برجوازية يمينية عديدة، منها من كان محسوبا على خط المفاوضات، ينظمون ندوات ومحاضرات حول الديمقراطية في الاراضي المحتلة وينتقدون تفرد عرفات بالقرار الفلسطيني وهيمنة حزبه على المؤسسات المنظمة.

وأستطيع التمييز بين الموقف السياسي لهذه التيارات كموقف متساوق مع الحل التصفوي ووهمها بامكانية استحصال حد أدنى من الحقوق الوطنية في ظل ميزان القوى البائس الحالي، وبين تفكيرها حيال المسألة الديمقراطية والمسألة الطبقية وتحديث المجتمع وقضية تحرر المرأة... ولا يكفي الحكم الميكانيكي الذي يقول بان هؤلاء حلقة صغيرة في سلسلة ضخمة قادرة على رشوتهم سياسيا وبالتالي انتقالهم الى مواقع فاشية... وحتى البرجوازية اليمينية المستسلمة أجدها مجبرة على أخذ ميزان القوى الفلسطيني بعين الاعتبار كما أخذ مستوى التطور الثقافي لشعبنا الأمر الذي سيضطرها الاعتماد بقدر معين من الديمقراطية السياسية في حقبة تكتسح فيها موجه الديمقراطية العالم والمنطقة.

واليسار الثوري لا يجب ان يكون متشنجا، أي لا يجب أن يسحب تناقضه السياسي على مختلف القضايا، بل على العكس يتعين عليه ان يجندحلفاء أو قوى

احتياطية لهذا الموقف أو ذاك، حتى ولو كانت هذه القوة وسيطة ومتذبذبة فهذا مشروع سياسي وسوف أتطرق لمبادىء التاكتيك لاحقا .

أيها الزملاء لا ينبغي ان نعتبر الخريطة السياسية الفلسطينية القائمة أبدية، فعام ٦٩ كان في الأردن ٧٢ تنظيم فلسطيني وبعد مذابح أيلول الاسود عام ٧٠ تقلصت الى ١٢ تنظيم أعادت بناء قواعدها ووجودها في لبنان، والمرحلة الجديدة أشد وطأة ولؤما من تلكم الظروف. وغير مستبعد ان تتحلل تنظيمات وأن تندمج فصائل وأن تتشقق وتتهمش اخرى وأن تنبثق جديدة. واليسار الثوري ملزم بأن لا يتكئ على ماضيه وأن ينتقد نفسه بجرأة متجاوزا عيوبه ومستندا الى تراثه الثوري وبواطن قوته للانطلاق للامام بهمة وروح علمية، وأمامه الزلزال الذي اجتاح اوروبا الشرقية، كما نرى تجربة اليسار المصري المتحوصل والحزب الشيوعي اللبناني الذي يحاول الوثوب بعد ان انحسرت عضوية الحزب من ١٢ الى ١٠ الاف عضو في الفترة الفاصلة بين المؤتمرين الاخرين.

كما اليسار في الاردن الذي تراجع انتخابيا... وكيما يندفع اليسار الفلسطيني من الطبيعي ان يتمثل المعطيات الجديدة، وسنأتي لاحقا على مستقبل اليسار والثورة عموما ولكن هنا حسبنا الاشارة الى ضرورة تشجيع الأنشطة الشبابية كالرياضية والرحلات والفنون الشعبية وتنمية الاهتمامات الثقافية فهي آليات مناسبة للاستقطاب بعد ما خفتت وتيرة الملحمة الانتفاضية، ففي سنوات سابقة كان الفعل الميداني الانتفاضي هو مغناطيس استقطاب الطاقات الشبابية أما وقد أصبح هذا الفعل نخبويا فمن الطبيعي ان تتحرك الأشكال التنظيمية تبعا للتحولات الموضوعية والمهم في الأمر ان لا ينسى اليسار كلمة لينين "*ليس ثمة ما هو أسخف من الرضا عن النفس*".

بهذه المقدمة أفرش الحديث مفسحا المجال لكم لابداء الرأى حول المستجدات.

(نقاش بين المعتقلين وأسئلة واستفسارات)

وبعد.... استطيع تلخيص وجهات نظركم بما يلي-:

١ - تمحور الرأي الأول حول التناقضات في معسكر القيادة العرفاتية، سواء كانت بين الأحزاب نصف اليسارية والقيادة اليمينية أو صفوف هذه القيادة اليمينية نفسها أم بين القيادة البيروقراطية في الخارج والبرجوازية المحلية.
٢ – التناقض الموضوعي بين مجرى التسوية وبين حقوق وطموحات الجماهير، ليس على صعيد المطلب الوطني الاستقلالي فقط، بل وعدم تلبية المطالب الجزئية كاطلاق سراح الاسرى وتفكيك المستوطنات والسيطرة على المعابر...الخ.
٣ – أثيرت تساؤلات حول موقفنا من مؤسسات الحكم الذاتي والنضال الجماهيري، وحول فرص التحالف العشري بالنجاح كرافعة للحركة الوطنية وأسئلة حول ليبرالية أو ديكتاتورية القيادة العرفاتية وانتقادات عالية للمنسوب الكفاحي لليسار...

ومن جانبي اريد ان أضيف أو ان أجلو النقاط التالية-:

أولا : يفترض قراءة اليسار الفلطسيني قراءة صحيحة، واقعية، علمية، اي قراءته من كل الزوايا وليس من زاوية واحدة، ومن خلال مسيرته بكاملها وليس محطة واحدة من محطاته، وهنا نستطيع ابصار أن اليسار هو الدينمو الموحد للقوى الفلسطينية المناهضة وهو صاحب الموقف المناهض للمؤامرات التسووية تاريخيا، وهذا شيء هام جدا اذ لولا ظهور التحالف العشري المرشح للاتساع كأداة استقطاب وتأطير للموقف الشعبي المتشبث بالحقوق الوطنية لأمكن تصور تمرير الحل التصفوي بيسر، والأمر نفسه ينطبق على التاكتيك الثوري تاريخيا الذي كان يضغط باستمرار لفرملة انزلاقات القيادة المتنفذة ليجتنبها لاحقا لخندق القواسم المشتركة منذ مؤتمر جنيف عام ٧٤ مرورا بمشروع ريغان واتفاق شباط بين عرفات – الملك وسواهم.

واليسار اليوم يبشر بقيم النضال والصمود في الشارع الجماهيري وقيم الاستقلال والحرية والكرامة والوطنية والتضحية التي بدونها يحصل انهيار معنوي وتتفسخ الروح الكفاحية لشعبنا، فضلا عن مناشطاته النضالية بمختلف الصور على امتداد ربع قرن حيثما كان طرفا رئيسيا في صنع الثورة المعاصرة وصفحتها المجيدة، الملحمة الانتفاضية، بكل ما يعنيه ذلك من معارك وتضحيات وتنظيم وتوعية للجماهير، وهذا لا ينبغي نسيانه أبدا.

ورغم أهمية ما آشرتم اليه من موقف نقدي على صعيد قتالي، غير ان فتح في وقت سابق كانت الأطول باعا في القتال بينما هي الان قد انخرطت في مسار سياسي مدمر للقتال وكل ما راكمته من منجزات، بالنظر الى استراتجيتها السياسية الجديدة المغايرة. والاصدقاء في الاتجاه السياسي الاسلامي المناضل، رغم تمايزهم القتالي اليوم، غير انهم ولدوا في الامس القريب نضاليا وهم لم ينفكوا قيد الاختبار السياسي. أي فيما اذا كان تاكتيكهم ثابتا من الحكم الذاتي أم انهم يمكن أن ينخرطوا في انتخاباته ومؤسساته... وفى حالة الانخراط يطوون صفحة كفاحهم القتالي الحالي ... والمرء بداهة يتمنى أن يحسموا جدالهم الداخلي الذي أشار له أحمد ياسين باتجاه تأمين أرضية سياسية مشتركة مع القوى المناهضة. ومن الضروري ان نفهم ان اليسار قد تلقى ضربة قوية نتيجة انهيار المنظومة الاشتراكية، وانه تلقى ضربة قوية عبر ضرب النهوض القومي العربي وتلقى ضربة قوية بفعل الخطوات المتلاحقة لتمرير المؤامرة التسووية التي تستهدف ترتيب كل المنطقة اقتصاديا وسياسا وطبقيا تحت الهيمنة الامريكية والتفوق الاسرائيلي... وهذا كله ينعكس على أوضاعة ومقدراته، فهو محاصر في لبنان وموارده المالية تجففت تماما، الا من مداخيله الذاتية المحدودة، وبينما غيره يتلقى الدعم والمساندة على أكثر من مستوى من دول وحركات اقليمية، يجد اليسار نفسه ملاحقا، وبينما يشهد اقليم الشرق الأوسط كله تناميا في المد السياسي الديني لأسباب عديدة يواجه اليسار، رغم صوابية برنامجه عموما، مصاعب جمة في استمالة المزاج الشعبي اليه.

ان المرحلة الحالية، ولبعض الوقت، هي مرحلة الهيمنة الأمريكية وبالتالي توابعها، كما سيطرة حليفها الاستراتيجي "اسرائيل"، أي أن موازين القوة مختلة عالميا وأقليميا ومحليا، بينما القوة الثورية في حالة دفاع، وفي مثل هكذا مرحلة لا يمكن أكثر من الصمود والثبات على المبدأ وخوض النضالات الممكنة لمراكمة نجاحات بطيئة ريثما يبدأ ميزان القوى بالتبدل، أي ريثما تأخذ المرحلة الراهنة بالخبو والزوال. ولا يجب ان تطلب مني على سبيل المثال أن أرفع مئة كيلو غرام بينما جسمي عليلا ونزيل المستشفى، اذ بعد العلاج والنقاهة أسترد عافيتي وحينها فقط أرفع الوزن المذكور وأكثر منه. أي عليكم الصبر والاصطبار وتحمل هذه المر حلة فهى ليست أبدية ، أي سوف تزول بجهد القوىالثوريه بأسرها محليا واقليميا وعالميا، وفى ذات الوقت مواصلة الخيار النضالي ضمن الامكانيات المتاحه، بعيدا عن النزعة الادارية التي تتقدم بطلباتها ومفروضاتها.... اي تلكم النزعة التي تلخص رأيها بالقول "يجب كذا وكذا" و

"المفروض كيت وكيت"، مسقطة رغباتها على الواقع بينما الموقف العلمي الوحيد الممكن هو أن تعملوا بامكاناتكم في الواقع وبحيوية ونشاط وحسب، وامكانياتكم هذه لا يمكن فصلها عن المرحلة. ففي مرحلة المد تتضاعف مرات وفي مرحلة الانحسار تنحسر أيضا. وأخيرا ان اليسار يبقى هو الأقدر على قراءة التناقضات وتقديم العلاج لها وهذا نأتي عليه فيما بعد.

وبالنسبة للبرجوازية، فالتناقض الرئيسي والأساسي حتى اللحظة هو بين شعبنا والاحتلال والاستجابة الثورية يجب ان تكون حسب قراءة الواقع وليس حسب الرغبات، لأنه لا يمكن استقطاب الجماهير بدون ادارة الصراع على أسس صحيحة وبالتالي فتصوير البرجوازية كما لو كانت العدو المباشر للقوى الثورية هو تصوير مغلوط وفيما لو تم العمل بموجب هذا المنظور فسوف تنبذنا الجماهير، ناهيكم انه من الناحية العملية ان فتح صراع مكشوف جبهي مع البرجوازية يقود الى أضرار فظيعة فالاقتتال الفلسطيني - الفلسطيني لا يوجد له محركات حاسمة بل ان ميزان القوى مختل حتى اللحظة لجهة البرجوازية الممتلكة لقوة عنف هي الجهاز الشرطي واللجان الامنية عوضا عن استعداد الاحتلال للتدخل لاسنادها، فقد لاحظنا دعم الرأسمال الالماني للرأسمال الفرنسي عام ١٨٧١ لذبح انتفاضة عمال كومونة باريس، والتدخل الامريكي لدعم نظام فيتنام الجنوبية التابع، والالعوبة في يد الغرب لمحاربة الثورة الفيتنامية، والامداد الامريكي لنظام الملك حسين في حرب ايلول عام ٧٠ ضد البندقية الفلسطينية، ولدعم القوى الفاشية في لبنان عام ٥٨... والشيء المؤكد ان برجوازيتنا قد انخرطت في المشروع الامريكي - الاسرائيلي وهي لن تألُ جهدا لتنفيذ التزاماتها دفاعا عن امتيازاتها . وهي بداهة قد تكون معنيه في لحظة من اللحظات لاستدارج القوى الثوريه للصدام ،ذلك انها قلقه من تمتع هذه القوى ببرنامج مغاير لبرنامجها ، كما أنها منزعجه من تقلص وزنها وتنامي وزن غيرها وقد تلجأ لاستفزاز القوى الثوريه ، غير أن التاكتيك الصائب ليس دائما النطاح ولا الغطس في الاستفزاز وانما يكون السؤال كيف السبيل للحيلوله دون الحرب الأهليه وما الشكل المناسب للرد الذي يكفل حمايه القوىالثوريه وحقها في التعبير عن نفسها وسياساتها ونضالها ، وثمة حيلة في السياسة والتفاف حول المصاعب وليس دائما مكاسرة الزنود هو الصحيح، فالمهم انقاذ شعبنا والحيلولة دون الاقتتال الفلسطيني.

وعموما ان كثير من الاشياء يعتمد على ممارسة اليمين البرجوازي وأحد أشكال الصراع مع هذا اليمين هو كسب العقول، أي اجتذاب الجماهير للبرنامج

الوطني والتاكتيك الثوري وفي حالة اكتساب الأغلبية نفوز في معركة تمثيل الشعب الفلسطيني وبالتالي ينعزل الخط السياسي للقيادة اليمنية مثلما تنعزل هذه القيادة وفي وقت ينظر الطرف الاسرائيلي، كما أمريكا، الى ان عرفات يمثل الشعب الفلسطيني غير انهم لا يعتبرونه الممثل الوحيد، بل وقد تأتي أحداث تزعزع قوته وحينها تغدو الاتفاقات التي وقعها غير ملزمة للأغلبية الشعبية التي سيكون لها مطالبها ونضالها وبالتالي رضوخ العدو القومي لها في يوم من الأيام. وأرجو أن لا نستخف بأهمية كسب عقول الناس وعواطفهم فاهمال ذلك قاد الى عزلة القيادة السوفيتية وبالتالي انفضاض الجماهير من حول سياساتها كأحد عوامل انهيار التجربة الاشتراكية هناك.

أما بصدد مؤسسات الحكم الذاتي فلا حاجة لتكرار الموقف القديم بشأن مقاطعة الانتخابات والمؤسسات ذات النسق السياسي والقيادي، وتقليل ذلك، فقد أتينا عليه ذات مرة والأمر نفسه يقال عن المنظمات الشعبية والنقابية والمؤسساتية للمجتمع الفلسطيني التي ينبغي الانخراط والتنفذ فيها.

وبخصوص التوظيف فلئن كنا نرفع الكفاءة كمعيار للتوظيف غير ان استشراء الفئوية في الساحة الفلسطينية ومصلحة الجناح اليميني في الهيمنة سوف يدفعان الى محاربة القوة الثورية في رغيف الخبز، وسيواجه اليسار حربا لتضييق الخناق عليه أشد من الخناق الحالي، وبداهة ان الرد لا يكون بتكفير الاخرين والانكفاء بل السعي للتوظيف عل أساس مهني كما التوجه للمشروع الخاص الصغير الحر .

ومن الطبيعي ان يتقدم اليسار برؤيته التنموية وهذه الرؤية نظرية وحسب ، اذ ان اليسار لا يملك أرصدة ومقومات لبناء اقتصاد انتاجي وبرنامجه لا يمكن تحقيقه بالكامل الا في ظل دولة مستقلة تقودها جبهة وطنية يكون هو عمودها الفقري، فضلا عن خوضه نضالات مطلبية لتحسين أجور وشروط عمل الشغيلة وفي التحليل الأخير ان اليسار لا ينفق على الجماهير بل على العكس ان الجماهير هي التي تنفق عليه وهو يتسلح أو عليه أن يتسلح ببرنامج تنموي بديل لبرنامج البرجوازية التابعة، وان التحام الجماهير بهذا البرنامج يجعله قوة مادية قابلة للتحقيق.

ولو ذهبنا أبعد من ذلك لقلنا ان برجوازيتنا قد عجزت عن قيادة الثورة نحو الحرية والاستقلال، وهي عاجزة عن تحديث المجتمع وتنميته على نحو جذري أو

دمقرطته بعمق وبالتالي انتقلت هذه المهام للقوة الاجتماعية الأكثر ثورية وطليعتها اليسار. وحينما نقول هذا الكلام لا نقصد به التغطية على عيوب اليسار اذ بالعكس علينا التوقف يوما لتدارس أزمة أو مأزق اليسار، وانما غرضنا الاشارة الى المهام التي عليه انجازها والى الجهد الذي يمارسه على جبهة اليسار أو على جبهة الثقافه والقيم.

والآن يجدر الانتقال لاتفاق اوسلو في حلقته التنفيذية الاخيرة -- اتفاق القاهرة الامني الخاص بالمعابر وآفاق المستقبل القريب. وقبل هذا انني احمل لكم تحيات رفاقكم في معتقل الفارعة ، اي الذين تم ابعادهم من زنازين هذا المعتقل عل أثر الصدام مع الادارة وهم يشعرون بالاعتزاز كونهم خاضوا معركة منفردين بدون ان تتبلبل صفوفهم، رغم تعاون أطراف اخرى مع الادارة الى درجة اقتحام خيامهم والاعتداء على بعضم بينما كان عشرات وعشرات الجنود المدججين بالسلاح وكمامات الغاز والهروات، واحتدام الصراع مع هؤلاء بادوات لا تتعدي التصميم علي عدم التراجع وقطع الصابون والاخشاب دفاعا عن النفس.... وهم رغم عزلهم في الزنازين لم يتزحزحوا عن مطلب تكثيف وجودهم في الخيام بدلا من تشتيتهم كما مطالبهم بتمثيل أنفسهم كسائر القوى الاخرى.... ورجاءهم ان تتمسكوا بهذين الشعارين. وقد خاضوا خطوات نضالية متتالية كاعادة وجبات طعام ومقابلة المدير وتقديم مذكرة، كما شرحوا أوضاعهم للصحافة والمحامين والأمر نفسه ينطبق على رفاقكم المبعدين في معتقل الظاهرية حيثما أمضيت معهم الوقت في اطار مناقلاتي المقصودة من المخابرات لتعطيل جلستي في المحكمة العليا حيث استأنفت على قرار اداري وقد عطلوا المحاكمة فعلا.

وكانت فرصة طيبة ان التقي بالرفاق، وبصدق ان روحهم مرحة ومزاجهم متحدي رغم قمعهم، وجماعيتهم واضحة، وقد صادفوا أحد الشباب الذين أسهموا في الاعتداء عليهم وناقشوا الامر فيما بينهم واستقر رأيهم على عدم معاقبته لانهم أكثرية فيما هو وتنظيمه أقلية في غرف العزل ولكنهم أوصلوا رسالة شفوية تبين له بشاعة فعلته وأصحابه.

وبعد، لئن استمر المسار التفاوضي الحالي، هناك ثلاثة سنوات من الحكم الذاتي، فضلا عن سنتين للحل النهائي القاتم والضبابي الذي لن يكون أكثر من حكم ذاتي طالما انحصرت المعطيات في صبغة التفاوض بين الوفد الاسرائيلي القوي والوفد العرفاتي الضعيف تحت المظلة الامريكية المعادية. ولكننا طبعا نستطيع ان نتصور في سنوات لاحقة دخول عوامل اخرى تسعى لتفشيل هذا

المسار وتجاوزه باتجاه التمهيد لتسوية اخرى وتعلمون ان الاسرئيليين قد جربوا حلولا في السبعينات غير انها فشلت، كما الملك حسين جرب مشروع المملكة المتحدة واتفاق شباط وفشل... وأمريكا جربت كامب ديفيد في شقه الفلسطيني ومشروع ريغان وسواه غير ان شعبنا قاوم ذلك... والحلقة التآمرية اليوم هي اتفاق اوسلو البديل لبرنامج الحرية والاستقلال. وهذا الاتفاق هو حلقة في سلسلة النظام الاقليمي الذي يكفل لأمريكا وحلفائها وتوابعها الهيمنة على المنطقة واعادتها الى ما قبل الخمسينات، أي ضرب كل منجزات مرحلة المد القومي والمد الوطني الفلسطيني.

ويمكن تخيل امكانية تطبيق اتفاق اوسلو، فالبرجوازية اليمينية منهارة والقوى الرافضة غير قادرة، بل ان اتفاق القاهرة الامني يضمن لقوات الاحتلال السيطرة على المعابر الحدودية وتقليص مساحة أريحا وتوسيع المدى الاستيطاني في غزة، بينما كان قطاع غزة برمته معروضا بدون استيطان في جولات واشنطن الاولى، وعرفات سيعود باسم رئيس الحكومة الذاتية ويبسط نفوذه على مؤسسات المجتمع الفلسطيني مستفيدا من زخم عودته وأصحابه وبأيديهم مقدرات مالية وقوة عنف سلطوية، **فما هي الفرص أمام قوى اليسار والقوى المناهضة عموما؟**

ان الصورة غامضة وهي جديدة تماما والتشابه بينها وبين تجارب شعوب اخرى جزئي، ومن الصعب القياس عليها. ولكن الشيء المؤكد ان الجماهير هي العنصر الحاسم، وهي بناء على خبرتها الخاصة سوف تحدد موقعها النهائي مع برنامج الحكم الذاتي الملموس والمادي أو مع البرنامج الوطني الاستقلالي الطموح والهادف، أما ان تستطيع القوة الثورية التأقلم في الظروف الجديدة وما هي فرص تجنيدها لحلفاء عرب واقليميين وأصدقاء دوليين واي احتمالات أقوى: ان تكون سلطة للحكم الذاتي اوتوقراطية أم ديمقراطية... وما هو التاكتيك الصائب...؟ الخ فهذه وغيرها أسئلة هامة... ومن المفيد ان تكون محورا للنقاش الجماعي وأستطيع الاسهام بنقاط قليلة على النحو التالي-:

الذي أفهمه نظريا أن العامل الذاتي هو العامل الحاسم عموما ونادرا ما يكون العامل الخارجي حاسما فمثلا ان انتصار الثورة الصينية والفيتامية الكوبية...الخ هي أمثلة على دور العامل الذاتي ، بينما تعطيل انتصار الحركة الثورية في السلفادور في الاعوام الاخيرة بعدما اقتحمت قواتها العاصمة كان مرده الدعم الامبريالي الكبير للنظام مثلما ان سوريا احبطت انتصار الحركة

الوطنية اللبنانية عام ٧٦ حينما اجتاحت لبنان بعدما سيطرت الحركة الوطنية على ٨٢٪ من مساحة البلد... وبالتالي فعاملنا الفلسطيني الذاتي هو الرهان الاول وليس شعبنا في الداخل فقط بل في الداخل والشتات معا، فأية كفة سوف ترجح وما درجة رجحانها، فلئن رجحت كفة الحكم الذاتي بدرجة كبيرة استقرت التسوية لبعض الوقت مع امكانية تصور استمرار المعارضه من موقع الأقلية، أما ان رجحت كفة الدولة والعودة وتقرير المصير بدرجة كبيرة فحينها تنعزل القيادة اليمينية وتتفسخ ويسقط اتفاقها بما يفسح المجال لمجرى سياسي جديد باتجاه الحرية والاستقلال ومن البديهي ان هذه النتيجة مرهونة بعوامل عدة.

وأنتم تعلمون ولا شك ان العامل الذاتي لا يتحرك في فراغ، بل على أرضية العامل الموضوعي وكشأن المزارع الذي يستخدم مهاراته وخبراته....الخ ولكنه لا يستطيع ان يزرع بذور الا في التربة وضمن مناخ معين، ومهما كان مجدا وماهرا فهوا لا يستطيع الا ان يتأثر بخصوبة التربة وحالة المناخ.

فمثلا اننا نعمل اليوم في ظل ظروف دولية ومحلية صعبة وشائكة، فميزان القوة راجح لجهة العدو والتسوية الجارية يدعمها معسكر دولي واقليمي ينخرط فيها فريق فلسطيني في جعبته أسلحة عديدة، فهل ثمة فرص لخلق فعل شعبي ثوري مناهض ومتعاظم القوة؟ انكم اليوم تدعون لاضراب جماهيري عام، فتنجح الدعوة. أما بعد مجيء قيادة تونس فالمزاج الشعبي يتبدل بدرجة كبيرة وبالتالي فامكانية نجاح الاضراب تغدو متعددة، واليوم يخرج مخيم جباليا لمصادمة معسكر للجيش ردا على سقوط شهيد، ولكن هذا غير ممكن بعد خروج معسكر الجيش من المخيم، واليوم تعبىء الجماهير بشعار جلاء الاحتلال وفكفكة المستوطنات، لكن بعد قليل يقولون لك هذا ليس أوانه وهو متروك للتفاوض في المرحلة الأخيرة.... وعلى ذلك قس. أي ان ثمة أوضاع جديدة تتطلب استخراج تحليل ملموس وصياغة أشكال ملائمة للعمل، ولكن في كل الاحوال، ومهما كانت الظروف ثمة دائما فرص للنضال حتى بعد نكبة ٤٨ وبعد هزيمة ٦٧. ومذابح أيلول سنة ٧٠ وحرب ٨٢ اجترح شعبنا مآثر واشتق طرائقا مناسبة لمواصلة المسيرة. طبعا لا يغيب عن البال حدود الطاقة، فأي شعب يستطيع عمل كيت ولا يستطيع عمل كيت، وهذا حال كل دولة، فمثلا لقد اندلعت الانتفاضة وعجز جيش الاحتلال عن تصفيتها بدون ان يستخدم سلاحه الصاروخي أو قنابله النووية أو قاذفات اف – ١٦ مثلما لم يقدم على ذبح شعبنا بأسره أو طرده خارج الحدود، كدليل على حدود الطاقة، واليوم أمريكا تحاصر كوبا وتضغط ولكنها لن تقصفها بصورايخ نووية.

وثقتي ان شعبنا يملك من الطاقات ما يكفي لحماية وجوده وصيانة حقوقه مهما كانت الظروف مجافية. واعتقد ان أفضل شعار ينبغي رفعه في هذه الاوقات هو انقاذ الثورة المعاصرة، وبعد انقاذها يصار لحمايتها وبالتالي حماية الاهداف الوطنية كمقدمة لانجازها.

وربما يحتاج هذا الشعار لابداع ثوري غير مألوف الان. الامس ليس كاليوم، والغد فيه الجديد، وما كان صالحا قد لا يكون صالحا برمته مثلما ان الجديد يستوجب التجديد ايضا. ولئن اتفقنا على شعار انقاذ الثورة من الضروري ان نتمثل حدود هذا الشعار، فانقاذ الثورة هو شعار دفاعي وليس شعارا هجوميا. أي ان الحفاظ على الوجود والبرنامج في عقول وقلوب الناس لا يحرر أوطانا بل هو درجة في السلم الذي يتلوه درجات تفضي الى باحة التحرر والاستقلال، أي ينبغي تفادي النزعة الارادوية التي تتجاهل حدود الطاقة من جهة وطابع المرحلة من جهة أخرى.

وقد رأينا نتائج النزعة الارادوية في العراق حينما اجتاحت القوات العراقية الكويت، ورأينا النتائج حينما رفع لينين خمسة الآف عضو حزبي في انتفاضة موسكو عام ١٩٠٥ بينما كانت الجماهير خاملة... فالارادوية خطرة شأنها شأن الانخراط الانتهازي اليميني، وبعدما نتفادى المزاج المغامر علينا عدم نسيان القانون الطبيعي، أي قانون التراكم الكمي الذي يقود الي قفزة كيفية، اذ بعد انقاذ الثورة بما يعنيه ذلك من اشكالات ونضالات، يتراكم خط الصعود بتدريج وتتعاظم القوة الثورية، أخذين بالحسبان ان الثوريين لا يعملون وحدهم في الساحة، بل ثمة عدو وقوى مضادة تعمل ايضا باتجاه تفشيل عمل الثوريين، كما لعبة الشطرنج بالضبط، وقصارى القول: المرحلة تسمح بأشياء ولا تسمح بأشياء أخرى، والحقبة تسيطر عليها أمريكا، واليسار في شهر بصل، وملء الفراغ ليس مرهونا بكم وحدكم، والحركة الصاعدة حلزونية فيها التقدم وفيها التراجع ولا يمكن ان تكون رسما بيانيا صاعدا... وباختصار اللعنة على هذه المرحلة.

أما ان نستطيع تجنيد أصدقاء وحلفاء، فيمكن القول ان ثمة قوى وتيارات شعبية عربية لها موقف نقدي من اتفاق اوسلو وخط مدريد – واشنطن – القاهرة برمته، وهذا يمكن ان يتنامى ذلك ان أهدافها ومصالحها تتناقض مع الاستراتيجية الامريكية – الاسرائيلية واحدى تجلياتها اتفاق اوسلو، مثلما قد تعثر على بقية نفس وطني لدى هذا النظام البرجوازي العربي أو ذاك، بدون ان نعدم وسيلة

لاستقطاب تأييد أو تفهم هذه العاصمة أو تلك على صعيد دولي، فلم يركع العالم كله للارادة الامريكية، وان عدم وضوح تأييد معسكر الاصدقاء على صعيد عربي ودولي لا يعني ان يستمر عدم الوضوح هذا في المستقبل، اذ على الأرجح ان يحتدم الصراع بين القوى المناهضة للامبريالية وبين المركز الامبريالي في قادم السنين ذلك ان غطرسة الامبريالية ونهبها للشعوب واعتدائها المتكرر على كرامتها وسيادتها كفيل بتحريض هذه الشعوب على الثورة بل يمكن تصور تصاعد قوة الصين الشعبية وتوجهها للعب دور ملموس في السياسة الدولية.

ولا نمل من تكرار القول: *ان الصيغة التسووية الراهنة انما هي محصلة معطيات وميزان قوى في لحظة محددة على صعيد محلي واقليمي ودولي، وبينما هذه اللحظة ليست ستاتيكية وليست أبدية بل هي لحظة وحسب سوف تعقبها لا محالة لحظات اخرى تمشيا مع قانون التطور وحركة التناقضات.* وذروة السلبية هي هذه اللحظة، حيث انهيار المنظومة الاشتراكية والنظام الرسمي العربي والبرجوازية اليمينية الفلسطينية... وأية لحظة اخرى ستكون باتجاه الانفكاك التدريجي من شروط ومعطيات هذه اللحظة. وبالنسبة للوطن المحتل، فاتفاق القاهرة يمهد لعودة الفريق الذي رضخ لمشيئة أمريكا وحليفها الاستراتيجي اسرائيل الى الداخل وبجعبته كل الاحتمالات للتعاطي مع الجماهير والقوى الثورية، أي تعاطي ديمقراطي مجزوء أو تعاطي ديكتاتوري دموي ان شعر بمساس بالتزاماته وامتيازاته أو في حالة توجهاته السياسية والتنموية التابعة.

وعليه، فأحد خطوط العمل ليس نفض الغبار عن الذهنية الشعبية التي جرى تضليلها في عدة مسائل، بل وزرع الوعي الديمقراطي في أوساط الشعب لكيما يكون سياجا يقي شعبنا من مخاطر الحرب الأهلية ويحاصر الاجراءات القمعية والدموية التي يمكن ان تلجأ لها القيادة البرجوازية المستسلمة. *أي ينبغي الجمع بين مسألة سياسية ومسألة ثقافية: الاولى تحريضية على المؤامرة التصفوية والثانية تعبوية للارتقاء الحضاري بشعبنا.* ومن واجب الاتجاهات اليسارية ان تثبت جدارة هنا لانها مؤهلة أكثر من سواها على هذا الصعيد. بالاضافة لذلك تطرق *القضية النقابية* الباب بقوة في ظل البطالة والتضخم المالي واشتداد وتائر الاستغلال الطبقي، و*اهمال المشروع الفلاحي المستقل* وخراب موسمه...الخ فضلا عن ارتفاع تكاليف التعليم والعلاج وأجارات البيوت...الخ وهذه وسواها قضايا تمس حياة الجماهير اليومية، وليس هناك من هو أفضل من اليسار للتعبير عنها وقد كان ملحوظا في مداخلاتكم حجم النقد للاتجاهات اليسارية

الفلسطينية، وأتفق معكم على المبدأ النقدي، ذلك ان الفكر السياسي في جوهره نقدي ولكن ينبغي الانتباه الى أن اليسار ليس هو الطرف الفلسطيني الذي أدخل شعبنا وثورتنا في المنزلق الحالي، ومسؤوليته تنحصر في مدى استجابته للاشتراطات الكفيلة باخراجنا من هذا المنزلق الخطير، اذ ثمة فارق بين المعسكر الذي دهس شعبنا وهشم أضلاعه وبين الطبيب الموكول له معالجة المريض بينما هو نفسه عضو في الجسم المهشم، ولم يبرهن على مقدرة كافية لمعالجة المريض بعد.

واليسار رسالة تاريخية قد تتكاتف عليها الظروف في مراحل معينة فتحاصرها، اي قد يكون العامل الموضوعي مجافيا، بدون تجاهل عيوب ونواقص العامل الذاتي شريطة ان نقرأ هذا العامل ونستخلص بدقة أية عيوب يمكن ردمها وأية نواقص لا يمكن ردمها الا في المستقبل. وبدون شك ان على اليسار دور انقاذي ملزم بالاضطلاع به كمسوغ لوجوده، والا لما الحاجة له. أي انه ملزم بانقاذ الثورة المعاصرة والحقوق الوطنية بصرف النظر عن الحقبة الزمنية المطلوبة.

وعلينا تفادي البلبلة، فهي الأشد خطرا على صعيد القلاع اليسارية ومحمد الاسلام قال ذات مرة "*الفتنة اشد من القتل*"، اذ أن ثغرات هذه الخيمة كثيرة ولكن أن يشخصها كل واحد ويعتبر نفسه برئيا وغير مسؤول عن رتقها انما يدلف المطر ويبللنا جميعا ويجعل حياتنا مستحيلة. أما النهج الصحيح فيكمن في مبادرة الجميع بعد تشخيص الثغرات للشروع الفوري في رتقها في دواخلنا أولا وفي الخيمة ثانيا، اذ ان كلمة "ماو" القديمة "*انفض العدو الرابض في نفسك*" لا تزال صالحة. فالعيوب تسرح وتمرح فينا كأفراد وفينا كجماعة معا، ولا أحد خارج هذه الدائرة ولكن بتفاوت بطبيعة الحال وربما غريبا قول ما يلي : ان شعبنا هذه الايام يدفع ثمن هزيمة الثورة في الاردن، فعدم حسم ازدواج السلطة عام ٧٠ ذلك ان قانون ازدواج السلطة يؤكد على أنها مؤقتة، فاما ان يحسمها الفريق الثوري أو الفريق الرجعي وبدل أن تبادر الثورة رفعت القيادة اليمينية شعار عدم التدخل في شؤون الاردن مما أسفر عن سحق الثورة وبعدئذ كانت التجاوزات والممارسات الخاطئة كثيرة في لبنان مما أثار حفيظة الحركة الوطنية والشعب اللبناني معا، وكل هذا بفضل نهج القيادة اليمينية أولا، الى درجة لم نعد نسمع أية أصوات تتعاطف مع وجودنا في لبنان... طبعا في كلا الحالتين على اليسار مسؤولية معينة، غير انها مسؤولية ثانوية كون اليسار لم يكن قائدا ولم يكن الأقوى ولا المشهود له بالاخطاء والتجاوزات أكثر من سواه... وأموال

البترودولار السعودي والخليجي لعبت دورها في افساد الثورة، وهنا ايضا تلطخت جنبات اليسار بدرجات ضئيلة. أما الانتفاضة فلم تتصاعد الى مرحلة العصيان المتدرج نتيجة حرمانها من الدعم المالي الى درجة ان القيادة الموحدة تلقت ١٪ فقط عامي ٨٨ + ٨٩ من أموال الدعم التي تسربت عبر قنوات لصوصية غير مؤتمنة... بينما كان العصيان رافعة تصعيدية من شأنها ان تدفع التناقض الى حد الاستعصاء.

واتفاق اوسلو – القاهرة لم يأت بمشاركة القوى اليسارية الثورية... اي دعونا نرى الامور ونقيمها بدقة فلا نخلط الالوان، والمواجهة والانتصار لا يتوقفان فقط على دور اليسار بل على استعداد الجماهير وعلى التحولات في المحيط العربي وعلى المتغيرات على صعيد دولي أيضا. انها مرحلة تمر بها البشرية واحدى حلقاتها ما تتعرض له قضيتنا. **وان تكون رأس حربة هذا شرف لك. أما ان تعتمد رأس الحربة بديلا للحربة فهذا خلل في تفكيرك.** الامر الذي يقتضي توثيق العلاقة مع الجماهير الفلسطينية في الداخل والشتات كما مع قوى الحركة الشعبية العربية وكل معسكر التقدم والاشتراكية والثورة على صعيد عالمي.

وأمريكا مصممة على انهاء النضال الفلسطيني وفي المقابل علينا ان نكون مصممين على حماية هذا النضال مهما كان الثمن والنضال ليس هدفا بذاته وانما هو وسيلة لبلوغ هذه، وهدفنا عادل وشرعي ويتماشى مع قرارات الأمم المتحدة ، *أي العودة والدولة وتقرير المصير*. وهذا يستوجب أول ما يستوجب المزيد من التلاحم الداخلي والمزيد من الالتحام بالبرنامج الوطني، بالامساك بالحلقة المركزية في كل لحظة وكل نشاط باحثين باستمرار عن منصه لاطلاق قوانا وتجسيد مبادرة تاريخية انقاذية سواء توافرت شروط هذه المنصة أم لم تتوفر كما في الوقت الحالي.

في السياسة مرة ثالثة مستجدات وتساؤلات

منذ اسبوع ويزيد رصدنا وحللنا، واليوم نواصل ، وقبلئذ أرى أن ننتظر دقيقة أو أثنتين نمهل فيها الرفيق المتغيب ريثما ينضم لنا. وهنا يحضرني حدثين صادفهما فيدل كاسترو بداية انطلاقة الثورة الكوبية. الاول حينما كشف البوليس المكسيكي تدريبات الرتل الثوري الكوبي وبضمنه جيفارا في مزرعة كان يملكها ضابط اسباني فار من ملاحقة فرانكو بعد انتصار القوى الفاشية على القوى الجمهورية التي تضم اليسار والديمقراطيين في الحرب الاهليةعام ٣٦، وبعد تحقيقات تبين أن غرض التدريبات لا يتصل بالأمن المكسيكي ، فاطلق سراح المجموعة باستثناء جيفارا الأرجنتيني الأصل وكانت نصيحة جيفارا أن على الفريق التوجه فورا الى كوبا، اذ لا يجوز تأخير العمل الثوري وأنه سيتدبر نفسه، أما كاسترو فرفض ذلك وأوكل القضية لمحامي بارز لاحق الموضوع لبضعة أسابيع فأطلق سراح جيفارا

والحدث الثاني حينما كان قارب غرانما،أي الفجر، يبحر متجها الى شواطىء كوبا بينما حمولته من مقاتلين وعتادهم ولوازمهم تفوق حمولته بمرات، وبينما كان الوقت مضغوطا وضياع ساعة واحدة كفيل بتعريض كل الحملة للفشل تحسبا من طلوع ضوء النهار وافتضاح السر ، غير أن القارب أخذ يئن تحت ثقل الحمولة مما اضطر الفريق للتخلص من بعض الأوزان وبينما هم مشدودين على هذا الحال سقط أحد الشبان في البحر لتلتهمه الأمواج والظلام، وبعد جولة تفتيش واثنتين لم يعثروا عليه،ونشأ مزاج يدعو للتحرك "فالوقت من دم" حسب تعبير الحكيم، بيد أن كاسترو أصر على استمرار البحث وكل دقيقة تمر كما لو كانت دهرا، وقد حالفهم الحظ بالعثور عليه فانتشوا جميعا. أي دعونا نتعلم من هذا الدرس،فالقائد الحقيقي لا يقود عناصره وحسب بل ويحميهم ويحنو ويحرص عليهم أيضا، والآن نبدأ صباح الخير للجميع.

ما الجديد في اللحظة السياسية؟ في غنى عن الشرح القول أن علينا مواكبة ومتابعة المتغيرات كيلا نبقى حبيسي الماضي وأسيري مواقف قديمة لا تأخذ بالحسبان المتغيرات سواء كانت نوعية أو جزئية. وليس دائما المستجدات كافية لتغيير تاكتيكات أو شعارات، غير أن هذا لا يمنع الوقوف على الجديد. وبذلك فقط نحافظ على الحس بالزمن، ولا نتخلف في ذيل التاريخ. وبديهي أنه لا يكفي

الامساك بالمواقف الاستراتيجية أو المواقف التي تتناول حقبات زمنية ، وانما يتوجب ايضا الغوص في التفاصيل والاحاطة بها، فهي أحيانا انما هي طلائع لاتجاهات حركة رئيسية. وملحوظ لنا جميعا ان الفترة الحالية حبلى بالاحداث والمتغيرات، فهل هذه الاحداث تبرهن على صوابية تحليلنا وان علينا التصويب وأن علينا الاغناء وبذلك نتفادى المقولة الممجوجة: لقد جاءت الاحداث لتؤكد صحة تحليلنا، وكفى الله المؤمنين شر النقد والتصحيح

هنا علينا الخروج من الجمود، بل وحينما نكتفي باجترار أفكارنا يتوجب على الفور قرع جرس الانذار. فالتوفيق يعني التأخر حسب كلمة المربي كالينين، بل يعني الشيخوخة والموت، وهو يعكس نشوء مشكلة تفرض علينا امعان النظر فيها بغية دحرها ، وهذا لا يكون الا ان أفلحنا في تحسس حركة الجديد وبالتالي أنتجنا المزيد من الفكر.

هذه المقدمة ضرورية بوجه عام أكثر منها ملحة لحديثنا الملموس هذا اليوم. وفي الملموس، لقد تم توقيع اتفاق القاهرة الذي ضمن للاسرائيليين التحكم بالمعابر ومنع أي شخص لا يرغبونه من دخول الوطن، ومساحة أريحا تحددت حسب الرغبة الاسرائيلية، والمستوطنات مكفول بقاءها بل سيكون لها خطوط سير خاص بها محمية بقوات الاحتلال المتمركزة فيها وحولها بل وللقوات والمستوطنين حرية الحركة في الطرقات الفلسطينية أيضا. ومما قيل من قبل الفريق المفاوض عن سلطة وطنية فلسطينية هو أقل من المجلس البلدي لتل أبيب وما قيل عن جيش وطني مكون من ٢٠ ـ ٣٠ ألفا تقزم الى مجرد جهاز شرطي قوامه ٨ ـ ٩ الآف عنصر غالبيتهم من الخارج ويمكثون هنا بتصريح، ومهمتهم السهر على تنفيذ اتفاق اوسلو وسلاحهم البنادق والرشاشات من جهات صديقة لاسرائيل. أما المياه في الضفة والقطاع فهي تحت المسؤولية الاسرائيلية. وهذا حال الجمارك التي تعود على الاسرائيليين بربع مليار دولار سنويا، أما الضرائب فسوف تحال لسلطة الحكم الذاتي وكانت عائدات الاحتلال منها نحو ٢٠٠ مليون دولار بينما من المتوقع أن تتزايد الضغوط على المواطنين لرفع مدخولها لكيما تساهم في الصرف على الحكم الذاتي. وبالنسبة للاستيطان فهو مستمر والمصادرات مستمرة أيضا فيما الاختلال الديمغرافي متزايد في القدس. وما يشاع عن اقتراب عودة مئات الآف الفلسطينيين لم ينص اتفاق القاهرة على عودة ولو مجرد عشرة الآف، أي لقد بقيت مشكلة ثلاثة ملايين فلسطيني يعيشون في الشتات على حالها، أما حق العودة بناء على القرار ١٩٤ الصادر عام ٤٩ فحدث

ولا حرج، فهو مشطوب تماما كما لو كان شعبنا لم يعش يوما في فلسطين عام ٤٨.

وبإختصار لقد سقطت كل الاقنعة حتى من وجهة نظر غالبية شعبنا عن وجه المشروع التسووي وحلقته الأخيرة اتفاق اوسلو – القاهرة، اذ بينما يوجد أساس منطقي للافتراض ان النسبة الساحقة لشعبنا في الشتات تدين الاتفاق، ذلك أنه في التحليل الأخير لا يشملها وغير متاح سوى لبعد المستلزمين العودة، فأن حوالي ٤٠٪ فقط في الداخل يؤيدون، حسب استطلاع كانون ثان، قسم من هؤلاء يفتشون عن فرص لتغيير الواقع أكثر منهم يؤيدون مضامين الاتفاق. وهذه ورقة تحريضية قوية في أيدي الاتجاهات المناهضة تستوجب حملة تعبوية منظمة وعلى أوسع نطاق ويمكن أن تلمس أيضا التفسخ داخل صفوف فتح، هذا الفصيل المناضل الذي كان القطاع الرئيسي في الثورة المعاصرة الى ما قبل سقوط قيادته في المشروع الامريكي – الاسرائيلي التصفوي فالتناقضات يعلو صوتها سواء داخل صفوف القياده ، اذ أن أقلية فقط تلتف حول بونابرت فلسطين، أى عرفات، الذي يتخذ القرارات متفردا وسط تحفظ البعض وغياب البعض الاخر، ليس داخل اللجنة المركزية لفتح فقط بل واللجنه التنفيذيه للمنظمة أيضا فالأغلبية لا تريد ربط اسمها بما يحدث او سواء بين زعامات واجنحة فتح في الداخل التي وصلت حد الإستقالات العلنية والتصفيات والتشقق والتمرد وتعيين قيادات لا باع نضالي لها، كل ذلك في اطار تحول فتح لحزب علني. ان هذه مأساة في ذاتها، فان تتحول حركة فتح الشجاعة والتضحوية على امتداد ربع قرن، الى مجرد مكاتب وشلل متنافسة تحت عين وبصر الاحتلال بينما هذا الاخير جاثم على صدر شعبنا وأرضنا، هي طعنة قوية في ظهر الثورة. ناهيكم عن تنامي الشروخ بين أطراف المعسكر الفلسطيني المفاوض، فالشافي وحنان ابتعدا وكذا أبو الشريف، وهم ونظرائهم يعتبرون اتفاق القاهرة تصفويا، بينما حزب الشعب يقاطع المفاوضات وشيء قريب من ذلك حزب فدا وكلهم ينتقدون ادارة دفة المفاوضات وآلية اتخاذ القرار الفلسطيني... الى درجة اقترابهم من اعلان الطلاق مع المجرى التصفوي وترسمهم طريقا وسطا بين المسار العرفاتي والمسار المناهض ويضاف لذلك تخاوف البرجوازية الاقتصادية والانتلجنسيا المحلية من هيمنة بيروقراطية الخارج وتفردها بكعكة الحكم الذاتي بل وتقدم مصالح البرجوازية الانتاجية قربانا على مذبح التبعية للامبريالية واسرائيل على غرار ما حصل في فترة الانفتاح الساداتي في مصر. ومن جهة اخرى ثمة تناقض بين الموقف السوري والعرض الاسرائيلي علاوة على انتقاد سوريا لسياسة عرفات. فسوريا دولة وهي لا تتعجل التسوية الا بقدر تنفيذ القرار ٢٤٢

الذي تفهمه على أساس عودة هضبة الجولان كاملة لسيادتها، وبينما عرفات داعس هي (أي سوريا) لم تعشق موتورها بعد، فتذهب وتأتي لجولات المفاوضات ولكن لتبادل الرأي، اما التوصل لاتفاقية فهذا مشروط لديها بعودة الجولان، ناهيكم عن ضبطها للموقف اللبناني بحيث لا يعزف منفردا، مثلما انها لا تضغط للجم فعاليات حزب الله.

ولقاء كلينتون – الاسد في جنيف رغم استعداد الاخير لتسوية تؤدي لاقامة علاقات ديبلوماسية وتطبيع علاقات وفتح حدود، أو شيء يحوي مثل هذه المعاني، غير انه (أي الأسد) لم يتزحزح عن مطلبه بالجولان كما ضرورة الانسحاب من جنوب لبنان، مع نبرة خافتة تدعو لتسوية المشكلة الفلسطينية، مثلما دافع عن رأية باتجاه التمييز بين الارهاب والقتال في سبيل الحرية، وهذا التمييز معناه سياسيا في الوقت الحالي صرف النظر عن حزب الله والفصائل الفلسطينية المناهضة التي يتقاطع نضالها في سبيل أهدافها مع المصلحة السورية للضغط على اسرائيل.

وكلينتون لم يعرض الجولان كما لم يعرض أية تسهيلات أو دعوات مالية، وبالتالي من الصعب القول ان العقبة السورية قد تم تذليلها، وهذا على صعيد تاكتيكي وآني، أما من الناحية الاستراتيجية، فسوريا انخرطت حتى قمة رأسها في الحل الامريكي غير أنها تسعى لتحسين شروط المساومة بمستوى لا تبدو حكومة رابين أو الشارع الاسرائيلي جاهزين له بعد، وأستبعد ما يشاع عن انتقال المقرات القيادية للفصائل العشرة لبغداد اذ لم يأت هذا الاستحقاق بعد. علاوة على أن سوريا مجبرة على أقامة علاقة مع الشعب الفلسطيني، وطالما ان بينها وبين قيادة عرفات بحر من الشكوك والكراهية فهي قد تجد نفسها ملزمة بالحفاظ على خيوط مع القوى الاخرى، تقوى أو تضعف تبعا لنطاق الاتفاق أو الخلاف. وينبغي الاشارة الى أن الانظمة الرسمية العربية قد تعلمت شيء، وما تعلمته أصبح يملي عليها كبوات صغيرة للتعبير عن الذات، فالملك حسين بات يتقبل ديمقراطية من نوع معين هي في تجلياتها تتمايز عنه سياسيا وتنتقد سياسته ، بدون ان تهددها بداهة، وعلى الأغلب ان يستفيد الأسد من هذا الدرس، وهذا حال مبارك وعرفات.. الخ . اي قد تجد القوى الثورية لنفسها متنفسا ولو محدودا في سوريا في كل الأوقات. وأذكر اننا توقفنا ذات يوم أمام العراق، وربما ملائم ان نشرح سوريا في يوم خاص.

وبالنسبة للاردن ، فالنظام في غنى عن التعريف، غير ان الملك قلق من سرعة حركة عرفات ويخشى ان يعود عليه اتفاق أيلول بنتائج اقتصادية عكسية، مثلما انه يمني النفس ان يفضي تراجع وزن عرفات الى بروز حاجة له لتمثيل الشعب الفلسطيني ولكن هذه المرة من على يسار عرفات وليس من على يمينه، اي بينما كان من قبل يطالب بقرار ٢٤٢ الذي يتجاهل الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني ويقترح عام ٧٢ مشروع المملكة المتحدة المكونة من كيانين عاصمتها عمان فيما عرفات كان يدعو لتحرير فلسطين وبعدئذ لدولة وعودة، ونرى الملك اليوم يريد حلا يشمل القدس ويطرد المستوطنات ويحفظ المصالح الاقتصادية البرجوازية بدون ادارة الظهر لسوريا أو سواها فهو لايتطير ويتفادى صدمات من طراز ديبلوماسية عرفات السرية وما تمخض عنها. وحاليا ترى التقديرات الرسمية الاردنية ان عرفات قد انضم للمحور الاسرائيلي- الامريكي وسار شوطا لا يراعي فيه شؤون الاخرين، وما تحذيرات الملك وزيارة القدومي الا لممارسة الضغط الذي يتهرب منه عرفات بأكثر من وسيلة ووسيلة سيما اللجوء للقاهرة.

وعموما ان الحدود الاردنية مفتوحة لزيارات عدد من القياديين الثوريين الفلسطينيين، وهذه البوابة ستستمر على الأرجح طالما بقي النشاط الفلسطيني بعيدا عن السرية والكفاح المسلح، كما ان الانفراجه الديمقراطية في الاردن تكفل مناخات وحريات معينة ينبغي استثمارها.

والان دعونا نعرج على الاصطفاف الثوري.....

ان الجديد هنا لا يتعدى تذليل عقبتين ، أو انتزاع فتيل قنبلتين ، الاولى تتعلق بالبرنامج السياسي حيثما اتفقا على مبادىء سياسية، سيما الهدف الوطني بالعودة والدولة وتقرير المصير ورفض الحكم الذاتي ومؤسساته، والثانية تتعلق بالصيغة التنظيمية حيثما اتفق على تشكيل قيادة عشرينية وسكرتارية عشرية بناء علي تمثيل متكافىء، أما عقد مؤتمرات شعبية وديمقراطية في الداخل والخارج وسحب تجربة الخارج على الداخل فلم يتحقق الى درجة تملص حماس من التحالف النقابي مع اليسار ، وتحديدا الشعبية في قطاع غزة، وعدم التحاقها بالقيادة الموحدة.

ان قطار التسوية سريع الانطلاق فيما حركة الفريق المناهض بطيئة -- طبعا يمكن فهم التجربة الخاصة المنعزلة لبعض الفصائل، غير ان تأليف آلية بأقصى سرعة هو ضروري لاعطاء أمل للشعب والشروع بأعداد مقدمات الرد.

ولا سبيل أمام اليسار الثوري سوى توحيد صفوفه والدأب لتعزيز التحالف الفلسطيني العريض، مستفيدا من تفجر التناقضات داخل معسكر التسوية الفلسطيني ، كما الافادة من الجمود في المسار السوري الاسرائيلي، وموقف حزب الله الذي يعتبر التسوية خيانة، داعما موقفه السياسي بمناشطات ميدانية.

طبعا لا يخفي علكيم ان شروط منصة انطلاق أو مبادرة تاريخية لم تتشكل بعد، مبادرة من طراز الثورة المعاصرة أو اندلاع الانتفاضة أو تغيير ثوري في ساحة لبنان أو اي بلد عربي مجاور...الخ. ورغم ان السياسة جبر لا حساب – كما تعلمون – وتنطوي على الجديد المجهول دائما، غير ان عوامل مبادرة تاريخية لم تنشأ بعد والمبادرة لا تتجلى الا على شكل خط تراكمي حتى ولو عبرت عن نفسها كقفزة نوعية او شرارة تشعل النار في السهل كله كما يقول المثل الصيني.

وجوابي على سؤال الرفيق بالنسبة للطبقة العاملة وثوريتها، أوجز ما يلي وفي ذهني ان جزءا من أو اجزاءا من هذا العنوان قد عرضنا لها في مداخلات سابقة.

الثورة الصناعية مرت بثلاث مراحل، الاولى كانت الانتقال من المانيفاكتورة، اي المشاغل اليدوية القائمة على تقسيم العمل، الى الفبركة باستخدام الكهرباء، وقد استمرت نحو قرنين تقريبا، تلتها المرحلة الثانية حيث الانتاج الثقيل والمصانع العملاقة التي تنتج وسائل الانتاج الى اوائل سبعينات هذا القرن، وبعدئذ الطور الثالث، أي الثورة التقنية الالكترونية حيث استخدام الكمبيوتر ليس لتخزين المعلومات فقط بل وللتفكير بملايين العمليات الحسابية في الثانية.

والروبوت، أي الرجل الآلي هو جزء من هذه الثورة ، لدرجة امكانية تشغيل مصانع ضخمة بالآف الروبوتات وانسان واحد أو آحاد فقط، والثورة الكيميائية التي انعكست على الزراعة وتركيب مواد جديدة أقل كلفة وأكثر جودة... فهل يصدق أحدكم ان ١٪ من قوة العمل الامريكية تعمل فقط في الزراعة فلا تحقق الاكتفاء الذاتي بل وتصدر محاصيل عديدة لأرجاء العالم وبينما في بريطانيا يعمل فقط ٤٪ ، وبالتالي ثورة المواصلات وما نتج عنها من بورصات عالمية في أشهر العواصم بحيث يتم تداول مئات المليارات يوميا، أوراق تطارد أوراق مما أعطى أقوى الاحتكارات نفوذا هائلا وثروات فلكية،

وكل ذلك بداهة كان له تأثيراته على الاعلام، والفن والاخلاق ، بل وعلى التركيبة الطبقية ايضا.

اليسار يتسلح بالنظرية الثورية ومنهجها المادي الجدلي التاريخي، وهذا يقتضي متابعة وتحليل المستجدات واستخلاص الطرائق الثورية للتغيير.

ماركس هو أعظم عالم اقتصاد واجتماع على امتداد التاريخ وقد أبدع في تشخيص المجتمع الرأسمالي، وكشف عن حتمية زواله، وأشار فيما أشار الى الاتساع المضطرد للطبقة العاملة الصناعية مبينا ان حاجات الانسان المتنامية تفترض توسيع القاعدة الصناعية لتلبية هذه الاحتياجات من ملبس ومأكل ومسكن....وكلنا يلاحظ حاجات المجتمع المتزايدة؛ سيارة ، طيارة، قطار، باخرة، ثلاجة، تلفزيون، غسالة، افران غاز، راديو، مدن ضخمة، جامعات، مسارح، حدائق... الخ ، وهذه كلها تستوجب تطوير الصناعة.. هذا ناهيكم عن الترسانات العسكرية بمختلف أصنافها. وماركس في الوقت الذي امتلك طاقة ذهنية عبقرية حلل فيها الرأسمالية ووضع يده على قوانينها وحركة التناقضات، غير انه يبقى ابن عصره، اذ لا احد يمكن ان يكون خارج عصره، وجاء لينين وطور النظرية في زمن الامبريالية حينما انتقلت الرأسمالية للطور الاحتكاري، والرأسمال المالي واقتسام العالم لمناطق نفوذ ، ونهب خيرات الشعوب...الخ.

وقد كان ابن عصره ايضا، بل لقد نجح في اختراق السلسلة الرأسمالية حينما قاد ثورة اكتوبر الاشتراكية وشرع بتجسيد النظرية الى واقع. وسار التاريخ منذ العشرينات لهذا اليوم عبر رحلة متعرجة كانت أخر محطاتها ثورة الالكترون حيثما نلاحظ متغيرات جديدة عميقة لها اسقاطاتها على كل شيء، الامر الذي يستدعي امعان النظر فيها وترسم الطريق الثوري فيها، بل ان أية تحليلات مبدعة للعصر الراهن انما تأتي استمرارا لجهد كبار النظريين الماركسيين حتى ولو جاءت استنتاجاتها مغايرة لاستنتاجاتهم، ذلك ان لهم عصرهم ولنا عصرنا، وعصرهم كان يعج بمعطيات معينة فيما عصرنا حافظ على بعض تلكم المعطيات، بينما استولد معطيات جديدة والمنهج المادي الجدلي - التاريخي هو جوهر النظرية الماركسية وهو منهاج علمي تماما، مثلما انه يقتضي في ذات الوقت الانطلاق من الواقع لتحليله وتغييره.

وعليه لقد نشأ عالم اشتراكي، وهذا عامل جديد، وسلاح نووي استخدامه انما يهلك البشرية، وهذا شيء جديد ايضا، وعلم جامعي متطور، وثورة

مواصلات وسوق دولية واسعة، نشاط الاوراق النقدية فيها هو أضعاف مضاعفة قياسا بنشاط السلع، وتزايد متعاظم لقطاع الخدمات، فيما تقلصت قاعدة الطبقة العاملة الصناعية بما بينهما من فوارق وخصائص وتجددت الامبريالية عبر الثورة التقنية مما زاد من المنتوج القومي وبالتالي رفع مستوى المعيشة للشغيلة واتسع نطاق نهب شعوب العالم النامي واتسعت الفجوة بينها وبين المركز الصناعي... الخ. وهذه وسواها كلها عناصر جديدة تستوجب المعاينة ولمعرفة نتائجها على علم الثورة وتغيير التاريخ.

أولا:

من المقطوع به ان الاشتراكية قد أحرزت عدالة اجتماعية لم تعد فيها الثورات ملك للأقلية التي تستغل الأغلبية من الشغيلة وهذه أفضلية لا يمكن نكرانها في الوقت الذي يملك ٣٪ من الأمريكان ٩٠٪ من الثورة القومية، وحققت شعوب البلدان الرأسمالية التي كانت تشابهها في مستوى التطور ما قبل انتصار الاشتراكية ولكن لكيما تفوز الاشتراكية تاريخيا على الرأسمالية فهي مجبرة على اللحاق بالرأسماليات المتقدمة والتفوق عليها، وهذا لا يمكن تصوره بدون امتلاك مفاتيح الثورة التقنية وتعزيز الديمقراطية والتغلب على مخلفات الجمود والبيروقراطية... وهنا جاء الزلزال السوفييتي غزيرا في دروسه.

ثانيا:

من المقطوع به ايضا ان شعوب العالم النامي المنهوبة الخيرات نتيجة التبادل اللامتكافيء والمقموعة سياسيا من قبل النظم التابعة انما افق تطورها مغلق طالما لم تتحرر من الامبريالية ولم تشق طريق مستقبلها بالاعتماد على نفسها أولا. وهي بداهة طاقة ثورية عظيمة، بل حسبنا تذكر سنوات الثورة الفيتنامية والثورة الجزائرية على سبيل المثال.

ثالثا:

من المقطوع به كذلك، ان غالبية الكعكة في المجتمعات الرأسمالية انما تحتكرها وتتحكم بها الطبقة الرأسمالية التي لا تتعدى نسبتها ٤٪ ، وهي رغم نجاحها في رفع المستوى ا لمعيشي للشغيلة غير انها تستأثر بالسلطة والنفوذ والثروة وتستغل المنتجين ، وهذا يستثير الجماهير مهما تباطأت الاستثارة. صحيح ان رفع الأجور ودفع بدل بطالة وتأمين الشيخوخة واحترام حقوق الانسان

وتوفير ديمقراطية، والحراك الهيكلي في صفوف العمال حيثما يتزايد شغيلة الخدمات الذين يفتقرون للتقاليد النقابية ويحوزون على اجور أعلى من عمال الصناعة الأشد مراسا... يضعف من الموقع النقدي للرأسمالية وبالتالي يعيق من تسارع تنامي بديلها، غير انه لا يمكن تجاهل آفات الرأسمالية الاجتماعية كالجشع والعنف والفلتان الاخلاقي والعنصرية..الخ.

كما ان الديمقراطية وان كانت مكفولة غير ان الرأسمال الاحتكاري لا يتوانى في المساس بها أحيانا حينما يكسر اضرابات العمال بالقوة أو حينما شن حروبا خارجية، سيما الخاسرة منها التي ينشأ عنها خسائر موجعة بدون تأييد الشعب الكادح.

رابعا:

من المقطوع به ان الطبقة العاملة ليست محصورة في عمال المركز الامبريالي بل هناك ايضا عمال البلدان الاشتراكية الذين تحرروا من نفوذ الرأسمالية ، ويسيرون بخيارهم الاشتراكي بدأب، وهؤلاء هم جزء من البشرية، بل ان الصين وحدها أكثر من خمس البشرية.

وهناك ايضا عمال البلدان النامية الذين تتسع قاعدتهم باضطراد وهم هؤلاء العمال الذين تستغلهم البرجوازية المحلية من جهة وتنهب خيراتهم القومية الشركات متعددة الجنسية ايضا. فهم يعانون من ضنك الحياة والفقر والبؤس بما هو أشبه بواقع العمال في أوائل القرن ١٩... اي ان هؤلاء يتعرضون للمظالم الفظيعة التي سينجم عنها لا محالة تحريض مخزونهم الثوري بدون توافر مسارب لتنفيس غضبهم أو مكياجات لتجميل ظروفهم أو حقوق لتبريد جذوتهم . فهم لا يعيشون في اغتراب فقط بل وقمع وقهر يومي ايضا.

خامسا:

في غنى عن البيان ان القوى اليسارية عالميا، كممثل سياسي للطبقة العاملة، هي القوى التي ترفع رايات النضال والتقدم وتسعى للمستقبل الذي يتجاوز المرحلة التي يعيش فيها المجتمع البشري، اي انها لا تكتفي بما هو قائم كما انها لا تكتفي باصلاح ما هو قائم بل ترمي الى التغيير الجذري النوعي ايضا.

ويبدو ان هذه القوى ملزمة بمواكبة تطورات الحياة واستيعاب المتغيرات كتحليل لا مناص منه لاستخلاص برنامج التغيير بما في ذلك التعبير عن مصالح

وأهداف أوسع القوى الشعبية من الشغيلة والكادحين سواء الذين يكدحون بعضلاتهم أو يكدحون بأذهانهم، اي ذوي الياقات الزرقاء وذوي الياقات البيضاء، كما الفئات الطلابية والأقليات والعاطلين عن العمل والفلاحين..الخ -- اي كل المستغلين بدون استثناء. وينبغي ان يكون ماثلا في الذهن الخصائص القومية لكل أمة وشعب كما خصائص كل طبقة، فالطبقة العاملة هي الوحيدة التي تملك اسلوب انتاج ،كما ايديولوجية نظرية وقدرة على تأسيس تشكيلة اقتصادية – اجتماعية كما حال الرأسمالية، خلافا للفلاحين أو البرجوازية الصغيرة والفئات المتوسطة عموما. وعلى اليسار ان لا يصاب بالجزع جراء الهزائم المؤقتة، فالرأسمالية ليست خالدة ونظامها لا يحل مشاكل البشرية وعلى أية حال سوف نفرد للطبقات والتركيب الاجتماعي/للشعب الفلسطيني حديث خاص.

وشكرا.

جواب على سؤال:-

ما هو مستقبل الثورة المعاصرة؟

بعد التحية للجميع، أريد التعريج بعجالة، كأشارة وحسب على الجريمة الصهيونية التي حدثت في الحرم الأبراهيمي الشريف بالأمس، في تقديري أن المذبحة تعكس حقيقة الصراع ونظرة الغزاة المستوطنين لشعبنا، فالصراع يدور بين شعب يطالب بحريته وحقوقه واستقلاله، وبين إحتلال إجلائي عنصري لا يرانا الا غرباء وسقاة ورعاة، وما حدث ليس منفردا ولا صدفة، بل أحد التجليات وحلقة في سلسلة طويلة. وبكلمة واحدة لا تسوية ولا حل في ظل الاحتلال والإستيطان.

والسؤال: ***هل سيكون للمجزرة مفاعيل؟***

جوابي، أجل فهي قد أطلقت سهما في مصداقية التسوية الجارية، ولكنني أعترف أن اجتهادي يقودني الى مخالفة التقديرات الكبيرة التي نتهامس بها

هنا وهناك عن هبة شعبية محتملة تجدد الانتفاضة وتحصر النهج اليميني للقيادة الرسمية وتشل المسار التفاوضي.

الشيء القاطع أن للمذبحة مفاعيل، أما حدودها فهذا ما ينبغي محاولة مقاربته، وبالتالي استثماره.

معروف أن الانقسام السياسي الذي عصف بشعبنا والمنظمة منذ مديد قد شتت طاقات شعبنا وقواه المناضلة التي أصبح خط سيرها في اتجاهين متضاديين صرفت فيها طاقات هائلة في المعركة الداخلية، فضلا عن البلبلة والانتظارية اللتين تفشيتا في أوساط شعبية واسعة وخلافا لحرب بيروت عام ١٩٨٢ حينما تجسدت الوحدة السياسية والعسكرية والتذخيرية أو في سنوات الغليان الإنتفاضي الأولى حيثما تجلت الوحدة النضالية والتكاتف الاجتماعي الأمر الذي جعل قلعة الثورة والشعب حصينة وصلبة في المعركتين، واننا اليوم على حال مغاير : انقسام – تفتت – خفوت في الوتيرة – مؤامرة سياسية قطعت شوطا في خطواتها وترتيباتها – إنكفاء قطاعات من العنصر الإنتفاضي الذي كان نشطا على همومه الخاصة متساءلا عن جدوى تضحياته طالما أن القيادة تغطس في حل تصفوي، أما الواقع العربي والدولي فحدث ولا حرج .. الخ.

وبمعنى آخر أن ردة الفعل الجماهيري الصاخبة محصورة ضمن إطار حديدي هو إطار التسوية، بل إن الإتجاه البرجوازي اليميني سوف يضغط لتنفيس الغضب الشعبي بالتجاوب الجزئي معه كما حصل أيام الإبعاد الى مرج الزهور حيثما علق مشاركته في المفاوضات مؤقتا، وفي ذات الوقت عدم التردد في عمل كل شيء ممكن للحد من إندفاعة الجماهير حينما تسعى لتجاوز سقفه السياسي وتدعو للإنسحاب من المجرى التسووي. ويمكن تصور انخراط قاعدة وكادرات كافة القوى بما فيها الإتجاهات التسووية في الغضبة الشعبية حتى ولو جاءت تعليمات من تونس تقول بغير ذلك وهذا يمكن أن تقوم القيادة البيروقراطية بتجييره لتحسين مطالبها السياسية غير أن الحكومة الإسرائيلية لن تعبأ بذلك كثيرا كونها تستند الى إتفاق اوسلو الموثق والموقع عليه من قبل عرفات ورابين. ولو أردت استنتاج مقطع نظري لقلت، ان جميع قوى التسوية ستكون مشغولة بكيفية إطفاء الحريق وحسب، أما القوى الثورية فسوف تكون مشغولة بكيفية تأجيج الحريق لكيما يأكل المزيد من مداميك المؤامرة السياسية. وميزان القوى لا يسمح للفريق الثاني بنسف التسوية في ضربة واحدة سواء اسمها الغضبة الحالية أو أية ضربة أخرى. والإستثمار الثوري يكون بالإنغماس في الحدث والفعل

الجماهيري للتهييج والقيادة والإستقطاب وتعرية المؤامرة وفضح الوجه البشع للمستوطنين والاحتلال عموما، كما لإضعاف قاعدة تأييد القيادة اليمينية التي تتآكل بتدرج كما تشير الإستطلاعات. أي لا خيار سوى خيار المشاركة الفعلية الواسعة وحتى النهاية أما النتائج فيمكن تشخيصها في سياق الفعل، أي *دعونا نغوص ثم نرى* كما قال لينين ذات مرة. والنتائج لا يمكن رسمها مسبقا لان السياسة جبر لا حساب ويواجهك عدو أو أعداء آخرين يخططون ويرمون بثقلهم ضد رغباتك. ورغم مأساوية المذبحة غير أن إسقاطاتها يمكن توظيفها بما يخدم الخط المتصادم مع الاحتلال.

وأخيرا، من جديد يتأكد أن العيب ليس في شعبنا وانما في قيادته، فالشعب لا تنضب طاقاته أبدا.

والآن أعود للسؤال، وأفرش المداخلة بالقول: في البداية تحضرني كلمة ومثل، أما الكلمة أو المقولة فمفادها أن الفلسفة تكمن في إثارة السؤال الصحيح ومحاولة الإجابة عليه، وتلمسون هذا المنهج لدى أوساط واسعة من الأكاديميين والسياسيين فهم ينتقون السؤال الملح المحدد لتكون إجابتهم عليه معالجة للقضية الأهم. وبالتالي علينا أن نفتش عن الأسئلة الهامة في كل لحظة، وعلى الأغلب أن سؤال هذا اليوم لم يأت صدفة أو ترفا بل لقد أوجبته الظروف التي تمر بها الثورة واليسار، ولا أذكر ان سنوات السبعينات قد أثارت مثل هذا السؤال حتى بعد مذابح أيلول ١٩٧٠ أو الحرب الأهلية اللبنانية عامي ١٩٧٥ و ١٩٧٦ . أما المثل فهو روسي الأصل، مؤداه أن الفرق بين الذكي والحكيم، هو أن الأول يقوم بتصويب أخطائه فورا وبسرعة، أما الحكيم فهو يتفادى الوقوع في الخطأ. وبداهة نستطيع أن نتصور أن غليظ الدماغ كثير الأخطاء بدون أن يبادر لتصليحها، وبالتالي علينا الإجابة عن السؤال وفي ذهننا هذا المثل.

لقد استعرضنا في وقت سابق سلسلة من أهم الثورات العالمية وقارنا بعضها ببعض، وصولا الى الثورة الفلسطينية حيثما استعرضنا خصائصها وتركيبة مجتمعنا الطبقية وبالتالي الاتجاهات السياسية وهنا سوف نحصر حديثنا بالآتي:-

ثمة ثلاثة مشروعات فكرية سياسية في أوساط شعبنا:

١- **المشروع القومي البرجوازي**

وموزع على تيارين رئيسيين الأول الذي تتزعمه القيادة البرجوازية اليمينية التابعة التي ارتهنت للفلك الامبريالي، وهي برجوازية معاصرة

بقدر أو بآخر وكانت حتى الأمس القريب معادية للإحتلال والأمبريالية. والتيار الثاني تمثله البرجوازية القومية التي لم تنفك معادية للإمبريالية والإحتلال وهي تشمل تيارا غير مهيكل كما أطرا كفتح الانتفاضة والقيادة العامة والصاعقة ... الخ.

٢- **المشروع الوطني – الديموقراطي**

ويتكون من الفئات اليسارية المنحازة لجماهير الشغيلة من عمال وفلاحين ومثقفين وطلبة، وهي لا تخفي عدائها للإمبريالية والإحتلال والإستغلال الرأسمالي مثلما تدأب في العمل على دمقرطة المجتمع الفلسطيني. وأهم أركانها الجبهتين الشعبية والديمقراطية مثلما يتقاطع معهما على نطاق واسع وأقل إتساعا أطراف يسارية أو نصف يسارية أخرى.

٣- **المشروع البرجوازي المحافظ الغيبي**

الذي تمثله الإتجاهات السياسية الإسلامية وهي معادية للإمبريالية والاحتلال في المرحلة الراهنة وبتفاوت. وهي أيضا معادية للديمقراطية والعقل حينما يتناقض مع المنطق الغيبي بكل ما يعنيه هذا العقل من منجزات هائلة. والثورة المعاصرة التي يناهز عمرها ربع قرن ساهمت فيها الفصائل بأدوار متفاوته وعلى فترات متفاوتة أيضا وطورها الأول على امتداد السنوات الاولى حتى أوائل السبعينات كان هدفه تكريس الهوية الوطنية الفلسطينية، وهو طور فريد في تاريخ الثورات، ذلك أن شعبنا تعرض للتبديد والأردنة وكان ينبغي توثيق نسيجه الوطني في أربع جنبات العالم سيما في تجمعاته الأساسية، وهذا الطور ما برحت تعيشه جماهيرنا الفلسطينية داخل م/٤٨.

والطور الثاني كان تكريس هويته الكفاحية كشعب مقاتل في سبيل الحرية وبالتالي الدفاع عن وجوده الفدائي الذي تعرض لمذابح ومؤامرات شتى، غير أن المسار التصاعدي للنضال المعاصر تواصل مما أجبر مؤتمر القمة العربية على الإعتراف بـ م.ت.ف كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني عام ١٩٧٤ وتمثيل المنظمة كعضو مراقب في الأمم المتحدة، وقبلئذ اعترف الإتحاد السوفيتي السابق والبلدان الإشتراكية بالمنظمة وأمدوها بمساعدات عسكرية ودعم سياسي ومنح تعليمية وعلاجية ... الخ.

ولكيما يتمنهج حديثي سوف أتعرض للثورة من خلال خمسة زوايا [ركيزة الداخل والخارج + الكفاح المسلح واشكال النضال + السري والعلني + الوطني والقومي والاممي + التنمية، سيما التعليمية].

أولا / ركيزتي الداخل والخارج:- معلوم أن ركيزة الخارج كانت هي الأساس حتى سنوات الانتفاضة. فقبل عام ١٩٦٧ كان المقصود بالداخل فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨، بينما فصائل الحركة الوطنية نشأت في الخمسينات في الضفة الغربية وقطاع غزة، وهذا حال م.ت.ف في أواسط الستينات داخل مناطق ١٩٤٨ فقط جرى تصفيتها وما عداها كان يعمل ضمن إطار الحزب الشيوعي الإسرائيلي.

وبعد هزيمة حزيران عام ١٩٦٧ انطلقت الثورة المعاصرة من المخيمات الفلسطينية في الاردن والتجمعات الفلسطينية في لبنان وسوريا والشتات بوجه عام، أي أن الخارج كان هو الركيزة الأولى والأساسية رغم الدور الهام الذي إضطلع به شعبنا داخل الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧. وكانت أدبيات المقاومة تشير الى أن الداخل هو الساحة الأساسية غير أن هذا بقي برنامجيا، أما في الواقع فالبندقية والقيادات والفعل الأساسي كلها كانت في الخارج كأمر غير مرغوب فيه غير أن عوامل عدة قررته. أما الداخل وعلى امتداد عقدين من النضال والتضحيات لم يفلح عموما في بناء قيادات مقررة وكفؤة، علاوة على أن الأمتدادات والأدوات التنظيمية كانت تتعرض لنهش متواصل وصل في كثير من الأحيان حد الضربات التصفوية. وأخيرا إندلعت الانتفاضة المجيدة ونقلت مركز ثقل الثورة للداخل حيث الفعل الثوري فيما لعبت البندقية المحاصرة في لبنان وركيزة الخارج عموما دورا اسناديا، وقد التقطت بعض الفصائل هذه الحقيقة وأعادت بناء صيغتها القيادية بمقتضاها. وحاليا تواجه ركيزة الخارج وتحديدا البندقية ظروفا مجافية تهدد وجودها. فلا وجود مقاتل في الأردن ومعسكرات تدريب محدودة في سوريا -- وفي كليهما ممنوع العمل العسكري الحدودي، بينما في لبنان إنكفأت البندقية داخل المخيمات بعد مذابح عديدة ومصادرة الكثير من سلاحها الثقيل، فيما إنطلاقها من الجنوب اللبناني تنتصب في وجهه عقبات وحواجز عديدة تجعله أقرب للمستحيل في اللحظة الراهنة ووجود نحو ١٠ آلاف مقاتل غدا كما، غير فاعل.

أما انتفاضة الداخل فهي تخبو بتسارع، أو بصورة أدق لم يتبق منها الا بعض المظاهر الجماهيرية والفعل النخبوي العنيف، رغم تصاعد وتيرتها أحيانا ويهددها ليس قمع الاحتلال فقط بل والمجرى التصفوي أيضا حيثما انقسم الشعب على نفسه وخرجت قوى من أرض الفعل الانتفاضي وتنامي المزاج الإنتظاري والفردي. وشعبنا دفعته الظروف لتجريب وجود الركيزة الأساسية في الخارج مع فعل محدود في الداخل حينا وانطلاق ركيزة الداخل وفعل مساعد محدود من الخارج، غير أنه لم ينتصر، وعلى الأرجح أنه بحاجة لتجميع قواه والضرب بقبضتي ركيزتي الداخل والخارج معا وفي نفس الوقت، بل وبأسناد عربي معين، حينها على الأرجح أن ينتصر، وهذا يحتاج الى اشتراطات غير متوفرة الآن ولكن لعلها تتوافر مستقبلا. فنضالنا مديد والمؤامرة السياسية الحالية لن تحيده عن مساره وبدحرها إنما نشق طريق الانتصار.
وينبغي الإعتراف ان الثورة تعيش امتحانا عسيرا هذه الأيام.

ثانيا / العمل الفدائي وأشكال النضال: الذي طغى على التفكير السياسي الفلسطيني لمدة عقد ويزيد من إنطلاق الثورة ان الكيان الصهيوني فرض نفسه بالقوة وأن الاحتلال عسكري وإستيطاني، وبالتالي لا رد على العنف إلا بالعنف، وقد إنتشرت القواعد الفدائية في الأردن، كما تشكلت المجموعات الفدائية في الداخل وفي الاردن ما قبل مجازر أيلول عام ١٩٧٠ . وبعدئذ في لبنان كانت المخيمات أشبه بقواعد ذاتية وتنامت الفصائل الفدائية وإنتقلت الى مرحلة الجيش الشعبي حيث الجنود النظاميين والمليشيات بل وفي لحظات الحرب كان المخيم برمته يتحول لخندق قتال. وبالطبع كان هناك منظمات شعبية طلابية ونسوية وعمالية مثقفين .. الخ. غير أن طابع نشاطها كان سياسيا أولا وثانيا، وفي أواخر السبعينات توالدت في الأراضي المحتلة المنظمات الديمقراطية المحيطة بفصائل المقاومة وتكرست الكتل الطلابية والنسوية والنقابية ..الخ.

غير أن المسألة النقابية – الحياتية للإطر الشعبية والديمقراطية التي تعبر فيها عن هموم الفئات الاجتماعية المختلفة بقيت باهتة، وهي رغم تحسنها في سنوات الثمانينات غير أنها إصطبغت أولا وثانيا بالصبغة السياسية، بل وجاءت الإنتفاضة لتكريس نفس الاتجاه.

ولئن تغلب العمل الفدائي والكفاح المسلح بما نتج عن ذلك من اعداد وتدريب وتربية، غير أنه لم يكن الوحيد، اذ إندلعت تظاهرات واضرابات واعتصامات بين الوقت والآخر سيما داخل الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧، ونشط اعلام الثورة وعلاقاتها السياسية والديبلوماسية. أما المنعطف الذي دفع للأمام الفعل الجماهيري فقد كان زمن الانتفاضة التي لم تكن عصيانا مسلحا رغم ما اكتنفها من عنف وسلاح ناري. فهي في مظهرها الرئيسي نضال شعبي ديمقراطي. وبأختصار لقد جمعت الثورة مختلف أشكال النضال وقد طغى الكفاح المسلح في فترة ليطغي النضال الشعبي في فترة اخرى وبين هذه وتلك وبين ظهرانيها كان دائما يوجد الشكل بل الأشكال الاخرى.

وقد لوحظ ضعف الأعداد النظري والثقافي في معظم سنوات الثورة المعاصرة، الى درجة الإستهانة بهذا الجانب من قبل غالبية قيادات وكادرات وقواعد الثورة، الأمر الذي أدى الى عجز نظري في أنتاج الفكر ترك بصماته على كل أوجه العمل.

وأريد أن أختم هذه النقطة بالقول، ان نشوء قاعدة جماهيرية منظمة في الاراضي المحتلة عام ١٩٦٧ كان له دور في ضمان تواصل اللحمة الانتفاضية، مثلما أن الإنتفاضة انتجت بدورها أشكالا تنظيمية جماهيرية جديدة كلجان المقاومة الشعبية والضاربة ولجان الاحياء و.. ..الخ. وما أوجب تغليب شكل نضالي على آخر، وما جدد الشكل الرئيسي هو طبيعة الإحتلال وطبيعة التناقض معه، مثلما ان التمايز الطبقي في مجتمعنا الفلسطيني لم يكن بالمستوى الذي يؤهله لفرض برنامجه في القضية النقابية. ان غياب استراتيجية نقابية كاد أن يحصر إرتباط الجماهير بالثورة في الإطار السياسي والكفاحي كما في الاردن بعد عام ١٩٧٠ وأزمة العمل العسكري في الداخل وهذا مهد لنمو التيار السلفي والديني، فالناس ينزعون للتصوف والبحث عن منقذ سماوي في حالة فشل أو ضعف المنقذ الأرضي. ولا تفوتني الإشارة الى ان الاتجاه الشيوعي الكلاسيكي الذي لم ينخرط في الثورة المسلحة فيما عدا تجربته اليتيمة القصيرة أيام قوات الأنصار، قد بنى كل استراتيجيته على التوعية الجماهيرية والقضية النقابية، ولكنه لم يستطيع ملاء الفراغ بالنظر لهامشية وزنه.

ثالثا / العمل السري والعلني : يمكن بيسر ملاحظة الخلل في ترجمة قانون الجمع بين العمل السري والعلني، هذا القانون اللينيني الذي برهنت التجارب على صوابيته وقد تمثل هذا الخلل في الإنجرار للعلانية في الاردن وكذا في لبنان بعدئذ، كما في سوريا اليوم، حتى ان الأرض المحتلة قد غطست في العلانية منذ أواخر السبعينات، صحيح أنه تم مراعاة السرية في الاردن منذ أواسط السبعينات حتى الانفراجة الديمقراطية التي أتاحها الملك بعد هبة نيسان ١٩٨٩، ولكن كان ذلك بعد ضرب الثورة وتقريم أشلائها. صحيح أن الأرض المحتلة كانت متمايزة على صعيد السرية، سيما من قبل الجبهة الشعبية، غير أن الصورة كمحصلة عامة لم تكن ايجابية الى درجة أنه من الصعب الحفاظ على وجود فاعل لفصائل الثورة إلا اذا سمحت سياسة البلدان العربية المضيفة بذلك، مثلما ان امتحان العمل السري هو في غاية الصعوبة في فترة الحكم الذاتي المقبلة.

وبصراحة أكثر ان طغيان العلنية في الاردن لم يجد تفاديا له في لبنان وسوريا في العقدين الأخيرين، وفي زمن التقلبات السياسية والمرحلة الجديدة بات تدارك هذا الخلل مسألة رئيسية كي يتاح لشعبنا في الشتات المشاركة الحقيقية في النضال.

ولنتذكر تجربة الحزب الشيوعي المحلي، فهو قد تفنن في العمل السري حتى أواسط السبعينات، ولكنه غرق بعد ذلك لدرجة ان المخابرات اقتحمت المكان الذي انعقد فيه مؤتمره الوطني وصورت كل شيء وغادرت، ولنتذكر الضربات الإعتقالية الواسعة للفصائل المختلفة وعدم صمود كادراتها في أقبية التحقيق، ان هذا أو ذلك فيه عبرة لا يجب تجاهلها. وأساليب المخابرات وطرائق العمل، سيما ونحن مقبلون على مرحلة جديدة، لن تلاحق الحركة الثورية خبرة المخابرات الاسرائيلية فقط، بل وأمن وأجهزة الحكم الذاتي ايضا وجلي لكم أن اي خطأ له ثمن مدفوع، وهذا يوجب معالجة الأخطاء وتفاديها ما أمكن، فعلى هذا النحو تتصرف الحركات الثورية، مع ثقتي أن التاريخ لا يخلق مشكلات الا وحلولها معها حتى ولو تأخرت.

رابعا / العلاقات العربية والعالمية: كانت توصف القضية الوطنية الفلسطينية في الخمسينات والستينات بأنها القضية القومية الأولى، وهذا

التوصيف كان مزروعا في الوعي الشعبي العربي، وغداة عام ١٩٦٧ وإتساع النضال الفلسطيني تشكلت لجان تضامنية عربية شاركت فيها فعاليات حزبية وشعبية عديدة كانت تقوم بدور تعبوي وتجنيد طاقات وتبرعات مالية .. الخ. بل كان ملحوظا التحاق أعداد من الشباب العربي بالقواعد الفدائية واستشهاد الكثير منهم، وهذا الزخم تواصل حتى أوآخر السبعينات، ولا يفوتني ذكر أسم كمال جنبلاط الذي بأستشهاده خسرت الثورة الفلسطينية صديقا كبيرا.

وعلاقات الثورة كانت على مستويين، شعبي ورسمي رغم التفاوت بين الفصائل اليسارية واليمينية وحصر الفصائل اليسارية علاقاتها الرسمية بالنظم البرجوازية الوطنية وفق قانون التحالف والصراع. غير انه لوحظ في العقد ونصف الأخيرين تركيز القيادة البرجوازية المهيمنة على م.ت.ف علاقاتها مع النظم الرسمية سيما النفطية، وكان لخطأ تجاهل دعم حركة وطنية اردنية ما قبل أيلول عام ١٩٧٠ والهيمنة على الحركة الوطنية اللبنانية منذئذ حتى حرب بيروت عام ١٩٨٢ وما صاحب مسيرة البندقية من تجاوزات، أثرا كبيرا في إستعداء قطاعات واسعة على الثورة الى درجة ان التضامن مع المخيمات المحاصرة من قبل حركة أمل المذهبية كان هامشيا، بل وهجمة نظام الهراوي على البندقية لتجريدها من سلاحها الثقيل لم يستنكرها أحد. صحيح ان إندلاع الغليان الانتفاضي قد حرك العاطفة الشعبية العربية، الشيء الذي تجسد في حملات التضامن الأعلامي والمالي، غير أن الطعونات المالية والإنهيار السياسي للقيادة المتنفذة قد أعطيا مبررا لتوقف هذه الحملات.

طبعا لا يمكن فصل ذلك عن تقهقر الهم القومي والانكفاء على الشأن القطري، كموجة تكتسح الوعي العربي في هذه الحقبة. ولكن أيا كان الحال ان الفصائل اليسارية الفلسطينية مدعوة لتوثيق علاقتها مع الفصائل الشعبية العربية مهما كان وزنها، فهذه الفصائل هي في التحليل الأخير أداة التغيير الثوري سواء كان القائم منها أو الذي يمكن ان ينبثق مستقبلا.

طبعا لقد لاحظنا التبدلات العنيفة في سياسة الأنظمة البرجوازية القومية، فمرة تتعاطف سوريا مع الحركتين الوطنيتين الفلسطينية واللبنانية، ومرة تذبحها، ومرة تعادي أمريكا ومرة ترسل قوة رمزية تحت العلم الأمريكي لضرب العراق، وصدام دعم جبهة القوى الرافضة

أيام مؤتمر جنيف ولكن ليطردها لاحقا، والقذافي إحتضن الثورة سنوات عديدة ولكنه عاقبها ماليا إبان إقتتال فتح – فتح وجدد مساعدته سنوات اخرى ليخففها ثانية في السنوات الاخيرة، هذا ناهيكم عن ارتداد النظام المصري وسير معظم الانظمة العربية في الفلك الامريكي والنظام الاقليمي الامريكي – الاسرائيلي. أما بالنسبة للعلاقات الدولية، فيمكن القول أن الثورة كانت ناجحة على هذا الصعيد، فقد نسجت صداقات واسعة سوءا على أرضية مبدئية كونها جزء من معسكر الثورة العالمي أو لإعتبارات نفعية براغماتية من قبل القيادة اليمينية، وبداهة ان الاعتبار البراغماتي قد دفع هذه القيادة لاحقا للتخلي عن خندقها الثوري والالتحاق بركب الامبريالية.

وقد لعبت فصائل اليسار المقاتل دورا واضحا في تعزيز علاقة م.ت.ف مع الاتحاد السوفيتي والبلدان الإشتراكية وكان يصر على تثبيت بند برنامجي في مقررات المجالس الوطنية يدعو لمثل هذه العلاقة. وعموما بعد أن اصطحب عبد الناصر رئيس المنظمة عرفات في أوآخر ١٩٦٩ الى موسكو زال الجليد والتحريضات المغرضة على الثورة وانفتحت السبل لدعم واسع على مختلف الصعد. مثلما أن فصائل الثورة أقامت شبكة متشعبة من العلاقات مع حركات وقوى يسارية وديمقراطية ومؤسسات انسانية وجماعات بيئية .. وهكذا كان حالها مع بلدان عدم الإنحياز ايضا.

والصورة بمجملها إيجابية هنا غير أن ثلاثة ملاحظات جديرة بالذكر:

الأولى: تتعلق بالإنطباع العكسي الذي تولد عن الثورة نتيجة مسلكية مكاتب وسفارات المنظمة في البلدان الأجنبية، أو كما وضعها أحمد بن بيلا -- *لقد أساءت للثورة وضربت مثلا في الفساد*

الثانية: ان عرفات وأن كانت تاكتيكاته بعد حرب اكتوبر نقطة وسيطة ترضي الأنظمة العربية أو غالبيتها والصديق السوفيتي، غير أنه أخذ يقف على يمين الحلفاء بعد مشروع ريغن عام ١٩٨٣ حينما قال " لعم" أي نعم ولا معا مبتعدا عن مبادرة بريجنييف، وشروعه بإقامة صلات علنية مع الأمريكان.

الثالثة : أنه ما ان إنهار الاتحاد السوفيتي وتلقى صدام ضربته حتى أخذ يروج ان "الدور جاي" على كاسترو والقذافي وفيتنام كما قال في أحد اللقاءات القيادية، وبالتالي بدل مساره السياسي وإختار التبعية للإرادة الامريكية على غرار النظام المصري الذي أسهم في فك عزلته واعادته الى الحظيرة العربية، بل واليوم كما تسمعون في الأخبار فقد باتت القاهرة قبلة سياسية، أبو عمار يلجأ لها كلما وجد نفسه بلا حول ولا قوة أمام ضغط الأمريكان والمفاوض الاسرائيلي الصلف.

خامسا / التنمية، سيما التعليمية: ولا يستهدف التعريج هنا التطرق الى غياب استراتيجية تنموية، خصوصا اقتصادية، وتبديد ما يسمى أموال الصمود على المحاسيب والمجالات الاستهلاكية، الشيء الذي إصطدمنا بنتائجه الكابحة والمعطلة في زمن الانتفاضة حينما واجهنا خطورة ارتباط ثلث مداخلينا القومية بالعمل في المشاريع الاسرائيلية، بل ليصبح هذا العمل سلاحا ضدنا، وانما نكتفي بالقول ان شعبنا المشرد الذي اجتث من أرضه تولع بالتعليم حتى يمكن القول أنه يحمل نسبة أعلى من الشهادات الجامعية قياسا بالمحيط العربي، وتفسير ذلك ان التعليم جاء ردا على الجهل الذي اعتبر أحد اسباب نكبة شعبنا عام ١٩٤٨، كما أنه وسيلة اقتصادية تكفل وظيفة مستقرة ومحترمة فضلا عما تعنيه الشهادة من وجاهة اجتماعية، الى درجة ان أزمة البطالة المتزايدة في صفوف الجامعيين في الضفة الغربية والقطاع والتي تربو على عشرات الآف الخريجين لم تغير من إقبال شبابنا وشاباتنا على التعليم الجامعي، بل ولم تنفك الجامعات والمعاهد تزداد حيثما يدرس فيها نحو ١٧ ألف طالب علاوة على ما يناهز ٢٢ ألفا يتقدمون لإمتحان الثانوية العامة سنويا، ومعروف أن الاتحاد السوفيتي السابق كان يقدم مئات المنح الجامعية للثورة ومئات مماثلة في البلدان الاشتراكية الاخرى، ليجتمع أكثر من ثلاثة الآف طالب فلسطيني يدرسون في ذات الوقت في هذه البلدان، كمنح مجانية، وأقل من هذا الرقم في أمريكا وأوروبا الغربية على نفقتهم الخاصة.

وبداهة أن التعليم يرفع المستوى الثقافي وهذا يستدعي شعورا بالكرامة الوطنية، الأمر الذي جعل العلاقة جدلية بين الثورة والتعليم أذ

نلمس بيسر الدور النشط للطلبة والمشاركة الرئيسية للأنتلجنسيا في الثورة بل ان غالبية القيادات من المثقفين، ناهيكم ان إتساع نطاق التعليم في الأرياف الفلسطينية في العقدين الآخرين قد ظهر تأثيره الملموس في المشاركة العارمة في العملية الانتفاضية. وكان يمكن أن يؤدي التعليم دور الرافعة للإقتصاد الوطني لولا اجراءات الاحتلال من جهة وتهريب رأس المال للخارج من جهة اخرى.

والآن نصل لعنوان المداخلة فما هو مستقبل الثورة واليسار؟ تاركا لكم فرصة التفاعل وإبداء الأراء .. وبعدكم اختتم مداخلتي ...

أستطيع اجمال مداخلاتكم بالنقاط التالية:-

١- ايمانكم بحتمية النصر
٢- ضرورة الحفاظ على الذات الوطنية والنظر للداخل كركيزة أولى
٣- إنتقاد قيادة م.ت.ف والفصائل الديمقراطية عموما التي تعاطت مع الداخل كتابع وليس شريكا في الهيئات القيادية والقرار المركزي.
٤- الدعوة لتعزيز الديمقراطية الداخلية كآلية للخروج من الأزمة، كما إنعاش الانتفاضة واعتبار الحلقة الكفاحية حلقة مركزية.
٥- الحل هو العمل السري الذي يواكب المتغيرات الجديدة ونسج علاقات مع الفصائل الثورية العربية.

والآن استكمل حديثي بالاستناد لما ذكرتم:

أن تعداد شعبنا يناهز ٦ مليون، منهم أقل من ٣ مليون في الداخل وقضيتنا هي عادلة بصورة استثنائية ذلك أننا نناضل في سبيل الحرية والاستقلال وهذا لا يتحقق الا بطرد الاحتلال الغاصب بل ان قرارات الشرعية الدولية تؤمن لنا حق العودة والدولة وتقرير المصير.

وشعبنا على امتداد ربع قرن ويزيد راكم قيادات وكادرات وقاعدة منظمة مثلما راكم خبر ووعي وتجارب وبرامج على كل الأصعدة واسقط وتجاوز مؤامرات عديدة واكتسب روحا كفاحية عالية .. وهذا كله مستحيل شطبه بجرة

قلم. لا شك ان شعبنا يواجه مصاعب كثيرة، فالميزان مختل في هذه المرحلة على نحو فظيع لجهة العدو، والعامل الخارجي معاكس لنا تماما سيما بعد انهيار الاتحاد السوفيتي السابق وهيمنة الأمبريالية وخاصة الامريكية وهي لا تكتفي بالدعم التكنولوجي والعسكري والمالي والبشري لاسرائيل بل وانها تمرر مشروعها السياسي التصفوي ايضا وتوعز للعواصم العربية التابعة لها للانضباط لهذا الحل، الذي إنخرطت فيه عمليا أيضا القيادة الفلسطينية اليمينية وبذلك تكون القيادة البرجوازية قد استسلمت وتساوقت مع مشروع معادي، أي ان المنعطف الحالي هو الأشد خطورة في تاريخ ثورتنا، وبالتالي اننا نعيش وسوف نعيش مرحلة إنحسار، وهذه المرحلة هي مرحلة نضال تحرري أولا وليست نضالا ديمقراطيا كما تمت الإشارة، والبندقية محاصرة في لبنان وتواجه خطر التقزيم ليس بفعل تطورات سياسية مختلة فقط وانما أيضا بفعل أزمة مالية خانقة تعيشها الفصائل الثورية. والانتفاضة لم يتبقى منها الا بعض المظاهر رغم الاحتقان الداخلي .. الخ وفريق فلسطيني غطس في المشروع التصفوي، وهذا المشروع تدور عجلته ويتقدم، وأية استعصاءات يتم تسويتها في إطار تواصله. وأختصارا ان المشروع الوطني التحرري في حالة دفاع عن النفس. فهل سيؤدي ذلك الى هزيمته وانتصار المشروع المعادي؟ انني اشاطركم الرأي حيال الحتمية، فالنصر في التحليل الأخير حليف الشعوب المناضلة، وهذا الايمان سلاح هام غير أنه لا يكفي وانما مطلوب ايضا معطيات مادية، وأهمها من وجهة نظري هو ما راكمته الثورة المعاصرة، ومطلوب ايضا برنامج يقرأ لوحة التناقضات ويعرف اتجاهات الحركة بحيث تدفع قوى هذا البرنامج ثقلها في إتجاه يخدم أهدافها وتترسم تاكتيكات تلائم كل لحظة تكفل لها القدرة على الوجود والقدرة على الفعل، فمثلا ان شعار الحماية الدولية على قاعدة الهدف الوطني بالعودة والدولة وتقرير المصير هو خط ضروري الآن.

وبصراحة لا استطيع تجاهل الصحوة الوطنية لشعبنا وتوق هذا الشعب للحرية والاستقلال، فهو لا يريد مستوطنات على أرضه ولا جيش احتلال ومطلب الدولة هو مطلب ملح وحيوي وهذا يشمل بداهة القدس العربية بما تعنية في ضميرنا الوطني والتراثي، ناهيكم عن عودة ٣ مليون فلسطيني أو أكثر تعيش غالبيتهم ظروفا قاسية. فأجيال ناضلت وأجيال سوف تناضل من أجل الانتصار، وان استسلام جيل أو قيادات لا يعني إستسلام الشعب، بل ستنبثق من أرحام هذا الشعب قوى وطاقات جديدة تواصل حمل الرايات في كل الازمان والظروف. إذ ان البنية الذهنية والنفسية لشعبنا سيما الجيل الشبابي، تأبى الرضوخ والاستكانة لإملاءات امريكا والاحتلال، وهذا بات مؤكدا ونلمسه في اللحظة العابرة الحالية،

أي حالة التفجر والصدام بعد مذبحة الحرم الابراهيمي وحملة التضامن الواسعة في الخارج، ونضالنا كيما ينتصر لا تكفيه الحتمية وتصميم قطاعات سياسية وجماهيرية على مواصلة الكفاح، كما اتباع برنامج وتاكتيك صائبين، وانما أيضا مطلوب توحيد طاقات شعبنا في الداخل والخارج كما بناء محيط عربي ودولي مؤيد، وهنا الفراغ رهيب، غير أننا نعيش زمن المتغيرات السريعة فالواقع العربي الراهن ليس أبديا، وهذا حال العالم أيضا ومن المقطوع به أن تنشأ متغيرات لصالحنا في السنوات المقبلة، وكل من يمحص لوحة المنطقة والعالم يلحظ مثل هذه الامكانية.

لقد انتهكت اسرائيل كرامة الأمة العربية وهي تسعى للعب دور إقليمي مسيطر اقتصاديا وتكنولوجيا وثقافيا وتقف بالمرصاد أمام ولادة أي عنصر من عناصر القوة العربية، وهذا حال الامبريالية التي تنهب ثروات الأمة العربية سيما النفطية وتدعم أنظمة تابعة عاجزة عن توحيد الأمة، الشيء الذي أعاق ان لم يكن عطل التنمية والمقرطة والحداثة.. مما جعل الأمة العربية حبلى بكل عوامل الثورة الوطنية الديمقراطية أما العامل الذاتي الشعبي فيدفعه العامل الموضوعي دفعا للتكوين والنهوض بمهامه مهما كانت مسيرته بطيئة. وعلى صعيدنا الفلسطيني لا يستطيع الفريق المفاوض الذي تتآكل قاعدته بتدرج ان يلزم الشعب الفلسطيني بالإتفاقات التي يوقع عليها. فهذه الاتفاقات يوقعها فرد أو أفراد ولا تخدم أكثر من ١٠٪ من الشعب وحدود الحل لا تلبي الحاجات الأصيلة الوطنية لشعبنا.

وعليه، فالهزائم والتراجعات لا تعني نهاية التاريخ انما هي محصلة ظروف وأضاع، وطالما ان هذه الظروف والأوضاع ليست خالدة، فيستطيع المرء أن يتوقع زوالها ونشوء مقدمات الصعود والانتصار أيضا والقوى المحركة لهذه المقدمات موجودة وسوف يلد الواقع المزيد منها لانها بمثابة ضرورة تاريخية تستجيب للحاجات الاصيلة لا مناص منها وتتوافق مع قوانين التاريخ.
واليسار الفلسطيني على علاته هو الرافعة الأكثر ثباتا، ففي الماضي، أي الربع قرن الأخير كان صمام الأمان للثورة والقوة الأشد صلابة سياسية، كما كان تيارا رئيسيا في الثورة المعاصرة خاض كل معاركها وأثبت جدارته في التجربة العملية.

أما عن أزمة اليسار فسوف نفرد لها حديثا خاصا وما أرجو أن نتقبله حقيقتين، الأولى هي إمكانية نشوء فترة جزر، والثانية هي تواصل النضال ضمن

خط تراكمي في ظروف أشد صعوبة وشهرا بعد شهر، وسنة بعد سنة تندق مسامير في نعش المرحلة الحالية، وكل ضعف يصيب المؤامرة وأطرافها انما يمهد لصعود مرحلة جديدة هي مرحلة الاستقلال الوطني الناجز. والآن علينا التسلح بالصبر والإصطبار والنفس الطويل جنبا الى جنب مع أية خطوط اخرى، ولست ممن يقولون بسقوط المؤامرة في شهور أو سنة، اذ أنني أعرف حجم المعسكر الذي يدعمها كما أسلحة سلطة الحكم الذاتي وخيارنا واضح ونسير فيه للنهاية الظافرة.

وهنا أصل لنهاية حديثي لامسا اهتمامكم وتعبكم البادي على وجوهكم. وشكرا.

اليسار على حافة أزمة فما مآله

اليوم نتمم الموضوع الذي عنوناه، أو بصورة أدق أجبنا فيه على سؤال: **ما هو مستقبل الثورة المعاصرة؟**

السلام للجميع، وبالمناسبة هذه تحية إنجيلية كان يستخدمها عيسى بن مريم وحواريه في أحاديثهم ومراسلاتهم، شأن السلام عليكم، وهي تحية يهودية – عبرانية قديمة (شالوم عليخم) وترد مرارا في التوراة، بينما المجتمع المعاصر أكثر مرونه وابداع وتنوع. صباح الخير،،،
لا أعرف لماذا يحضر في ذهني قصة كلاسيكية روسية شهيرة، أي قصة [أنا كارنينا] المترجمة لعدة لغات والتي جرى تمثيلها بلغات عدة أيضا والجانب المهم إيراده هنا هو ما يلي:

صبية فاتنة الجمال تتزوج من رجل قانون ارستقراطي، ذو نفوذ في زمن القيصرية، وقد أنجبت طفلا منه. وفي احد الاحتفالات الراقصة تتعرف على ضابط وسيم الطلعة. وبعد تكرار اللقاءات اكتشفت أن كيوبيد، أي إله الحب عند الاغريق، هو أقوى تأثيرا من إنبهارها بالحياة الارستقراطية وترفها، وقد ظهرت مع الفارس عدة مرات في مسابقات واحتفالات، الامر الذي تسربت رائحته الى أنف زوجها الكهل، وهي لم تخف حبها للرجل الآخر، فما كان من الزوج الا أن ضغط عليها فأصابها المرض وتدهورت صحتها، غير أن الزوج منع الحبيب من زيارتها، وفي النهاية يخيرها الارستقراطي بين حياته وابنها وبين حياة الطبقات الوسطى وحبيبها، فتتردد وترتبك، ذلك أن اختيارها إبنها والترف الارستقراطي صح وخطأ، مثلما أن إنحيازها لعواطفها وللرجل الذي تحبه ينطوى على صوابية وخطأ أيضا، وهذا هو الموقف المأساوي في الأدب الذي يعكس بداهة الموقف المأساوي في الحياة .. وتحسم المسألة باتجاه حبيبها حاملة معها تمزقات الأمومة في صدرها. وتعيش تجربة الشباب مع زوجها الجديد الذي يصعد بسرعة وينتابها الشك في تحركاته وعلاقاته، فتأخذ بمضايقته الى درجة الذهاب الى معسكر الجيش الذي يقيم فيه. ولأنها تشعر أن وساوسها باتت عبئا عليه تلقي بنفسها تحت عجلات القطار.

وهذا بقدر ما ينطبق على اليسار الفلسطيني اليوم، فهو بعد السقوط السياسي للبرجوازية الفلسطينية فك تحالفه معها علما أنها أقرب اليه تاريخيا في مسائل عديدة بينما يتقاطع اليوم مع إتجاهات سياسية غيبية لا تتقبل الديمقراطية وبعيدة عنه تاريخيا فيما يشترك معها في أرضية سياسية وطنية.

لو كنا في فيتنام حيث حزب الشغيلة كان الحزب القائد في جبهة الفيتكونغ، لاختلف الامر، أما في حالتنا فاليسار قوة رئيسية وحسب، فما هي معضلاته وما هو مستقبله؟

في البدء يجدر التنويه الى أنني تفاديت إستخدام تعبير أزمة اليسار، حيث فضلت تعبير آخر هو اليسار على حافة أزمة، وهذا ليس تلاعبا بالألفاظ، بل ان التوصيف النظري يحدد إطار العرض الفكري الذي سأقدمه اليوم، وهو بداهة يلخص تشخيصي واجتهادي. وهذا أشبه بالطبيب الذي يعالج المريض، فالخطوة الاولى هي معاينته، وبناء على هذه المعاينة يحدد الدواء. وأية معاينة خاطئة تفضي تلقائيا الى دواء خاطيء. وبديهي ينبغي عدم التهرب من مواجهة المشاكل، فالهروب لا يفيد في كل شيء بل يزيد الطين بلة، ولكن ينبغي المواجهة – المعاينة بدون تهويل لا يرى سوى العيوب والمصاعب أو تهوين يقوم بتسطيح وتبسيط العيوب والمصاعب.

وكما تعلمون فالفكر اليساري نقدي، والحركات اليسارية تأتي لنقد المجتمع وإعادة بنائه، وبالتالي فالأحرى بها أن تنقد نفسها كيما تزيل التيبس والجفاف من الشجرة فلا تشيخ وتتفسخ.

والسؤال الجوهري: هل اليسار ضرورة موضوعية ثورية أم انه ظاهرة مرضية أو نافلة لا حاجة لشعبنا بها؟ فلو كانت ظاهرة مرضية أو نافلة لا قيمة لها فلا مبرر لبذل الجهد لانقاذها وترميم تشققاتها وتصليب عودها، اما ان كانت ضرورة ثورية فهنا يجدر الحرث والعمل.

كمحصلة عامة ان اليسار يحتوي على منجزات الرأسمالية. والموروث الفكري التقدمي للبشرية ويتجاوز ذلك لتحقيق عدالة تجتث الاستغلال الطبقي في إطار من الديمقراطية الجذرية وكل يسار يبني نموذجه حسب ظروفه وخصائصه القومية. إذ ليس مطلوبا مني أن أكون يساريا فرنسيا أو أرمنيا، فمهام اليساري الفرنسي في جوهرها هي الثورة على الاحتكار الرأسمالي بينما في الصين هي

بناء درجات متزايدة من الاشتراكية، أما في حالتنا فنضالنا تحرري وطني في إطار ثورة وطنية ديمقراطية عربية تفتح الطريق للتقدم الاجتماعي .. كل ذلك على قاعدة الخصائص القومية المتمايزة لكل أمة وشعب، أما القاسم المشترك الاعظم بين كل اليساريين في العالم فهو الانحياز للثورة والمضطهدين واستلهام المنهاج المادي الجدلي التاريخي في التفكير والتحليل والممارسة.

وأقصد باليسار الفلسطيني رزمة من القوى الفلسطينية وأهمها ركنين رئيسيين هما الشعبية والديمقراطية وهما الاكثر إتساعا فهل هما في وضع أزموي، أي هل بلغت التناقضات فيهما حدا، أو بينهما وبين الواقع وجديده حدا سيقود حتما الى هدمهما أو تهميشهما؟ من قبل في بعض المجتمعات شاخت الرأسمالية وتفاقمت تناقضاتها فانهارت وحلت الاشتراكية محلها، وتفاقم النظام الاستعماري العسكري لشعوب المستعمرات فأنبثقت الحركات التحررية وانتزعت استقلالها وحررت ثرواتها وارادتها بقدر أو بآخر. ومن قبل تخلفت طريقة بناء الاكواخ فحلت محلها طريقة بناء الشقق، واستبدال المحراث الروماني البدائي والحصاد بالمنجل والدرس بالخيل وحلت التراكتورات والحاصدات والدراسات .. الخ.

على هذا النحو تكون الازمة، مع ميلي لتقبل فرضية أن اليسار أكثر طليعية من سواه وحسب، أي انه قادر على تمثيل النزعات التقدمية في الشعب، بل وفرضية القدرة على حل التناقض بين القديم والجديد في داخله لصالح الجديد، أي لصالح التطور وبالتالي مواكبة قانون الحياة مع اعترافي أو بلغة أكثر دقة، تقديري أن اليسار الفلسطيني وأن لم يدخل معمعان الأزمة غير أنه ينطوي على عواملها مثلما ينطوي على عوامل التغلب عليها، أما النتائج فمرهونة بنتائج الصراع بين هذه وتلك.

ولما كنا نعلم أن الفلاسفة والاكاديميين وكبار السياسيين انما تتجلى جدارتهم أولا في طرح السؤال الاكثر إلحاحية، يلي ذلك محاولة الاجابة الصحيحة عليه، فلعلنا نتعلم من هذه الطريقة.

فهل اليسار ضروري، أي هل برنامجه ضروري، وأبعد من ذلك هل بوسع شعبنا بناء الأداة التنظيمية التي تستجيب لاستحقاقات هذا البرنامج، أي بناء الاداة اليسارية؟ وحديثي هنا حصرا.

فالبرنامج هو، بعد إجتناب المصطلحات التقنية، هو عبارات مكثفة مقتضبة تحدد المرحلة التاريخية وهدف النضال وقوى الثورة وأشكال الكفاح ..، فهو أولا حاجة أساسية ، مثل الغذاء للانسان إذ بدونه يموت ومثل العلم للمجتمع المعاصر إذ بدونه يصعب تصور إستمراره ومثل الجنس الذي بدونه لا تناسل ولا إستمرار للبشرية .. الخ. فان عبر اليسار عن حاجة أساسية أصيلة، أي ليست عارضة بل هي مرتبطة بالتكوين البنيوي للشعب، فحينذاك يكون لا مناص منه. فهل برنامج اليسار يفصح عن حاجات أساسية أصيلة لشعبنا؟

يمكن الاشارة العجولة للاركان الرئيسية التالية في برنامج الجبهتين:

أولاً : الهوية الفكرية اليسارية....

أي الاسترشاد بالمنهاج العملي المادي والجدلي وبالتالي قوانينه ومبادئه واحكامه كطريقة في التفكير والتحليل للواقع الحي وفهم تناقضاته وعلاقاته وحركته بغية تغييره تغييرا ثوريا، وإنتاج الفكر الذي يرسم طريقة العمل والآليات التي تملك مقومات التغيير وبناء المجتمع الجديد والانسان الجديد المتحرر من كل الاستغلالات. وبداهة أن إستلهام المنهاج يتمثل في صياغة البرامج والخطط والمواقف والتاكتيكات والأدوات مثلما يتمثل في الممارسة الثورية بكافة صورها وتجلياتها، فضلا عن الاستناد للتراث الثوري للصياغات النظرية الماركسية – اللينينية وتجاوب الشعوب وتراثنا التقدمي وكل ما من شأنه أن يفيد عملية التثوير على قاعدة نقدية تمحص كل شيء وتنتقد كل شيء فتغربل القمح عن الزوان بالابتعاد عن المكيانيكية، أي التقليد والنسخ الحرفي.

والانحياز الفكري للنظرية الاشتراكية، نظرية تحرير الشغيلة والمضطهدين، والعداء المستحكم للامبريالية والرأسمال الاستغلالي والفكر غير العلمي وكل ما يكرس التخلف ومصادرة العقل.. الخ.

والفكر الايديولوجي اليساري هو الذي يقرر ويحدد البرامج الاخرى على كل المستويات، سياسية او تنظيمية أو ثقافية أو أخلاقية أو تنموية.....

ففكر يساري ينتج برنامجا سياسيا مغايرا للبرنامج السياسي الذي ينتجه الفكر الرأسمالي أو الغيبي، وفكر يساري يبني تنظيما على أسس وقوانين مغايرة للأسس والقوانين التي يبنى بها تنظيما مغايرا في هويته الفكرية.... أما أية

تقاطعات مع البرامج الاخرى فهي تقاطعات جزئية ذلك بالنظر لتباين الايديولوجيات التي لا تتقاطع إلا جزئيا.

ثانياً : الخط السياسي ....

ويقصد به البرنامج السياسي وسلسة التاكتيكات والمواقف والشعارات التي تستجيب للأحداث، وترتبط الآني بالمرحلي والمرحلي بالاستراتيجي، وما تستدعيه من تحالفات وعلاقات. وعلى إمتداد الثورة المعاصرة كان لليسار الفلسطيني مواقفه وتاكتيكاته بل وصاغ أيضا وثيقته السياسية البرنامجية التي ينطلق منها في رسم هذه المواقف والتاكتيكات، وهي صريحة في تشبثها بالهدف الوطني الاستقلالي كترجمة لحق تقرير المصير، المبدأ النظري اللينيني، وربطه بالهدف الاستراتيجي التاريخي كحل ديموقراطي جذري للصراع يكفل للجميع الحياة الحرة الكريمة بدون تمييز ديني أو عرقي أو جنسي كمواطنين متساوين حقا واليسار لم يتردد في العمل والنشاط في سبيل الاهداف الوطنية واقامة التحالفات والصداقات على هذا الاساس فلسطينيا وعربيا ودوليا، مثلما لم يتردد في التصدي لكل المشاريع والمخططات التي تنتقص من الحقوق الوطنية، واخرها خط مدريد–واشنطن وما إنبثق عنه من إتفاق أوسلو وسواه.

ثالثاً : الركن التنظيمي ....

وهو يشمل البنية الحزبية لليسار علاوة على منظماته الديموقراطية المحيطة والتيارات والقواعد الشعبية العاطفة الممتدة في كل تجمعات شعبنا. وقد لاحظنا أنه كان يشكل نحو ٢٠٪ من البندقية المقاتلة في لبنان ومثل هذه النسبة أو يزيد في إتحاد الطلبة ونسبة أقل أو أكثر في المنظمات الشعبية الاخرى، وهذه مجرد أرقام وليست عرض للوحة القوى.
وفي كل الاحوال لليسار قياداته المتمرسة وهياكله الكادرية بما تختزنه من خبرات مستقاة من لجة النضال، كما قواعده المنتشرة على نطاق واسع ويحكمه قانون المركزية الديموقراطية والقيادة الجماعية والانتقاد الذاتي ... الخ.

طبعا أستطيع تصور تراجع توازن اليسار في العامين الاخيرين سواء بفعل الانشقاق داخل الجبهة الديموقراطية أو جملة المصاعب المالية والأمنية التي

عانت منها الجبهة الشعبية، فضلا عن أن المرء بات ينظر بتحفظ وتهيب للأرقام. فالحزب الشيوعي السوفيتي كانت عضويته تناهز ١٩ مليون وحوالي ٢٥ مليون كوموسمولي، ومع ذلك لم يحم نظامه الاشتراكي - البيروقراطي، فيما الحزب الشيوعي في ألمانيا الشرقية كان يصل لـ ١،٧ مليون عضوا من أصل ١٧ مليون مواطن، والحزب الشيوعي الاندونيسي ٢ مليون فضلا عن ١٠ مليون في الأطر الديموقراطية ومع ذلك سحقه سوهارتو في إنقلاب عام ١٩٦٥.. أي ان المسألة ليست كمية، ما هو أهم من ذلك هو بناء الأداة التنظيمية على أسس تتوافر فيها مقومات تفيد برامج الحزب الذي هو في التحليل الاخير صورة مصغرة لمستقبل المجتمع.

رابعاً الركن الكفاحي ....

وما يحدده ويوجبه هو متطلبات حسم الصراع مع احتلال عسكري عنصري إجلائي إستيطاني. واليسار له نضالاته والآف الشهداء وأكثر منهم من الجرحى وأضعافا مضاعفة من المعتقلين منذ عام ١٩٦٧ وقبلئذ، وقد كان طرفا رئيسيا نشطا في الثورة المعاصرة بكل محطاتها في الاردن ولبنان والوطن المحتل والملحمة الانتفاضية بما أنجزته هذه الثورة من تكريس للهوية الوطنية والهوية الكفاحية ورفض التعايش مع الاحتلال ومراكمة خطوات في طريق الانتصار. ومسيرة ربع قرن أو يزيد من عمر اليسار ناهيكم عن جذوره القومية هي مسيرة حافلة بكفاحات شتى وتضحيات جسام ومساهمة كبيرة في زرع قيم النضال والصمود في أوساط الشعب بل إنه ما إنفك مفعما بروح كفاحية متوقدة لهذا اليوم.

خامساً الركن الطبقي ....

إذ رغم الطابع التحرري للنضال الفلسطيني ضد إحتلال أجنبي غير ان شعبنا يواجهه بخطوط سياسية متعددة تعكس تعدد القوى والطبقات الاجتماعية. فها هو الخط السياسي البرجوازي الذي هيمن على م.ت.ف بفئويته المشهورة وبعد نضال مديد إنغمس في حل تصفوي، بينما على عكس ذلك الخط اليساري العمالي، إذ كان على الدوام نهجين سياسيين - تنظيميين - أخلاقيين يعكسان التباين الطبقي، إضافة الى إستغلال البرجوازية للشغيلة في الاقتصاد الوطني.

واليسار يمثل حقوق الشغيلة مثلما يتبنى نهجا مغايرا للنهج البرجوازي اليميني في كل الميادين.

والانتماء الطبقي يتجلى أيضا على صعيد تنظيمي حيثما نلاحظ جذرية القيادات اليسارية وتقشف حياتها ومستوى معيشتها والنمط الاجتماعي لعملها وقرارتها كما الانتماء الطبقي المسحوق للغالبية العظمى من هيئات ولجان اليسار فضلا عن توجهاته لتوسيع نفوذه في أوساط العمال والكادحين بوصفهم التربة الاجتماعية الاساسية للفكر اليساري.

سادساً **ركن المرأة ....**

إذ يقاس تحرر الشعوب بقدر تحرر المرأة التي تشكل نحو ٥١٪ من البشرية، وهذا ينطبق بداهة على شعبنا. ولما كنا نعترف أن التطور الرأسمالي قد أخرج المرأة من البيت ودفعها لتفعيل طاقتها غير أن اليسار يلاحظ إستغلال الرأسمال للمرأة العاملة كما يلاحظ التمييز في القوانين والاجور .. الخ. وعليه فمنظوره يقضي بالمساواة التامة بحيث تؤدي المرأة دور الشريك الكامل في تقرير شؤون الحياة وصنع مستقبل البشرية.

وفي ظروفنا لا يحفز اليسار المرأة على التعلم والعمل فقط بل وعلى الانغماس في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية أيضا كمداخل تسهم في تحررها وتوظيف طاقاتها، وهذا نلمسه ليس في التعبئة الفكرية فقط بل وفي تأسيس أطر نسوية وما تشكله المرأة في البنية اليسارية بما يناهز ١٦-١٧٪ من العضوية المؤطرة، وحضورها في مستويات كادرية وقيادية.

سابعا **المسألة الديموقراطية ....**

فاليسار يحمل لواء الديموقراطية ويزرع قيمها في مجتمعنا ويذهب في منظوره الى ما هو أبعد من منظور برجوازيتنا المحلية التي تمسك بها جزئيا، أي يستكمل منظور الديموقراطية البرجوازية الليبرالية، بل إنه في وعيه يؤمن بالديموقراطية المباشرة الاشتراكية ايضا.

والمهم أنه يكرس في تعاطفه اليومي التعددية واحترام الرأي والرأي الآخر وضرورة العودة للجماهير كما يمارس ذلك على صعيده الداخلي .. الخ.

ثامناً الركن التنموي ....

فاليسار صاحب رؤية تدعو لاستثمار الأموال والمكتنزات وما كان يسمى بأموال الصمود في القطاع الإنتاجي، صناعة وزراعة، مثلما يدعو للاعتماد على الذات وليس الارتباط بالغير ويشجع الانتاج المستقل الصغير ويشدد على تحرير الارض.. ويربط ذلك بإطار تنموي شمولي يتناول التربية والتعليم والمسألة الاجتماعية والصحة والابداع .. الخ. وهو يقوم بدور الداعية لهذه المفهومات بل وله مساهماته النظرية والابداعية سيما في حقل الثقافة والفن.

والأركان التي أسلفناها هي المحاور الرئيسية في البرنامج اليساري، وقد سار في دربها اليسار وقطع شوطا جيدا غير أن الثورة تواجه اليوم إمتحانا عسيرا يهدد وجودها، ومثل هذا الامتحان يشمل اليسار أيضا.

فعلى الصعيد السياسي ثمة مؤامرة أمريكية – اسرائيلية لانهاء الثورة وتصفية الحقوق، والمبرر الأساسي لأية قوة وطنية اليوم هي مقاومة هذه المؤامرة وتفشيلها.

وعلى صعيد كفاحي البندقية محاصرة وفي عد تنازلي في لبنان، فيما الملحمة الانتفاضية تخبو ويتسرب التراخي في صفوف الشعب، وما أصاب ويصيب الشعب أصاب ويصيب اليسار.

وإقبال الجماهير على الانتظام تراجع بصورة ملموسة وهذا حال إقبالهم على القوى اليسارية، ونسبة اليسار تراجعت في الخريطة السياسية الفلسطينية وهذا حال البرجوازية اليمينية فيما تنامت نسبة الاتجاهات السياسية الاسلامية المحافظة أي لقد نشأ فراغ معين ملأته الاتجاهات الغيبية.

والآن انتقل الى أهم مشكلات وعيوب اليسار التي أراها مقررة لمصير قوى اليسار الحالية، فلئن تغلبت عليها إنتفضت وسارت للأمام، أما في حالة الفشل فلا أتوقع لها سوى الضمور والتهميش، وهذا في عداد الموت.

١- المعضلة المالية:

فاليسار محاصر وقد جفت موارد الدعم الخارجي تماما منذ أعوام، وعلى امتداد سنوات الثورة المعاصرة كان لا يتلقى مساعدات منتظمة وثابتة أو جدية. ففي سنوات حصل على مخصصاته من الصندوق القومي الذي يشكل ضريبة التحرير البالغة ٥٪ من رواتب الفلسطينيين العاملين في البلدان العربية موردها الأساسي، وفي سنوات أخرى سيما حينما ينشب خلاف فلسطينيا حاد كان عرفات يحجب هذه الحقوق، ومنذ مؤتمر مدريد جف هذا المورد، مثلما كان عليه الحال بعد الاقتتال الفتحاوي – الفتحاوي عام ١٩٨٣ في البقاع وطرابلس حيثما حجب عرفات هذه الحقوق لمدة سنوات وذات الشيء فعل القذافي، الأول لأن اليسار لم يشارك بجانب عرفات والثاني لأن اليسار لم يشارك ضد عرفات!!! والقذافي لم يدعم اليسار ماليا منذ سنوات، وهذه حال الجزائر التي كانت تصرف مساعدة هامشية متباعدة ... وكل هذه الحقوق والمساعدات كانت تبقي اليسار عند حافة الفقر، ولولا اعتماده على مداخيله الذاتية من خلال الاشتراك والجباية .. الخ التي كانت تغطي حوالي ٢٠٪ من مصاريفه لما نجح في إدخال رصيد استثمره في مشروعات ربحية كانت المصدر الاساسي لمداخيله في فترات القحط. غير أن حرب ١٩٨٢ + حرب المخيمات + الانتفاضة إستنزفت رصيده واستثماراته القليلة أصلا، وهو اليوم يعاني من أزمة مالية خانقة على غرار أزمة ١٩٧٢ حينما إنكشف حسابه ففقد القدرة على صرف موازناته الشهرية.

والمال ليس قوة فقط، بل أنه بنزين السيارة التي بدونه لا تمضي ولا تتحرك.

وبلا شك إن هذا إمتحان عسير سوف يضطر اليسار على تقليص خدماته الاجتماعية: علاجية، رياض أطفال، مساعدات ثورية ..

للجماهير بل قد يضطر لايقافها تماما، مثلما أنه قد يضطر لمواصلة تسريح مقاتلين في لبنان ومتفرغيه في كل مكان ....

والمهم أن يجترح الحلول للمعضلة المالية بزيادة مداخيله الذاتية وخفض إنفاقه الى أدنى حد وصولا الى ١٠٪ من صرفه السابق ونجاحه هنا يقرر مصيره. وهو بخلاف قوى اخرى تتلقى مساعدات جيدة من الدول النفطية، فهو محاصر تماما، ومثل هذا الحصار ليس بريئا وانما في احد مقاصده يستهدف موقفه السياسي، غير أن سياساته ليست محط مساومة قط. فالبطل قد يموت ولكن واقفا.

واليسار أمام تحدي حقيقي لا ينجح فيه الا بإستنفار إرادته المجموعية بحيث يستشعر كل عضو فيه هذا التحدي ويبادر على الفور للإسهام في التصدي له.

٢- المسألة النظرية:

وهي في غنى عن الشرح ذلك أنها التي تحدد كل سياسات اليسار، وهذا يستدعي بداهة ليس إستيعاب وتمثيل المضمون العلمي للفكر الاشتراكي بل وإنتاج فكر ثوري يعالج القضايا المحلية. فمثلا مطلوب إبداع برنامجي يكفل حماية الثورة وتواصلها، وابداع يكفل حماية الذات وفعلها في الظروف الحالية والمرحلة الجديدة، وابداع في الوصول للجماهير وتوعيتها واستمالتها، وإبداع في التصدي لمعضلات العمل العديدة بما في ذلك المعضلة المالية سابقة الذكر ... الخ.

وانتاج الفكر الصائب هو أصعب إنتاج. فتصميم إختراع أصعب بكثير من إستخدام الاختراع، وطالما أن البرنامج اليساري مغاير وبديل للبرامج الاخرى فهو مطالب بمزيد من الإبداع في شتى الحقول الفكرية والفنية والتنظيمية والنضالية .. ولن يستطيع اليسار الحياة إن لم يواكب تطورات الحياة. فملاكم يلعب بفنون الملاكمة في السبعينات لا يستطيع الفوز على ملاكم يتقن فنون الملاكمة في التسعينات، وهذا حال الطبيب ورجل الاعمال والصناعي والدول والحركات السياسية ... الخ.
وشعار الابداع هوالشعار الأكثر الحاحية اليوم، واليسار له إبداعاته ولكنها لا تكفي لاستمراره ناهيكم عن تناميه وتطوره.

٣- التحدي السياسي:

ربما أن النقطة الأبرز في قوة اليسار هي سياساته، فقدرته جيدة على إستخراج البرامج والتاكتيكات رغم أية تعثرات وأخطاء، غير أن مشكلته تكمن في عدم إيصال سياساته إلا لقطاع محدود من الجماهير، فهو يعاني من ثغرة إعلامية جلية، علاوة على المشكلات الجدية التي تتوالد عن الظرف الموضوعي، حيثما سواه كان يقود المنظمة فيما التطورات تسير بإتجاه مناقض لبرامجه في لبنان والوطن المحتل ومن قبل في الاردن، وانهيار رسمي عربي وأزمة تفتك في جسم الحركة الوطنية وإنهيار للحليف الدولي ... الخ. هذا من جهة أما من الجهة الاخرى فنلاحظ صعودا للحركة الاسلامية في إقليم الشرق الاوسط بينما اليسار يتسم بالضعف في هذا الاقليم نتيجة عوامل عديدة.
إن المرحلة الجديدة صعبة، والمهارة السياسية تكمن في الحفاظ على دور ثوري فاعل فيها والتحفز للإمساك بالمبادرة التاريخية حينما تتراكم عواملها لقيادة الشعب نحو الانتصار.

٤- على الصعيد التنظيمي:

ان وجود بنية يسارية هو بذاته إنجاز غير أن المزيد من الديموقراطية وتوحيد قوى اليسار وتوسيع قاعدته وإتقان فنون العمل بما يتلائم مع الظروف المتباينة والمرحلة السياسية الجديدة، وإثبات مقدرة بنائية في كل الساحات وتجاوز الخلل الاداري وبلورة المزيد من القيادات الموهوبة المحترفة والمتجانسة هي خطوط عمل ينبغي السير فيها وقطع أشواط ملموسة على طريقها. وهذا التطور النوعي من الطبيعي ان ينعكس على حجم اليسار وقاعدته الشعبية بحيث يستميل ويؤطر قاعدة متنامية.

والصيغة هي التي ترسم البرامج، الشيء الذي يقتضي ضمان مركز القرار في أيدي ثورية وجذرية حقا، وفي ذات الوقت كفؤة وموهوبة حقا، اي أحمر وكفؤ، بما يتجلى في إنتاجيته اليومية والسنوية عمليا ونظريا، وخطير جدا تسرب شخصيات رخوة ومتلونة ومنجرفة الى الهيئات القيادية.

وهناك الكثير من العيوب التنظيمية التي يتوجب إجتثاثها بغية الوصول لمستوى العمل الحزبي اليساري الثوري حقا، وربما يجدر ذكر بهتان المبادرة وشيوع نزعة الاتكالية والارتخاء والميل للعمل المكتبي والداخلي ... الخ وما يطلب من الحركة اليسارية عموما يطلب من الفرد والمنظمات، وهذا ينبغي تذكره.

٥- **طبقيا:**

صحيح ان اليسار يمثل في التحليل النهائي قضايا الشعب العامة ومصالح جماهير الشغيلة من عمال ومثقفين وفلاحين .. كما وقضايا المرأة والطلبة ... الخ ولكن ينبغي التقدم أكثر على صعيد الانتشار في أوساط العمال وبناء المزيد من الكادرات فهم لكيما يكونوا شركاء فعلا في المستويات القيادية. إذ من المشكوك فيه تماما أن يكون هناك يسار بينما جل قياداته من المثقفين. فخصال المثقف حتى ولو كان ثوريا يعوزها جوانب معينة وقدرة على التوغل في صفوف جماهير العمال. وتجربة اليسار المصري هي نموذج سلبي ينبغي التعلم منها، فهو يسار مثقفين بينما نراه غائبا عن قواعد العمال في حلوان والاسكندرية والقاهرة، وعليه فهو قوة معزولة.

ليس خافيا خصائص طبقتنا العاملة، ولكن لا يجب التوقف عند الدرجة الحالية، فالمجال مفتوح لعمل أكثر وإحراز نجاحات أبرز كيما نضمن طبقوية اليسار.

٦- **المعضلة الكفاحية:**

لقد كشف خبو الغليان الانتفاضي عورة اليسار والثورة عموما، بينما هناك قوة أثبتت فعالية في هذه الايام. والمعضلة الكفاحية متعددة الاشكاليات، ولكن بلا شك إن ثورتنا قد تميزت بمسيرة عظيمة ومن تراثها يمكن إستلهام دروس كثيرة.

والمزاج الشعبي يلتف أكثر ما يلتف حول المناشطات النضالية من التظاهرة والاضراب الى أكثر أو أقل من ذلك بينما فئات أقل تجتذبها النشاطات التحريضية والثقافية. ومعضلة اليسار حقيقية هنا شأن المعضلة المالية أو أقل قليلا.

وقبل أن استطرد يحضر في ذهني خاطرة قرأتها منذ زمن تصف مشهد ثلجي. سرب من الغربان يحل على فروع شجرة عارية تتوسط حقلا مغطى بطبقة بيضاء ثلجية. فتنظر اليه إمرأة عجوز من النافذة قائلة: يا لهذا المنظر برد وريح وغربان لا تأتي إلا بخراب البيت، بينما حفيدتها الصبية تلقي نظرة من نفس النافذة وعلى نفس المنظر فتعلق قائلة: يا لهذا الجمال إنها أشبه ببياض العين التي تتوسطها القزحية السوداء، والغربان تتقارب وتتهامس كما الاطفال الابرياء.

إنه نفس المنظر، العجوز تشاءمت منه والصبية تفاءلت فيه، ونحن حينما نرى مصاعبنا وعيوبنا لا يتعين أن نراها بعين العجوز المتشائمة التي فقدت الطموح والحلم وبالتالي الإرادة على قهر المصاعب، بل على العكس علينا إستخلاص العبر وتجميع الخبر ومواصلة الطريق. وكما يقول المثل البريطاني القديم: "الضربة التي لا تقتلك تقويك". فعلى هذا النحو يتصرف الصلاب والاصلاء من الثوريين، أما النمط المدلل السطحي وهذا الطراز موجود بيننا ونصادفه يوميا، فيهزم أمام أية مشكلة، ومثلا لقد تحللت معظم منظمات الحزب البلشفي بين ١٩١٤ – ١٩١٦ أي حينما نشبت الحرب الكونية الاولى وكان قرار الحزب مناهضتها، أي مناهضة تاريخ تلكم اللحظة، أي التجديف ضد التيار العالمي، وهذا كان حال الحزب بل أسوأ من ذلك بعد هزيمة ثورة ١٩٠٥، غير ان الخلص واصلوا ونجحوا لاحقا في الإسهام بدور رئيسي في إسقاط القيصرية وبعدئذ الحكومة البرجوازية المؤقتة عام ١٩١٧.

ولو لم يكن برنامج الحزب البلشفي يعبر عن حاجات أساسية أصيلة للشعب الروسي لما إلتحقت به جموع الكادحين. أي أن المسألة موضوعية، اي حقيقة برنامجك في ميزان التاريخ، ويأتي بعد البرنامج القدرة على تأليف أداة ثورية وآليات قادرة على قيادة الجماهير نحو أهدافها.
والتاريخ أحيانا يخطيء، فصعود النازية والفاشية خطأ، غير أنه قادر على تصحيح أخطائه كما قال غرامشي ذات مرة، ولهذا سحق التاريخ النازية والفاشية ووضعهما في زاوية مظلمة.

واليسار الفلسطيني قد يمر بحالة إنحسار، وهذا حال اليسار العالمي رغم النجاحات الحقيقية في الصين، والنجاحات الجزئية في بولندا وأيطاليا وجنوب أفريقيا، ولكن لطالما أن البرنامج اليساري متطور وصائب فلا محالة

سوف يلتحم الشعب به وينتصر له، ذلك أنه برنامج الشعب الذي يفصح عن أهدافه وتطلعاته.

وبعـــد....

إن اليسار طليعي، فهو ينتقد نفسه بجرأة وحزم، إذ علينا أن ننقض على العدو الرابض في نفوسنا كما كان يقول ماو، إذ أننا نحمل موروث المجتمع بكل ما فيه من إيجاب وسلب. والصيغة اليسارية أرقى من المجتمع وناقده له وتسعى لبناء مجتمع جديد وإنسان جديد، وهذا يوجب أن لا نتهاون مع أنفسنا. فاليساري ثائر على نفسه مثلما أنه ثائر على غيره. واليساري مبادر وغير إتكالي، فهو سريع التفاعل مع الاحداث انه يعكس بوصلة الحركة، وبالتالي فهو أبعد ما يكون عن الانتظارية. أي أنه لا ينتظر ضغطة زر من أعلى كي يتحرك ويعمل بل يتقدم بآراء ومقترحات جديدة مثلما ينخرط في المعمعان العملي بطاقة متوثبة لا تكل ولا تمل ويصمم على إحراز النجاحات.

وحينما نتحدث عن معضلات ونواقص اليسار إنما نقرع الجرس في أذان اليساريين لكيما يبادر كل واحد لبذل جهده وعقله للتصدي لهذه المعضلات والنواقص، إذ إن لكل واحد عليه مسؤولية، عليه واجب، إما أن ينتقد كل واحد فينا هذه الخيمة ولا يساهم في النظافة والهدوء والمطالعة والحرص المتبادل، .. الخ. فهذا لا يفضي إلا الى هدم الخيمة، أي أن التنصل من المسؤولية الفردية لا يفيد في شيء بل على العكس إنه يضر ويؤذي.

وحينما تقول أنت أن ثمة معضلة مالية أحد ترجماتها عدم رعاية ذوي الاسير فهل اسهمت بجهدك لزيادة المداخيل؟، وحينما تقول أن كفاحية اليسار منذ عامين تأخرت فهل أنت كفاحي وأين مساهماتك؟، وحينما تقول أن اليسار يراوح أو يعود القهقرى جماهيريا فاين جمهرة الناس الذين استملتهم للبرنامج اليساري؟ ... وهكذا دواليك .. إذ أن الجعجعة لا تفيد اليسار بل التشمير عن السواعد والفعل المنمنم الصغير الذي تتراكم قطراته على شكل رافد وشلال.

وتتحدث عن الثورية والتضحوية، ولكن ما رأيك بنفسك طالما أن ٦٠ – ٨٠٪ من ساعات يومك وأحيانا ٩٠٪ هي أبعد ما تكون من الانشغال بالهم العام وشؤون الجماهير، أي أن جزءا يسيرا من نفسك للهم الثوري بما يشبه كماليات البيت أو الديكور، فهل حقا أنت يساري فاليساري يحسم نفسه أولا

وعاشرا للخيار اليساري متحررا من أنانيته وذاتيته، فالجماعة هي منطلقه ، وشؤونه الخاصة ومزاياه الفردية يعبر عنهما من خلال نظام الجماعة.

فاليساري لا يبدأ من ذاته بل من ذات الشعب وذات الجماهير المسحوقة وذات الجماعة الثورية ... فهل على هذا النحو تتصرفون وتفكرون وتحتكمون في مقاييسكم؟

واليسار عصري وديموقراطي وجذري سواء جاء ماركس ولينين للتعبير عن هذه القيم أم لم يجيئوا، فهذه القيم مستوحاه من واقع الانسان وهي مطلوبة للانسان، فهل كل واحد فيكم عصري وديموقراطي وجذري، هل يواكب منجزات الفن والعلم والتكنولوجيا وهل يتمثل بمباديء الديمقراطية وهل يتجاوز البرجوازية في ذلك الى ما هو أكثر جذرية وتغييرية، وعلى الأقل فإلى أية درجة الواحد فينا على هذا النحو؟

يساري وبدوي لا ينطبقان، يساري وفلاح لا يتعايشان، يساري ومتخلف نقيضان، والمقصود ليس من أصل بدوي أو فلاح أو بيئة متخلفة، بل أن يحمل موروث ذلك في نفسه، فاليساري إبن هذا العصر، عصر الرأسمالية التي تمهد للإشتراكية أي ما هو أرقى من الرأسمالية بكل ما تعنيه من تطور وإنجازات محتفظا بداهة بكل ما هو تقدمي في مراحل التاريخ السابق وفي ذات الوقت ثائر على الرأسمالية بإتجاه بناء التنظيم الاجتماعي العادل والغاء الاغتراب وتحقيق الديمقراطية المباشرة.

فكيف تكون يساريا، وأحد مباديء اليسار حق تقرير المصير والعداء للإمبريالية والأستعمار، وفي لحظة ضعف تصف أو تطفي، وكيف تكون يساريا بجانب حقوق العمال والشغيلة وبعدئذ تصف وتطفي بينما الاستغلال الطبقي مستمرا، وكيف تكون يساريا بجانب تحرر المرأة وتحريرها من إسار البيت والإنطلاق للمشاركة في شؤون الحياة بينما تحبس زوجتك في البيت كماكنة تفريخ وغسالة وطباخة ولا تشجع أختك على الخروج لتقرير مصيرها ومصير المجتمع ... الخ.

علينا تشريح أنفسنا فالعفن معشعش فينا على نحو مأساوي وبدون إستئصاله لن نستأصل العفن في شجرة اليسار. فالشجرة هي مجموعة أجزائها من جذور وساق وفروع وأغصان وأوراق، وأن لم تكن معافاة لن تطرح إلا ثمرات معطوبة.

وفرد واحد لن ينقذ الشجرة وأفراد لن ينقذوا الشجرة رغم التفاوت في قيمة الافراد، فالجذور أهم من الفروع والفرع أهم من الغصن ... الخ ولكن مكايفر ورامبو وسوبرمان وماجستي وما نشاهده من أبطال خارقين في الافلام الامريكية ليس سوى تمجيد للبطولة الفردية الوهمية، أما البطولة الحقيقية فهي بطولة الجماعة التي تتخللها بطولات فردية فذة. وحتى الافراد العظام لا يتعدون كونهم الحلقة الأهم والأقوى في سلسلة الجماهير، القادرة على قيادة السلسلة الجماهيرية والتعبير عن أهدافها كما كتب منذ قرن بليخانوف.

والفرد مهما كان عظيما فهو ليس أهم من الجماعة وليس أكثر ثورية من الجماعة ولا أذكى من الجماعة/ولا أكثر فائدة من الجماعة، فهل ثمة فرد قدم آلاف الشهداء وأضعافهم من المعتقلين كما الجماعة، وهل ثمة فرد يختزن من الذكاء والفكر أكثر من آلاف الثوريين، وهل ثمة فرد ناضل وأنجز أكثر من مجموع نضالات وإنجازات الجماعة؟!

إذا لنكف عن النرجسية التي تعشق ذاتها، النرجسية مأخوذة من نرسيسبوس في الأسطورة الاغريقية القديمة، الذي كان يرى وجهه في الماء قبل صقل الزجاج، فأحب محياه وأعجبه شكله وأخذ يتفحص نفسه حتى سقط في الماء وغرق ومات لتنبت مكانه وردة صفراء .. واليساري ليس نرجسيا، بل ثوريا عقلانيا، يعرف الثغرات في نفسه قبل غيره ويرتقها.

وحتى على صعيد الأفراد فهل ثمة فرد فينا أكثر تضحوية وانتاجا ووعيا ومراسا و... من أكبر القادة الثوريين لليسار؟ .. الجواب كلا. إذا لماذا نهرب من ساحة اليسار طالما أننا أقل من سوانا.

إن الرد ليس الهرب بل الفعل. وأحيانا يكون الظرف الموضوعي قاهرا بشكل إستثنائي فيضع العامل الذاتي في الزاوية، ليس تبرئة للعامل الذاتي وطمسا لعيوبه، بل لإدراك العامل الموضوعي وتأثيراته ... ففي الأمس القريب جبهة فراباندو مارتي اليسارية إقتحمت العاصمة وتحصنت في الاحياء الشعبية وشنت هجوما إستراتيجيا غير أن الامبريالية الامريكية دعمت النظام بالسلاح والخبراء وو... فاحبطت إمكانية النصر، وهكذا فعل الاجتياح السوري للبنان عام ١٩٧٦ .. وها نحن نلمس على جلودنا وأعصابنا إسقاطات الهجمة الامبريالية على المنطقة .. الخ. وهذه لن نقهرها بضربة سحرية. فذهنية الشعب المبنية على الغيبيات تنتظر ضربة سحرية مرة من السماء ومرة من

القائد الفلاني ومرة من النظام العلانـي ... ولكن هذا لن يحصل ولا مجال إلا للقانون الطبيعي --التراكم الكمي الذي يؤدي لقفزة كيفية.

المرحلة معروفة، أو معروفة في إطارها العام، واليسار يشكو من عيوب ومصاعب جدية، وهو محاصر ماليا وسياسيا و... على نحو لا يتعرض له أي إتجاه آخر. وهذا كله تحدي نظري وعملي جدي جدا ولن يعالج بحبة أسبرين. فالسرطان لا يعالج بمخدر ولا بموعظة لاهوتية ... إنه مرض جدي وعلاجه يحتاج لمثابرة وتجارب وعقول علمية تعمل وتعمل ريثما تعثر على العلاج الشافي.

إننا نتحدث عن رسالة اليسار التاريخية، فهل حقا أن العضو اليساري – غالبية أعضاء اليسار يستوعبون هذه الرسالة في أبعادها المتعددة؟؟ جوابي ثمة شذرات إستيعابية وحسب سيما في الخطاب السياسي، وما دون ذلك يمكن تلمس الضحالة وضيق الأفق. وعليه مطلوب تعميق الفهم اليساري، الغوص في طروحات اليسار واغنائها بدون توقف. وإثبات مقدرة في تحديد الحلقة المركزية في كل لحظة ومضمار والأمساك بها بقوة. ومطلوب ان لا نكون عجولين فلكل شيء معيار. الطفل لكيما يلد بحاجة لـ ٧ – ٩ شهور والبيت ريثما يستكمل بحاجة لأساس ومداميك وقصارة وبلاط ... الخ ويصاحب كل خطوة للأمام مصاعب، واليسار الذي يصاب بالجزع والاحباط ليس يساريا مثل الطفل حينما تعطيه حبة الحلوى يضحك وحينما تسحبها منه يأخذ في النحيب. فاليساري ليس طفلا ولا يجب أن يتصرف على هذا الغرار.

والشيء الأساسي إنك تنتمي لشعبك وقضاياه وهو لم ينفك جاثما تحت بصطار الاحتلال فيما حقوقه مغتصبة، وبالتالي لا إنكفاء ولا هوادة ولا رضوخ ولا ضعف ولا تردد، وإنما تصميم وإرادة وبسالة لبلوغ الأهداف.

وعلينا أن نتعلم طرائق حل التناقضات الداخلية وخلق التكامل بين الميول والطاقات وفق النظام العام الذي ترسمه الجماعة، وأن نتعلم الحوار والاستماع المتمعن بالرأي الآخر بدون إنفعال بدون إنفعال أو حرد، وفي الوقت الذي لا نريد تسلط المسؤول مطلوب عقلانية ونشاط وانضباط من العضو، كل ذلك في إطار القانون الناظم والبرنامج العام.

لقد كان اليسار إضافة نوعية للخريطة السياسية الفلسطينية كما للوعي الاجتماعي الفلسطيني وعلى هذه الأرضية يتم تقييمه والتعاطي معه ونقده وتطويره، وكلي قناعة أنه يملك الطريق الأنقاذي لشعبنا رغم كل ما يمكن أن يقال فيه. وفي هذه اللحظات أن حاجة شعبنا لليسار أكثر من السابق، فشعبنا بحاجة لقيم الصمود والنضال والترابط والتشبث بالأهداف والثبات على المبدأ .. التي يمثلها اليسار.

وشكرا لكم.

كلمة صريحة حيال الازمة المالية التي تنخر عظام اليسار الفلسطيني

اليوم الحديث ساخن أو على الوجع، ويعنينا كأفراد مثلما يعني اليسار كقوة منظمة وهذا الموضوع تطرقت له في وقت سابق، ولكن بالنظر لأهميته اتطرق له ثانية، سيما وان غالبيتكم وجوه جديدة، فوجود اليسار منذ ان حضرت لهذا المعتقل، أو بصورة أدق لقسم الاداري، حوالي ٣٠ وأقل من نصفهم في القسم المجاور والمخصص لمعتقلي قطاع غزة، بما يشكل ٢٥٪ من الاداريين تقريبا...

المهم صباح الخير ....

عساني انجح هذا اليوم بالحفاظ على مزاج معتدل لديكم بعد الاستماع للمصارحة بل، ولعل هذه المصارحة والمكاشفة يشحنان الجميع بمعرفة حقيقية من جهة، ومحفزة للمبادرة السريعة للتصدي "للمرض" من جهة اخرى، فالتحدي المالي يرتقي الى مستوى التحدي المصيري، النجاح فيه يعني حماية وجود اليسار وعمله في ظروف الواقع السياسي أما عدم النجاح فهذا انما يهدد وجوده وتهميشه قسرا بدون منحه الفرصة للعمل كالآخرين.

أجل انها معركة وجود أو لا وجود، وعلى هذا النحو ينبغي الاحساس بالمسألة والتعاطي معها، ولن يفيد اليسار تضحيته بأكثر من ثلاثة آلاف شهيد وأكثر منهم من الجرحى وأضعافهم من المعتقلين، وكل المعارك التي خاضها منذ ربع قرن ويزيد، ولا تجاربه الفنية ولا اطنان الصفحات التي حبرها ولا ولا.. ان لم يستجب بنجاح لاستحقاقات التحدي المالي، بل الازمة المالية التي تصل حد نفاذ صندوقه المالي.

نعم، نعم، فضمن هذا المنظور يتوجب الفهم والتفكير، اي بما هو أكثر من كلمة الحكيم "*المال قوة*" تلكم الكلمة الملائمة لزمانها حينما كان اليسار مقيدا ومداخيله لا تفي بكامل متطلبات عمله، اما اليوم فالزمن قد تغير حيث باتت الجيوب خالية تماما أو يمكن ان تصبح خالية.

معلوم ان لكل حركة أو مؤسسة أو دولة سياسة مالية، لها نظام مقبوضات "مداخيل" ونظام انفاق "مصروفات" ونظام توظيف "استثمارات"، وتأمين المال هو ركن رئيسي في عملها وأشبه ما يكون بالزيت للسيارة.

والثورة الفلسطينية العاصرة لها خصائص عديدة، احداها وجود أكثر من نصف الشعب في الشتات، نسبة لا يستهان بها من هؤلاء يقطنون في مخيمات، بما يستدعيه ذلك من خدمات اجتماعية مجانية أو شبه مجانية كالتعليم والصحة وشق الطرقات والمجاري..الخ.. وبالطبع ان انطلاق الثورة من الخارج ادى موضوعيا الى بناء الثقل الرئيسي من مؤسسات قيادية وركيزة قتالية ودوائر... في الخارج، بما نتج عن ذلك من جيش متفرغين مكون من عشرات الآلاف .. وقد استمرت الامور على هذا النحو الى ان اندلعت الانتفاضة المجيدة حيثما انتقل الفعل النضالي للداخل.

وشعب بهذه الوضعية الصعبة، وثورة بهذه الاعباء كان لا بد وان يصار للاعتماد على المصادر الخارجية أولا لتغطية المصاريف اللازمة.... وضريبة التحرير التي استقطعت من رواتب العاملين الفلسطينيين في البلدان العربية وتعادل ٥٪ كانت تصل في مجموعها الى ٦٠ مليون دولار سنويا حسبما كشفت بعض المصادر وهي بداهة تلبي حاجة جزء من انفاق صندوق المنظمة.. وبعض الدول العربية لأهداف واعتبارات عديدة واحيانا متناقضة شرعت بتقديم مساعدات وهبات كانت في معظمها تصل الى حركة فتح، وفيما عدا الجماهيرية الليبية والجزائر اللتان قدفتا مساعدات متباعدة ومحدودة لفصائل اليسار فان المساعدات الأساسية التي كانت تأتي من السعودية ودويلات الخليج كانت تصل لفتح بطريقة مباشرة أو عبر المنظمة التي تهيمن عليها وعلى قرارها المالي.. وكان من نتائج هذه المساعدات تكون شريحة بيروقراطية مترفة في م.ت.ف حرفتها العمل المكتبي، حتى ان أحد صحفيي فتح اعترف عام ٨٣ بأن الفارق في المخصص بين متفرغ ومتفرغ في هذه الحركة يصل الى ٣٠ ضعف، فيما صحيفة القدس نشرت في أواسط عام ٩٣ بأن قررات التقشف المالي التي اتخذتها قيادة المنظمة في تونس قد خفضت رواتب اللجنة المركزية لفتح من ١٠ الاف دولار شهريا الى ٨ آلآف دولار.. وهذا بداهة ينبي بمدى الفساد المالي والبيروقراطية المستشرية، والتي شملت بقدر معين فصائل اليسار ايضا.

صحيح ان أعلى تفرغ في فصائل اليسار بالكاد يصل لمرة ونصف قياسا بأدنى متفرغ، فيما الفارق لا يتجاوز ٥٠ دينارا بين الأمين العام وأقل متفرغ

بحسابات الارض المحتلة، بينما هو عشرات الدولارات قياسا بالعملة السورية، حيث تفرغات الهيئات المركزية تتراوح بين ١٠٠-٢٠٠ دولار شهريا، فيما قدرتها الشرائية تعادل ٤٠٠-٥٠٠دولار في الوطن المحتل، اي لم يتحدث تحول طبقي في صفوف اليسار خلافا لما أصاب صفوف اليمين من تحولات برجوازية في الصفوف العليا، غير انه من الصحيح ايضا ان اليسار قد اصابه درجة معينة مما اصاب اليمين من ناحية اتساع نسبة المتفرغين التي وصلت الى ٢٠٪ من العضوية في الخارج، وتحديدا في ساحتي لبنان وسوريا.. وهذا بداهة استنزف ميزانية الثورة وميزانية اليسار.

ومصارد دخل الفصائل اليسارية كانت على النحو التالي-:

١. شهريتها من م.ت.ف اذ ان لكل فصيل "شهرية" سواء كانت للجهاز المقاتل من خلال المجلس العسكري الفلسطيني، وهي بداهة لا تغطي كامل نفقات الجهاز المقاتل، أو من خلال مخصص التنظيم الذي يغطي جزء من مصاريفه ايضا.. و "الشهرية" مضغوطة بحيث لا تتيح للفصائل اليسارية توسيع جهازها المقاتل أو زيادة خدمتها للجماهير...

٢. مساعدة الاصدقاء وتحديدا ليبيا والعراق والجزائر، وكيلا يلتبس الامر فهذه المساعدة لم تكن على امتداد سنوات الثورة المعاصرة، اذ بضعة سنوات في السبعينات ومثلها في الثمانينات، كما ان هذه المساعدة محدودة وهي أقل من ذلك ومتقطعة في حالة الجزائر، اي انها لم تنقذ الفصائل اليسارية من فقرها، أو بصورة ادق لم تسمح لها بمراكمة سيولة نقدية بين يديها.

علاوة على مساعدات البلدان الاشتراكية، وهي ليست مالية وانما على شكل منح جامعية ودورات عسكرية ونظرية ومنح علاجية للمرضى والجرحى وسلاح.. الخ

٣. المداخيل الذاتية.. وهي في أحسن الاحوال كانت تغطي ٢٠٪ من الصرف، وترد من خلال الاشتراكات والتبرعات كما من خلال الجباية الجماهيرية والمطبوعات، وفي وقت متأخر من خلال الاستثمارات الربحية القليلة، ذلك ان معظم المشروعات كان طابعها اجتماعي لمساعدة

الجماهير (عيادات- رياض اطفال- مشاغل يدوية- رعاية اسرى- مخابز).

واليسار منذ السبعينات وربما قبلئذ كان يدرك ان مصادر دخله الخارجية غير ثابتة، بل ولتفادي أية ضغوط سياسية يتوجب عليه الاستقلال ماليا، والازمة المالية التي عصفت بالجبهة الشعبية عام ٧٢ بما تركته من أضرار كانت ناقوس خطر، فرفع شعار خفض المصاريف وزيادة المداخيل، وجاءت مسيرة عقدين من الزمن بعدئذ لتؤكد على صوابية هذا الاستخلاص .. فنظام صدام أوقف المساعدة عن اليسار الفلسطيني عام ٧٧ لانها لم تشارك في المؤتمر القومي الذي اراد ان يكون بديلا لمؤتمر الشعب العربي، والقذافي قطع المساعدة لأن اليسار لم ينضم للقتال بجانب أبو موسى حينما اندلع في البقاع وطرابلس عام ٨٣ بين فتح وفتح الانتفاضة، بينما عرفات شطب مخصصات اليسار من م.ت.ف لأنه لم ينضم اليه.. ولا مدعاة اليوم لنثبت بأن عدم الانضمام للاقتتال كان الاجراء الصحيح... والقذافي منذئذ وحتى اللحظة لم يستأنف مساعداته الا فتافيت في أعوام الانتفاضة الاولى، وانفجار الاوضاع في الجزائر اغلقت نافذة المساعدة الضعيفة جدا.

ومخصصات اليسار من المنظمة انقطعت عشية الانتفاضة وغداتها، ولكن مع انعقاد مؤتمر مدريد انقطعت ثانية، وبعد ان دب الانقسام في المنظمة فمن غير المتوقع ان تسمح قيادة عرفات لمؤسسات المنظمة بدفع حقوق اليسار، بل لقد توقفت منذ عامين تقريبا حقوق الاسرى ايضا.

ومعروف لكم ما اصاب الاتحاد السوفييتي السابق وبلدان المنظومة الاشتراكية، اي لقد اغلقت هذه القناة ايضا فيما عدا كوبا التي تؤمن عدة منح جامعية وتدريبية لمختلف الفصائل الثورية.

وبكلمة موجزة، لقد غدا اليسار وحيدا في الميدان ، وهو على هذا الصعيد يواجه ليس تجفيفا لموارده بل محاولة لخنقه والضغط المتواصل عليه بغية تغيير جلده السياسي والفكري، غير ان الحصار المالي والضغط لا يجديا نفعا، فاليسار لا يبيع نفسه بالأموال لا لايران ولا للسعودية ولا لاوروبا ولا لسواها... واليسار هو الوحيد الذي يبذل الجهود للحيلولة دون تسرب الاوكسجين اليه، بينما مختلف الفصائل والاتجاهات الفلسطينية الاخرى تتلقى مساعدات منتظمة من هنا او هناك. طيب، لماذا لم يدخر اليسار القرش الابيض لليوم الاسود سيما وانه في أدبياته يكرر استنتاجه بضرورة الاعتماد على الذات وعدم موثوقية الحلفاء والاصدقاء؟

يخطئ من يظن ان اليسار نام طويلا واستيقظ فجأة، أو كمن سكت ونطق كفرا، فهو منذ سنين وسنين يقرع الجرس ويستحث الارادة الذاتية لتقليص الصرف وزيادة الدخل، بل وقد أسس عدة مشروعات اقتصادية ربحية في الخارج، غير انه مر في عدة محطات استنزفته شر استنزاف (الحرب الأهلية في لبنان عامي ٧٥+٧٦ وحرب الليطاني عام ٧٨ وحرب ٨٢ التي دامت ثلاثة شهور+ حرب المخيمات عامي ٨٤+٨٥+ متطلبات العملية الانتفاضية التي أملت المزيد من الانفاق).. وهذه المسيرة كانت ثقيلة وثقيلة جدا على كل الصعد، لم يسقط فيها آلاف الشهداء ومثلهم وأكثر من الجرحى، بل وأيضا استهلكت جهود ضخمة، وبالتالي مبالغ كبيرة.. ويكفي ان نذكر ان راجمة الصواريخ التي تقصف ٤٠ صاروخا في دقيقة واحدة ثمن صاروخ واحد من صواريخها ألف دولار، ناهيكم عن السلاح المدفعي والفردي واللوجستيك و.. انها حرب بكل ما تحمله من معاني.

ويضاف لذلك ان اقتحام الجيش الاسرائيلي لبيروت قد دمر وصادر لهذا التنظيم اليساري أو ذلك عدة مشروعات يقدر ثمنها بملايين الدولارات، وهذا ينطبق بقدر معين على حرب الاخوة والرفاق في اليمن الجنوبي عام ٨٦ حيث نتج عنها فيما نتج احتراق عدة محال للفصائل اليسارية.

وان حجب القيادة اليمينية حقوق الفصائل اليسارية لمدة ثلاثة أعوام تقريبا بعد الاقتتال الفتحاوي- الفتحاوي، ووقف المساعدة الليبية في نفس الفترة قد استنفذ قسم من الرصيد المالي لليسار، وهذا حال الانتفاضة حيث تضاعف الصرف في المحتلة مرات ومرات سواء لتلبية حاجات المناشطات النضالية او للصرف على مئات المطاردين وملاحقة قضايا المعتقلين ومساعدة ما يمكن من عائلات متضررة ومعوزة أو عاطلين عن العمل...الخ.

اي ان سياق عقد ويزيد عن الزمن كان مجافيا تماما على المستوى المالي، الصرف فيه أكثر بكثير من الوارد، الأمر الذي مهد بالتالي للأزمة الخانقة الحالية.. واي نقد هنا للخط المالي السابق، سواء طال عدم الكفاءة في تأسيس مشروعات ربحية أو عدم ضبط الاشتراك الذي لم يسدده الجميع أو ضعف الجباية كدليل على بهتان الشعور المالي، أو المبالغة في التفريغ والمأسسة، وصرف مبالغ كان يمكن عدم صرفها سيما في الميدان الاجتماعي.. الخ غير ان الأهم هو الاجابة عن سؤال: ما العمل؟؟ هذا السؤال القديم الذي أثاره لينين.

الجواب لن يكون سحريا، وهو عموما يتلخص في شعار الاعتماد على الذات أولا وعاشرا، بما يعنيه هذا الشعار من زيادة حقيقية في الدخل وتقليص جذري في الصرف، بحيث يكون الأخير كمحصلة عامة أقل من الاول.. ولكن كيف يكون ذلك؟

الزيادة من خلال-:

١. المشروع الربحي واعتباره الحلقة المركزية بما يستوجبه من عقل مهني وابداعي.. واي رصيد متوافر أو سيولة يمكن ان تتوافر يجب ان يتوجه أولا نحو هذا الميدان حتى ولو توقف الصرف لبعض الوقت.. اي اختناق مؤقت، ولكن انفراج لاحق.. فالعمل الثوري ليس شهرا أو شهور، بل هو خيار تاريخي، وان كان لا مناص من شهر، فليكن شهرا مؤقتا، وتأمين السيولة ليس هم القيادات فقط وانشاء المشاريع الربحية ليس هم القيادات فقط بل مسؤولية جماعية لا يستثنى منها احد.

والمشروع الربحي يقوم على دراسة جدوى يعدها أهل الاختصاص وينفذه كفاءات اختصاصية وادارية، وربما من الافضل مشاركة رأس مال خاص، اي ان يكون المشروع مشتركا بما يمكله كل طرف من مزايا، وضبط متبادل على أسس محاسبية صحيحة.. ومن الملاحظ ان الاهمال وعدم الكفاءة الادارية ومشاكل التسويق هي سمات ملازمة للمشاريع العامة، الامر الذي يؤدي الى فشلها، وهذا لا يجوز السماح به بتاتا.

والسوق المحلية زاخرة بالفرص الملائمة لانشاء مشاريع ربحية، متوسطة أو صغيرة، بل يمكن التعلم من الواقع الحي بدراسة واقع السوق واحتياجاته.. وعموما ان المدن ملائمة للمراكز التسويقية بأن تبادر ثلة من الثقات باستكتاب عشرات المساهمين أو أكثر من عشرات.. وكل واحد بـ ٢٠٠-٣٠٠ دينار مثلا بما يشكل في مجموعه عشرات آلآف من الدنانير بحيث يصار لشراء سلعة أو سلع بسعر الجملة من المصدر الأساسي شريطة ان تكون السلعة مرغوبة، وبالتالي توزيعها بسعر المفرق بما يضمن ربحية مؤكدة، اي عملية تجارية صرفة بدون ان تتطلب مبالغ كبيرة من التنظيم.

مثلما ان ضمان الارض وزراعتها أو قطف محصولها الشجري، لايتطلب سوى ايدي عاملة ومبلغ بسيط، وهذا متاح في الارياف، أو بعضها، وملائم بشكل خاص للعاطلين عن العمل.

وهناك ايضا تجارة الاراضي والعقارات، وهذه وان كانت مربحة غير انها بحاجة لمال منذ البداية، وأقل منها تحتاج المزارع الحيوانية "أرانب، دجاج، أبقار، ماعز وأغنام" وهذه كلها مربحة طالما تستوفي شروط العمل فيها.

وهناك ايضا التطريز والانتاج النسائي والبازارات، كما معارض القرطاسية والملابس الملائمة للتلاميذ في أوائل السنة الدراسية، وهذه ربحيتها سريعة طالما ان إدارتها سليمة وأمينة، وهذا يقال عن العشاء التقشفي أو الحفل الفني أو الرزنامة أو المزاد العلني على لوحة تراثية مثلا أو قطعة مطرزة أو مجسم.. حيث يتسابق المقتدرين للحصول عليها... كما ان المطاعم والكفانيريا وسيارة الأجرة مشاريع مربحة ولا تتطلب الكثير من النقود، ناهيك عن المشاركة في شركات الادوية والشركات العقارية..

وثمة فكرة اخرى قد تكون مناسبة ايضا لتأمين فرص عمل للحرفيين والعمال، كأن يعلن عن مركز خدمات لتلبية امور كالبناء والتبليط والقصارة والتمديدات الكهربائية والطراشة و.. كما اصلاح التلفزيون والافران و.. مع رقم هاتف ... واية عائلة تحتاج لمثل هذه الخدمة ما عليها سوى الاتصال بالهاتف أو المكتب المحدد على ان يتم التعاقد مع عدد من العمال والحرفيين القادرين على تنفيذ العمل بمهارة، وبتدرج تتكون سمعة طيبة الذكر.. وهذا تكاليفه بسيطة.

والحديث هنا يطول، وأهل الميدان خبرتهم واسعة، وأفضل معلم هي الحياة...

٢. الاكتفاء الذاتي، سيما الموقعي.. فلئن كان مطلوب من الحركة الثورية بمجملها الاكتفاء الذاتي، فالاحرى بمنظماتها المحلية والمناطقية وميادينها النشاطية الاكتفاء الذاتي ايضا.. فمنظمة الريف

يجب ان تكتفي ذاتيا، والنقابية يجب ان تكتفي ذاتيا، والروضة يجب ان تكتفي ذاتيا، والعيادة والصحيفة و...

فنفقات كل موقع أو نشاط محدودة، وعلى المعنيين ان يتدبروا امرهم، بل ان هذا هو التحدي الجديد الذي ينضاف للتحديات السياسية والتنظيمية والنضالية.. الخ، أما عن وسائل التدبير فهي مرتبطة بخصوصية كل موقع سواء من خلال نشاط اقتصادي ربحي أو جباية وتبرعات أو..

فمثلا ان دعوة عدد من أهالي القرية، سيما العائلات المقتدرة، لحضور عشاء تقشفي، أو ندوة يتخللها شرح الحاجة المالية للنادي أو المقر النقابي، كدفع الأجرة السنوية أو تأسيس مكتبة أو شراء طاولة تنس ودزينة مقاعد..الخ فمن الطبيعي ان يبادر البعض لتغطية هذه الحاجة.. وان دعوة عدد من الاطباء والفاعليات الصحية لأمسية ثقافية أو.. وفي غضون ذلك شرح الهم المالي للعيادة أو المستوصف قد يجد حلا ايضا، وان دعوة فريق من سيدات المجتمع وسواهن لمشاعدة فيلم عن الامومة أو صحة الطفل أو فيلم سياسي ملتزم، وبعدئذ وضعهم في صورة المصاعب المالية التي تواجهها روضة أو حضانة، على الأغلب ان يبادرن لتسديد المطلوب.. وهكذا دواليك.

والجريدة يمكن القيام بحملة مالية منظمة لدعمها في كافة المناطق من بين القراء والفعاليات.. الخ وهذا تقليد معروف تلجأ له الصحافة الثورية في غير بلد وبلد، والمكاتب الصحفية عليها الاكتفاء الذاتي كحد أدنى.. والطلبة المعوزين ينشأ لهم صندوق الطالب الذي يقيم عليه عدة شخصيات اعتبارية.. والتلاميذ يمكن تنظيم رحلات ومباريات لهم..

وأهم شيء ان تكون آلآلية أمينة وغير مطعونة، فالجماهير تريد ان تطمئن الى ان تبرعاتها لا تذهب لجيب فلان أو علان، بل تذهب فعلا لمجالها، وكلما كان التبرع علنيا ولميادين محدودة وأحيانا عينية كلما كان ذلك جذاب أكثر.. فمثلا تغطية عدة وصولات لمحامية كأتعاب لهم عن مجموعة أسرى، أو رزمة ألعاب لأطفال في روضة، أو جهاز طبي لمستوصف أو أجرة سنة لمقر نقابة..الخ، بل

يمكن توجيه الدعوة لأهل القطاع المحدد، الأطباء للعيادة، وسيدات المجتمع للروضة وهكذا...

والنشاط المالي الموقعي عالم رحب لا يمكن حصره في مقترحات قليلة، فهذا المخيم يبدع على طريقته وتلكم القرية على طريقتها وذاك الحي يبتكر طريقة ثالثة، والطلبة في الجامعة أو المعهد يضيفون شيئا فشيئا وهكذا...

والمهم استشعار المسؤولية والبدء فورا وبدون ابطاء، وتعميم أنجح التجارب، اذ من الطبيعي ان ينجح نشاط أو موقع أكثر من نشاط وموقع اخر، الامر الذي يوجب التعلم من التجارب الناجحة، كما مهم ايضا المثابرة، اي عدم ايقاف النشاط المالي، فمرة يقوم الموقع باستصلاح أرض وبعد ذلك يقيم عشاء تقشفي أو مزاد..الخ وهذا النشاط لا يعود بربح مالي فقط يلبي حاجة اساسية، بل ومن شأنه ايضا تفعيل الطاقات ايضا في زمن الخفوت، مثلما يربط الحركة الثورية بقطاعات جماهيرية جديدة.

ويا حبذا ان يبقى ماثلا في الذهن أن مزاج غالبية الناس يميل الى تلقي مقابل لقاء تبرعه، اي يميل لمشاهدة حفل فني أو فيلم من طراز معين أو مجسم خشبي في مناسبة معينة أو كرت معايدة أو... علاوة على الحافز المعنوي.. وقصارى القول ان هذا فن له اصول وما علينا سوى تعلمه واتقانه.

٣. تحويل النشرة لمشروع مالي، وعدم تحولها حتى اللحظة أو عدم محاولة الاغلبية أو الحجج الصغيرة والعاجزة التي تعكس هبوطا وتحاول قطع الطريق على تنفيذ الفكرة، كل ذلك لا يفيدنا قيد شعرة، بل ان البعض يئيس من مثل هذه الامكانية، لسبب أو لآخر، علما ان هذه امكانية واقعية وقابلة للتحقيق تماما ليس بالاستناد الى تجارب حركات ثورية عديدة بل بالاستناد الى تجربة اليسار ذاته، فالحزب الشيوعي مثلا امضى سنوات وسنوات يعتمد على نفسه، وكان عائدات النشرة خطا ثابتا في مداخيله، شأن الاشتراك بالضبط، بل ان منظمات لفصائل يسارية اخرى برهنت على نجاعه ايضا...وعلى

خطأ تام من يستخف بهذه الفكرة، ودعوني أدلل عليها على النحو التالي-:

لنفترض ان منطقة معينة توزع عشرة آلآف نسخة من كل عدد بحيث يكلف كل عدد شاقل واحد، ولو تهاونا وافترضنا ان خمسة الاف نسخة توزع مجانا أمام أبواب البيوت أو باليد للجمهرة الاكثر انسحاقا وفقرا.. الخ، يتبقى ٥٠٪ وهذه النسبة تصل للأيدي مباشرة وبعض هؤلاء اناس ميسوري الحال، بل ينبغي الوصول لمثل هؤلاء الناس ضمن علاقات الحركة الثورية بطبقات المجتمع المختلفة لغاية الاستحالة السياسية والسياج الحامي للحركة الثورية، وليس لغرض مالي فقط.. ودعونا نخمن ان نصف الرقم المتبقي يعود بثمن ٣ شاقل لكل نسخة، اي ما يعادل أكثر من ٧ آلآف شاقل وما تبقى بمعدل ٥-٧ شاقل، أي حوالي ١٥ الف، وهذا مجموعه ليس أقل من ٢٠ ألف شاقل.
ولما كنا نعلم بأهمية اصدار نشرة منتظمة شهرية بل نصف شهرية لايصال الصوت الثوري للجماهير بغية كسب عقول الناس وابعادهم عن الثقافة الاستهلاكية، وهنا لا حاجة للتعرض لمقومات الصحافة الثورية، نستطيع حينها توقع مداخل شهرية ثابتة.

ولأهداف اعلامية ومالية يتعين جرد قائمة بأسماء الأهالي في كل حي وقرية ومخيم لضمان ايصال النشرة لاعداد متزايدة من الاهالي، بل ينبغي الوصول لعائلات جديدة مع صدور كل عدد جديد.. وهذه مهمة جماعية لكافة المنظمات الحزبية والديمقراطية التي تستطيع ان تكفل بذلك لنفسها مداخل ثابتة خلال النشرة.. ولنا ان نتصور استثمار عائدات ٦ شهور في مشروع انتاجي دائم.. اي لا يجوز بحال من الاحوال الاستهانة بالنشرة كمشروع اعلامي ومالي، ولكن المشكلة تكمن في استحياء الانصار أو عدم اهتمامهم بجباية التبرعات من خلال النشرة علما ان الجريدة العلنية تباع للقراء، وهذا يبرر تجاريا بيع النشرة، وان كان الغرض أبعد من ذلك، اي امداد الجمهرة بمواقف وتحليلات الحركة الثورية وتغذية الجماهير بأفكار وقيم ثورية في معركة الصراع الفكري.. فالناس يستفيدون من النشرة وبتدرج يألفونها كمصدر معلوماتي وتعبوي، بل واعداد متزايدة منهم نجدهم معنيين باقامة علاقة أو تماس مع الحركة الثورية التي يعيبون عليها نسيانها لهم، ناهيكم بأن النشرة هي أفضل وسيلة للتزاور مع الجماهير، فهي جسر للوصول للناس بدون تحرجات وتأتي في اطار التعبئة السياسية للشعب، وهذا يحظى بالترحيب وليس النبذ.

٤. الاشتراك الشهري... والاشتراك علاوة على انه أحد شروط العضوية في الاحزاب والنقابات و.. فهو ايضا دلالة التزام طوعي يعبر من خلاله العضو عن اقتناعه بانتمائه الثوري الذي يجده مع كل مهمة يؤديها أو اشتراك يسدده، علاوة على انه التزام يقضي باستقطاع مبلغ من مداخليه الخاصة لصالح الحركة الثورية مدركا ان مجموع الاشتراكات تساعد في تغطية النفقات.. وينبغي ان نكون على يقين ان مجموع الاشتراكات يسدد مجالات انفاق ليست بسيطة حينما يكون الاشتراك شاملا وتصاعديا، بل ان نقابات مهنية على سبيل المثال تعتمد أولا وربما أخيرا على اشتراكات ورسوم الاعضاء، وهذا حال بعض النوادي.

وربما مفيد ايراد المثال التالي المرتبط بواقع حياتنا في الاسر: انتم تعلمون انه يندر ان تتبرع مؤسسات في الخارج لنا، وان الكانتين يكاد يغطيها بالكامل أو شبه الكامل اشتراكات الاسرى ذاتهم.. صحيح ان بعضنا لا يملك مقدرة لدفع ٣٠ أو ٤٠ شاقل شهريا لدعم الصندوق العام، ولكن الصحيح ايضا ان تمويل الصندوق يتم بصورة أساسية من اشتراكاتنا، بل ولولا هذه الاشتراكات، سيما للاكثر قدرة منا، لما وجدتم في الصندوق ما تدخنونه، هذا الدخان اللعين المضر للصحة الذي يستهلك نحو ثلثي الميزانية، ولما وجدنا بالتالي حبة ملبس أو قطعة شوكولاتة للزيارة أو بكيت بزر أو بسكويت أو قنينة عصير للمناسبات.. وباختصار اننا نعتمد على انفسنا أولا، أو بصورة ادق على الاشتراكات.. وهذا يمكن سحبه على أنشطة عديدة خارج السجن.. ان اقناع ألف عامل نقابي بتسديد اشتراكاتهم شهريا، أو ألف من النسوة بدفع اشتراكاتهم لاطار المرأة شهريا أو الهيئة العامة للنادي أو أعضاء المنظمة الحزبية، فهذا يتيح دخلا ثابتا غير مشكوك في قيمته.

غير ان العيب الملازم للحركات اليسارية الفلسطينية انها لا تتابع هذا التقليد بدأب، حتى ان كادرات لا تسدد اشتراكاتها، وبالتالي فهي لا تضبط ميدان عملها والاوضاع التي تقودها، الى درجة ان نصف العضوية تقريبا لا يلتزم بالاشتراك الشهري.. وهذه ثغرة مخجلة حقا اضرارها في هذه اللحظات أضعاف اضرارها في أعوام سابقة ما قبل تفاقم الازمة المالية.

وفي ميدان زيادة المداخيل لا تفوتني الاشارة الى ان الامكانات غير معدومة تماما للاقتراض من الجماهير والأوساط البرجوازية على أساس وصل

قبض رسمي يصار لتسديده حالما تنفرج الازمة، وهذا يمكن ان تتولاه شخصيات محترمة لها سمعة طيبة تحوز على ثقة المقرضين.. ومسيرة الحزب الشيوعي الصيني والبلغاري تنطوي على شيء من هذا القبيل.

ولا أنسى في هذا السياق ضرورة منع الهدر، اي لا يجوز تبديد الممتلكات والامكانات المتواضعة أصلا، فالمبلغ الضروري جدا ينفق فقط بحيث يعطي النتائج والفوائد المتوخاة، والاملاك تصان سواء كانت سيارة أو فرش أو تعاونية أو.. وعيب ومئة عيب ان تربح مكتبة خاصة بينما تخسر مكتبة الحزب، وان تربح مزرعة ابقار خاصة وتخسر مزرعة ابقار تعاونية.. ان هذا يؤشر على تدهور اخلاقي من عدم الاخلاص واللامبالاة.

ولكن جنبا الى جنب مع زيادة المداخيل يتعين خفض الانفاق من خلال سياسة تقشفية جذرية لا تهاون فيها، بل ويملي جذريتها الحالة المالية الصعبة جدا التي يواجهها اليسار هذه الايام، وكان ممكنا اتباع بتقشف مالي عادي غير ان ما آلت اليه الاوضاع تفرض الجذرية، وكما اراها فهي على النحو التالي-:

١.تقليص التفرغ الى نسبة لا تزيد عن ١٪ او انهاء التفرغ تماما... طبعا لا نتجاهل ان التفرغ ضروري والغاؤه يعود بنتائج سلبية على العمل، غير ان "الذي يدفعك على المر هو الامر منه".. وبصراحة يصعب تصور حركة ثورية بدون متفرغين، غير ان الحال غير المألوف يفرض اشياء غير مألوفة.. والمتفرغون مستويين-:

أ- المحترفون وهؤلاء هم الأنوية القيادية الذين يضعون انفسهم ملك الحزب حتى النخاع ٢٤ ساعة في الـ ٢٤ ساعة، فهم رأس الحزب وعموده الفقري.. وهم عادة القادة والهيئات المركزية الذين يتحملون اعباء ومسؤوليات كبيرة تتطلب كل وقتهم وكل طاقتهم وكل مواهبهم على مدار الساعة.. وبطبيعة الحال ان انتاجيتهم عالية وساعة الانتاج لديهم تعادل ساعات وأيام من انتاجية غيرهم.. وعليه فهم ضرورة حزبية نضالية، وهؤلاء نسبتهم لا تتعدى آحاد في الالف.

ب- المتفرغون الذي تستوجب المهام وجودهم على رأس اعمالهم ٨ ساعات يوميا، وبالتالي يصعب الاستغناء عنه مثلما يصعب ان يجمعوا في نفس الوقت مهامهم الثورية ومهام اخرى مهنية تؤمن لهم رغيف الخبز، مما

يوجب تفريغهم والصرف عليهم... ويصار لتبديل مهامهم بين الوقت والاخر، فهم ملكية عامة تستجيب لمهام العمل الثوري، وكفاءاتهم تتعادل وتفي بمتطلبات مهامهم.. اي انهم ليسوا مرتزقة أو يمكن الاستغناء عنهم... فكل من يمكن الاستغناء عنه بدون الحاق اثار سلبية ملموسة لا حاجة لتفريغه بالأساس.

ونسبة التفرغ لا يجب ان تزيد عن آحاد في المائة، غير ان الوضع المالي الصعب يقتضي تقليصهم أو شطبهم بالكامل، واجتراح تدابير تستعوض عن شطبهم.

فمثلا يتعذر وجود نقابة بدون ان تكون مفتوحة معظم ساعات النهار، اي انها بحاجة لمتفرغ، **فما العمل طالما يتوجب الشطب؟**

الجواب يمكن جمع عدة نقابات في مقر واحد، أو مقر واحد يضم العمل النقابي والجماهيري الخدماتي عموما كالنشاط الصحي والزراعي والمرأة.. أو جمع كل هؤلاء في نادي.. الخ وهذا يتيح امكانية الاكتفاء بمتفرغ اداري أو سكرتير واحد، أما المراجعات الرسمية للنشاط المحدد فينظم لها مواعيد ملائمة تناسب دوام المهنية المعنية.. كما يمكن التناوب في الدوام لضمان فتح المقر بدون موظف كامل الدوام، اي التطوع سيما من بين الخريجين أو العاطلين عن العمل... واريد ان اذكر ان صحيفة الحزب الشيوعي الكندي تقوم على التطوع التام وان مديرها العام هو طالب يتواجد عدة ساعات يوميا لمهام السكرتاريا، وكان هذا حال الشيوعيين في المانيا الغربية الذين لاحقهم الاحتكار الرأسمالي بين طرد من وظائفهم أو اغلاق الباب في وجوههم، فاعتادوا تأدية مهامهم بدون تفرغات.

كما يمكن توسيع المستويات ليس لأغراض التفكير الجماعي والديمقراطية، بل ولاعادة توزيع الاعباء، اذ يمكن ان يؤدي اثنين أو ثلاثة مهام تفرغ واحد وعلى ذلك قس.

وهنا لا يجوز اختتام هذه النقطة بدون النقد العالي لظاهرة التضخم في المتفرغين، التي طالت اليسار بقدر او بآخر.

ومؤلم حقا شطب الغالبية الساحقة للمتفرغين وتسريح غالبية المقاتلين في لبنان، بينما دأب هؤلاء على النضال العنيد والخطير سنوات وسنوات، ولكن هذا هو أهون الشرين وحسب.

والشطب بداهة يأخذ في العادة شكلا متدرجا حتى يصل نهاياته التي لا مفر منها في هذه اللحظات العسيرة.

٢.انهاء المساعدات الاجتماعية وشطب التقاعد... والمقصود بالتعاقد توقيع اتفاق مع كفاءة معينة لمدة معينة أو ساعات محددة في اليوم لتأدية أعمال معينة، كالتعاقد مع مخرج أو صحفي أو/موسيقي أو سائق أو.. وهذه ظاهرة ملازمة للساحات العلنية، أما الارض المحتلة فلم تعرفها كما يبدو.

وهؤلاء لا مناص من إنهاء التعاقدات معهم أو تجنيدهم كمتطوعين وحسب. أما المساعدات الثورية الاجتماعية فهي تشمل أوجه كثيرة، كالمساعدة الجزئية بمناسبة الزواج، سيما قطاع المتفرغين، وبمناسبة المرض أو المنح الجامعية، أو مساعدة ذوي الأسرى الأكثر عوزا علما ان بعض هؤلاء يجب الاستماتة لتأمين مساعدة ولو متقطعة لهم سيما وان مخصصات الأسرى قد توقفت منذ عامين ويزيد من قبل صندوق الأسرى سواء كانوا متزوجين أو معيلين أو عزابا، كما المساعدة لمرة واحدة حالما يطلق سراح سجين أو العاطلين عن العمل ممن يحملون أعباء عائلية أو..

طبعا لا يجوز ان ننسى الخدمات الاجتماعية الجماهيرية كرياض الاطفال والحضانات والعيادات والارشاد الزراعي والعمل التطوعي.. الخ فكل ميدان من هذه الميادين ملزم بالاكتفاء الذاتي وتقليص مقراته وخدماته بما يتوازى مع قدراته ومداخيله، اي سحب نفس المبدأ الذي ينطبق على اليسار اجمالا عليه ايضا.. اذ لا صرف أكثر من المداخيل بتاتا.. ولا تسديد لأية عجوزات بتاتا.. اذ لم يعد هناك صندوق قادر على تسديد العجوزات.. واي نشاط يورط نفسه في انفاق أكثر من مداخيله هو ملزم بمعالجة مشكلته بنفسه طالما لم يحصل على مأذونية رسمية تكفل له تسديد العجوزات المقرة في موازنته.

٣. إيقاف كل المصاريف غير الضرورية والحاسمة.. اي منع تجديد المفروشات أو شراء سيارات أو اجهزة مكتبية سيما وان الساحة غطست في مرض المكتبية الشكلانية، فالمقر والسكرتيرة والفاكس والكمبيوتر والصالون غدت

تسبق العمل!! الأمر الذي يستدعي اجتثاثه تماما!! وتقليص المقرات واستئجار مقرات أرخص منها... ويكفي ان نذكر ان قيادة الاركان الفيتنامية التي هزمت حلف الأطلسي وعلى رأسه الغول الامريكي هي حتى اللحظة بدون بناء، كمقر لها، اي انها لم تنفك تعيش في الخيام والمعسكرات كسواها من الجنود.

ولنتذكر حياة الثورة في السنوات الاولى بعد هزيمة حزيران عام ٦٧، فحينها كانت مكاتبها البسيطة داخل المخيمات، وقواعدها تعيش حياة فدائية حقيقية، ومنذ ان انتقلت مكاتبها الى الشقق الضخمة والشوارع الراقية وتحولت الى ما يشبه فرع الشركات الرأسمالية أصاب الثورة الصدأ وانقلمت روح المتبقرطين والاوساط المتأثرة بهم، وحلت الطقوس الادارية المعيقة والمنفرة.

وأريد ختاما ان انهي حديثي بلفت نظركم الى حقيقة ليست جديدة عليكم، اي نسبة البطالة المتزايد في مجتمعنا سيما بعد الطوق التجويعي الذي فرضه رابين على الاراضي المحتلة، فأكثر من نصف الطبقة العاملة عاطلة عن العمل اليوم، وانتم سوف تتحررون ذات يوم فيما اغلبيتكم من العمال والمثقفين الذين لن تنفتح لهم بوابات العمل بسرعة، وأقلية فقط منكم يمكن ان يعثر على عمل، وما اراه توجها انقاذيا للعديد من العاطلين هو المشروع الحر الصغير الذي يحتاج الى رأسمال تأسيسي بسيط (مطعم صغير – كافتيريا ساندويشات/بقالة/مزرعة ارانب او دجاج/تسمين خراف/فلاحة ارض)، حتى أبناء المخيمات أو المدن الذين لا أرض لهم يمكن ان يعثروا على ضالتهم في الريف من خلال نظام الضمان أو المحاصصة، بل وهناك الكثير من أصحاب الاطيان يرحبون بمن يعتني بارضهم بدون ان يطالبوه بأي ريع.

وباختصار عليكم اكتساب نفسية الفلاح والحرفي والتاجر الصغير، أما المحظوظين أو الذين تقسو عليهم الحياة اقل من سواهم ممن تحتضنهم عائلاتهم وتؤمن لهم ما يمكن ان يوفر لهم دخلا ثابتا أو فرصة عمل أفضل، فهؤلاء قلة ولكن لعلهم يسندون رفاقهم ايضا، ليس بمساعدتهم بمصروف جيب، فهذا وان يحصل احيانا، ولنتذكر هنا تجربة الصديقين ماركس وانجلز حيثما صرف الثاني على الاول حوالي عقدين من الزمن حينما كان الاول متفرغا للعمل الثوري وأفقر من فأر الكنيسة، وانه تناول البطاطس أسابيع متواصلة كما جاء في مراسلاته، بل ليموت ابنه من سوء التغذية ولتلحقه امه ايضا وماركس بعد سنوات بالنظر لقلة العلاج.. فلولا انجلز لماتت عائلة ماركس منذ الخمسينات من القرن ١٩.. ولنتذكر من تاريخنا العربي ايضا أهل المدينة حينما رحبوا بأتباع الدعوة

الاسلامية حينما فروا من مكة، وليقتسموا معهم بيوتهم، بل ها هي الجالية الفلسطينية في امريكا تستقبل لأسابيع فرقة الفنون الشعبية المكونة من عشرات الشباب والشابات حينما سافروا لعرض عملهم الفني بدون تكليفهم أعباء الاقامة في الفنادق التي لا يقوون عليها.

فالمساعدات الرفاقية وان كانت جدية، غير ان الاكثر جودة هو العمل بالمثل الصيني القديم "بدل ان تعطيني كل يوم سمكة علمني صيد السمك"، اي ليحاول صاحب الباع توفير فرصة عمل لمن لا يملك عمل، بل وعليكم التوجه للفاعاليات الاقتصادية البرجوازية والمؤسسات الوطنية طالبين تعيين عمالا وموظفين ممن يحملون أهلية مناسبة.

ان استقراركم المالي، ولو في أدنى الحدود، هو شرط ضروري للصمود السياسي في المرحلة الجديدة، اذ ان المسيح عيسى قال "ليس بالخبز وحده يعيش الانسان"، اي قصد حاجته (أي الانسان) للاخلاق والروحانيات ايضا.. فما علينا سوى القول انه ليس بالسياسة وحدها يعيش الانسان وانما انه بحاجة للخبز ايضا لكيما تقتات عائلته ويناضل.

وشكرا لاصغاءكم.. وآسف لهذا الحديث العريض.

كيف ننظر للمشروع التنموي الفلسطيني

اسمحوا لي ان أفرش حديثي بما يلي:

الوعي الاجتماعي والسيكولوجيا النفسية الاجتماعية هي انعكاس جدلي للواقع الاجتماعي، لذا ليس صدفة ان الوعي الوطني والنضال الوطني والعاطفة النضالية تنشأ كلها في ظروف الصراع ضد الاستعمار، فوجود الاستعمار والاحتلال للأرض يخلقان وعيا وطنيا ونفسية نضالية.

والواقع التاريخي، أي مجمل الممارسة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية... هو الأساس المادي الذي ينبري من يقوم باستقرائه واستكشافه (أي التحليل النظري)... **والمعرفة الانسانية** يمكن تصنيفها الى درجتين-:

١) **المعرفة الحسية** التي تنعكس عبر الحواس الخمس، اي العين والأنف والأذن واللسان والملمس، فتنتقل المؤثرات الخارجية بواسطة هذه الحواس الى الدماغ.
٢) **المعرفة العقلية** التي تتم في القشرة الدماغية وتحتها كعملية ذهنية تنتج الوعي المجرد والمفهومات والنظريات... الخ، على هذا يبرهن علم النفس.

وموضوع تداولنا اليوم هو الاقتصاد حصرا، وبالتالي رؤيتنا التنموية الاقتصادية .. ***فما علاقة موضوعنا بالوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي؟***

الاقتصاد ....

هو مجمل عمليات البناء التحتي في ميدان الانتاج والتوزيع والتبادل، واسلوب انتاج معين يتوافق معه بنية فوقية ملائمة، وكل طبقة اجتماعية يتقرر موقعها بناء على موقعها من وسائل الانتاج وأسلوب حصولها على المنتوج، وبالتالي موضعها الطبقي يجعلها تحمل فكرا يخدم مصالحها، ومن هنا جاءت كلمة لينين بأن "*السياسة هي اقتصاد مكثف*"، اي ان سياسات أية طبقة انما تخدم مصالحها الاقتصادية أولا، ومصالحها المادية عموما. والبرجوازية بداهة لا يمكنها ان تتبنى سياسات مضادة لمصالحها الطبقية، ولما كانت الأوضاع الطبقية للناس ليست واحدة فمن الطبيعي ان تكون مصالحهم ليست واحدة، بل ان الواقع الطبقي المتباين ينتج عنه أيديولوجيات وسياسات ونفسيات متباينة ايضا.

وكيلا يساء الفهم -- فان كانت السياسة اقتصاد مكثف فهذا لا يعني ان السياسة انعكاس ميكانيكي للاقتصاد بل ثمة علاقة جدلية بينهما، فالسياسة الصحيحة تخدم مصالح الاقتصاد وكما ان بعض الافراد ينتقلون بفكرهم الى مواقع طبقية اخرى، اي ثمة استقلالية نسبية من جهة وتبادلية من جهة اخرى.
والان نستعرض ما يلي-:

عشية عدوان ٦٧ التوسعي كانت الأرض الفلسطينية مقسمة من حيث السيادة، فالضفة الغربية ملحقة بالسيادة الاردنية، بل وتم أردنة شعبنا بتحميله

جواز سفر اردني، بينما القطاع وقع تحت الحكم المصري، وكان الواقع الاقتصادي متخلف للغاية. ومما زاد هذا التخلف سياسة التمييز الاقليمي التي اتبعها النظام الاردني، وبموجب هذه السياسة كان يمنع قيام أية منشأة صناعية أو مشروع اقتصادي في الضفة رأسماله أكثر من عشرة الآف دينار بينما أجاز ذلك في عمان والاردن، وبالتالي بقي الطابع المسيطر في الضفة هو الانتاج الفلاحي في المجال الزراعي. وذات الشيء يقال عن غزة، والزراعة في الأراضي المحتلة عام ٦٧ كانت تشكل ٧٠٪ من الدخل القومي وكان يعمل فيها حوالي ٦٩ ألف من الفلاحين، أما العمل المأجور فيها فهو نادر وضيق للغاية ويكاد ينحصر في الأغوار وبعض مزارع القطاع، ذلك ان الملكية الفلاحية هي السائدة كما الأساليب البدائية، بينما المزارع الرأسمالية والأساليب المدنية كانت نادرة، وهذه مرحلة تاريخية استمرت عقودا وعقودا في فلسطين، والجديد فيها ان علاقات الانتاج الاقطاعية قد اندثرت في الثلاثينات، وعلى اثر نكبة ٤٨ حينما استولى الغزو الصهيوني على ٧٨٪ من الاراضي. والنكبة عنت فيما عنت التشريد الجماعي واغراق الضفة والقطاع بالمهجرين، وحتى هذه الايام يشكل اللاجئون في قطاع غزة نحو ٧١٪ من عدد السكان بينما هم ٣٠٪ في الضفة.

والمدينة الفلسطينية، شأن المدينة في العالم النامي عموما، نشأت كمركز اداري وخدماتي ضمت فيما ضمت الفئة المثقفة والفئة التجارية، بخلاف المدينة في المجتمع الاوروبي والتي نشأت كمدينة صناعية، وفي قلب المدينة الفلسطينية تكونت الحركة السياسية والتي غلب عليها ما قبل عام ٦٧ الطابع العروبي (القوميون + البعثيون) كما ان الشيوعيين حملوا اسم حزب اردني، وفي عام ٦٤ تشكلت م.ت.ف بقرار من مؤتمر القمة العربية ردا على تحويل اسرائيل لنهر الاردن وتحدث ميثاقها عن تحرير فلسطين ولم تتطرق للضفة أو القطاع، ولائحتها الداخلية اعتبرت كل مواطن فلسطيني عضو طبيعي فيها، وهذا يعني طغيان المسألة الوطنية وهذا طبيعي، وبعدئذ تصاعد الوعي السياسي الوطني سيما ما بعد هزيمة حزيران ٦٧ واحتلال الضفة والقطاع، اي ان المسألة الوطنية والوعي الوطني هما المحور المركزي كانعكاس للمرحلة، اذ ان الوعي عادة هو انعكاس للواقع المادي.

ضمن هذه الارضية انبثقت الثورة الفلسطينية المعاصرة وفصائلها المتعددة، وحيثما تواجدت التجمعات الفلسطينية ولدت فصائل وترعرعت ليتأثر بعضها بسياسات الأنظمة العربية. وعلى سبيل المثال كان في الاردن عام ٦٩ حوالي ٧٢ تنظيما حسبما كتب هيكل في احدى مقالاته الاسبوعية، والظاهرة الفدائية

حينذاك كانت قوية جدا لدرجة انها احدثت ازدواجية سلطة – – سلطة الثورة من جهة وسلطة الملك من جهة اخرى، وهذه الازدواجية مؤقتة كما يعلم علم التاريخ، اذ لا بد من حسمها، وبادر الملك بدعم من أمريكا التي شكلت غرفة عمليات بقيادة الرئيس نيكسون، كما اعترف الاخير، لقيادة الصراع، فكانت مذابح أيلول الأسود عام ٧٠، والتي كانت الهزيمة الحقيقية الاولى للثورة المعاصرة وبالتالي لم تكن قدرا لا مناص منه، وانما أمكن ان تكون النتائج عكسية فيما لو بادرت الثورة، غير ان البرجوازية اليمينية أمسكت عن ذلك ولم ينجح اليسار في دفعها لتبني قرار اسقاط النظام الاردني.

ورحلت البندقية الى لبنان بعد ان تقلص عدد فصائلها الى ١٢ تنظيما، وتنامت قاعدتها ثانية ولكن لتواجه الحرب الأهلية عام ٧٥-٧٦ وما تلاها من اجتياح سوري ... مرحلتنا السياسية الحالية هي عصيبة، ربما أكثر من أيلول ٧٠ وتموز ٧١، وأي تنظيم لا يتأقلم مع المرحلة الجديدة هو مهدد بالتحلل، وهذا لا يعني التساوق، بل الثبات على المبدأ والاهداف ولكن ضمن تكتيكات وابتكارات تحمي وجوده وتنميته.

وباختصار ان أهم ما يميز تجربتنا الفلسطينية هو تعرضنا لغزو استعماري استيطاني ذي طبيعة توسعية – اجلائية – عنصرية شرد شعبنا واستولى على أرضها وهودها. وتجربة الشعب الجزائري أو الجنوب الافريقي أصابها ما أصابنا ولكن بكثافة أقل بكثير، وهذا نأتي عليه عند الاستعراض ومقارنة عدة ثورات معاصرة.

والمهم ان شعبنا اليوم لا يملك من أرضه سوى ١٤٪ من عموم فلسطين، اي ان شعبنا الذي يشكل ١٧٪ من اسرائيل يملك ٤٪ فقط، أما مساحة الضفة ولاقطاع التي بالكاد تصل ٢٢٪ من فلسطين التاريخية فقط تمت مصادرة ٥٥٪ منها حسب كتابات الباحث الاسرائيلي "بنفينستي" ، اي ان ما يقع تحت أيدينا هو ٤٥ ٪، بما لا يتعدى ١٠٪ من فلسطين.

ويمكن ان نحدد الاتجاهات والمفاصل السياسية الاسرائيلية التالية حيال الاراضي المحتلة عام ٦٧:

١- قبل عام ٧٠ تقدم *آلون* بمشروعه القاضي باستيطان الاغوار والقدس الشرقية وعدة مناطق، وقد نفذت حكومات حزب العمل هذا المشروع وأكملت العملية حكومة الليكود.

٢- فتح أبواب العمالة أمام الأيدي الفلسطينية للعمل في المشارع الاقتصادية سواء لتلبية حاجات الاقتصاد الاسرائيلي أو لامتصاص تصاعد العمل الفدائي. ولمدة عامين تقريبا، بعد عام ٦٧ ، أبقى الاسرائيليون بوابات العمل ضيقة جدا، لا تتعدى استيعاب ٢٠ الفا، أما بعدئذ فقد اتسعت البوابات لتستوعب نحو ١٤٠ ألفا في أواخر الثمانينات.

٣- فتح الجسور كاجراء اتبعه *ديان* بغية تنفيس احتقان الجماهير وتسهيل هجرتهم وفرض الضرائب عليهم والتي توجت بالضريبة الاضافية، وكان معدل أرباح الاسرائيليين من الجسور ومطار اللد سنويا حوالي ٢٠٠ مليون دولار، وأكثر من هذا الرقم الضرائب.

٤- اغراق السوق الفلسطينية بالمنتوجات الاسرائيلية الى درجة ان السوق الفلسطينية تأتي بالدرجة الثانية بعد السوق الامريكية في استيراد البضائع الاسرائيلية حيثما تبلغ ١٢٪ من صادرات اسرائيل. بل ان ٩٢٪ من مبادلاتنا التجارية هي من السوق الاسرائيلية ، وحجم مشترياتنا السنوية تصل لنحو ٧٠٠ مليون دولار، هي مجموع ما تحصل عليه العمالة الفلسطينية سنويا من العمل في المشاريع الاسرائيلية بل وأكثر من ذلك، اي ان ما تأخذه باليد اليمنى تدفعه باليد اليسرى.

٥- الاستيلاء على المصادر المائية.. بعد مصادرة الاراضي، والاحصائيات تشير الى ٧٠٪ من مياه الضفة الغربية يستهلكها الاسرائيليون، وما يستهلكه المواطن الاسرائيلي يعادل ستة أضعاف ما يستهلكه الفرد الفلسطيني، هذا وقد حفروا أبارا عميقة داخل منطقة ٤٨ لتجميع مياه الضفة فيها، فيما منع شعبنا من حفر أبار عميقة في الضفة وغزة.

كما هذا جعل اقتصادنا الفلسطيني تابع بنيويا للاقتصاد الاسرائيلي، فهو تابع وملحق وغير قادر على الانفكاك والاستقلال الا باتخاذ قرارات سياسية جريئة واتباع خطة اقتصادية تنموية انتاجية.

والاحتلال حجر اقتصادنا، فمثلا كان يعمل في الصناعة عام ٦٧ حوالي ١٦-١٧ ألف عامل بينما يوجد ٥ مصانع فيها أكثر من مائة عامل وهذا الحال لا يزال قائما لليوم.. فيما تم تشويه وتخريب الزراعة وليس بمصادرة الاراضي فقط بل وبتراجع قوة العمل في الزراعة حيثما كانت ٦٩ ألف وعادت اليوم الي نحو ٢٢ الف، مما أدى الى تشويه البنية الاجتماعية بتقليص العنصر الفلاحي، فيما مجتمعنا ليس صناعيا، كما فصل قوة العمل عن البنية الاقتصادية الوطنية حيثما باتت تعمل غالبيتها في المشروعات الاقتصادية الاسرائيلية.

ولا يجب ان ننسى كعبارة توضيحية (ان الفلاح،كما العامل، مقولة اقتصادية – اجتماعية وليس جغرافية)، بمعنى ان الفلاح لا يقصد به ساكن القرية وانما من يعمل في مجال الزراعة كمالك لاستثماره فلاحية بغض النظر عن مكان سكنه، وكذا العامل ايضا فهو الذي يبيع قوة عمله كأجير لدى الرأسمالي مقابل أجره.

والطبقة العاملة تزايدت واتسعت قاعدتها بصرف النظر عما اذا كانت *طبقة في ذاتها*، اي انها أجيرة أم طبقة لذاتها، اي انها تعي مصالحها وتحمل فكرها وتنظم صفوفها وتصارح عدوها، وهي على العموم انبثق عنها ممثلها السياسي، اي اليسار -- علما انه لا يمكن تجاهل حقيقة كدح أكثر من نصفها في المشاريع الاسرائيلية بينما لا يستقر معظم هؤلاء في عملهم، فهم دائمو التنقل من ورشة الى اخرى ومن رب عمل الى اخر، مما يعيق تبلورهم الطبقي، وذات الشيء يقال تقريبا عن تفتتهم في الصناعة الوطنية حيثما يعمل ٩٢٪ منهم في ورش لا يتعدى عدد العاملين فيها بين ٢-٩ عمال، هم أساسا أبناء عائلة واحدة من بين خريجي الثانوية والمعاهد والجامعات. فسنويا يتقدم لامتحان الثانوية ما يربو على ٢٢ ألف بينهم ٦-٨ يلتحقون بالدراسة العليا فقط. والتعليم الأكاديمي يفوق كثيرا حاجة مجتمعنا في الوقت الذي يتعين توسيع الدراسة المهنية.

ولما كانت المرحلة التاريخية هي مرحلة تحررية وطنية فمن الطبيعي ان يكون المظهر الرئيسي للوعي هو المظهر السياسي، بينما يأتي المظهر الطبقي في الدرجة الثانية.

وترتيبا على ما تقدم ما هي أهم مرتكزات مشروعنا التنموي الاقتصادي الذي لا بد من تمايزه عن المشروع البرجوازي -- اذ في التحليل الاخير ان الفكر اليساري ينتج نهجا سياسيا مغايرا للنهج السياسي البرجوازي، وهذا في غنى عن الشرح سيما اذا تتبعنا مسار وتكتيكات الثورة الفلسطينية ، وفي الوقت

الراهن يحتدم الصراع بين النهجين في ضوء غطس البرجوازية في الخطة الامريكية – الاسرائيلة، بينما يعلن اليسار الحرب عليها. ولو تطرقنا لكل الميادين لوجدنا صراعا بين اليسار واليمين ليس في الداخل فقط بل وفي لبنان وسوريا، حيث الركيزة الثانية للثورة وحيث هناك حوالي ٧٠٠ ألف فلسطيني.
والمرتكزات هي-:

١- القتال الجاد لاستعادة الارض المصادرة، اذ لا يوجد شعب يعيش معلقا في الهواء، وبدون أرض لا يمكن اقامة كيان سياسي، والحديث يدور هنا عن استعادة أكثر من نصف الضفة والقطاع صادره الاحتلال للمستوطنات والمناطق الامنية. والأرض كما هو معروف هي جوهر الصراع الفلسطيني – الصهيوني الاسرائيلي.
٢- الاعتماد على الذات أولا والابتعاد عن المديونية، اي الاعتماد على الرأسمال الفلسطيني أولا سواء كان في الداخل أو الشتات لتشجيعه وضمان فرض قيود على منافسيه من الأجانب سواء كان رأسمالا أو بضائع، وكذا استثمار الفائض، اي الارباح التي ينتجها الشغيلة في الاقتصاد، وعدم تبذيرها بالكماليات أو تهريبها للبنوك الاجنبية، وسابقا تمت الاشارة لمخاطر المديونية.

٣- توجيه الاستثمار للحقل الانتاجي الحيواني الصمودي أولا وثانيا، اي قطاع الصناعة والزراعة بما يلبي متطلبات المستهلك الفلسطيني ، ومنح المشروعات ذات الأمد البعيد وعدم حصرها في السلع الاستهلاكية سريعة الربحية وقليلة الفائدة الاقتصادية كالتوظيف في المشروبات الغازية ومواد التنظيف و .. اذ ينبغي تجاوز هذه الذهنية الجبانة ضيقة الافق. أما الانتاج البراني فيأتي في درجة لاحقة، والمقصود التعاقدات مع السوق الاوروبية، اذ ان العالم الرأسمالي لا يهمه سوى ربطنا اقتصاديا به كتابعين لاحتياجاته وليس شيئا أخر.

٤- استصلاح الأراضي وتنشيط الاستثمارة الفلاحية كما الحرف الصغيرة بل وتوجيه الدعم الاساسي من هبات أو ضرائب محلية لهذا الحقل جنبا الى جنب مع قطاع التعليم والصحة لتأمين تعليم مجاني وطبابة مجانية، علاوة على الاقتصاد المنزلي والطبيعي والتوفيري.

٥- تنشيط قطاع السياحة بالنظر لغني بلادنا من مؤسسات تراثية ودينية، كما مناخ معتدل وجميل مما يجعل الاقبال السياحي على بلادنا نشطا، وهذا يرتبط به بداهة صناعة سياحية ملائمة.

٦- الحرص على الثروات وعدم هدرها، وكذا اجتناب البطالة المقنعة، وهذا يستدعي استثمار الثروات حتى اخر قطرة، وتفادي التعاقدات الخاطئة وبيع الصادرات بأسعار زهيدة، أو الغرق في استهلاكيات لا جدوى منها، كما ضمان وتيرة انتاجية عالية لساعة العمل وعدم اهدار الوقت سدى، أو تشغيل ايدي عاملة غير ضرورية في الوحدات الانتاجية والوظيفية.

٧- فك الارتباط بالاقتصاد الصهيوني وتركيزه على المحيط العربي كدائرة اولى والبلدان الأكثر تطورا في العالم النامي ثانية ومنها الى البلدان الاشتراكية والعالم.

فالاحتلال لم يحجز تطورنا فحسب بل ودمر آليات تطورنا، نهب ثرواتنا بينما المحيط العربي هو أفضل حماية لاقتصادنا وتوجهاتنا السياسية الاستقلالية، وهذا ينطبق على بعض الحلقات التي كسرت تخلفها في العالم النامي والتي يمكن لقانون تبادل المنفعة معها ان يعمل فتلبي بعض مطالبنا ونحن بالمثل بدون شروط سياسية أو تبادل لا متكافىء. والأمر نفسه ينسحب على العلاقة مع ما تبقى من معسكر اشتراكي ، فالصين وكوبا وكوريا الشمالية وفيتنام لديها ما يفيدنا وما نحتاجه فعلا، وليكن واضحا ان أية تبعية اقتصادية للغرب الرأسمالي أو الاسرائيلي سيليها تبعية سياسية وثقافية واخلاقية وبالتالي نزعة استهلاكية على كل الصعد تمشيا مع مقولة "برجنسكي" مستشار الامن القومي للرئيس الامريكي كارتر ، وهو منظر رأسمالي كبير بعض كتاباته موجودة في المكتبات المحلية، الذي قال "*أمريكا تنتج والعالم يستهلك* " ، سلعا اقتصادية وفكرية وفنية ، الأمر الذي يهدد هوية وتراث وثروات واستقلال وقيم الشعوب.

وعليه فأقصى ما يمكن تقبله مع العالم الرأسمالي التكنولوجي هو الافادة من التناقضات بين الشركات الاحتكارية بما يفيد مسيرة تحررنا ونهضتنا.

٨- تدعيم المظاهر الاقتصادية التعاونية، وفي حالة امتلاك القرار السياسي ربط التجارة الخارجية بالسلطة السياسية وبناء قطاع عام شريطة ان يعكس النظام السياسي ارادة الجماهير، وليس فئات برجوازية بيروقراطية، كما تحظير الجمع بين مهام قيادية سياسية ونشاطات اقتصادية خاصة للحيلولة دون تجيير المنصب السياسي لخدمة المصالح الخاصة.

وانتم تعلمون ولا شك ان اليسار الفلسطيني كان على امتداد السنين ينتقد السياسة المالية لـ م.ت.ف حيث نما جهاز بيروقراطي مسرف افسادي، كما تضخم لحد غير معقول جيش المتفرغين وانفقت الاموال على الأنشطة المظهرية، واهمل بناء اقتصاد وطني صمودي في الداخل -- حتى ان ما يسمى بأموال الصمود كان ينفق حوالي ١٠٪ منها فقط على المضمار الصناعي وما دون ذلك على الخدمات وشراء الضمائر وكسب المستزلمين.

واليسار هذ الأيام قلق جدا يشهر بدأب بالرؤية الاقتصادية البرجوازية اليمينية التي تربط نفسها بالاعداء القوميين من امبرياليين كما تعتمد بصورة حاسمة على دعم المركز الامبريالي والبترودولار الرجعي وعلى الكمبرادور الفلسطيني من ناحية اخرى.

********** والسلام **********

قـراءة فـي اتفـاق القاهـرة

في مبنى دار "الأوبرا" بالقاهرة وسـط احتفـال مهيـب فـي الرابـع مـن أيـار لعـام ١٩٩٤ (واختير هذا اليوم ليتوافـق مـع عيـد ميـلاد عـراب المفاوضات الاسرائيلية الفلسطينية، الرئيـس المصـري حسـني مبـارك) تـم التوقيـع علـى مـا عـرف بـ "**اتفـاق القـاهرة** " ... وقـد وقعـه عـن الجـانب الفلسطيني رئيس م.ت.ف ياسر عرفات، وعن الجـانب الاسـرائيلي رئيـس الوزراء اسحق رابين، وبشهادة كل من وزيـري خارجيـة أمريكـا وروسـيا "كريستوفر وكوزريف" والرئيس المصري.

والصيغة الأصليه المعتمدة للاتفـاق التـي جـرى التوقيـع عليهـا كتبـت باللغة الانجليزية، وتقع في حوالي ٣٠٠ صفحـه عدا الخرائـط الملحقـة .. ويشـتمل الاتفـاق علـى الـبروتوكول الأساسـي والـذي يـرد تحـت اسـم "**بروتوكـول اتفـاق القاهره حـول الحكـم الذاتـي في غزه وأريحـا**" ويحـوي ديباجة و ٢٣ ماده، وهو بمثابة المفاهيم والمباديء والعنـاوين العامـه التـي تحكم "التسـوية" الجاريـة والاتفـاق المحـدود "غـزه/أريحـا" وتمثـل دليـلا للملاحق والخرائط و ... الى آخر ما حـواه اتفـاق القـاهرة. كمـا يشـتمل الاتفاق على عـدد مـن الملاحـق الـر ئيسـة – المدنـي والامنـي والقضـائي والاقتصـادي ...الـخ، وعلـى عـدد آخـر غـير معـروف لنـا مـن الملاحـق الفرعيه والقوائم والاضافات والرسائل المتبادله والخرائط .. وجميعها وفق نص الاتفاق تعتبر "جزءا لا يتجزأ من الاتفاق".

وحتى اللحظه لم تقم أية جهة رسمية باصدار الاتفاق، اللهم ما سـمعنا عنه من نسـخ انجليزيـة ومـن ثمـه ترجمـة بالعبريـة لهـا، أودعتهـا رئاسـة الكنيست الاسرائيلي في مكتبة الكنيست ليتمكن أعضاء البرلمان الاسرائيلي من الاطلاع عليها قبيل النقاش الذي جرى في الكنيست لموضوع الاتفاق.

أما قصارى ما عرفناه عن اتفاق القاهرة فهو ما نشرته جريدة القدس عبر حلقات متسلسله خلال شهر أيار/٩٤ (البروتوكول والملاحق الرئيسيه فقط) .. (*ولا نتوقع أن يبادر الطرف الفلسطيني الموقع على الاتفاق الى ترجمته ونشره، مما يلقي على المعارضة مهمة نشره وجعله في متناول الجماهير وقواها السياسيه*) .. فالاتفاق ليس حدثا عابرا وقع وانقضى، بل بات يشكل هو والقوى الحاملة له والعاملة على تحقيقه في واقع فلسطين والمنطقه، عنصرا رئيسيا وفاعلا في البناء المادي والسياسي والفكري للمرحلة الجديده، وفي مستقبل قضيتنا الوطنية ومجتمعنا الفلسطيني ومستقبل المنطقة بوجه عام .. الأمر الذي يوجب ضرورة قراءة اتفاق القاهره قراءة تحليلية – نقدية بما في ذلك علاقته بالعوامل والقوى التي ساقت اليه، وكذلك التفاعلات والتطورات التي أسهم ويسهم في إحداثها وسيقود اليها.

رغم أشارتنا الى واجب قراءة الاتفاق قراءه تحليليه ونقدية إلا أن ما سجلناه على الاتفاق – *ويرد في الصفحات التاليه* – مجموعه من الملاحظات النقديه .. ونصرح كذلك بأن كاتبها قد عارض جهارا إتفاق أوسلو الذي وقع في واشنطن بتاريخ ١٣/٩/١٩٩٣م. (*اتفاق اعلان المباديء الاسرائيلي/الفلسطيني*) والذي يجيء اتفاق القاهره كامتداد له، وكترجمة تفصيلية له .. بل سيتضح من قراءة اتفاق القاهره بانه جاء كأسوأ ترجمه للمباديء التي حواها اتفاق أوسلو سيء الذكر.. إذن، *ونجاهر في ذلك منذ الآن*، **الكاتب ينطلق من موقع المعارضه الوطنية.**

إن من يقرأ اتفاق القاهرة بموضوعية وبعيون متفحصة سيصل، لا مفر، إلى مجموعة هامة ومترابطة من الاستنتاجات ستحمله الى تقييمات جديدة، أو ستدعمها إن كان وصل اليها قبلا، وستنعكس عند كل من ينطوي في جناحيه، ولو على حس وطني، في مواقف محددة معارضة للاتفاق وأهله، ونحن لا نراهن على ما نقول عبثا، بل استنادا الى قراءتنا

من جانب، واستنادا إلى أن أحدا من أهل الاتفاق لم يجرؤ على مدحه من جانب ثان، وكذلك إلى ما بدا يظهر للعيان من تطبيقات وتجليات للاتفاق.

لن نستبق الأمور ونعرض ما خلصنا اليه من استنتاجات وتقييمات ومواقف ومهام نراها في مواجهته، بل سنعرض أولا ما سجلناه من ملاحظات نقديه على الاتفاق .. وسنترك أولا لملاحق ومواد الاتفاق تعرض نفسها وتفصح عن حقيقتها، فقد لا نحتاج بعد ذلك الى ثانيا، إذ سيفضح الاتفاق نفسه حال نشر ما اقتبسناه منه من مواد وفقرات، بعد ذلك سنرى ما بقي علينا من دور.

بروتوكول اتفاق القاهره حول الحكم الذاتي

ديباجة اتفاق القاهره شأنها في ذلك ديباجة اتفاق أيلول "أوسلو" تتحدث عن أهداف الاتفاق ومجمل العملية السياسية التي انطلقت من مدريد والجارية بين م.ت.ف وحكومة دولة اسرائيل .. بناء واقع جديد في العلاقات بين الشعبين وفي المنطقة، بمقتضاها يجري (*بل جرى فعلا*) الاعتراف من قبل م.ت.ف، ممثلة بقيادتها المتنفذة، بحق اسرائيل في الوجود كدولة مستقلة ضمن حدود آمنة ومعترف بها، وبالمقابل جرى الاعتراف بأن م.ت.ف هي الممثل الشرعي للشعب الفلسطيني وبأن العملية السياسية ستمنحه "حقوقه السياسية المشروعة" وستحقق المنطقة سلاما "عادلا وشاملا ودائما" وبناء علاقات تعاون وشراكة في كافة المجالات.

في الاتفاق – *كما في رسالة عرفات لرابين التي جاءت عشية التوقيع على اتفاق ايلول/٩٣* – يجري تأكيد الاعتراف الفلسطيني بحق اسرائيل في الوجود كدولة قبل أن تحدد حدودها، وقبل أن تعترف بحقوق أو حدود "وطنية" للشعب الفلسطيني **فقط** مقابل اعتراف ب "م.ت.ف" ممثلا للشعب الفلسطيني واعتراف بالحقوق "السياسية" وليس "الوطنية" المشروعة للشعب الفلسطيني. وبين "السياسية" و "الوطنية" فارق نوعي،

فالسياسية قد تقتصر على الحقوق الديموقراطية والثقافية والدينية وما شاكل من الحقوق التي تمنح للأقليات القومية أو العرقية، ولا تبلغ حد الاقرار بهويته الوطنية المميزة التي اكتسبها عبر تاريخه الخاص في محيط جغرافي محدد ... وأرض تخصه، وبالتالي يمتلك المشروعية في تقرير مصيره بنفسه بما في ذلك حقه في الانفصال، والاستقلال وبناء دوله مستقله.

أما تعابير "**شامل**" و "**عادل**" و "**دائم**" التي يوصف بها الاتفاق وأهدافه فلا تعدو تعابير للتعمية عن الحقوق البينة .. فهل ورود تعبير "شامل" يخفي حقيقة أن الاتفاق هو جزئي جدا .. فغزة وأريحا معا تشكلان دون أل (١٪) من مساحة فلسطين .. وهو حل مجزوء عما سيليه، وجرى الوصول اليه، وإلى اتفاق أوسلو من قبله، بتفرد فلسطيني، وبسرية وانفصال شبه مطلق عن الأطراف العربيه المنخرطة في التسوية (أطراف التنسيق العربي!) أما تعبير "عادل" فالاتفاق في كل مادة وبند وكلمة يفصح عما هو عكس ذلك، وسنرى .. أما حول تعبير "دائم"، والدوام لوجه الله وحده، فسنرى أنه يحوي كل عوامل تفجيره.

وتستطرد الديباجة موضحة أن الحل الذي يحمله هذا الاتفاق هو حل مرحلي أو انتقالي مدته خمس سنوات، *مرحلة الحكم الذاتي الفلسطيني*، .. وفي بداية السنة الثالثة من عمره يبدأ التفاوض حول الحل الدائم الذي ستكون مرجعيته القانونية فقط قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ والذي يتحدث عن "**عدم جواز ضم أراضي الغير بالقوة**" و "**إنسحاب من أراض أحتلت بالقوة**" و "**الاعتراف بحق دول المنطقة بالعيش بسلام وضمن حدود آمنة ومعترف بها**" و "**حل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين**" .. فقط هذا القرار وليس سواه من قرارات الشرعية الدولية .. وقيمة القرار من وجهة النظر الفلسطينية تتقوم في مقولة "*عدم جواز ضم أراضي الغير بالقوة*" وهذه في واقع السياسة القائمة لا تملك أية قيمة مادية، فعلية، وليس لها أية ترجمات محددة على الأرض .. والمقولة الثانية ذات القيمة تكمن في "انسحاب من أراض أحتلت بالقوه"، وقصة "***أراض***" و "

الاراضي" قديمة قدم القرار الذي صدر في نوفمبر من العام ١٩٦٧ .. ومما سيدعم التفسير الأسرائيلي للقرار في انه انسحاب من أراض فقط:-

أولا : أن الاسرائيليين تشبثوا، وفي مواجهة وضع عربي وعالمي، لم يكن في صالحهم كما هو عليه الوضع الآن، بتفسيرهم الخاص، فلا يعقل أن يتنازلوا عنه اليوم في اجواء الانقلاب القائم راهنا في موازين القوى على كافة الصعد.

ثانيا: المجرى العام للتسوية الجارية بين اسرائيل والأطراف العربية بوجه عام، ومع الطرف الفلسطيني على نحو خاص .. وهي مفاوضات وتسويات ثنائية، متفردة، جزئية ومجزوءة، وتجري تحت ضغوطات وابتزازات لشتى الأطراف العربية المشاركة بوجه عام وللطرف الفلسطيني على نحو خاص .. فقد أثمرت حتى الآن عن تمزيق حاد في التنسيق والموقف العربي ووضعت كل طرف عربي ليواجه الامور بوزنه الخاص، كما وأسفرت عن اتفاقات لا يجمعها جامع مع ما يحيط بها من مشكلات ولا بما سيتبعها من اتفاقات .. ستعود في التطبيق الى تعميق التمزيق وسعي كل طرف الى ترتيب مصالحه الخاصه، والى خلق وقائع ستؤثر دون شك على لاحق المفاوضات والاتفاقات.

ثالثا: إن قرار مجلس الأمن ٢٤٢ يقر ضمنيا بتعديلات حدودية "**الاعتراف بحق دول المنطقة بالعيش بسلام وضمن حدود آمنة ومعترف بها**" .. وهذه الاشارة الضمنية تدعم التفسير الأسرائيلي القائل بأن القرار يقضي بانسحاب من "أراض" فقط .. وقد انتزعت اسرائيل من الفلسطينيين قبل أن تقدم لهم أي شيء ورقتي الاعتراف والتعديلات الحدودية .. فورقة مدريد التي شارك على أساسها الطرف الفلسطيني في العملية السياسية تقر بضرورة:

أ- *إجراء تعديلات حدوديه.*

ب- *أن القدس لن تجزأ" وستبقى واحدة موحدة.*

تم هذا قبل أن يوقع إتفاق أوسلو .. أي جرى الاقتراب الفلسطيني من الفهم الاسرائيلي، بل التسليم بالفهم الاسرائيلي لقرار ٢٤٢، قبل ان يحصل الفلسطينيون على شيء .. أما عن "**حل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين**" التي يتضمنها القرار **٢٤٢** فلا ينص على أكثر من حلها، أي دون تحديد أية مرجعية قانونية أو أي من قرارات الشرعية الدولية التي صدرت حول قضية اللاجئين الفلسطينيين مثل القرار **١٩٤** الذي يقضي بحق العودة أو التعويض! وهذا البند، اي "حل مشكلة اللاجئين الفلسطينين"، على أساس المفاوضات الثنائية والمتعددة، لا يقلق اسرائيل بشيء .. وماذا لو انقضت سنوات الحكم الذاتي الخمس دون أن يتوصل الطرفان الاسرائيلي والفلسطيني الى اتفاق حول موضوعات الحل الدائم؟ لا يجيب الاتفاق سوى بالتأكيد على أن طريق المفاوضات السياسية هو السبيل الوحيد، ونبذ كل سبيل سواه!! أي سيبقى الوضع القائم "الحكم الذاتي" قائما مهما امتد به العمر الى أن يتوصل الطرفان الى اتفاق حول الحل النهائي.

والآن، إلى الملاحظات التي سجلناها على مواد البروتوكول:-

يحدد البروتوكول حتى التسميات التي تنبغي أن تسمى بها هيئات وأشياء الحكم الذاتي .. تسميات مثل: "السلطة الفلسطينية"، و "الشرطة الفلسطينية" ... الخ وكل هذه التسميات ومثيلاتها لم تقرن بلفظة "الوطنية" .. وهذه اللفظة – الكلمة: "الوطنية" لم ترد البته في كل الاتفاق كإنعكاس للاصرار الاسرائيلي على تجريد الشعب الفلسطيني، وبالتالي تعبيراته السياسية والاداريه .. الخ من صفة "الوطنية" من باب التنكر لحقوقه الوطنية وفي مقدمتها حقه في تقرير مصيره بالاستقلال والدولة المستقلة، سيما وأن ورقة مدريد، ومن ثم اتفاقية أوسلو، حددتا سقف المستقبل

السياسي للشعب الفلسطيني باتحاد فيدرالي أو كونفدرالي، وليس دولة مستقلة.

***المادة الثانية (م٢)، البند ٣ (ب٣)** [*الرجاء ملاحظة ان م = مادة و ب = بند*] تحدد السلطات والمسؤوليات التي تبقى بيد اسرائيل وقواتها المحتله بعد "الانسحاب" من مناطق الحكم الذاتي في غزة وأريحا تجاه هذه المناطق .. ويتكرر هذا التحديد في عشرات المواقع، وبصورة تفصيليه من خلال الملحق الأمني، وفي كافة الملاحق دون استثناء .. إذ بمقتضاها تبقى المسؤوليه عن "الأمن الخارجي" بيد اسرائيل، والأمن الخارجي يعني من ضمن ما يعنيه المسؤولية عن الحدود البرية والبحرية والجوية، وعلى المنافذ والمعابر والممرات، وعلى حركة كل الأشخاص والأشياء الداخلية والخارجية إلى ومن مناطق الحكم الذاتي .. وهذا الفهم وجد ترجمته التفصيليه في كافة الملاحق الرئيسة والفرعية وفي الخرائط.

وتبقى المسؤولية الاسرائيلية قائمة على "الأمن الداخلي"!! وأمر هذه المسؤولية مهم رغم أن التأكيد عليها يتكرر في أكثر من موضع .. ففي م٢/ب٣ يرد ما نصه حرفيا "*يتزامن انسحاب اسرائيل مع اعادة انتشار قواتها العسكرية عند المستوطنات ومنطقة المنشآت العسكرية .. تنفيذا لمسؤولية اسرائيل عن الأمن الخارجي، والأمن الداخلي، والأمن العام للمستوطنات والاسرائيليين*" .. والملحق الأمني قد يلقي بعض الضوء على مغزى تمسك اسرائيل بتثبيت مسؤوليتها عن "الأمن الداخلي" في حيثيات الاتفاق، ورغم أن الاتفاق يتحدث في مواضيع أخرى من نقل المسؤولية عن الأمن الداخلي للفلسطينيين.

أما مسؤوليتها عن "الأمن العام للمستوطنات والاسرائيليين" فتتوضح من خلال الملحق الأمني بأنها لا تقتصر على تأمين إقامتهم في المستوطنات والمنشآت العسكرية المنزرعة في غزه وأريحا، – أو خلال تحركهم على طرق محددة تصل مستوطناتهم ومنشآتهم بالخط الأخضر– وانما حيثما تجولوا في كافة شوارع قطاع غزه وأريحا، خاصة وأن الاتفاق يمنح الاسرائيليين حرية التحرك في كل مساحة القطاع وأريحا،

فالمادة ٢/ب٥ تنص حرفيا على أن *للاسرائيليين بما في ذلك القوات الاسرائيلية العسكرية، أن يستخدموا بحرية الطرق الواقعة داخل حدود قطاع غزه ومنطقة أريحا*".

وبعد ان تمنح السلطات العسكرية الاسرائيلية لنفسها المسؤولية عن "الأمن العام للمستوطنات والاسرائيليين" داخل مناطق الحكم الذاتي، تشرك أيضا السلطة والشرطة الفلسطينيين في تحمل مسؤولياتها تجاه أمن المستوطنات والاسرائيليين من أية أعمال عدائية قد يقدم عليها فلسطينيون .. "*يتخذ الجانب الفلسطيني جميع الاجراءات الضرورية لمنع الأعمال العدوانية ضد المستوطنات وضد المنشآت التابعه لها والمنطقة العسكرية*" (المادة ١٨).

وهذه الوظيفة للسلطة وللشرطة الفلسطينيتين تتضح لاحقا بأنها إحدى الوظائف الرئيسية لهما!!.

***الماده الرابعه (م٤)**
"بنية وتشكيل السلطة الفلسطينية"

البند (ب١) يحدد قوامها ب "٢٤ عضوا" و (ب٢) يحدد مهمتها بـ "*إدارة المصالح التي تنتقل اليها .. ولها أن تنشيء في حدود اختصاصها ادارات أخرى، وتلحق بها وحدات ادارية على النحو الذي يقتضيه تنفيذ مسؤولياتها" وسلطتها كما يتضح من طبيعة مهمتها المحددة أعلاه "إدارية" وفي حدود "المصالح التي تنتقل اليها*".

وبعد أن يحدد الاتفاق القوام والمهام، ينتقل الى تحديد الصلاحية الاسرائيلية للتدخل بأمر الأسماء المرشحة لاشغال مناصب السلطة .. فالبند ٣ يقضي بأن "*على م.ت.ف أن تبلغ اسرائيل بأسماء أعضاء السلطة الفلسطينية وبأي تغيير في أعضائها، ويسري أي تغيير في عضوية السلطة الفلسطينية بموجب رسائل متبادلة بين م.ت.ف وبين حكومة اسرائيل*".

وهذا البند يفيد ليس بمجرد إشعار اسرائيل بأسماء أعضاء السلطة وبأي تغيير في أعضائها، بل ويفيد بوضوح بأن وظيفة أي عضو لا تعتبر سارية المفعول إلا بعد، **أولا:** موافاة حكومة اسرائيل عبر رسالة خطية بأسمه و**ثانيا:** بعد تلقي السلطة الفلسطينية رسالة حكومة اسرائيل الجوابية .. حيث يؤكد البند ٤ على "أن ممارسة أي عضو لمهام وظيفته تسري بعد تنفيذ الخطوات الواردة اعلاه"!

واحتفاظ اسرائيل (**تمسكها**) بشرط عدم سريان مفعول الوظيفة إلا بعد تلقي السلطة الفلسطينية الرسالة الجوابية الاسرائيلية، يعني من الوجهة الضمنية شيء واحد.. حق اسرائيل الطعن بالمرشح وواجب السلطة الفلسطينية الأخذ به .. نقول من الناحية الضمنية على افتراض أن الأمر غير متفاهم حوله بين الطرفين؟!

وفي هذا السياق نستذكر نضال الحركة العمالية والطلابية وغيرهم ضد الأمر العسكري القاضي بعرض أسماء القوائم المرشحة للمجالس النقابية والبلدية على ضابط ركن الداخلية، وممارستها لموقفها الرافض حتى تجاوزت بصلابتها المبدئية والوطنية الأمر العسكري المعني.

***المادة الخامسة**
"الولاية القانونية والوطنية"

وقبل أن ندون ما لدينا عليها، نرى ذكر ملاحظة هامة تتسم بها صياغة الاتفاق من ألفه الى يائه، ولها مدلولها الجوهري، ومفادها انه رغم أن اتفاق القاهره جرى التوصل اليه وصياغته بهذا الحجم الضخم نسبيا خلال أسابيع معدودات، إلا ان المواقف والمصالح الاسرائيلية في كافة القضايا -- من الأمنية حتى الجنائية -- انعكست داخل الاتفاق في صياغات (مواد وبنود وأحيانا ملاحق فرعيه واضافات ورسائل) مدققة قانونيا، ومحددة بوضوح، ومحسومة، ومتكررة من باب التأكيد عليها في اكثر من مكان في الاتفاق، فكلما استدعت الأمور (على أي نحو كان)

جرى إعادة التأكيد عليها .. وبالعكس تماما فيما يتصل بالمصالح والمطالب الفلسطينية فتجدها غير محددة المعالم (غير محسومة) نهائيا، ومقيدة باشتراطات عديدة، وأحيانا تأتي ملحوقة بتعبير يتردد مرارا *"وبشروط أخرى يجري الاتفاق عليها في مفاوضات لاحقة"!!* وتجدها غير مدققة قانونيا بحيث يمكن النفاذ من ثغراتها والالتفاف عليها وتفريغ قيمتها أو تعطيلها كليا .. وهذه الحقيقة التي تسم الاتفاق وصياغته لا تعود الى مجرد أن الطرف الفلسطيني عمل تحت ضغط الزمن والعوامل المختلفة، ولا الى مجرد أنه أجرى مفاوضاته عبر طاقم محدود وغير متنوع الخبره وبتكتم، ولا الى مجرد أنه لم يكن قد جهز أوراقه، ولا الى مجرد الضعف في "الأداء التفاوضي"، وإنما إلى أسباب أعمق من هذه الأسباب الشكلية على أهميتها، أسباب تكمن في ميزان القوى الذي حكم العملية التفاوضية، في طبيعة القيادتين السياسيتين (الاسرائيلية والفلسطينية) التي تجري بينهما العملية التفاوضية، وفي مدى تحكم القيم والمعايير والضوابط المعنوية والديموقراطية و "الحضارية" والتشريعية .. الخ في كل منهما .. وفي أسباب أخرى علينا أن نولي أمر الكشف عنها أهمية جوهرية.

والمادة الخامسة يمكنها أن تقدم المثال على الملاحظة التي دوناها أعلاه .. فمن باب التأكيد وتكرار التأكيد على المسؤوليات الاسرائيلية عن مجالات محددة وتجريد السلطة الفلسطينية من المسؤولية عن هذه المجالات، نفاجأ بأن الماده الخامسة التي تحمل عنوان "الولاية القانونية والوظيفية" للسلطة الفلسطينية بدل أن تتحدث عن حدود هذه الولايه وعناوينها وتفاصيلها .. الخ نراها مكرسة للتأكيد على المسؤوليات الاسرائيلية .. فالبند ١/ب١ يقول حرفيا .. *إن مسؤولية السلطة الفلسطينية لا تشمل "العلاقات الخارجية، والأمن الداخلي، والأمن العام للمستوطنات ومنطقة المنشآت العسكرية، والاسرائيليين"*.. أما م٦ب ٢-أ فتتعرض لشرح جانب هام من مفهوم "العلاقات الخارجية" الذي جرد السلطة الفلسطينية من المسؤولية عنها. تقول المادة: *" طبقا لاعلان المباديء لا يكون للسلطة الفلسطينية أية صلاحيات أو مسؤوليات في مجال العلاقات الخارجية الذي يتضمن إنشاء سفارات أو قنصليات أو أي*

نوع آخر من البعثات والمكاتب أو السماح بإقامتها في قطاع غزة أو منطقة أريحا، أو تعيين موظفيين دبلوماسيين أو قنصليين وممارسة وظائف دبلوماسية".

ويجيء هذا التوضيح لاستكمال التأكيد على المحدودية، والصفة المحلية جدا لهذا "الحكم الذاتي"، فصلاحياته تقتصر على حدوده المحلية، الداخلية، تجاه السكان فقط .. وحتى هذه محدودة ومحددة في نواحي يحددها الاتفاق .. ومن باب طمس أية محاوله "استقلالية" للحكم الذاتي وسلطته للتعبير عن ذاتها في علاقات خارجية .. ومن باب تأكيد الحقيقة القائمة بحكم الواقع ونصوص الاتفاق بأن المناطق التي انتقلت وستنتقل الى سلطة الحكم الذاتي ستبقى تعيش في الاطار العام للاحتلال ودولة اسرائيل ليس فقط في المجالات السياسية والأمنية والخارجية، وفي مجال التبعيه الاقتصادية، وانما أيضا تحت ظلال القوانين السائدة زمن الاحتلال .. (وهذه الحقيقة الأخيره يأتي ذكرها والتأكيد عليها في البنود اللاحقة من نفس المادة).. فبعد ان يعاد للحديث عن حق السلطة الفلسطينية إصدار قوانين، ينتقل الحديث الى القيود الضرورية على هذا الحق، أبرزها، أن تكون في حدود المجالات التي انتقلت اليها وأن تتصل بجوانب إدارة هذه المجالات، وأن تكون مقيدة بأحكام اتفاق القاهره، وعلى أن يعرض اي قانون جديد تتخذه السلطة الفلسطينية على لجنة "قانونية" مشتركه (اسرائيلية –فلسطينية) لتقرر خلال ٣٠ يوما إن كان مخالفا لأحكام الاتفاق أم لا .. **وبهذا تترسخ شرعيا مرجعية الاحتلال ودولته القانونية لهذا الحكم الذاتي وسلطاته.** وفي البند ٩ من ذات المادة تبلغ الصراحة في تأكيد هذه الحقيقة حدا لا يمكن بعده لأحد أن ينكر أن الاتفاق منح الشرعية لسريان القوانين والأوامر العسكرية للاحتلال في مناطق الحكم الذاتي حيث ينص هذا البند حرفيا ... "*تبقى القوانين والأوامر العسكرية السابقة على توقيع هذا الاتفاق سارية في قطاع غزه .. ما لم يتم تعديلها أو إلغاؤها طبقا لهذا الاتفاق*".

والمواد التي تعالج التالية "ترتيبات الأمن والنظام العام" لتحتل "الشرطة الفلسطينية" مادة مستقلة .. هذه الشرطة التي جرى التأكيد في

اتفاق أوسلو عليها بأنها القوه الفلسطينية الوحيدة المسموح لها العمل (كقوة فلسطينية) في منطقة الحكم الذاتي .. وبأن تسليحها وتدريبها ومهامها هي حصرا "شرطية" و "لحفظ الأمن والنظام العام" في منطقة الحكم الذاتي .. وفي مواقع أخرى تحددت وظيفتها في "منع أعمال الشغب والاخلال بالنظام العام" .. تشير هذه المادة من اتفاق القاهره إلى أن: الشرطة الفلسطينية وجيش الدفاع الاسرائيلي هما القوتين المسموح لهما بالعمل في منطقتي القطاع وأريحا .. أي للجيش الاسرائيلي هو الآخر، وبنفس القدر، حق العمل في منطقة الحكم الذاتي!! تأتي باقي بنود هذه المادة للتأكيد على أن أسلحة الشرطة الفلسطينية وعتادها ومهامها وصلاحياتها ستحدد وفق "الاتفاق الأمني" ولا يجوز لغير الجيش الاسرائيلي وهذه الشرطة حمل السلاح.

ومادة مستقلة تتحدث عن "العلاقات بين اسرائيل والسلطة الفلسطينية" والعناوين الرئيسية لهذه المادة تندرج تحت "الامتناع عن التحريض ضد بعضهما بما في ذلك الحملات الاعلامية" [**التطبيع الاعلامي**] وتلزمان بأتخاذ "*الاجراءات القانونية لمنع هذا التحريض من جانب أي منظمات أو مجموعات أو أشخاص خاضعين لولايتهما القانونية*" .. أي أن السلطة الفلسطينية تلزم نفسها ليس فقط بمنع "*الاعمال العدوانية ضد المستوطنات وضد المنشآت التابعة لها والمنطقة العسكرية*"، بل وأيضا بالتوقف هي أولا عن التحريض ضد اسرائيل والاحتلال .. ومن ثم على السلطة الفلسطينية أن تصدر قوانين وتلاحق قانونيا كل منظمة أو مجموعة فلسطينية أو حتى شخص فلسطيني يقيم في منطقة الحكم الذاتي في حال مارس التحريض- الكتابي أو الشفاهي- ضد دولة اسرائيل وسلطات الاحتلال!!

***المادة ٢٠**
"تدابير تعزيز الثقة"

ونرانا نتوقف أمام هذه المادة لما تتميز به من رهافة ومن مساس مبدئي وأخلاقي خطير بالقيم الوطنية والانسانية التي تتناولها هذه المادة..

ولما أثارته من جدل لا زال يتفاعل، وسيتصاعد في قابل الأيام الى أن تجد حلها قضية أسرى ومعتقلي الحرية الفلسطينيين وغير الفلسطينيين ممن انضووا تحت لواء الثوره الفلسطينية مناضلين ضمن صفوفها وقادهم خيارهم الثوري والانساني وحظهم العاثر الى السجون والمعتقلات الصهيونية.

ان اتفاق أيلول "**أوسلو**" لم يأت من قريب أو بعيد على قضية أسرى أو معتقلي الحرية .. لقد تجاهلها كليا .. وبالطبع لم يأت أتفاق أيلول ومن بعده أتفاق القاهرة على ذكر "اتفاقية جنيف الرابعة" التي وقعت اسرائيل عليها من باب إلزامها بمقتضياتها -على الاقل- في قضية الاسرى والمعتقلين، لتستميل قضية سجناء الحرية الى موضوع "**تفاوض سياسي**" يخضع لنفس منطق ميزات القوى السائد في المفاوضات الثنائية، وللمنطق والاملاء الاسرائيليين .. وليرى المفاوض الفلسطيني نفسه رهن الابتزاز الإسرائيلي، وكذلك الأسير الفلسطيني. أكثر من تسعة آلاف سجين ومعتقل فلسطيني وعربي كانوا عشية التوقيع على اتفاق القاهره يرضخون في باستيلات الصهيونية وفي شروط غير انسانية، حكم عليهم بأن يقعوا، بحكم الدوافع والمنطق الذي حكم المفاوضات الثنائية والاتفاقات المتمخضة عنها، ضحايا للابتزاز السياسي ولتصفية الحساب معهم كجماعات وفئات وأفراد من قبل السلطات العسكرية والأمنية الصهيونية على أسس تحددها السلطات السياسية والعسكرية والمخابراتية ومصلحة السجون ومن على أرضية:

الموقف من العملية السياسية: هل يدعم اتفاقات أوسلو القاهره أم لا؟ هل على يديه دم يهودي أم لا؟ هويته ومكان سكناه .. هل يحمل هوية "المناطق" أم القدس أم من مناطق أل ٤٨ أم من الخارج؟ .. اريحا وغزه أم مناطق الضفة الغربية الأخرى ... الخ! تاريخه النضالي، مواقفه الوطنية ومجمل سماته الشخصية بما في ذلك التقييم المستقبلي لموقعه وموقفه..الخ. **إن الاتفاقات جميعها، ومواقف المفاوض -السلطة الفلسطينية- تسلح الاسرائيليين بالأوراق والأدوات التي تسهل عليهم**

مواجهتهم لسجناء الحريه بهدف قهرهم وتركيعهم. فلنرى إلى كل ما تناولته المادة ٢٠ ....

م٢٠/ب١: "*لدى التوقيع على هذا الاتفاق تقوم اسرائيل بالافراج عن، أو تسلم السلطة الفلسطينية – خلال مهلة خمسة أسابيع – حوالي خمسة آلاف معتقل وسجين فلسطيني من سكان الضفة الغربية وقطاع غزه .. والأشخاص الذين سيتم الافراج عنهم سيكونون أحرارا في العودة الى منازلهم في أي مكان من الضفة الغربية أو قطاع غزة .. والسجناء الذين سيتم تسليمهم إلى السلطة الفلسطينية ملزمين بالبقاء في قطاع غزه أو منطقة أريحا طيلة المدة المتبقية من مدة عقوبتهم.*"

هذا هو البند الواضح – حسب وجهة نظري – الذي أثار الجدال .. وبرأيي إن ما أثار الجدل هو انفضاحه في التطبيق عندما راحت السلطات تلزم المفرج عنهم (وفق اختيارها المطلق) بالتوقيع *أولا*: على "**وثيقة اعلان التعهد**" برغم المسيرة السياسية واتفاق أوسلو القاهره، وبالامتناع عن ممارسة كافة أعمال الارهاب والعنف، واحترام القانون، *وثانيا*: على الموافقة على نفيهم الى منطقة غزه أو أريحا –وفق ما تحدد هي وعدم مغادرتها – "طيلة المدة المتبقية من مدة محكوميتهم"– ... إن البند يلزم اسرائيل فقط بـ:–

١– إطلاق سراح حوالي خمسة آلاف سجين ومعتقل فلسطيني.
٢– أن تطلق سراحهم خلال مدة خمسة أسابيع من تاريخ التوقيع على الاتفاق، وبعد ذلك متروك لها حرية:

أ – تحديد من ستشملهم القائمة، وليس على اختيارها أي قيد أو شرط؟!
ب– وهؤلاء سيكونون من سكان "الضفة الغربية وقطاع غزه" فقط. وهي غير ملزمة بأطلاق أي سجين أو معتقل من سكان القدس أو ٤٨ أو الخارج.
جـ– ومتروك لها حرية تحديد عدد وأسماء من ستفرج عنهم وتمنحهم حق العودة لمنازلهم، وتحديد عدد وأسماء من

ستنفيهم ليقضوا باقي فترة محكوميتهم في أريحا أو غزة .. ومتروك لها حرية أن تحدد لهم أن يكونوا في غزة أو أريحا.

واضح أن البند لا يتحدث إلا عن سجناء ومعتقلين سياسيين (أمنيين وفق التعبير الاسرائيلي) ولا يأتي من قريب أو بعيد على ذكر الجنائيين ..، ولا نعتقد أن من صاغوا الاتفاق خلطو في بند واحد السياسيين والجنائيين، في الوقت الذي لا تجيء فيه المادة كلها، ولا البروتوكول كله على ذكر الجنائيين..

والمعنى .. وفق العرف الدارج بالسجين (الذي صدر بحقه حكم، أي المحكوم)، والمعتقل (يعني الذي لم يصدر بحقه حكم بعد، أي الموقوف).

وتوغل المادة ٢٠ في بندها الثاني والثالث في سلب عملية تحرير الأسرى أي منطق يستند الى إتفاق "سلام" مفقود بين شعبين أنداد، لتفصح عن كونها عملية "عفو" عمن يستحق العفو بعين الاسرائيليين وقوانينهم .. فالبند ٢ ينص حرفيا على أنه "بعد التوقيع على هذا الاتفاق، يواصل الجانبان التفاوض للافراج عن عدد إضافي من السجناء والمعتقلين الفلسطينيين على أسس متفق عليها".. **"للافراج عن عدد إضافي" وليس عن كافة المعتقلين وفق جدول زمني كما يشيع الفلسطينيون في تصريحاتهم** .. وهذا يفصح عن أن الطرف الفلسطيني وافق الاسرائيلي على تجزئة القضية الواحده، وتركها للمنطق الصهيوني ونزعاته .. وأخيرا، يتضح –ولو ضمنيا– أن باقي المعتقلين، المئات وربما الالاف، الذين لم يقدر لهم بأن يكونوا ضمن هذا "العدد الأضافي" قد ترك مصيرهم مجهولا!؟

أما البند الثالث والأخير الذي على علاقة بموضوع الاسرى فهو الذي يفصح صراحة عن حقيقة كون العملية هى عملية "عفو" اسرائيلية، شأنها شأن موضوع "المطلوبين" وموضوع "المبعدين والفارين والنازحين واللاجئين والمسؤولين العائدين" ...الخ، حيث ينص البند ٣ على أن

تطبيق هذه التدابير المدرجة أعلاه يتم بموجب الاجراءات التي ينص عليها القانون الاسرائيلي للافراج عن السجناء والمعتقلين ونقلهم"

وقبل أن نغادر المادة ٢٠ الى ما بعدها، يشدنا البند ٤ منها والذي لم يحضر في سياق هذه المادة التي تحمل عنوان "تدابير تعزيز الثقة" والتي تعالج قضية الافراج عن أسرى ومعتقلين اعتباطا [لم يحضر اعتباطا كما لم يأتي ترتيبه "البند ٤" بعد البنود الثلاثة من فراغ] ، بل للعلاقة التي تراها أسرائيل بين الموضوعين اللذين تعالجهما هذه البنود، وهنا نعني: موضوع الاسرى والمعتقلين من جانب، وموضوع العملاء والمتعاونين مع أسرائيل والمحتلين من الجانب المقابل .. بين أسرى الحريه الذين يدافعون عن قضية عادلة معترف بشرعيتها وبشرعية النضال بكل أشكاله ووسائله الذي يخوضونه ضد المحتلين، وتحميهم أيضا مواثيق وقوانين دولية، وبين خونة الوطن، عملاء الاحتلال الذين وفق كل القيم والاعراف لا حماية لهم!! بل إن الربط بين الموضوعين المتنافرين بالمطلق قد قطع شوطا، إن كنا نعرف مداه، عند الاسرائيليين من خلال التصريحات والمطالب السافرة وآخرها تصريح رابين لدى زيارته لأريحا في منتصف يونيو/٩٤ الذي مفاده .. أنه في حال لم تلتزم السلطة الفلسطينية بتعهداتها تجاه المتعاونين فان المعتقلين الفلسطينيين لن يغادروا بوابات سجونهم-- إلا أن أبعاد هذا الربط عند الطرف المفاوض -السلطة الفلسطينية- لا زال ينتابه الغموض والابهام، خاصة في ضوء المواقف السافره للأسرائيليين التي تصر بصلافة على الربط بين الموضوعين، وفي ضوء التعهد الذي قطعته على نفسها السلطة الفلسطينية حيال المتعاونين مع الاحتلال وفق ما ورد هذا التعهد في إتفاق القاهره (المادة ٢٠ البند ٤) الذي نصه حرفيا هو التالي: *"يتعهد الطرف الفلسطيني بحل مشكلة الفلسطينيين الذين كانوا على اتصال مع السلطات الاسرائيلية .. وإلى حين التوصل الى حل متفق عليه يتعهد الطرف الفلسطيني بعدم ملاحقة هؤلاء الفلسطينيين قضائيا أو إيذائهم بأي شكل كان."*

فطالما تعهد الطرف الفلسطيني بعدم ملاحقتهم "قضائيا أو إيذائهم بأي شكل كان"، فماذا تريد اسرائيل أيضا من السلطة الفلسطينية حيال المتعاونين وما هو "الحل المتفق عليه" الذي تسعى اليه اسرائيل؟ هل هو إعادة الاعتبار لهم؟ ورفع الحجر عن ممتلكاتهم مثلا أو تعويضهم عن أي خسائر مادية أو معنوية لحقت بهم؟ أو إعادتهم الى وظائفهم إن كانوا موظفين سابقين مثلا؟ **هذا ما حصله العملاء حتى الآن:** عدم الملاحقة القانونية، أو المس بهم بأي شكل كان، وهذا انجاز جماعي حققوه دون أن يستثنى أحد منهم، ودون أن يوقعوا على أي وثيقة تعهد .. وما تزال اسرائيل تسعى من باب الوفاء لهم على ما قدموه من خدمات للاحتلال، ومن باب التأكيد والتطميع بأنها لا تخذل من يخدمها ما تزال تسعى لتحصل لهم مزيدا من الانجازات والضمانات .. ولا أريد لأخوتي الأسرى والمعتقلين (حتى لا يقارنوا أنفسهم ولو بشكل غير مقصود وغير واعي بالعملاء) أن يحسدوا العملاء على ما ضمنته لهم إتفاقية القاهره .. **فعليهم أن يستذكروا تاريخهم الخاص وسيرتهم وتجربتهم النضالية، ويستحضروا تاريخ النضال الجماهيري بوجه عام والى جانب قضاياهم على نحو خاص، حينها ستتعاظم ثقتهم بأنفسهم وجماهيرهم الوفية وبحتمية انتصارهم على مساومات وابتزازات الجلاد وبحتمية تحررهم.**

***المادة ٢٢**

"الحقوق والمسؤوليات والالتزامات"

تعترف القوانين الدولية بحق السكان الذين وقعوا تحت احتلال اجنبي مطالبة المحتلين، بشتى الطرائق بما فيها المفاوضات القانونية، بدفع تعويضات كاملة عما لحق بهم – *أرض وثروات واقتصاد وتخلف مادي وثقافي وكذلك بالانسان* – من أضرار في سني الاحتلال .. كما أن كافة البلدان الاستعمارية المعروفة في التاريخ الحديث دفعت وتدفع تعويضات كهذه للدول التي استعمرتها.. والحركه الصهيونية – اسرائيل نفسها تلقت مبالغ طائلة من المانيا الغربية لقاء ما لحق اليهود على أيدي النازيين خلال الحرب العالمية الثانية.

أما في حالتنا، فإن الاتفاق، ومن خلال هذه المادة يعفي اسرائيل من كل مسؤولية وألتزام قانوني أو أخلاقي حيال المناطق التي استعمرتها ٢٧ عاما، والتي أعملت فيها النهب والتخريب والقتل والاعاقات الجسدية والنفسية.. وحكمت عليها عبر الاكراه العسكري وغير العسكري بالتبعية والتخلف.. إذ بحكم اتفاق القاهره (المادة ٢٢) ومواد أخرى سترد في الملاحق – لا تتحمل اسرائيل المسؤولية القانونية أو المالية عن "أية أعمال مارستها" أو عن "أعمال ومشاريع امتنعت عن إكمالها" ولا عن أية اضرار الحقتها، كما لا تتحمل تبعة أي أحكام تصدر ضدها أو ضد أي من أجهزتها ومؤسساتها من أية محاكم كانت، رفعها – أو سيرفعها في المستقبل– أفراد أو جماعات.. والأنكى أن السلطة الفلسطينية حملت نفسها المسؤولية كاملة وما يترتب عنها من نتائج وقرارات تصدرها المحاكم .. الخ، وفي البند هـ يصاغ المراد اسرائيليا في آخر تحليل من وراء هذه المادة .. حيث يحمل البند ما نصه حرفيا التالي: "*في كل حال قررت أي محكمة أو جهة قضائية تقديم تعويض في إطار مثل هذه القضية يتعين على السلطة الفلسطينية ان تسدد هذا التعويض كاملا الى اسرائيل*"!!

***المادة ٢٣**
" البنود النهائية"

البند ١ منها يقول "*يصبح هذا الاتفاق نافذا بمجرد توقيعه*" والبند ٢ يؤكد على سريان مفعوله حتى يحل محله **اتفاق أوسلو** (إعلان المبادىء) أو أي اتفاق آخر بين الطرفين .. والبند ٣ يؤرخ لبداية المرحلة الانتقالية التي ستمتد لخمسة سنوات وتبدأ وفق البند ٣ من تاريخ التوقيع على هذا الاتفاق، أي من تاريخ ١٩٩٤/٥/٤ وليس من تاريخ ١٩٩٣/١٠/١٣ كما نص إتفاق أوسلو .. والبند ٤ يقول "*بأن الحاجز الامني الذي أقامته اسرائيل حول قطاع غزه يبقى قائما ما دام هذا الاتفاق نافذا*" .. أما البند ٥ فهو الذي يستوقفنا .. وقبلا، سنعرض البند بنصه

الحرفي: "*ينبغي الا يسيء أي بند في هذا الاتفاق بأي شكل أو يؤثر على نتيجة المفاوضات المتعلقة بالاتفاق الانتقالي أو بالوضع النهائي الذي سيتم تحديده كما نص عليه إعلان المبادىء*".. لا يمكن اعتبار – على ضوء هذا الاتفاق – أن أيا من الطرفين تراجع أو تخلى عن أي من حقوقه او مطالبه أو مواقفه"، هذا البند هو محاولة لاسترضاء وطمأنة الطرف الفلسطيني، بعد ما قدمه من تنازلات جوهرية وذات دلالات مبدئية واستراتيجية من خلال اتفاق القاهره، طمأنته على ان تنازلاته هنا لا تتعارض نظريا مع حقه في طرح "حقوقه أو مطالبه أو مواقفه" لدى المفاوضات المتعلقة "بالأتفاق الانتقالي أو الوضع النهائي" على ان لا تتجاوز هذه "الحقوق أو المطالب أو المواقف" سقف اتفاق أوسلو (أو ما يسمى بأتفاق أعلان المبادىء).. فالاتفاق الانتقالي او الوضع النهائي – وفق هذا البند – "سيتم تحديده كما نص عليه أعلان المبادىء"! واتفاق أوسلو هذا حدد مفاهيم المرحلة الانتقالية بحكم ذاتي محدود في قطاع غزة، بعد ان سلخ حوالي ٤٠٪ من مساحتها وأبقاها تحت سلطة الاحتلال والمستوطنين [المستوطنات والمنشآت العسكرية]، وسلخ من المناطق الفلسطينية المحتلة القدس الشرقية، إذ أخرجها من الاتفاق الانتقالي والحكم الذاتي، وسلخ من الضفة الغربية حوالي ٥٠٪ منها على الاقل كمستوطنات ومنشآت عسكرية.

كما يؤكد اتفاق أوسلو على أن الأمن العام والخارجي والعلاقات الخارجية والأمن الداخلي والأمن العام للمستوطنات والاسرائيليين في مناطق الحكم الذاتي تبقى طوال المرحلة الانتقالية في يد الاسرائيليين .. ويؤكد كذلك على أن السلطة على الأرض وباطنها والثروات والمياه تبقى قائمة على ما عليه – أي بيد الاسرائيليين– طوال المرحلة الانتقالية، فهذه الموضوعات – وفق أتفاق أوسلو– من موضوعات الحل النهائي والدائم.

ويؤكد الاتفاق على سريان مفعول القوانين والأوامر العسكرية في مناطق الحكم الذاتي طوال المرحلة الانتقالية، إلا تلك التي يجري إلغاؤها

أو تعديلها باتفاق الطرفين .. كما يؤكد على حرية الحركة للاسرائيليين بمن فيهم القوات العسكرية الاسرائيلية في كافة نواحي الحكم الذاتي.

وفي بنوده الاقتصادية يفصح عن سريان مفعول واقع تبعية الاقتصاد الفلسطيني للاقتصاد الاسرائيلي الصهيوني.

ويؤكد اتفاق أوسلو على ان موضوعات الأرض والمياه والثروات والمستوطنات والحدود والقدس واللاجئين لن يتناولها الاتفاق الانتقالي، بل موضوعات مؤجل البحث فيها لحين تبدأ السنة الثالثة من الحكم الذاتي وتنعقد المفاوضات – حول الحل النهائي – كما يؤكد اتفاق أوسلو الذي وقعه الطرفان الاسرائيلي والفلسطيني في واشنطن بأن سقف "الحقوق السياسية المشروعة" للفلسطينيين هو الفيدرالية أو الكونفدرالية الأردنية/الفلسطينية، **أي لا لتقرير المصير والدول المستقلة.**

هذه هي أبرز خطوط اتفاق أوسلو، أو اتفاق اعلان المبادىء، الذي سيحتكم اليه الحلين الانتقالي والنهائي للقضية الفلسطينية!! فهل تمت كلها بصلة الى المفاهيم التي تعكس الحقوق الوطنية والشرعية للفلسطينيين، وأي جامع يجمعها يا ترى "بالثوابت " الوطنية التي شكلت الأساس البرنامجي السياسي لوحدة القوى الوطنية في الساحة الفلسطينية: حق العودة وتقرير المصير والدولة المستقلة؟! إذن، ما هو سر الخشية الفلسطينية (التي يكشف عنها البند ٥/المادة ٢٣ ويجيء لمعالجتها): الخشية من أن يشكل اتفاق القاهره تجاوزا لاتفاق أوسلو؟ <u>اليست هذه الخشية بلا معنى ومصطنعة، سيما وأن اتفاق القاهره هو ترجمة (ولكن هابطة) لاتفاق أوسلو؟ ثم أليست بلا معنى العبارة القائلة بأنه لا ينبغي أن يسيء اتفاق القاهره أو أي بند فيه، أو يؤثر على الحلين الانتقالي والنهائي</u>؟ ألا تبدو في ظاهرها عبارة مسكينة تنبع إما عن جهل بأبجديات السياسه أو عن نفاق؟؟ وما الذي يحدد الحلول في آخر تحليل؟ أليست جماع موازين القوى والوقائع القائمة على الأرض؟! فكيف لن تسيء اتفاقية القاهره وتطبيقاتها أو تؤثر على الحل النهائي؟ هل ستبقى اتفاقية القاهره موضوعة على الرف خارج الزمان والمكان بدون أن

تنزل الى الارض، الى التطبيق، لتصنع وقائع جديدة وتراكمها عبر الزمن الى أن يحين أجل الحل النهائي فيكون الواقع غير واقع اليوم -- مثلا: في قضايا الاستيطان والقدس واللاجئين .. لم تنبس اتفاقيتي أوسلو والقاهره بأي حرف حول عدم مشروعية الاستيطان، أو يقضي بتجميده خلال المرحلة الانتقالية (الخمس سنوات) بكاملها .. بل العكس هو القائم بالاتفاقيتين، فالأراضي الفلسطينية القائم فوقها الاستيطان الصهيوني باتت أراضي "متنازع عليها" وسيجري عليها التفاوض لدى البحث عن الحل الدائم!! والنشاط الاستيطاني الاقتصادي والعمراني والسكاني يبقى، بحكم الاتفاق، مشروعا تواصليا لمدة خمس سنوات كحد أدنى.. إن اتفاق أوسلو-القاهره شرع المستوطنات والنشاط الاستيطاني القائم والجاري من تاريخ التوقيع عليه وحتى يصار - بالتفاوض السياسي- إلى حل نهائي!! **ووضع القدس في الاتفاق أسوأ**، فقد أخرجها من دائرة "الوحدة الجغرافية والاقليمية للضفة الغربية وقطاع غزه" ولم تعد تتمتع حتى بصفة "الارض المتنازع عليها"!! والاتفاق لم ينطق بأي كلمة حول تجميد الاستيطان في الأراضي المحتلة بما فيها القدس، أو حول عدم جواز إحداث أي تغييرات تمس واقعها التاريخي والقومي والسكاني ... الخ وفق ما تقتضي القوانين الدولية واتفاقية جنيف الرابعة والقرارات التي لا تحصى، التي أصدرتها مؤسسات الشرعية الدولية، بل قضى بالعكس تماما، وشرع العكس تماما، إذ سيفضي هذا الاتفاق (لا محالة) الى احداث تغييرات عميقة في ضوء المخططات التهويدية الجاهزة وعبر الزمن في واقع الاراضي المحتلة (*في المستوطنات والقدس تحديدا*) وفي واقع بنيتها السكانية، ليجد المفاوض الفلسطيني نفسه لدى البحث عن حلول نهائية في مواجهة وقائع جديدة ستضطره إلى تنازلات جديدة طالما النهج الذي يحكم مفاوضنا هو نفس النهج الذي تمخض عن اتفاقات أوسلو والقاهره .. وكيف، وعلى أية أرضية، ستجد مشكلة اللاجئين الفلسطينيين الذين تركوا ديارهم جراء حرب ١٩٤٨ حلها؟! أيعقل أن تتناول المفاوضات حقهم في العودة واسرائيل تطمع وعلى المكشوف الى خلق الوقائع التي تمكنها من ضم مناطق عديدة من الأراضي الفلسطينية التي احتلت جراء عدوان حزيران ١٩٦٧م! وهي تخلق الوقائع لضم الغور، غوش عيتصيون وكفار أربع، وشريط بمحاذاة الخط الاخضر بطول ٥-٧ كم غربي رام الله وطولكرم

وقلقيلية (خطة النجوم أو المستوطنات السبعة)، وبناء القدس الكبرى (عاصمة اسرائيل الأبدية) بعد تمديدها شمالا وشرقا حتى النهر .. إن القدس الشرقية تضم وحدها اليوم ١٦٠ ألف يهودي مقابل ١٥٠ ألف عربي فلسطيني، ومخطط توسيع القدس شمالا وشرقا يقضي بأن يصبح عدد سكانها اليهود خلال خمس سنوات ٤٠٠ الف! **فهل، حقا، تحمل أي طعم أو معنى العبارة القائلة: "ينبغي أن لا تسيء الاتفاقات أو تؤثر بأي شكل على الحل النهائي"؟!**

الملحق الاول

"بروتوكول انسحاب قوات الجيش الاسرائيلي من غزه وأريحا والترتيبات الأمنية"

إن المادة الأولى والثانية من الملحق الأمني تتناول ما ينبغي تأسيسه من هيئات اسرائيلية – فلسطينية مشتركة لتقوم على كافة المتطلبات الأمنية التي تكفل تطبيق الاتفاق وحفظ الامن .. مكاتب، ولجان تنسيق وتعاون أمني مشترك، ودوريات مشتركة متنقلة ومتحركة .. وبنود تنص على تبادل المعلومات والاتصالات والفعاليات الامنية المشتركة، وكذلك عقد الاجتماعات ورفع التقارير..الخ. ومفهوم الامن الذي يتناولة الملحق، وكل الاتفاقات، هي صاحبة بعد واحد، **أمن الاسرائيليين** .. فعشرات الصفحات تتناول وبأدق التفاصيل متطلبات الأمن الاسرائيلي، ولم نعثر على أية مادة أو بند واحد يتحدث عن أمن الفلسطينيين؟!

الفلسطيني وحده هو الذي ينطوي على العدوان ويحمل المخاطر والتهديدات لأمن اسرائيل والأسرائيليين؟! وحتى تلجم نزعاته العدوانية،

ويصار الى تقييد يديه ولكي يؤمن الاسرائيليون ممتلكاتهم... الخ فأن الملحق الأمني جاء بمثابة صياغة اسرائيلية لمفاهيم ومقتضيات الامن داخل المناطق التي ينسحب منها الجيش، وحول كل ما يتصل بالشرطة الفلسطينية التي ستملأ الفراغ، حول مناطق الاستيطان والمنشآت العسكرية الاسرائيلية، وعلى مختلف الطرقات وخطوط التماس و "الحدود" والمعابر والممرات والبحر والجو ... وبشأن قضايا عديدة أخرى لا تقع تحت حصر.

وعندما سأعرض أدناه مقتطفات مما حواه الملحق الأمني أقدر انكم ستتفاجأون ولن تصدقوا أن الاتفاق يحوي ما سأورده... وسر عدم التصديق هو منطق "اللامعقول" – وفق مفاهيمنا ومعاييرنا– بأن الطرف الفلسطيني وافق على هذا الاتفاق.. ولنورد نماذج فقط مما تحويه المواد الاولى فقط .. فالطرف الفلسطيني ملزم وفق م٢/ب بتبليغ نظيره الاسرائيلي عن كل "*عمل أرهابي من أي نوع وأيا كان مصدره*" وكذلك وفق م٢/ب٦ عن أي "*تسلل عبر قطاع غزه ومنطقة أريحا*" .. و م٣ تلزم أية سيارة شرطة فلسطينية تريد المرور على الخط المركزي الجنوبي–الشمالي للقطاع [من بوابة رفح حتى أيريز] أن تبلغ قبلا الجهة الاسرائيلية المعنية حيث ينص البند الخاص (م٣/ب٥) على ان حركة مثل هذه المركبات على طول الطريق الشمالي–الجنوبي (المركزي) يمكن ان تتم فقط بعد إبلاغ مكتب "التنسيق المعتمد"! هذا في الوقت الذي لا يوجد فيه للفلسطينيين حق مماثل .. فالاسرائيليون بمن فيهم الجيش الاسرائيلي يحق لهم استخدام هذا الخط وكل الخطوط الرئيسية والفرعية داخل مناطق الحكم الذاتي دون إشعار مسبق للفلسطينيين؟! أما م٣/ب٤ فتحمل ما لا يمكنكم تصوره، عداكم عن تصديقه .. فبمقتضى هذا البند فأن أي فلسطيني لا يحق له أن يصبح ضمن قوة الشرطة الفلسطينية إلا بموافقة اسرائيلية ..، فالنص الحرفي للبند يقضي بأن "*قائمة الفلسطينيين المجندين سواء محليا أو من الخارج يجب الموافقة عليها من كلا الطرفين*"!! أي شرطة على المقاس الاسرائيلي وتحمل الختم الاسرائيلي؟!

وما جئنا عليه أعلاه هو "غيض من فيض" وسنرى لاحقا .. باقي بنود المادة ٣ تتعرض بالتفصيل لأنواع وأعداد الأسلحة والعتاد، وكذلك المركبات المسموح للشرطة الفلسطينية بحيازتها .. وهناك ملاحق فرعية لم تنشر بعد، تتناول آليات إدخالها وفحصها وتسجيلها ونقلها ...الخ.

المـــادة الرابعـــة

"ترتيبات أمنية في قطاع غزة"

إن الاحاطة الوافية بهذه المادة لا تتم إلا من خلال نشر الخرائط التي وقع عليها وهي جزء لا يتجزأ من الاتفاق .. لكنها لم تنشر بعد؟! والخرائط ليست ضرورية للاحاطة بهذه المادة فقط، بل بمواد عديدة أخرى من الاتفاق الأمني ايضا .. ولنتغلب على هذا النقص قد نضطر إلى شرح تفصيلي وإلى رسم خرائط تخطيطية مستوحاة من حدود فهمنا للمواد والبنود المعنية.

لقد رسم الملحق الأمني الخريطة الأمنية لقطاع غزه على النحو التالي:

١- "الخط المحدد"* .. وهو السياج (أو الجدار) الامني الذي أنشأه الاحتلال حول قطاع غزه (شرقه وشماله)، وهو لا ينطبق على "خط الهدنة" الذي كان قائما حول القطاع بين حربي ٤٨ و ٦٧، بل يتعدى على أراضي قطاع غزه في معظم امتداده .. والخط المحدد وفق الملحق الأمني سيبقى قائما طوال المرحلة الانتقالية وإلى ان تحل مسائل الحدود في الحل النهائي.

*(*أنظر الخارطة (أ) التي وضعناها من عندنا داخل المعتقل (أ١ + أ٢)).*

٢- "المحيط الأمني" ويقع داخل القطاع على مساحة ١٠٠ متر من "الخط المحدد" وبموازاته، والبناء في هذه المساحة محظور قطعا .. وإن كانت الشرطة الفلسطينية مسؤولة عن الأمن في هذا المحيط، إلا أن نشاطها ينبغي أن يجري بتنسيق مع الاسرائيليين.
[ويظهر "المحيط الأمني" في الخرائط المرفقة بالاتفاق باللون الأخضر].

٣- والمادة ٦ الواردة تحت عنوان "ترتيبات أمنية فيما يختص بالتخطيط والبناء وتقسيم المناطق" تضيف مفهوم آخر يسمى "المناطق الصفراء" [وتظهر بهذا اللون على الخرائط]، وبحكم أننا لم نطلع على الخرائط فلا نستطيع تحديدها .. ولكن ما يميز المناطق الصفراء عن غيرها من منطقة الحكم الذاتي هو أن المسؤولية الأمنية فيها ستبقى في يد اسرائيل، والمسؤولية المدنية فيها ستنتقل للفلسطينيين، لسلطة الحكم الذاتي.

٤- "مناطق القواعد العسكرية" الممتدة على طوال الحدود الفاصلة بين القطاع ومصر ستبقى بيد الاسرائيليين .. وتعتبر *قرية الدهينية جزءا من منطقة القواعد العسكرية*" وستبقى كذلك " *إلى حين إصدار عفو عام عن مواطني القرية واتخاذ التدابير لحمايتهم*"، وحتى بعد أن يصدر العفو الفلسطيني عنهم وبعد أن تتخذ تدابير الحماية فإن المسؤولية الأمنية عن قرية الدهينية وسكانها ستبقى بيد الاسرائيليين وما ينقل لأيدي السلطة الفلسطينية هو المسؤولية المدنية فقط .. أو حسب تعبير الملحق الأمني ستصبح القرية "جزءا من المنطقة الصفراء"؟!

٥- توضح م٦/ب٥ أنه "في مدى أل ٥٠٠ متر من المحيط الأمني" (أي الى مدى يبعد ٦٠٠ متر من "الخط المحدد" من داخل القطاع) وكذلك "في نطاق المناطق الصفراء" يحظر إقامة مبان أو مواقع إلا وفق الشروط التالية:

أ- "بناية أو موقع يمكن إقامة أي منهما على كل قطعة أرض بحيث لا تقل مساحتها عن ٢٥ دونما"!

ب- "ومثل هذه البناية أو الموقع لن يتجاوز طابقين، بمساحة لا تتجاوز ١٨٠ متر مربع لكل طابق"!

وكذلك على كافة الطرق التي تصل المستوطنات بالخط الأخضر - وهي ثلاث طرق رئيسية- فإن البناء غير مسموح قطعا على جانبها ولمسافة تمتد ٧٥ مترا من كل جانب (م٦/ب٦).

وهناك تحديدات مماثلة تماما في أريحا .. سيما على الطريقين الرئيسيين اللذين يشقانها، الشمالي الجنوبي (رقم ٩٠ في الخرائط) والشرقي الغربي.

٦- منطقة مواصي خانيونس، وأرصفة صيادي الأسماك في رفح وخانيونس، وعلى طول الطريق الساحلي هناك فإن السلطة العليا ستبقى للاسرائيليين -ويحدد الاتفاق ٣ طرق يحق للفلسطينيين اجتيازها للوصول إلى منطقة المواصي وشاطيء البحر ويضع الملحق الأمني تحديدات وضوابط على الفلسطينيين في استخدام الشاطيء، والمساحات المسموح استخدامها وحدود الاستخدام (للاستجمام)، كما يحظر البناء هناك إلا لمبان لها علاقة بحدود الاستخدام المسموح به (الاستجمام) وبتصريح اسرائيلي مسبق.

وتنص أخيرا م٦/ب٨ على إعطاء "***الولايات المتحدة وأقمارها الصناعية صلاحية مراقبة أية تجاوزات***".

"الأمن على طول الساحل البحري وبحر غزه"

تحت هذا العنوان صيغت المادة ١١ من الملحق الأمني، التي تضبط وتقيد حركة الفلسطينيين [صيادي أسماك ومستجمين وشرطة الساحل الفلسطينية] في مياه البحر المتوسط، وذلك من وجهة نظر الأمن الاسرائيلي .. وهذه المادة تستكمل رسم الخارطة الأمنية للقطاع في حدوده الغربية-المائية .. ونلحق بعرضنا هذا خارطة (من عندنا وتحمل رقم الخارطة (ب)) قد تساعد في توضيح الحال .. لقد قسمت المادة الخاصة في الملحق الأمني الساحل الواقع عليه القطاع إلى ثلاثة مناطق....

الأولى .. ويطلق عليها الحرف [K] وتمتد من الحدود الشمالية للقطاع حتى ميل ونصف داخله، و**الثانية** ويطلق عليها الحرف [M] وتمتد من الحدود الجنوبية (مع مصر) وحتى ميل داخل قطاع غزه .. والمياه المواجهة لهاتين المنطقتين يحظر على الفلسطينيين قطعا دخولهما – وهما منطقتي عمل لسلاح البحرية الاسرائيلية حصرا وقصرا .. و**الثالثة**، ويطلق عليها الحرف [L] وهي تقع بين حدود المنطقتين السابقتين .. وهذه المنطقة مسموح فيها، الصيد حتى عمق ٢٠ ميل بحري (عقدة) فقط، ويحق للصيادين استخدام قوارب لا تزيد قوتها عن ٢٥ حصان (إذا كانت ذات محركات خارجية) .. أما القوارب ذات المحركات الداخلية فلا ينبغي أن تزيد سرعتها عن ١٥ عقدة .. أما القوارب الترفيهية فمسموح لها داخل هذه المنطقة حتى عمق ٣ أميال بحرية فقط، وعلى أن لا تزيد قوة المراكب والقوارب الترفيهية عن ١٠ حصان .. ولا يسمح مطلقا بتشغيل دراجات بحرية ذات محرك، أو نفاثات مائية .. أما شرطة السواحل الفلسطينية فتعمل حتى عمق ٦ أميال داخل المنطقة [L] فقط .. ويمكنها أن تعمل ضد مراكب صيد فلسطينية مشتبه بها حتى عمق١٢ ميل ولكن بعد استحصال إذن من الجهة الاسرائيلية المختصة .. أما سلاح البحرية الاسرائيلية فيمكنه أن يعمل بحرية في كل مساحة المنطقة [L] وحتى الشاطىء .. وبالطبع لا يحتاج لإذن مسبق من أية جهة كانت، كما يمكنه أن يتخذ اجراءات "ضد أي مراكب يشتبه بها"، فقط مطلوب منه أن يبلغ الشرطة الفلسطينية بالاجراءات التي اتخذها، **وبعد اتخاذها لا قبل ذلك.**

"تملك الشرطة الفلسطينية ٨ قوارب بسرعة قصوى ٢٠ عقدة"، وكافة القوارب ينبغي أن تتزود وملاحيها برخص يتم التنسيق بشأن نموذجها ومعاييرها .. أي لن تكون شأنا فلسطينيا خاصا ومستقلا.

ميناء قطاع غزه

هناك موافقة إسرائيلية مبدئية على إنشاء ميناء، ولكن أمره ترك لبحث لاحق .. ولكن الاتفاق في ملحقه الامني يؤكد على قضيتين جوهريتين تفرغانه (اى الميناء) من قيمته حتى قبل أن يصار الى الاتفاق التفصيلي حوله:-

الاولى: تفيد بأن اجراءات الخروج والدخول عبر الميناء -للأشخاص والبضائع- ستكون مطابقة للأجراءات المتبعة في المعابر (اللنبي ورفح).

الثانية: ما يفصح عنها البند ٥ من المادة ١١ والذي ينص حرفيا على أنه "*لا يسمح للمراكب الأجنبية الداخلة الى المنطقة "L" بالاقتراب اكثر من ١٢ ميل بحري من الساحل*"، أي ينبغي أن تتوقف في عمق البحر بعيدا عن الساحل مسافة تصل إلى حوالي ٢٠ كم!!، فما هي إذن القيمة العملية، التجارية – الشحن والتفريغ – للميناء طالما ستتوقف المراكب بعيدا عن الساحل (وعن الميناء طبعا) مثل هذه المسافة التي يحددها الاتفاق، الأمر الذي يوحي بأن الميناء الذي أجازه الاتفاق هو صورة قريبة للموانيء (الألسنة) القائمة؟!. (نعني بها هنا الارصفة التي أنشئت في السبعينات على ساحل غزه وتمتد لأقل من عشرات الأمتار).

المادة الثانية عشر
"أمـن المجـال الجـوي"

فكما عليه شأن البحر والبر والطرق والحدود، فإن أجواء مناطق الحكم الذاتي هي الأخرى جزء من المجال الأمني الاسرائيلي .. وفي المفاوضات، وفي نتائجها [اتفاقيتي أوسلو-القاهره] ينعكس هذا الادعاء بجلاء، فتملي اسرائيل كامل مفهومها هنا أيضا.. لنجد أن كامل ما أباحت به للسلطة الفلسطينية (وللفلسطينيين بوجه عام) امتلاكه واستخدامه وسائط نقل جوي هو:

أ- طائرتا نقل هيليوكبتر لنقل الشخصيات المهمه خلال وبين قطاع غزة ومنطقة أريحا.

ب- طائرة واحده ذات جناح ثابت قادرة على حمل ٤-٢٠ شخصا فقط، لنقل أشخاص بين قطاع غزة ومنطقة أريحا.

كما وأباحت رحلات طيران بين القطاع ومصر على ظهر طائرة تتسع ل ٤٠ راكبا، أما القيود والضوابط على الاستخدام الفلسطيني فتتلخص في:-

*م١٢/ب٤: "جميع أنشطة الملاحة الجوية واستخدام الفضاء (من جانب الفلسطينيين) تتطلب موافقة مسبقة من اسرائيل".

* تراخيص الطائرات والطواقم يحصلون عليها من اسرائيل، أو من دول أعضاء في منظمة الطيران الدولي (فقط التي تربطها علاقات ديبلوماسية مع اسرائيل) شريطة أن تتم الموافقة على مثل هذه التراخيص من جانب اسرائيل.

* حتى الحرس الخاص الذي سينقل الطائرات لحراسة الشخصيات المهمة، وكذلك نوع أسلحته، يحتاجان لأجازة ذلك من قبل اسرائيل.

* أما "النشاط الجوي الاسرائيلي" -وفق المادة نفسها- "*سيبقى قائما في أجواء قطاع غزه ومنطقة أريحا*".

"التعامل غير المتماثل"

إن انعدام الندية بين طرفي التفاوض، والتسليم الفلسطيني المسبق بالفهم الاسرائيلي لمعنى الحكم الذاتي بأنه سلطة محلية في الاطار العام للاحتلال الاسرائيلي وأن هذه السلطة المحلية تخضع بدءا ومنتهى للمقولات الاسرائيلية: في السياسة والأمن، وفي القانون والاقتصاد، و...الخ انعكس على كل المخرجات -- أوسلو والقاهره وكل ما يتفرع عنهما .. إن منطق الخضوع للفهم والاملاء الاسرائيلي نراه يتحدد كخيط أحمر على امتداد كل صفحات الاتفاق، وسنلمسه (بل بدأنا نلمسه فعلا) في التطبيق: **سياط تلسع كرامتنا الوطنية وتسلب أمننا وتنهب ثرواتنا المحدوده أصلا وتصنع ألف قيد وقيد على حرياتنا الوطنية والانسانية.**

وتظهر هذه الحقيقة المره بشكل جلي فيما سنأتي عليه أدناه من ملاحظات على مَواد الملحق الأمني التي تحمل الأرقام: ٧ و ٨ و ٩.

المادة السابعة
نقـــــاط العبـــور

والمقصود بنقاط العبور تلك التي تفصل بين منطقتي الحكم الذاتي ومحيطها – المناطق المحتلة و "اسرائيل". فلدى دخول أي اسرائيلي (أو سائح مار عبر أسرائيل) لقطاع غزه أو أريحا لا يحتاج لحمل سوى هويته الاسرائيلية (أو جواز سفره ان كان سائحا) .. أما الفلسطيني الذي يريد دخول "اسرائيل" فيخضع "للقوانين والأوامر وللاجراءات الاسرائيلية التي تنظم عملية الدخول" .. وبمقتضاها عليه أن يحمل بطاقة هويته + الممغنط + كل الوثائق التي تحددها وتصدرها السلطات الاسرائيلية وتكون أبلغت بأمرها سلطة الحكم الذاتي .. وهذه الاجراءات تنسحب أيضا على الفلسطينيين لدى انتقالهم بين غزه وأريحا وبالعكس بحكم أنهم سيستخدمون طرقا اسرائيلية...

الاسرائيلي يحق له أن يدخل القطاع عبر سبعة معابر [إيرز، ناحال عوز، كارني، كيسوفيم، كيرم شالوم، إيلي سيناي وصوفا] أما الفلسطيني فيحق له المرور – بشكل رئيسي – عبر طريقين فقط [إيرز وناحال عوز].

الفلسطينيون المتوجهون لاسرائيل يخضعون لفحص وثائقهم ولتفتيش شخصي وتفتيش مركباتهم وأشيائهم .. أما الاسرائيليون المتوجهون لغزه عبر معبري إيرز وناحال عوز فيحق للحاجز الفلسطيني المقام على بعد من المعبرين سؤالهم فقط عن وثائقهم الشخصية .. ولا يحق له تفتيشهم شخصيا ولا مركباتهم ولا حتى مطالبتهم بالخروج منها .. أما الاسرائيليون المتوجهون لغزه عبر المعابر الخمس الأخرى فلا يحق للشرطة الفلسطينية إيقافهم أو سؤالهم حتى عن وثائقهم الشخصية .. حيث يقول البند د النقطة ٢ من المادة السابعة: "*لن يطلب منهم الخضوع لأي فحص أو تفتيش على هوياتهم أو أي شيء آخر*" .. أما البند ٦ من المادة ٨ فيتحدث عما يتمتع به من يرتدي بزه عسكرية اسرائيلية بصرف النظر عن نوع المركبة التي تقله أو يستقلها، وكذلك ما تتمتع به "مركبات قوات الجيش الاسرائيلي" بصرف النظر عن هوية وزي الأشخاص الذين تقلهم .. حيث يقول البند: "*أفراد بزي رسمي من قوات الجيش الاسرائيلي، إضافة الى مركبات قوات الجيش الاسرائيلي، لن يتم إيقافهم من جانب الشرطة الفلسطينية في أي ظروف، ولن يخضعوا لأي مطالب خاصة كتفتيش هوياتهم* .." وقد مر علينا قبلا، أن مركبة شرطة فلسطينية عليها قبل أن تصعد على الطريق المركزي للقطاع (رفح–غزه) أن تبلغ الجهة الاسرائيلية المختصة .. وقد انكشفت مؤخرا لدى سفر مهندس اتفاق القاهره السيد نبيل شعث من غزة لأريحا ما يحويه الملحق الفرعي الخاص بانتقال الشرطة الفلسطينية والشخصيات المهمه بين غزه وأريحا، من حق للاسرائيليين بتفتيش مركباتهم وتجريدهم (الشرطة والحراس) من أسلحتهم وإعادتها اليهم بعد أن يعبروا الى منطقة الحكم الذاتي الأخرى!!

المادة الثامنة
"إمتيازات إضافية لأبناء سارة"

تحمل المادة الثامنة من الملحق الأمني الواردة تحت عنوان "قواعد التصرف في المسائل الأمنية" إمتيازات أخرى للاسرائيليين الداخليين والمتجولين في مناطق الحكم الذاتي، كما وتنص صراحة على "حق التدخل" للسلطات الاسرائيلية في مناطق الحكم الذاتي أو ما تسمى ب "المنطقة الخاضعة للولاية الجغرافية للسلطة الفلسطينية" بهدف الملاحقة وحتى الاعتقال!!

أولا/الامتيازات الاضافية:

*م٨/ب٢ تقول: "*في المناطق الصفراء، وعلى الطريق الجانبية والطرق المتفرعة عنها، فإن المركبات التي تحمل لوحات ترخيص اسرائيلية لن يتم ايقافها .. وفي حالة إعاقتها أو تأخيرها من قبل الشرطة الفلسطينية لن يطلب من أصحابها إبراز وثائق تشخيص*" .. أي حتى التحقق من شخصياتهم طالما يستقلون "تمرة صفراء" محظور على شرطتنا!؟

*م٨/ب٣: في الخط المركزي بغزة الشمالي – الجنوبي، والخط الرئيسي في أريحا الشمالي–الجنوبي (الطرق رقم ٩٠ وفق الخرائط) فإن المركبة الاسرائيلية في الدورية المشتركة التي تسير على هذه الخطوط هي – وليست المركبة الفلسطينية – التي تفحص وثائق المركبات الاسرائيلية الماره على هذه الطرق.

أما السيارات الفلسطينية المارة على هذه الطرق فتخضع وثائقها ووثائق ركابها للفحص، كما تخضع السيارة وركابها للتفتيش من قبل المركبة الفلسطينية إذا ما أصرت بذلك المركبة الاسرائيلية في الدورية المشتركة .. ويخضعون لنفس الأمر على الحواجز الاسرائيلية التي يبيح الاتفاق إقامتها على عدة مفترقات [تقاطع طرق] واقعة بين مستوطنة

نتساريم وحتى مستوطنة ميراج .. ولكن التفتيش على الحواجز الاسرائيلية غير واضح من سيقوم به الاسرائيليون أم الفلسطينيون!؟

*م٨/ب٤-ب: " *الاسرائيليون - تحت أي ظرف من الظروف لذي يشتبه بارتكابه مخالفة يمكن أن يحتجز في مكان ما من جانب الشرطة الفلسطينية بينما يتم ضمان أمنه/ها إلى حين وصول دورية مشتركة أو وحدة متنقلة مشتركة يتم استدعاؤها فورا من جانب الشرطة الفلسطينية..*"

* ليس هناك أي بند على امتداد مساحة الاتفاق كله يحظر على الاسرائيليين حمل السلاح لدى دخولهم مناطق الحكم الذاتي وتجوالهم الحر بداخلها .. علاوة على أنهم وسياراتهم لا يخضعون في مطلق الظروف للتفتيش، ولا حتى للنزول من سياراتهم. وبالمقابل فقد حظر على الفلسطينيين حمل الأسلحة بدون ترخيص .. وحتى الموافقة المبدئية الاسرائيلية بإجازة حمل مسدسات مرخصة للاستخدام المدني لا تزال بعيدة عن الإجازة الفعلية، والتي ستكون موضع بحث لاحق .. حيث يقول البند الخاص بذلك: "اجراءات منح التراخيص وتحديد فئات الاشخاص يتفق بشأنهم بين الطرفين".

المادة التاسعة

تنتقص المادة التاسعة الواردة تحت عنوان "ترتيبات المرور الآمن بين قطاع غزة ومنطقة أريحا" من القيمة التي تتضمنها العبارة القائلة "بأن مناطق الحكم الذاتي تشكل وحدة جغرافية وأقليمية واحدة" .. عندما تنص أن الانتقال بين غزه وأريحا وبالعكس سيخضع لنفس قواعد واجراءات الدخول الى اسرائيل، بالنسبة للأشخاص والمركبات، مع تقييدات وضوابط إضافية .. وأن الطريق بين غزه وأريحا ستغلق كليا في ثلاثة أعياد اسرائيلية .. أما العكس - أي اغلاق منطقة الحكم الذاتي في وجه الاسرائيليين - فمن البديهي لن يكون تحت أي ظرف .. علاوة على ذلك، يفيد البند د/م٧ بأن "*بنود هذا الاتفاق (الخاص بالعبور) لن تحول دون حق اسرائيل، لاعتبارات الأمن والأمانة في اغلاق نقاط العبور إلى*

اسرائيل، وضع أو تحديد الدخول الى اسرائيل في وجة مواطنين ومركبات من قطاع غزه ومنطقة أريحا"!!

وأخيرا، فإن أحد بنود المادة التاسعة يفصح بوضوح ما مفاده: بأن الأشخاص غير المسموح لهم بدخول اسرائيل (لأية اعتبارات) من سكان قطاع غزه ومنطقة أريحا، لن يسمح لهم أيضا بالانتقال عبر اسرائيل من غزة ومنطقة أريحا وبالعكس – وسيسمح لأفراد منهم بعد دراسة طلباتهم ومشكلاتهم – كحالات فردية، بعد أن يرفعوها عبر السلطة الفلسطينية الى الجهة الاسرائيلية المختصة ..٪ واتضح مؤخرا، أن عليه أن يسلم طلبا بذلك قبل عشرة أيام كحد أدنى من موعد سفره.

ثانيا/"حق التدخل"

عند البند أ/٣ من المادة السابعة والقائل: "*حيثما تقوم السلطات الاسرائيلية بخطوات تدخل، فإنها تفعل ذلك شريطة نقل المعالجة المستمرة للحوادث الواقعة في نطاق المسؤولية الفلسطينية – وبأقرب فرصة – الى الشرطة الفلسطينية*" شعرنا بأن الاسرائيليين ثبتوا في الاتفاق لأنفسهم "حق التدخل" في مناطق الحكم الذاتي" وما أن ولجنا في المادة التالية حتى جوبهنا بالبند ٩ يحمل عنوانا مستقلا يثير القاريء على نحو خاص: "قواعد التدخل"!؟ وعندما فرغنا من قراءة النقاط الثلاث [أ،ب،جـ] التي يشتملها البند حتى **تبين لنا أن مفاوضنا سلم للاسرائيليين بحرية التدخل، وكذلك الملاحقة، وأيضا اعتقال فلسطينيين على خلفية "أمنية" من داخل مناطق الحكم الذاتي .. وأن زعيمنا وقع على منطق كهذا!! فهل زعيمنا يدري أم لا يدري أن اتفاق أيار (القاهره) يحمل بنودا كهذه!؟ بل الانكى، أن الاتفاق أباح "كملجأ أخير" للمطاردين الاسرائيليين إطلاق النار على فريستهم الفلسطينية بهدف "ردعه وليس قتله" وبهدف السيطرة عليه واعتقاله!!**

وحتى لا يقول أحد أننا نتجنى على أهل الاتفاق، فإننا سنورد النقاط المعنية حرفيا كما وردت في النص الأصلي للاتفاق.

ب٩/أ/المادة الثامنة: "*تحقيقا لهذه المادة فإن "التدخل" سوف يعني ردا فوريا على عمل أو حادث يشكلان خطرا على حياة أو ملكية بهدف منع مثل هذا العمل أو الحادث أو الحيلولة دونهما أو لأعتقال مرتكبيها*".

أفلا تجيز اسرائيل لنفسها تفسير ما تحته خط، بحقها في العمل الوقائي ومهاجمة أي فلسطيني في بيته داخل مناطق الحكم الذاتي للحيلولة بينه وإيقاع أخطار يخطط لها، واعتقاله؟!

ب٩/ب: "*في المنطقة الخاضعة للولاية الجغرافية للسلطة الفلسطينية .. فإن السلطات الاسرائيلية يمكن أن تقوم بخطوات تدخل في حالات يتطلب فيها العمل أو الحدث مثل هذا التدخل .. وفي مثل هذه الحالات، فإن السلطات الاسرائيلية سوف تتخذ أي اجراءات لازمة لانهاء مثل هذا العمل أو الحادث .. وفي أقرب فرصة نقل المعالجة المستمرة للحادث الواقع في نطاق المسؤولية الفلسطينية للشرطة الفلسطينية*".

أي مقابل حق التدخل الذي تتمتع به السلطات الاسرائيلية "في المنطقة الخاضعة للولاية الجغرافية للسلطة الفلسطينية" أو "في نطاق المسؤولية الفلسطينية" عليها أن:-

١- "*تتخذ أي اجراءات لازمة لانهاء مثل هذا العمل أو الحادث..*" وبسرعة.
٢- أن تبلغ ليس قبل التدخل، وانما بعد التدخل و "أثناء المعالجة المستمرة" الشرطة الفلسطينية!!

ب٩/ج: "*تدخل مع إستخدام اسلحة نارية لن يسمح به إلا كملجأ أخير بعد استنفاذ كافة محاولات السيطرة على العمل أو الحادث، مثل تحذير المخالفين أو إطلاق النار في الهواء .. واستخدام الأسلحة النارية يجب أن يهدف الى ردع المخالف وليس قتله .. وسوف يتوقف اطلاق النار حالما ينتهي الخطر*"..

يذكرنا هذا البند بقواعد إطلاق النار التي أصدرها رئيس الأركان في مواجهة الانتفاضة والمنتفضين، وربما أستعيد البند نفسه من التعليمات الصادرة للجيش الاسرائيلي؟!

المـــادة العاشـــرة
"الممـــرات"

ويعنى بها ممر رفح وممر/ اللنبي، وهذه الممرات استنادا الى مسؤولية اسرائيل عن الأمن العام والخارجي، ستبقى تحت المسؤولية الاسرائيلية بما في ذلك مسؤولية المراقبة والادارة وتشغيل الموظفين والعمال بمن فيهم الفلسطينيين.

"أسرائيل ستكون مسؤولة عن الأمن في جميع أنحاء الممر بما في ذلك المحطة" (ب٢/أ١) "مدير عام اسرائيلي سيكون هو المسؤول عن ادارة المحطة وأمنها" (ب٢/أ٢) وسيكون له نائبان واحد اسرائيلي وآخر فلسطيني (سيدير الجناح الفلسطيني) وسيكون "لكل نائب مساعد للأمن ومساعد للأدارة، ولكن تعيين النائبين الفلسطينيين مشروط بموافقة اسرائيل عليها، أو وفق تعبير الاتفاق "بموافقة الجانبين الفلسطيني والاسرائيلي"!

إن ما يمنحه الاتفاق الخاص بالممرات للفلسطينيين من حقوق لم تكن موجودة قبل الاتفاق مظهرية وجوفاء .. أو كما قال بيرس: **لنا السلطة الفعلية ولهم مظهر وجاهه!**

إن شيئا لم يتغير قط على صعيد أن لاسرائيل السلطة المطلقة في سماح أو حظر الدخول أو الخروج للأشخاص والأشياء، بمن فيهم سكان مناطق غزة وأريحا .. كما حفظ الاتفاق لاسرائيل حق اعتقال أي شخص (داخل أو خارج) ومن ضمنهم سكان منطقتي غزة وأريحا حتى بحجة أنه تصرف "بشكل يثير الاشتباه" .. يسحب للتحقيق في الغرف الاسرائيلية،

ومن ثم يودع رهن الاعتقال إن لم يدفع عن نفسه الشبهة خلال التحقيق معه!! وكل المطلوب من اسرائيل هو تبليغ الطرف الفلسطيني بأمر الاعتقال والسماح للطرف الفلسطيني بالالتقاء بالمعتقل!!

والتغيير الذي طرأ على تفتيش أمتعة الفلسطينيين من سكان غزه وأريحا، وتفتيشهم الشخصي، وفحص وثائقهم .. الخ هو تغيير شكلي .. إذ أن تفتيش أمتعتهم سيبقى قائما [ولكن لدى مرورها على منطقة التفتيش الخاصة بالاسرائيليين] وسيقوم بذلك الموظفون الاسرائيليون وكما يحق للاسرائيليين طلب تفتيش شخصي لأي فلسطيني يشتبه به "عند الباب الممغنط"، ويجري التفتيش في حجيرات التفتيش القريبة من الباب، ويقوم به شرطي فلسطيني في حضور شرطي اسرائيلي .. وبعدها "سيقوم موظف اسرائيلي بفحص وثائقهم وتدقيق هوياتهم بطريقة غير مباشرة وغير منظورة" [أي يراهم الموظف الاسرائيلي ولا يروه! وهذا بالنسبة لسكان غزه وأريحا]، أما للفلسطينيين الآخرين فتفحص وثائقهم بصورة مباشرة ومنظورة.

وبعد ان استعرضنا ابرز ما يحمله الملحق الأمني لاتفاق القاهره، فهل بقي ولو ظلال شك بأن اسرائيل صاغت هنا، أو أملت هنا، عبر ما يسمى بالملحق الأمني، كامل مفهومها للأمن الاسرائيلي، لأمن مجتمعها وجيشها ومستوطنيها ومصالحهم، القريبة والبعيدة، الانتقالية والاستراتيجية، وبالمقابل، صاغ الملحق الأمني الوضع الفلسطيني في منطقتي الحكم الذاتي والسلطة المحلية القائمة على هذا الوضع وكل الأشياء التي يتفاعلون معها من منطلق أنها باقية [واقعيا وقانونيا] في إطار الاحتلال .. تاركا (*من خلال القيود التي وضعها على السكان والسلطة المحلية الحريات التي منحها للاسرائيليين داخل مناطق الحكم الذاتي*) ان أمننا مهدد، مخترق، وقابل للتفجير وفق حسابات الاحتلال..

<u>وبعد قراءتنا للملحق الأمني يمكننا اذن أن نفهم لماذا كلفت الحكومة الاسرائيلية جنرالا اسمه "أمنون شاحك" ليرأس وفدها على</u>

امتداد فترات المفاوضات التي جرت في طابا والقاهره وحتى التوقيع عليه في الرابع من أيار ١٩٩٤م.

الفهـــــرس

تقديم ٣

المحور الاول ٦

تنشئة الشخصية اليسارية الثورية..... ٧

اليسار والاخلاق..... ٢٠

اليسار والعلاقات الحبية..... ٢٧

نقاط وعناوين تربوية..... ٣٨

اليسار والمرأة..... ٥٧

اليسار والديمقراطية..... ٦٩

اليسار والمسألة التنظيمية..... ٧٩

ما هو الحزب الطليعي..... ٨٢

المحور الثاني ٩٧

اليسار والنظرية الثورية – اعادة انتاج ام جمود..... ٩٨

رأي يساري حيال عوامل انهيار الأتحاد السوفييتي..... ١١٠

اليسار والثوره الوطنية – الديمقراطية..... ١٣٢

موقف يساري حيال الدين..... ١٤٤

مرة أخرى حول الدين..... ١٦٨

الحركة السياسية الاسلامية..... ١٧٤

اليسار والتكتيك التحالفي..... ١٩٥

رأي يساري في المسألة القومية..... ٢١٢

رأي يساري في المسألة الطبقية..... ٢٢٧

الفكر النظري وأشكال النضال..... ٢٤٦

المحور الثالث ٢٦٢

السياسات المتوقعة في ظل الحكم الذاتي وبرنامج المواجهة..... ٢٦٣

في السياسات مرة أخرى – دردشة..... ٢٧٤

في السياسة مرة ثالثة مستجدات وتساؤلات..... ٢٨٩

جواب على سؤال – ما هو مستقبل الثورة المعاصرة؟..... ٢٩٨

اليسار على حافة أزمة فما مآله..... ٣١٣

كلمة صريحة حيال الأزمة المالية التي تنخر عظام اليسار الفلسطيني..... ٣٣١

قراءة في أتفاق القاهرة..... ٣٥٥

بروتوكول أتفاق القاهرة حول الحكم الذاتي..... ٣٥٦

الخريطة ١/٩ - الحدود ومنطقة القواعد العسكرية

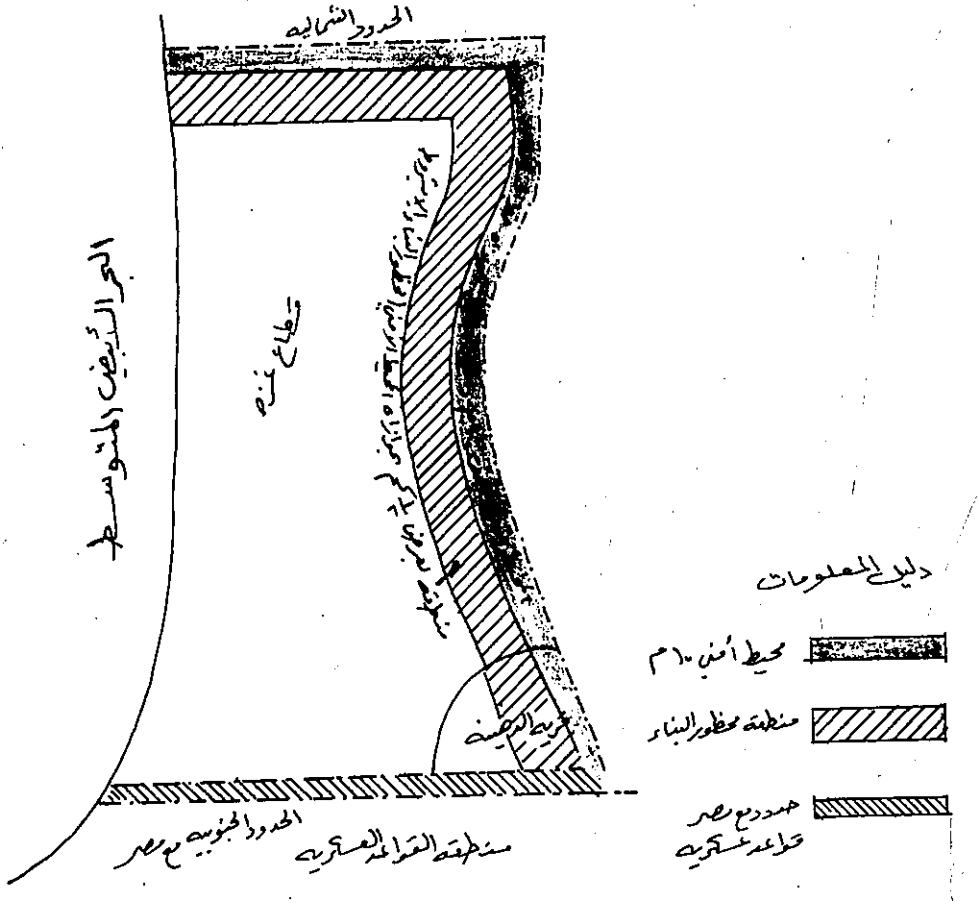

خريطه ٢/٢ - الطريق الرئيسي والطرق الرئيسيه للمستوطنات

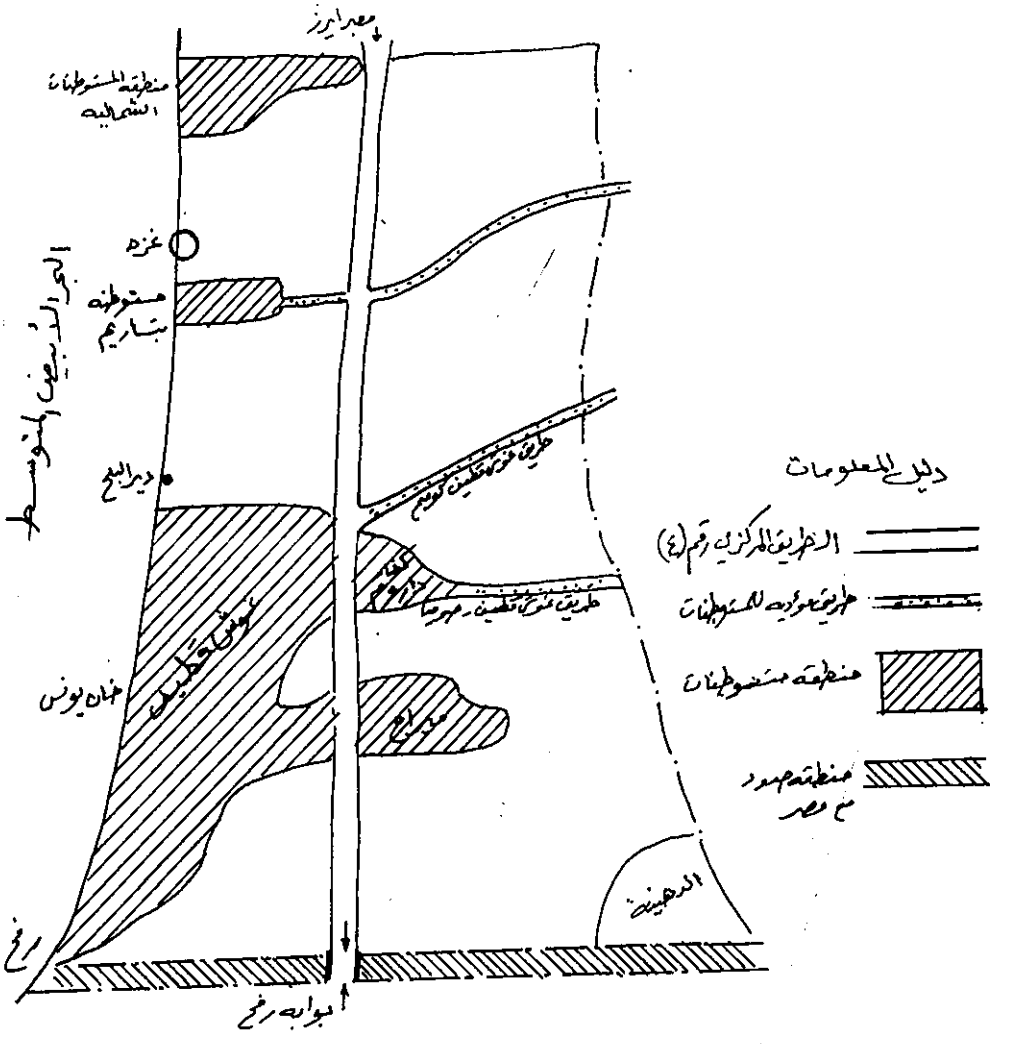

الخريطة (أ) - أمن المجال البحري